

التاريخ الإسلامي  
مواقف وعبر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانوني:
الترقيم الدولي:

دار الحكمة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية  
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

# التاريخ الإسلامي مواقف وعبر

(ما بعد الخلفاء الراشدين)

إعداد

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فقد سبق نشر الكتاب الأول من كتب التاريخ الإسلامى وموضوعه السيرة النبوية والكتاب الثانى وموضوعه «الخلفاء الراشدون» وهذا هو الكتاب الثالث وهو يشتمل على المواقف والعبر من تاريخ الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة المعاصرة لهم .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل ما دونه المؤرخون من تاريخ هذه الدول، وإنما المقصود ذكر ما يوافق عنوان هذا الكتاب وهو المواقف والعبر .

وقد سرت فى ترتيب هذا الكتاب على التنظيم الجَهَوِي، وذلك بذكر أحداث كل جهة فى عنوان واحد مرتبة على الترتيب الزمني .

وقد بدأت بذكر جهاد المسلمين مع الروم وذلك فى عهد الأمويين والعباسيين ومن أُلْحِقَ بهم والعثمانيين، ثم ذكرت جهاد المسلمين فى بلاد السند والهند فى عهد الأمويين والعباسيين وفى عهد الدويلات الإسلامية فى الهند، ثم ذكرت جهاد المسلمين فى المغرب وفى الأندلس، وكذلك الفتوح فى المشرق فى العهود المذكورة أو بعضها .

ويشتمل هذا الكتاب على موضوعات جهادية وإدارية وأخلاقية وتربوية .

### مصادر الكتاب:

لقد اعتمدت فى الكتابة عن هذه العهود على عدد من الكتب، من أبرزها «تاريخ الرسل والملوك» للطبرى، و«البداية والنهاية» لابن كثير و«الكامل فى التاريخ» لابن الأثير .

وقد سبقت ترجمة موجزة للطبرى وابن كثير فى الكتاب السابق «الخلفاء الراشدون»، وسأذكر ترجمة موجزة لابن الأثير .

## ابن الأثير:

هو المؤرخ العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني.

من أشهر مؤلفاته «الكامل في التاريخ» و «أسد الغابة في معرفة الصحابة».

قال عنه الحافظ الذهبي: كان إماماً علامة أخبارياً أديباً متفنناً رئيساً محتشماً.

وقال عنه ابن خلكان: كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء، اجتمعت به بحلب فوجدته مكملاً في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق.

توفي في شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٣٥٣ - ٣٥٦، البداية والنهاية ١٣ / ١٤٩ - ١٥٠.

**مواقف وعبر  
في  
جهاد المسلمين مع الروم**

الجهاد مع الروم  
فى  
عهد الأمويين

تقدم الكلام على مواقف فتوح الشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقي الإشارة بإيجاز إلى المواجهات القتالية المستمرة بين دولة الإسلام في الشام ودولة الروم منذ عهد عمر رضي الله عنه، فإن الحرب لم تهدأ لبقاء دولة الروم في كثير من ممالكها.

وبعد استقرار حكم المسلمين في الشام في أواخر عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فإن الروم أيسوا من عودة الشام إليهم فلم يفكروا في غزوه إلا في فترات اختلاف المسلمين وحدوث الفتن بينهم كما هو الحال في عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، حيث عزم ملك الروم على غزو الشام، فهدده معاوية رضي الله عنه بالعزم على الصلح مع علي رضي الله عنه ثم التوجه نحوه لتأديبه. وكذلك في عهد عبد الملك بن مروان حينما كان في قتال مع مصعب بن الزبير.

أما فيما عدا ذلك فإن المسلمين كانوا ينظمون الغزوات ضد الروم في أكثر السنوات صيفاً ويسمونهم الصوائف، وكان القصد من هذه الصوائف إضعاف دولة الروم وحماية دولة الإسلام، وكانوا أحياناً يطيلون الغزو ويتوغلون في بلاد الروم ويشتون بها، وقد بلغوا القسطنطينية عدة مرات.

\*\*\*



## جهاد الروم في عهد معاوية

### الغزوات الأولى:

غزا المسلمون بلاد الروم في عهد معاوية رضي الله عنه عدة غزوات قبل الغزوة الكبرى التي كانت بقيادة يزيد بن معاوية .

وقد ذكر المؤرخون هذه الغزوات باختصار، فمن ذلك أنهم ذكروا أن المسلمين غزوا بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم .

ثم غزوهم في سنة ثلاث وأربعين بقيادة بسر بن أرطأة .

ثم غزوهم في سنة ست وأربعين بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأقاموا فيها فصل الشتاء .

ثم غزوهم في سنة ثمان وأربعين بقيادة أبي عبد الرحمن القيني وأقاموا في الشتاء في أنطاكية<sup>(١)</sup> .

### غزوة القسطنطينية:

وبعد أن قام أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه بإرسال عدد من الجيوش في عدة سنوات رأى أن الفرصة مناسبة لبعث جيش كبير لغزو القسطنطينية بعد أن أضعف دولة الروم وبث الرعب في قاداتها وجنودها، فبعث جيشاً كبيراً بقيادة ابنه يزيد في سنة تسع وأربعين، وفيه عدد من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» أخرجه الإمام البخاري<sup>(٢)</sup> وكان ذلك الجيش أول من غزا القسطنطينية .

ومما جرى في هذه الغزوة ما أخرجه الإمامان أبو داود والترمذي من حديث أسلم أبي عمران التجيبي قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة

(١) تاريخ الطبري ٥ / ١٧٢ - ٢٣٢، البداية والنهاية ٨ / ٢٥ - ٣٤، تاريخ ابن خلدون / ٩ .

(٢) صحيح البخاري، رقم ٢٩٢٤، الجهاد (٦ / ١٠٢) .

عبد الرحمن بن خالد بن الوليد<sup>(١)</sup> والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه، مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله تعالى نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد.

قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية<sup>(٢)</sup>.

فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الهلاك الحقيقي هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام. ولقد قاتل المسلمون أعداءهم حول أسوار القسطنطينية، واستشهد أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه هناك، وقد أوصى قبل موته أن يقربوه ما استطاعوا من أرض الروم فدفنوه قريباً من السور<sup>(٣)</sup>.

ولم يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية هذه المرة لقوة أسوارها ومتانتها واستعداد الروم لتحمل الحصار لمدة طويلة، فعاد المسلمون إلى بلادهم، ولكنهم كسبوا من وراء ذلك إظهار قوة دولة الإسلام وأن باستطاعتها أن تغزوهم في عقر دارهم، وهذا يجعل الروم يرتدعون عن محاولة غزو بلاد الإسلام في حال ضعف الدولة الإسلامية.

\*\*\*

---

(١) يعني بذلك الجماعة الذين غزوا من المدينة، وفي رواية الترمذي: وعلى الجماعة فضالة بن عبيد.

(٢) سنن أبي داود، رقم ١٥١٢، الجهاد (٣/ ٢٧)، سنن الترمذي، رقم ٢٩٧٢، التفسير ٥/ ٢١٢.

(٣) انظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٢، البداية والنهاية ٨/ ٣٤ - ٦١.

## جهاد الروم في عهد عبد الملك وابنه الوليد

### الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك:

إن أهم المعارك الحاسمة بين المسلمين والروم في هذا العهد ما ذكره المؤرخ ابن أعثم الكوفي قال: وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم وأخذ الشام من أيديهم، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فنادى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم وهنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي؟

قال: فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك.

قال: فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكتب له أربعة كتب، كتاب منها إلى أبان بن عثمان - وهو عامله على الحجاز - أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم، وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخولاني - وهو عامله على اليمن - أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن، وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان - وهو عامله على بلاد مصر - أن يشخص إليه بنفسه في أجناد مصر، وكتاب إلى الحجاج بن يوسف أن يوجه إليه بأجناد أهل العراق.

ثم كتب أيضاً إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما<sup>(١)</sup>.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧ / ١٢٢، وهذا الكتاب للمؤرخ أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، وقد قال عنه ياقوت الحموي: «الإخباري المؤرخ وهو عند أصحاب الحديث ضعيف» - مقدمة الفتوح لابن أعثم / ب - وقد ذكرت في هذا الجزء جملة من أخبار الجهاد الإسلامي في بلاد الروم، ولا يؤثر في هذا القدر المنقول عنه كونه ضعيفاً عند أهل الحديث لأن هذا المنقول لا يترتب عليه أي حكم شرعي وإنما هو بيان لمواقف بعض التابعين الجهادية

هذا وإن كثرة هذه الجيوش التي حشدتها عبد الملك بن مروان من أنحاء بلاد الإسلام دليل على ضخامة الجيش الرومي الذي عمل الروم على تجهيزه لغزو بلاد المسلمين .

وإن ما جاء في خطبة عبد الملك هذه من التذكير بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته والاهتمام بالجهاد في سبيله ، وأن ذلك حصن الأمة الحصين وسبب رهبة الأعداء منهم ، وأن الإخلال بذلك سبب هوان أمة المسلمين على أعدائهم . . إن اهتمام عبد الملك بذلك يدلنا على الوجه الآخر لخلفاء المسلمين في عصورهم الذهبية الذي عتَمَ عليه بعض المؤرخين ولم يبرزوه بالدرجة الكافية بينما أبرزوا خلافات الولاة وحروبهم الداخلية وأنماط حياتهم التي تميل أحياناً إلى مظاهر الدنيا بقدر كبير من البسط والتفصيل .

إن هذه الخطبة وأمثالها تعتبر امتداداً لما اشتهر به عبد الملك من التفوق في العلم الشرعي حيث كان من أكابر طلاب العلم الذين تعمقوا في العلم على علماء المدينة النبوية ، كما تعتبر امتداداً لما اشتهر به في شبابه من العبادة حيث كان وإخوة له يرابطون في المسجد النبوي بين الصلوات للصلاة والذكر والتلاوة .

إننا لا ننكر أن من المؤرخين من يذكر ما للولاة من بعض المحاسن وما عليهم من المآخذ ، ولكن الاهتمام في ذلك كان في ذكر جوانب الإصلاح التي تتعلق برفاهية الأمة وتقوية أمنها ورخائها .

والذي ينبغي لفت النظر إليه إلى جانب ذلك ، الإشارة إلى مدى فهم أولئك الولاة للإسلام وتطبيقهم لأحكامه وآدابه ، ومدى صلتهم بالله تعالى وتذكرهم لعوامل النصر وعوامل الانهزام ، وعوامل التمكين في الأرض وعوامل الانهيار الحقيقية التي تقوم على تطبيق الإسلام في الأرض أو الإخلال بشيء من ذلك .

ومما ينبغي الإشارة إليه أخيراً ، الإشادة بدقة الرصد الحربى لدى المسلمين في عصورهم الأولى ، حيث علم عبد الملك عن عزم ملك الروم على غزو بلاد المسلمين بجيش كبير فأعد للأمر عدته واستعد لدفع البلاء قبل حلوله بما يتناسب مع حجمه وفي الوقت المناسب للقضاء عليه .

### قال ابن أعثم في روايته المذكورة:

فلما اجتمع الناس من جميع الأمصار قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب، ألا وإنى قد عازمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى «أليون» صاحب الروم فإنه قد طغى وبغى، وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعاً كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومُبددٌ شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه، وقد جُمِعتم من كل بلد، وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة، وأنتم من قام الله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابني مسلمة وقد أمرته عليكم فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور، قال فقال الناس: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين، قال: فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجاً عن مدينة دمشق في خلق عظيم.

قال: وخرج إليهم عبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك، فجعل على كل قبيلة من القبائل من ساداتهم يقتدون برأيه، ويتتهون إلى أمره، ثم قال لابنه: يا بني إني قد ندبتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش فجعلته لك شرفاً وذكرًا إلى آخر الأبد، فكن يا بني للمسلمين باراً رحيماً وأميراً حليماً، ولا تكن عنيداً كفوراً ولا مختالاً فخوراً، واعلم يا بني أن الروم سيلقونك بجيش كثير وجمع كبير، فثق بالله واستعن به وتوكل عليه، فكفى به ولياً وناصرًا، وانظر يا بني لا يهولنك ما ترى من جمع الروم وكثرة عددهم فإن الله تبارك وتعالى بفضله ومنه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومزلزل أقدامهم، ومعك يا بني بحمد الله خلق كثير، فإن عازمت على حرب عدوك فاجعل عمك محمد بن مروان على ميمتك، واجعل ابن عمك محمد بن عبد العزيز على ميسرتك، واجعل محمد بن الأحنف ابن قيس على طلائعك، وعبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان على جناحك واعتمد في حربك على البطال بن عمرو فإنه بطل شجاع مقدام [شجاع]<sup>(١)</sup> وانظر يا بني لا تكسل ولا تفشل ولا تجزع ولا تهلع، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ما

(١) هكذا وردت في الرواية ولم أجد لها معنى يناسب السياق إلا أن تكون «مُشَجَّع» بمعنى شجاع ولكن هذا الوصف ذكر قبل ذلك، والبطال اسمه عبد الله بن عمرو الأنطاكي.

أوصيتك به استوجبت من الله المقت، ومن عباده البغض، ومن ملائكته اللعن فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَكَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

قال: ثم أقبل عبد الملك بن مروان إلى الناس فقال: أيها الناس المسلمون أنتم إخواني وأعواني، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي، وقد رميت به في نحر العدو، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل، ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم، فأعينوه واعضدوه وقوموا معه، وانصروه إذا كسل، وشجعوه إذا فشل، وأيقظوه إذا غفا، وفهموه إذا هفا، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز، فإن أصيب فاخترأوا من أحببتم الأفضل فالأفضل، والخيار في ذلك إليكم، والسلام.

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبل بين عينيه وقال: السلام عليكم يا ولدي وقرة عيني وثمره فؤادي، فإن نفسي تحدثني أنني لا أراك ولا تراني بعد هذا أبداً، ثم بكى، وبكى الناس لبكائه، وودع الناس بعضهم بعضاً، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة، وذلك في أول يوم من رجب بعد صلاة الجمعة<sup>(١)</sup>، وعبد الملك بن مروان يشيِّعهم إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق، فأقاموا يومهم ذلك هناك، فلما كان من الغد ودعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه.

قال: وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزي الحسن والخيال العتاق والبراذين المطهَّمة حتى نزلوا بموضع يقال له «مرج دابق»<sup>(٢)</sup>.

قال: فلم يزل مسلمة هنالك نازلاً والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم، ووفاه الفتية المدنيون التائبون<sup>(٣)</sup>، وسيأتي خبرهم بإذن الله تعالى.

(١) يعني من سنة ست وثمانين كما سيأتي في سياق مواقف المعركة، وانظر الكامل ٤ / ١٠٦.

(٢) هي قرية قرب حلب بينها وبينها أربعة فراسخ - معجم البلدان ٤ / ٣.

(٣) الفتوح لابن أعثم ٧ / ١٢٣ - ١٢٥.

هذا وإن في خطبة عبد الملك هذه ووصيته لولده ولجنده مثلاً لما قدمت ذكره عنه من قوة ارتباطه بالله تعالى وإدراكه العميق لعوامل النصر المعنوية، ولا غرابة عليه في ذلك فهو من التابعين الذين نهلوا من علم الصحابة رضي الله عنهم وتلقوا التربية على أيديهم، ففي خطابه لجيش المسلمين يبين ما جمعه الروم لهم من الجموع الكثيرة ثم يحكم على نتيجة المعركة معهم بحسن الظن بالله تعالى وقوة الأمل في نصره لأوليائه وإهلاك أعدائه، وهذه بداية طيبة لتلك المعارك التي سيخوضها معهم المسلمون، حيث لم يعتدَّ عبد الملك بقوة جنده وحسن استعدادهم المادي، بل جعل الأمر كله بيد الله تعالى.

وفي وصيته لابنه مسلمة نجده يوصيه بحسن السياسة مع جنده حيث يذكره بالالتزام بمكارم الأخلاق التي تجعله محبوباً لدى جنده، فأوصاه بالبر الذي يصله بجنده، وبالرحمة التي تحجزه عن الظلم، وبال حلم الذي يملك به غضبه فلا يتصرف إلا بعقله السليم، ونهاه عن مساوئ الأخلاق التي تجعله مبغضاً لدى جنده، حيث نهاه عن العناد الذي يدفعه إليه الاعتداد بالرأي وعدم قبول مشورة أهل الخبرة، ونهاه عن كفر النعمة الذي يتمثل بعدم تقدير أهل الفضل، والإمساك عن شكرهم، وذلك يحجب عنه طاقاتهم الفعالة وقدراتهم المؤثرة فيضعف إنتاجهم ويكون الفشل سبيلهم وسبيلهم، ونهاه عن الخيلاء والفخر، لأن هذا الخلق السيئ يطمس من فكر الإنسان محاولة إدراك عيوبه والطموح نحو الكمال، حيث يكون الفكر مشغولاً بتلمس ما يرضي غرور النفس وإن كان سراباً لا وجود له في الواقع، إلى جانب كونه يحجب عن القائد نتائج فكر المفكرين من أتباعه، ويحدد علاقتهم به بنوع من المجاملة، والاكتفاء بأداء الواجبات الضرورية الظاهرة بشيء قليل من الكفاءة والطاقة.

إلى آخر هذه الوصايا التي من أبرزها نهي ابنه القائد عن الكسل والفشل والجزع والهلع، وتذكيره بأنه إن وقع في شيء من ذلك فقد استوجب المقت من الله تعالى، والبغض من عباده واللعن من ملائكته، وهو تأكيد مرة أخرى على لزوم الصلة بالله تعالى وتذكر عظمته ورقابته، وأن المعول عليه في جميع الأمور هو

طلب رضوانه واجتناب سخطه، وعلى ذلك يترتب طلب رضوان الملائكة والملتقين من عباد الله جل وعلا.

ومن أبرز تلك الوصايا تذكير الجند بنصر القائد إذا كسل وتشجيعه إذا فشل، وإيقاظه إذا غفا، وتفهمه إذا هفا، فالقائد لا كيان له ولا قوة إلا برقابة جنده ونصحهم إياه، وبذلهم كل طاقتهم معه في خدمة الهدف الأعلى الذي يجاهدون من أجله.

هذا وقد حصل ما توقعه عبد الملك من عدم لقائه بابنه مسلمة بعد ذلك اليوم حيث توفي عبد الملك بعد ذلك بشهرين ونصف في منتصف شوال من عام ستة وثمانين<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الكامل ٤ / ١٠٢.



## خبر الفتية التائبين

ذكر المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي - في سياق أخبار غزو المسلمين لبلاد الروم - خبر الفتية العشرة الذين كانوا في المدينة على شيء من المعاصي واللغو ثم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحاً وخرجوا مجاهدين في سبيل الله تعالى، وقد ذكر أسماءهم وما هم فيه من اللغو المحرم والمعاصي من روايته عن عيسى بن دأب إلى أن قال: وكان هؤلاء الفتية العشرة في كل نعمة سابعة لا يأتي عليهم يوم من الأيام إلا وهم أشد سروراً وأطول حبوراً من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشاً إلى بلاد الروم.

قال: وأراد الله عز وجل ما أراد من الخير، وأحب الله عز وجل أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الطاعة.

قال: فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ودعته نفسه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى يحيى بن عمرو القرشي، فعزم على ذلك وجعل يسره في نفسه ولا يذكر لإخوانه شيئاً مما قد عزم عليه، وهو مع ذلك يجالسهم ويحدثهم.

قال: فبينما هم ذات يوم على شرابهم ولغوهم إذ أخذوا شيئاً من تناسد الأشعار التي قد أحدثوها بينهم فجعل كل واحد منهم يقول شيئاً ويحيى بن عمرو والقرشي ساكت لا ينطق بشيء حتى فرغوا من نشيدهم فأحب أن يلقي إليهم شيئاً مما قد عزم عليه من أمر التوبة ونزوع عما هو عليه فأنشأ يقول:

قالت سلوتَ فقلتَ لست بجاهد      أنا والمهيمنِ ذي الجلال الواحد  
وسلختَ ودكَّ عن فؤادي مثلما      سلخَ النهارُ من الظلام الراكد  
قالت فعدُّ فالعود عندي أحمدُ      فأجبتها هيهات لست بعائد  
إني أخاف عذاب ربِّ سرمداً      تبدو فضائحه ولست ببائد

قال: فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو القرشي هذه الأبيات أنكروا ذلك منه إنكاراً شديداً بليغاً، ثم إنهم عَضُّوه بالسنتهم وعدلوه فأكثروا فيه من عدله ولومه، ثم قالوا: يا هذا قد سمعنا منك شيئاً نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا وتشيت ألفتنا، وإننا نناشدك في ذلك.

قال: فتبسم يحيى بن عمرو القرشي ثم حرك رأسه وأنشد:

إن في الله ما علمت سرورا      لا يُرى في حوادث الأقدار  
غير أنني تركت ذلك خوفا      وحذاراً من شرِّ عارٍ ونار  
فأنيبوا إلى الإله وتوبوا      كم إلى كم نقيم في الإصرار

قال: فلما سمع القوم ذلك أقبل عليه سليمان بن عمرو - يعني أخاه - فقال:  
والله يا أخي ما عدا جميعُ تكلمت به سويداء قلبي ولقد أخذ بمجامع قلبي وعقلي  
حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال بيني وبين لذتي، ولقد علمت أن  
الأمر كما ذكرت وأن الرغبة فيما رغبت، قال: ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول:

يا من يلوم موفّقاً      يدعو إلى إسعاده  
أبدى النصيحة إذ دعا      لم يأل في إجهاده  
لا تنكروا ما قاله      من بذله لرشاده  
فلقد أتى بنصيحة      موصولة بسداده

قال: فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو وميله إلى أخيه جعل بعضهم  
يقول لبعض: هذا ما كنا نحذره من تفريق الألفة وتكدير العيش، فعند الله  
نحتسب ما فُجعنا به منكما!

وهكذا استجاب لنداء الجهاد أحد هؤلاء الفتية العشرة وهو يحيى بن عمرو  
القرشي، ودبَّ الإيمان في كيانه، وسرَّت في جسمه الحياة كما يسرى الماء في  
العود اليابس، وتحوّل في لحظات إلى مؤمن تقي يتذكر ببالغ الأسى والحسرة  
ماضيه المظلم فيزيده ذلك إيماناً وعزماً على المضي في طريق الهداية.

ولكن أنى له أن ينعم بنوم أو يهدأ براحة وأصحابه الذين كان معهم في طريق  
الغواية مازالوا مرتكسين في هذا الطريق المعوج، ففكر كثيراً في أمر هدايتهم،  
وجعل هذا الأمر هو قضيته المهمة في حياته، وكان الأمل في هدايتهم يحدّوه إلى  
العمل على اجتذابهم، وهو على يقين بأن الله تعالى الذي حوّل قلبه إلى الهداية  
قادر على أن يحول قلوب أصحابه. . فقرر أن لا يقاطع مجالسهم، وأن يحضرها  
بروح الداعية المنقذ لا بروح المستمتع المداهن.

وإذا بإيمانه يدفعه إلى قول كلمة الحق التي سيغضب لها جميع أصحابه، ولم يُبال بما سيتتج عن ذلك من احتمال تعرضه للأذى على أيديهم، أو على الأقل محاولة هجره وإبعاده عنهم.

قال: ثم انصرف القوم من مجلسهم يومهم ذلك وهم مغمومون بأمر يحيى بن عمرو وأخيه سليمان، فلما كان في الليلة المقبلة اجتمعوا أيضاً فجلسوا، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال: يا إخوتي ويا أخلائي ومن تقرر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم، إنه ينبغي للراقد أن يستيقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته، ومهما شككتكم في شيء فلا تشكوا في الموت، إنه نازل بي وبكم، وأسأل الله تعالى العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم، والسلام، ثم أنشأ يقول:

دعوتكم للرشد والنصح جاهداً ومازلت للإخوان مُدّ كنت ناصحا  
فإن تقبلوا نصحي تنالوا سعادة وتأتوا طريقاً بينَ القصد واضحا  
ومن يترك القصد المنير طريقه يلاقي غداً ناراً ويخلد كالحا

وهكذا تبين لنا في هذا الخبر المؤثر الذي عاد فيه هؤلاء الفتية إلى رشدهم بعد أن ارتكسوا في الغواية، أن هداية رائدهم إلى الحق وهو يحيى بن عمرو القرشي كانت بعد سماعه نداء الجهاد، حيث أحيى الجهاد ضميره ونبهه من غفلته، فتحول إلى داعية هدى يحاول إنقاذ أحبته من الهلاك الذي كان مشاركاً لهم فيه.

وبهذا نلمس فائدة مهمة من فوائد إحياء الجهاد في سبيل الله تعالى، حيث يتنبه الغافلون والسادرون في لهوهم إلى ما تعانیه أمتهم، وما يُحدق بها من خطر الهلاك والذلة على يد الأعداء، فتَحْيَى في نفوسهم معاني التحدي للأعداء، والحفاظ على مجد الأمة وعزها المتمثل في بقاء دينها ودولتها.

وحينما يقارن اللاهون العابثون بين وضعهم المزري وقد تعجلوا نصيبهم من النعيم في حياتهم الدنيا ونسوا آخرتهم، وبين وضع المجاهدين الذين طلقوا الدنيا ورفضوا متاعها الزائل، غيرةً على آخرتهم، وحرصاً منهم على رفعة درجاتهم في الجنة.. حينما يقارنون بين هذين الوضعين تسري في كيانهن روح قوية تعصف بهن، فتجعلهن يترفعون عن الدنيا التي كانوا يعتبرونها قوام الحياة وبهجتها،

وتطمح عقولهم نحو رضوان الله تعالى ونعيم الجنة، فيرون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يُقدِّموا أرواحهم فداءً لدينهم وإخوانهم المسلمين.

وهكذا فعل هؤلاء الفتية بعدما هداهم الله تعالى، حيث شاركوا في معركة فتح «طوانة» وكانوا عاملاً مهماً في الفتح، وقدموا أرواحهم جميعاً شهداء في سبيل الله تعالى.

هذا ولو نظر السادرون في غيهم اللاهون عن حماية أمتهم ومستقبلها. . لونظروا إلى مصلحتهم الدنيوية المستقبلية فضلاً عن الآخرة لهبوا سراعاً للدفاع عن بلادهم ودولتهم، لأن التمتع الذي يعيشون فيه في ظل الأمن والرخاء القائمين على استقرار الدولة وانتصارها على الأعداء سينقلب رأساً على عقب حينما يستولي الأعداء على دولة الإسلام ويتخذون المسلمين عبيداً لهم.

إن هؤلاء الذين يستمرون في لهوهم ولا يشاركون أمتهم في البناء والحماية والدفاع يشبهون من يعيش في بستان يجني منه ما لذ وطاب وهو يشاهد حريقاً هائلاً على مسافة منه ويتوقع عقلاً أن يصل إليه ليحرق في بستانه الأخضر واليابس، وهو مع ذلك غارق في متعته ولهوه ولا يشارك في صد هذا الحريق الذي أفنى ما حوله. . فهل يُعتبر هذا من العقلاء؟

فكيف الحال إذا كان بالجهاد في سبيل الله تعالى مستقبل الدنيا والآخرة؟ وهل تُوضع الدنيا بكل ما فيها من نعيم في ميزان مع الآخرة؟! هذا وإننا لنجد في الأسلوب التربوي الذي سلكه يحيى بن عمرو القرشي دلالة على تفوق ذلك المجتمع من الناحية التربوية. . هذا التفوق الذي كان نتيجة لعلو كعب العلماء آنذاك في الدعوة والتربية، فهو لما هداه الله جل وعلا لم يقاطع رفاقه الذين تحولوا في عينه بعد الهداية إلى رفاق سوء، بل جعل أكبر همه أن يحاول إنقاذهم من مواطن الهلاك وأسباب الشقاء.

وبالرغم من كونهم لاموه وعنفوه وشدّدوا النكير عليه. . وبالرغم من هفوتهم الظاهرة حيث ناشدوه الله تعالى أن يقرهم على باطلهم وأن يسكت عن دعوة الحق

فإنه لم يغضب، ولم يُشغل نفسه في رد باطلهم أو الدفاع عن نفسه، وإنما ركز في أبيات من الشعر على إيقاظ ضمائرهم التي لا يزال فيها بقية من حياة، وذلك بتذكيرهم بمصيرهم بعد الموت، وكان لهذا المنهج القويم أثر ظاهر في هداية من اهتدى منهم، ثم سلك إخوته الذين هداهم الله تعالى هذا المنهج نفسه مع بقية المجموعة كما سيأتي.

قال عيسى بن دآب راوي الخبر: ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال: يا إخوتي ومن قد عظمت حقوقهم عليّ، وايضت أيديهم عندي، إنكم قد علمتم ما افترقنا عليه في ليلتنا الماضية، وما دعاكم إليه أخي يحيى بن عمرو الناصح لكم الشفيق عليكم، فإن تجيئوا إلى التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحظكم أصبتم، وإلى الخير أجبتهم، وإن تقيموا على ما أرى من لغطكم واتباعكم أهواءكم فإني أسأل الله لكم التوفيق - والسلام.

ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول:

سألت إلهي أن يؤلف بيننا	على الخير كالتأليف في سائر الدهر
فقد عشتُ عصراً وعصراً وإننا	لفي غمرة جهلاء نهوي وما ندري
نُلجّج في بحرٍ سكارى بحيرة	فحتّى متى لسنا نفيق من السكر
وتوبوا تنالوا جنة الخلد إنما	ينال جنان الخلد من كان ذا صبر

قال: فلما سمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحيى وسليمان بن عمرو واستحكم قولهما في قلبه أعجبه ذلك، ثم قال: لقد علم من أُعِين عقلاً وأحضرهما أين موضع الحق - والسلام.

ثم أنشأ يقول:

لعمري لئن بعت الهداية بالعمى	وآثرت غير الحق إني لخاسر
أأترك حظي بعد إذ أنا قادر	على أخذه والحق فيه بصائر <sup>(١)</sup>
سأجبر نفسي عن هواها وغيها	بصبر قويّ الحزم والحر صابر

---

(١) يعني هل أترك حظّي من نعيم الآخرة وأنا قادر على أخذه بالعمل الصالح في الدنيا؟!

قال: فلما سمع القوم مقالة بشر بن مطر الأزدي غمَّهم ذلك غمًّا شديدًا، ثم أقبل هارون بن الحصين على أصحابه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أعظم الرزية بفرقتكم، وأجلَّ المصيبة بتباعدكم! والله ما أظن هذا الأمر إلا مشئتًا جماعتنا، مكدرًا علينا صفو عيشنا، لأن الذي دعوتنا إليه من مزايلة ما نحن فيه شديد، وهو أثبت وأرسخ من أن يزيله العظاات أو يقلعه الصفات.

قال: ثم افترقوا أيضًا ليلتهم مغمومين.

وهكذا وجدنا هؤلاء الثلاثة الذين هداهم الله حريصين على هداية رفاقهم بالكلام المؤثر نشرًا وشعرًا مع التركيز على ترغيبهم بالجنة وترهيبهم من النار، وآخرين من المجموعة كانوا يقومون بدعوة مضادة للبقاء على ما هم فيه من اللهو والمعاصي.

ولكن الله تعالى أعان دعاة الخير منهم بالرؤى الصالحة التي أراها اثنين من رفاقهم كان لها الأثر في هدايتهم.

يقول عيسى بن دأب في سياق روايته: فلما كان في الليلة الثالثة اجتمعوا، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال: يا إخوتاه اسمعوا عني كلامي وتدبروا بعقولكم فقد أتيتكم بأعجوبة، فقالوا: هات ما بدا لك، فقال: اعلموا أنني فارقتكم الليلة وصرت إلى منزلي [فأرقت<sup>(١)</sup>] أرقًا شديدًا، حتى إذا كان قبيل الصبح أغفيت إغفاءة فإذا أنا بآت قد أتاني في منامي وهو يقول هذه الأبيات:

يا تارك القصد بعد معرفة	وسالكًا غيره من الطرق
يحيى وأصحابه على رشَدٍ	كما جلا الليل ساطعُ الفلق
فلا تكوننَّ كالمقيم على	دَحْضٍ مَزَلٍّ أشفى على غرق

قال: فلما سمعت ذلك استيقظت فزعًا مرعوبًا حتى كاد الخفقان أن ينزع قلبي حتى سكَّني من كان بحضرتي.

---

(١) ليست في الأصل.

قال: فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، فقال: يا أخي فكأني والله وإياك إنما كنا على أمر واحد غير أن الألفاظ مختلفة، وذلك أني قمت عن المجلس حين افترقنا بالأمس وبني من الحرقة<sup>(١)</sup> والأسف لتشتت الفرقة ما لا أبلغ وصفه حزناً على إخواني، وما رأيت من مفارقتهم لنا ونقضهم علينا ما نحن فيه من الألفة والمودة، فأتيت إلى منزلي، وظللت عامة ليلي أدير عيني على الغمض فلا أقدر على ذلك، فبينما أنا كذلك بين النائم واليقظان إذ أنا بهاتف يهتف بي وهو يقول:

يا خائضاً في غمرة الجهل      وحائداً عن واضح السبل  
لست على شيء فلا تكذبني      في راجع التوبة في مهل  
من قبل يوم معظّم هائل      يُشيب رأس الموضع للطفل  
فلما سمعت ذلك استيقظت وما معي شيء من عقل، فهذا والله يا إخوتي ما رأيت.

فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض: كيف حتى خُصَّ محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهؤلاء الهواتف من بيننا؟ هذا سيكون لنا نبأ.

قال: ثم أقبل سعيد بن إسماعيل الأسدي على محمد بن زرعة وهو يقول:

لولا الذي أضمرت من غدره      ما راعك الهاتف إذ يهتف  
خُصصت بالهاتف من بيننا      مالك في قولك لا تنصف  
والله رب العرش يا إخوتي      فإنني مجتهداً أحلف  
لاخنت من أهوى ولا شتمته      جهرا ولا مثلي به يوصف  
قال: ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمي وهو يقول:

أبلاًحلام أسلو عن هواي      لأقوام أتوا بالترهات  
أتونا يزعمون بأن آتٍ      أتى بنصيحة عند البيات  
يحضُّهم على هجر وغدر      وقطع الحبل منا والشئات

(١) في الأصل الفرقة.

فمن يك راغبًا عن وصلٍ إلفٍ      فلست براغب حتى الممات  
قال: وتفرق القوم أيضًا ليلتهم تلك وقد وفق الله عز وجل للتوبة خمسة نفر:  
ابني عمرو وبشر بن مطر الأزدي ومحمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن عبد الكريم  
الأنصاري، وبقي منهم خمسة: هارون بن الحصين وأحمد بن الحصين وعبد الله  
ابن عمرو الطائي وسعيد بن إسماعيل الأسدي وأحمد بن محمد اليشكري<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا مثالا من المعركة الدائرة بين العقول السليمة وهي تنادى أصحابها  
بالعودة إلى طريق الهداية، وبين العواطف المتأججة وهي تنادي بالبقاء على طريق  
الغواية، حيث بات اثنان من هؤلاء الفتية بشرًا ليلة من القلق والأرق، حتى منَّ  
الله تعالى عليهما بمن أنقذهما من حيرتهما، وحسم تلك المعركة لصالح العقول  
السليمة.

ولا ريب أن البقية - وإن أظهروا بشيء من التعصب بقاءهم على غوايتهم -  
يعانون من هذه المعركة، ولكن لم يكن حان وقت هدايتهم وانتصار عقولهم  
السليمة على عواطفهم المنحرفة.

ولم ييأس هؤلاء الذين تابوا من هداية أصحابهم، بل ظلوا يدعون الله تعالى  
لهم ويحاولون معهم ذلك بشيء من الجهد المنظم، حيث تولى كل واحد منهم  
الكتابة لواحد من أولئك إلى أن هداهم الله تعالى.

يقول عيسى بن دأب: وجعل هؤلاء الخمسة الذين قد تابوا يدعون الله  
ويتضرعون في أن يرجع<sup>(٢)</sup> بقلوب إخوانهم إلى ما هم عليه من التوبة، فلم يزالوا  
كذلك إلى أن استجاب الله منهم دعاءهم في إخوانهم وأقبل بقلوبهم إلى طاعته.

قال: وكتب هارون بن الحصين إلى يحيى بن عمرو القرشي بهذين البيتين:

نفسى الفداء لمن جلّى الإله به      عنّا العمى ووقاه مورد التلف  
قد كان ما بيننا في الدين مختلفا      فاليوم نحن جميعا غير مختلف

(١) الفتوح لابن أعمش ٧ / ١٢٧ - ١٣٠.

(٢) في الأصل يراجع.



قال: ثم كتب أخوه محمد بن الحصين إلى سليمان بن عمرو أيضاً بهذين البيتين:

أَتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ يَقُومُ نَصَحُهَا أَوْدِي  
فَجِئْتُكَ تَائِبًا فِي الْيَوْمِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ غَدِ

قال: ثم كتب أحمد بن محمد اليشكري إلى محمد بن زرعة العبدى بهذين البيتين:

لَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابًا مِنْكَ هَيَّجَنِي يَدْعُو إِلَى اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا  
أَجَبْتُهُ وَدَعَوْتَ اللَّهَ مَجْتَهِدًا كَيْمَا<sup>(١)</sup> نَكُونَ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَعْوَانًا  
قال: ثم كتب سعيد بن إسماعيل الأسدي إلى يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري بهذين البيتين:

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ فِيهِ مَوَاعِظُ تَحْضُ عَلَى خَيْرٍ وَتَدْعُو إِلَى رَشْدٍ  
فَأَبْصَرْتُ مَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْهَدَى وَفَارَقْتُ مَنْ أَهْوَى عَلَى أَجْهِدِ الْجَهْدِ  
فلما وصلت هذه الأبيات من هؤلاء الخمسة إلى إخوانهم فرحوا لذلك واستبشروا، واشتدَّ سرورهم، ثم إنهم ابتهلوا إلى الله عز وجل في أن يُقَوِّي عزمهم على ما عزموا عليه من التوبة، فاستجاب الله لهم ذلك.

قال: ثم إنهم تواعدوا أن يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم بعضاً، فاجتمعوا في مشربتهم تلك، قال: وهي مشربة معروفة بالمدينة يقال لها مشربة التوبة، وهي مشربة على العطارين بالمدينة، قال: فلما اجتمعوا هنالك [تعانقوا]<sup>(٢)</sup> وبكى بعضهم إلى بعض لطول الفرقة وما كانوا عليه من التباعد، وحمدوا الله تعالى على ما أَلَّفَ من التقوى وسألوه التوفيق والعصمة مما هم فيه. وهكذا تمت توبة هؤلاء الخمسة، واجتمع شمل الفتية العشرة على الهدى وطاعة الله تعالى، بعدما كانوا يجتمعون على الضلال ومعصية الله جل وعلا.

(١) في الأصل كما.

(٢) في الأصل اعتنقوا.

ولقد كان أولئك الخمسة الأوائل أوفياء لإخوانهم، حكماء في دعوتهم حيث قاطعوا مجالس اللهو، وظلوا على صلة بإخوانهم الذين مازالوا في غوايتهم عن طريق المكاتب الفردية.

ولا شك أن الإنسان حينما يخلو لنفسه، ثم يتلقى في تلك الحال كتابا يخاطب عقله، ويدعوه إلى رشد، فإن النفس تكون أكثر ميلا إلى الهدى وقبولا لنداء الحق، ذلك لأن العاطفة آنذاك تكون خامدة، وليس لدى الإنسان ما يُثير كَوَامن النفس في اتباع الهوى، لبعده عن مجالس اللهو ورفقة السوء، فينفرد العقل بتدبير النفس، فإذا كان لدى الإنسان بقية من إيمان وقابلية لسلوك طريق الخير فإن العقل يقود النفس إلى رشدها.

وكم للرسائل الخاصة في تاريخ الدعوة من أثر بالغ، ونتائج مثمرة في مجال الهداية والالتزام بالطريق المستقيم!

وهل كان إسلام بطل الإسلام خالد بن الوليد إلا من أثر كتاب بعثه إليه أخوه الوليد، يذكر فيه إشادة النبي ﷺ به ورغبته في إسلامه؟

ثم لا ننسى دعاء أولئك الشباب الخمسة لإخوانهم في ظهر الغيب، حيث كان بعضهم يوصي بعضاً بالدعاء لهم بالهداية.

ولا شك أن وضعهم وهم يحترقون أسى على إخوانهم إذا تصورا الجنة وحرمان إخوانهم من نفح نعيمها، وتصوروا النار وتعرضهم للفتح جحيمها. لا شك أن قلوبهم والحال هذه ستكون حاضرة مع الله تعالى بكل مداركها وتصوراتها، والله سبحانه وتعالى كريم رحيم، لا يرد دعوة صادقة صادرة من قلب متلهف عظيم الرجاء قوي الأمل بعطفه وكرمه.

أولست قلوب العباد بيد الرحمن جل جلاله يصرفها كيف يشاء؟ ثم أليس الدعاء الصادق سبباً في تحويل القلوب من الغواية إلى الهداية؟ إن الدعاء الخالص وسيلة اتصال عظمي تقطع حجب الليل البهيم وتجاوز طبقات الفضاء العالية لتصل إلى مدبر الكون جل جلاله فيكون بهذا الدعاء هداية الحيارى، ونصر المظلومين، وكشف الكربات، وغير ذلك من صنوف القضاء، المترتبة على الدعاء.

فهذا الخبر نموذج صالح للدعوة إلى الله تعالى، ويشتمل على فوائد جلية:

منها أن من كمال الهداية أن يسعى المهتدي لإنقاذ أصحابه الذين كان معهم، لأن أمر هدايتهم متعين عليه، حيث إنه أعرف الناس بحالهم، وأقدر الناس على مخاطبتهم والتأثير عليهم.

ومنها أن المهتدي عليه أن لا ينظر إلى الذين مازالوا على الغواية نظرة استعلاء واستخفاف، بل عليه أن ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف، وأن يحاول إنقاذهم من الهلاك الذي وجَّهوا أنفسهم نحوه.

ومنها أن لا يكتفي الداعية بمحاولة واحدة في هذا المجال، بل عليه أن يكرر المحاولات، وأن ينوع الأساليب التي يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه السامي.

هذا وبعد اجتماع أولئك الفتية على الهدى وجَّههم رائدهم يحيى بن عمرو القرشي إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وخرجوا إلى الشام استجابة لنداء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي أمر بجمع الجيوش من بلاد الإسلام لغزو الروم كما سبق.

ووصل هؤلاء الفتية إلى جيش المسلمين المرابط بمرج دابق بقيادة مسلمة بن عبد الملك.

ولما سار الجيش الإسلامي لجهاد الروم سار معهم هؤلاء الفتية، وشاركوا في معركة طُوأنة التي تم بعدها فتح هذه المدينة، وقد ذُكر من أخبار هؤلاء الفتية أنهم كانوا في مقدمة من برز لأبطال الروم، وقد جاء بالتفصيل ذكر ما جرى من بعضهم كما جاء في رواية عيسى بن دأب حيث قال عن جهاد أحمد بن الحصين التميمي:

ثم حمل على العليج - يعني الرومي - فضربه ضربة على فخذة فقطعها فسقط العليج ميتاً، قال: وإذا بعلج آخر يقال له بولص قد بدر إلى أحمد بن الحصين، قال: فنظر إليه أحمد فقصد نحوه وهو يقول:

دونك حرباً لا تقييه تُرسي صبراً على المكروه مني نفسي  
كيما أنال منزلاً في القدس فإنما الدنيا كيوم أمس  
قال: واختلفا بطعتين، طعنه العليج في خاصرته فجندله قتيلاً - رحمه الله - .  
قال: فلما قُتل هارون بن الحصين<sup>(١)</sup> وأخوه أحمد، خرج من بعدهما سعيد بن  
إسماعيل الأسدي نحو ذلك العليج وهو يقول:

يا بولص الروم إليك نفسي قد طال في ظل الخطايا حبي  
اليوم أحمى إخوتي بالحمسي كيما يكون بطن سبغ رمسي<sup>(٢)</sup>  
قال: والتقيا بضربتين، ضربه الأسدي ضربة جندله قتيلاً .  
قال: وخرج من بعده عليج آخر يقال له قسطنطين الأصغر، قال: فقصدته  
الأسدي وهو يقول:

يا أيها الداعي إلى الجلال في حومة الأبطال والأنجاد  
أناك ليث سلس القياد ذو صولة يكرهها الأعادي  
ثم تطاعنا برمحيهما فلم يصنعا شيئاً، وتضاربا بسيفيهما فلم يصنعا شيئاً،  
فاعتق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما إلى الأرض، فشد عليه  
العليج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله - رحمه الله - .

قال: وخرج من بعده يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري نحو قسطنطين هذا  
العليج وهو يقول:

لتذهبن اليوم نفسي أسفا إذ كنت بعد خمسة مخلفاً<sup>(٣)</sup>  
قد نلت من لذة عيشي ماصفا حسبي الذي عانيت حسبي وكفى

---

(١) يعني التميمي وهذا دليل على أنه استشهد قبل أخيه أحمد .

(٢) يعني أحبيهم بالقوة لاستشهد فيكون جسدي في بطون السباع .

(٣) هذا يدل على أنه قد استشهد خمسة من هؤلاء الفتية، وقد ذكر منهم هارون بن الحصين التميمي وأخوه  
أحمد وسعيد بن إسماعيل الأسدي وهذا يدل على سبق استشهد يحيى بن عمرو القرشي وأخيه  
سليمان .

ثم حمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله، ثم وقف ودعا إلى المبارزة فلم يخرج إليه أحد، وكاعت الروم بعد قتل قسطنطين.

قال: وجعل مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين يتعجبون من إقدام هؤلاء الفتية على الموت، وصبرهم على الحرب، وكل واحد منهم يتلو صاحبه.

قال: والتفت بشر بن مطر الأزدي إلى إخوته الذين بقوا معه: يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، وأحمد بن محمد اليشكري، ومحمد بن زرعة العبدي، فقال: يا إخوتي إنه قتل منا خمسة ومضوا لسبيلهم، ونحن ههنا أربعة، ونرجو أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله<sup>(١)</sup>، ولكن هل ترون ما أرى؟ فقالوا: وما ترى يرحمك الله؟ فقال: و يحكم إني رفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجباً عجيباً، وذلك أنني رأيت رجالاً لم أر مثلهم ولا مثل صورتهم ساعة قط، ومعهم خيام بيض لم أر على حسنهما شيئاً، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين قُتلوا، فهذا ما رأيته.

قال: فعند ذلك اقشعرت جلود القوم، ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ما شوقهم إليه صاحبهم بشر بن مطر الأزدي، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على إخوانهم، وجعل بعضهم يقول لبعض:

إنه يجب علينا الآن أن لا نقصّر في جهاد هؤلاء القوم الكفار، فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته.

قال: فكان أول من تقدم منهم إلى الحرب يومئذ بشر بن مطر الأزدي، وهو الذي رأى ما رأى، فجعل يرتجز ويقول أبياتاً مطلعها:

من كان في شك وفي تعامي      فقد رأيت الحور في الخيام  
صبرا لهذا يا بني الكرام      حتى تحلوا ساحة السلام

---

(١) يقصد بالخمسة: يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي، وهارون وأحمد ابني الحصين التميمي، وسعيد بن إسماعيل الأسدي، وبقي العاشر لم يذكر وهو عبد الله بن عمرو الطائي فلعله مات قبل المعركة.

قال: ثم تقدم محمد بن زرعة العبدى وهو يقول:

إن كان لابد مصيري للنفى      فما مقامي بعد خمس ههنا  
إن نلت ما أبغي فقد نلت المني      جنات عدن ليس فيها من عنا

قال: ثم تقدم أحمد بن محمد اليشكري وجعل يرتجز ويقول:

لا خير في العيشة بعد صحتي      حسبي من العيشة حسبي حسبي  
لا أرجع اليوم وأقضي نحبي      ثم أحلُّ في جنان ربي  
قال: ثم حمل هؤلاء الفتية فقاتلوا قتالا شديداً، وجعل يعقوب بن عبد الكريم  
الأنصاري يرتجز ويقول:

هيهات مني سفهي وطيشي      أقصد للحصن أمام جيشي  
قد ذهب السادة من قریش<sup>(١)</sup>      لا خير لي من بعدهم في العيش

قال: ثم حمل يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري حملة يريد باب الحصن قال:  
ولحقه إخوته الثلاثة حتى صاروا إلى باب حصن طوانة، فجعلوا يقاتلون أشد  
القتال، قال: وصاح مسلمة بالمسلمين فحملوا، وانكشفت الروم من بين أيديهم  
كشفة قبيحة.

قال: وجعل قوم يقاتلون، وقوم ينقبون السور نقباً واسعاً، وبادر يعقوب بن  
عبد الكريم الأنصاري فدخل الحصن من ذلك النقب وجعل يقاتل أهل الحصن  
وحده، فلم يزل كذلك حتى قطعت إحدى قدميه، ووثب قائماً على تلك الحالة  
يقاتلهم على فرد قدم وهو يقول:

أضرب بالسيف على فردٍ قَدَمٍ      والحرُّ لا يجزع من وقع الألم  
والموت بعد الإلف أشفى للقرم      مع الذي أرجوه من باري النَّسم  
أرجو جنانا حققت كل النعم      مع فتية كانوا لعمري كالْبَهَم<sup>(٢)</sup>

(١) يعني بذلك يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي.

(٢) يعني أنهم كانوا صغاراً، شبههم بصغار الغنم.

في مجمع الحرب إذا الحرب اضطرم خوفاً من الله العزيز ذي النقم  
قال: فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك حتى دخل إليه  
إخوته الثلاثة، فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب، ثم إنهم كبروا وصاحوا  
بأصحاب مسلمة، فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن، والأنصاري  
ينزف الدم من رجليه حتى مات رحمه الله وقُتل الثلاثة الذين كانوا معه - رحمة  
الله عليهم أجمعين<sup>(١)</sup>.

وهكذا ضرب هؤلاء الفتية المديون أمثلة رائعة في الشجاعة والإقدام  
والتضحية، فشاركوا في المبارزة التي هي أخطر أنواع الحرب، وكل واحد منهم  
يتعرض للشهادة ويتمناها، ولما ظفر بها بعضهم قصد الباقون مواقع الخطر ليلحقوا  
بإخوانهم، فكانوا أول من دخل في ذلك النقب الذي يُفضى إلى داخل حصن  
الروم، والغالب على من يقتحم ذلك المضيق أنه يُقتل لأن الأعداء يكونون قد  
أعدوا العدة له، فظفر هؤلاء الفتية بالشهادة جميعاً بعدما أثخنوا في الروم وفتحوا  
الطريق للمسلمين ليدخلوا من ذلك النقب.

وتمَّ فتح مدينة «طوانة» وكان لهؤلاء الفتية مشاركة فعالة في ذلك الفتح،  
وطوى ذكركم في الدنيا ولكن فُتحت لهم صفحة جديدة في الآخرة، حيث  
انضموا إلى قافلة الشهداء، فتجددت لهم الحياة الخالدة بعدما فقدوا الحياة الفانية.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

[آل عمران: ١٦٩].

\*\*\*

---

(١) الفتوح لابن أعثم ١٢٥/٧ - ١٣٤ ط دار الكتب العلمية، و٣/ ٦٥ ٧٥ ط دار الفكر.

## فتح عمورية

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها «شمعون» فوجه إلى المسلمين قائداً من قاداته يقال له «ورسيب» ومعه أربعون ألفاً، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفاً، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائد البطل بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم، واقتتلوا، وأسرع القتل في المشركين، وحمل «ورسيب» على البطل وهو لا يعلمه، وعلم البطل أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلاً وانهزم جيشه.

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطل بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالاً شديداً، وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشري فقد قتل الله شمعون، فكبرَّ مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطل قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة.

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم، ثم حمل وحمل الناس معه، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها.

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول عبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي:

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة      ذو البأس والإقدام عند المعمة

إذا التقى الأبطال وسَطُ المعمة      والروم قد سارت إلينا مجمعة

ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي:

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله      جرير شيخي وله فضيله



فضيلة عظيمة جليته من النبيّ صاحب الوسيلة<sup>(١)</sup>  
وفي هاتين المعركتين أظهر المسلمون بسالة عالية وثبتوا لأعدائهم ثباتاً عظيماً،  
فقد انتصرت مقدمة جيش المسلمين المكونة من عشرة آلاف بقيادة البطال بن عمرو  
على مقدمة جيش الروم المكونة من أربعين ألف مقاتل بقيادة ورسيب، وكان  
للبطال بن عمرو الأنطاكي أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب  
وقائد جيش الروم أمير عمورية شمعون، ومعلوم أن قتل قادة العدو يوقع الفشل  
في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك.

\*\*\*

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧ / ١٣٥ - ١٣٦.

## فتح نقفورية

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية، فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجال، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه: أن احملوا، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: يا أهل الشام لا شام لكم، ويا أهل العراق لا عراق لكم، ويا أهل مصر لا مصر لكم، إن أنتم وليتم الأدبار، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين.

ونادى محمد بن مروان وقال: يا أهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعدة الصلبان! أما ترغبون فيما رغبتكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم.

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة ما يلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكسه إلى الأرض، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقعهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشروعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهم، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة ابن عبد الملك: يوجب الله لكم الرضوان، فاجتمع عليه الناس ثم تواصلوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضا، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولّوا الأدبار والسيوف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلؤلؤ بعضهم على بعض.

وسبق البطل بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها، وغنموا ما فيها<sup>(١)</sup>.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٧ - ١٣٨.

وبعد: فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزاماً كلياً فلن يبقى منهم أحد حيث لا حصون لهم إلا ظهور الخيل.

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها، وهذه لفتة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام، فعظم في نفوسهم الشعور بالمسئولية، وانطلقوا في هجومهم على الأعداء بطاقتهم الكاملة، كما ذكرهم محمد بن مروان بما وعده الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا.

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعزعوا لما سقط قائدهم على الأرض، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهم، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه.

\*\*\*

## فتح السماوة الكبرى

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفي: وسار المسلمون نحو مدينة «السماوة الكبرى» وبها يومئذ بطريق من البطارقة الرومية يقال له «إفريطون» في ثمانين ألفاً من الروم، وقد حصن السماوة قبل ذلك، ونصب على سورها عشرين منجنيقاً وثلاثين عرادة<sup>(١)</sup>، قال: فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة، ثم أمر بمجانيقه فُنصبت عليها من كل جانب وترامى الفريقان رمياً متداركاً، ودامت الحرب بينهم أربعين يوماً لا يفترون عن ذلك ليلاً ولا نهاراً.

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له: «قرطس» إلى مسلمة ابن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفر له<sup>(٢)</sup> وقال: أيها الأمير إن السماوة حصن حصين، وفيها خلق كثير، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يُفتح لك من داخلها فتدخلها، وإن أفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ، وغصبنى على ابنة لي فأخذها مني قهراً، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك، واقترب من باب المدينة، وألق الحرب بينك وبين الروم، وقدّم أبطال عسكرك بين يديك فإنني فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك.

قال: فقال له مسلمة: إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي.

قال: فقال له قرطس: أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ما أحببت، قال: ثم رجع قرطس إلى المدينة.

فلما كان من غد عبى مسلمة أصحابه كما كان يعيبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة - وهي السماوة - وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه،

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق.

(٢) يعني وضع يده على صدره وطاقاً رأسه تعظيماً على عاداتهم.

(٣) يعني نادوا بالحرب على طريقته.

قال: ثم عَطَّطَت الروم<sup>(١)</sup>، وكَبَّرَ المسلمون فاختلف الفريقان، واشتبكت الحرب على باب المدينة، وفح ذلك البطريق الباب، واقتحم المسلمون معه، فجعلوا يقتلون ويأسرون.

قال: وفتح أفريطون باباً آخر من أبواب السماوة وخرج هارباً على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية<sup>(١)</sup>.

وبعد: فإن في هذا الخبر مثلاً من استعداد المسلمين الجيد، وذلك من ناحية إعداد القوة لقتال الأعداء بما يتناسب مع عصرهم، حيث كانوا يحملون معهم عدداً من المجانيق التي تعادل المدافع في العصر الحاضر، وقد كان عددها وافراً حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب على المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ليكونوا في ذلك على الأقل مثل أعدائهم، إلى جانب ما يتفوقون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي.

وفي هذا الخبر مثل حيّ لأثر العدل ومكارم الأخلاق في كسب القلوب والظفر بولائها ونصرتها، بغض النظر عن العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة، والتي أبرزها الاتفاق في الدين، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية.

كما أن فيه مثلاً حيّاً لأثر الظلم ومساوئ الأخلاق في نفرة القلوب وميلها إلى الانتقام، والتشفي من الظالمين، بالرغم من الاتفاق في العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة.

فهذا القائد الرومي الذي كان من عظماء ذلك البلد والذي أعلن ولاءه للمسلمين واستعداده لنصرتهم، ثم قام بتنفيذ ذلك حسب اتفاقه مع المسلمين، إنما دفعه إلى ذلك اعتباران: الأول أنه تعرض للظلم وانتهاك العرض على يد أمير تلك المدينة، فنفر منه وتربص الفرصة المناسبة للانتقام منه، ولا شك أن النفوس الأبية تتحمل كثيراً من أنواع الظلم ولكنها لا تتحمل انتهاك أعراضها.

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهن.

(٢) الفتوح لابن أعمش ٧ / ١٣٩ - ١٤٠.

والاعتبار الثانى: ملاحظة ما اشتهر به المسلمون من العدل ومكارم الأخلاق، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسبقهم إلى كل مكان يريدون فتحه، فتكون نفوس الشعوب مهياة لقبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين. فلو كان المسلمون المحاصرون لتلك المدينة من جملة الأمم التي تريد الهيمنة على الأرض لبسط جبروتها وظلمها لما كان هناك فرق بينها وبين ذلك الجبار المسيطر على تلك المدينة، وإذا فتحتم جبروت القريب أولى من تحمل جبروت البعيد، ولكن لما سَبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة في فتوحاتهم كان ذلك مشجعاً لكل من مال إلى تقدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يظهر نصرتهم.

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسؤولية، كي لا يستهينوا بمن تحت ولايتهم، وأن لا يغتروا بما في أيديهم من القوة والسلطان، فإن النفوس الأبية تصبر على الضيم مادامت تحت الغلبة والهيمنة، فإذا لاحت لها فرصة للتشفي والانتقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصرفاتهم بشرع الله تعالى، حيث يغلبون جانب المصالح العامة على المصلحة الخاصة، ويراعون جانب الإبقاء على دولة الإسلام والحفاظ على عزة المسلمين.

هذا وإن ما سخره الله تعالى في هذه المعركة من خروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداداً لنصرة المسلمين يعتبر مثلاً من أمثلة تأييد الله تعالى لأوليائه المؤمنين لما كانوا أهلاً لذلك، ولما يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام، فقد كانت تلك المدينة من المناعة بحيث يصعب على المسلمين فتحها من خارجها فقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم.

\*\*\*

## فتح مدينة المسيحية

قال ابن أعثم الكوفي: واقترب المسلمون من المسيحية، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة، فنأدى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه، فخرج بهم من المسيحية، وبين يديه بطريق يقال له: شماس في ثلاثين ألفاً، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفاً.

قال: فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة، وقد قُتل منهم جماعة، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية، واشتبكت الحرب على باب المسيحية.

قال: وجعل «شماس» البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه، حتى قتل نفراً من المسلمين.

قال: وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين، وتقدم إفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم، فجعل يكافئ المسلمين<sup>(١)</sup>.

قال: وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني ابن مروان] على فرس له أصدى<sup>(٢)</sup> وهو يرتجز ويقول:

قد علم الروم ومن والاهما      وكل عالج أقلف ساواها  
أنّي إذا الحرب خبّت لظاها      ألقيت أخراها على أولاهها

قال: واختلفا بطعنتين، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتم المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غماً شديداً، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول:

لا بد من عرض ومن مقام      على مليك صمدٍ منعم  
فجاهدي يا نفس لا تلامي      بكل عَضْبَ ذَكَر حسام

(١) يعني يظهر كفاءة الروم بما يشبه كفاءة المسلمين.

(٢) يطلق الصدّى على لطافة الجسم.

ثم حمل البطل على إفريطون، والتقىا بطعتين، طعنه البطل طعنة جدلة قتيلا، ثم نزل فاحتز رأسه ورفع على رمحه، ثم كبر وكبر المسلمون معه.

قال: ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكساراً، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب، فولّوا الأدبار وكبستهم خيل المسلمين، وأخذتهم السيوف، فقتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم، وسلّموا مدينة المسيحية بجميع ما فيها فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا، واحتوا على غنائمها<sup>(١)</sup>.

### هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز:

**الموقف الأول:** في مقدرة المسلمين الحربية التي تمثلت في سرعة عودتهم إلى القتال بعد الانهزام، وهذا يدل على أن ما حصل لهم إصابة مؤقتة بسبب حرب مفاجئة لم يعدوا لها أو بسبب تقصير في تطبيق بعض عوامل النصر، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا، ودحروا قوة أعدائهم.

**والثاني:** موقف محمد بن عبد العزيز بن مروان لما أقدم على مبارزته ذلك الرومي الشجاع، وإن محط الإعجاب في ذلك ليس في مجرد المبارزة، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقصى مراحل الحرب، ويغامرون بأنفسهم في موقف يكونون فيه أقرب إلى الموت، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم.

**أما الموقف الثالث:** فهو في شجاعة البطل بن عمرو وإقدامه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محمد بن عبد العزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه، مع ما شاهده من مصرع صاحبه، وعدم تهيبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسبب ما أحرز من نصر. ثم إن عظمة هذا البطل المقدم تبدو في سرعة استحضاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف، وما سيقدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب، وإن هذا الذكر القلبي واللساني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العالية التي اكتسبها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت.

(١) الفتوح لابن أعثم ٧ / ١٤٠ - ١٤١.



## فتح مدينة «بدروق»

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى «بدروق» فلما علم بذلك أميرها «لبوس» استنجد بملك الروم فأمدّه بخمسين ألفاً إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفاً.

ولما دنا منهم المسلمون كبروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعباً وخوفاً، وتقدم قائدهم «لبوس» أمام جيشه، فنظر إليه البطال بن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة: أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو: كُفيت أيها الأمير، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في هذا الوقت.

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قل للأمير ذي الصيال مسلمة	وابن الكرام السادة المكرمة
ومق عصي الأبطال يوم الملحمة	إني أنا البطال جدي علقمة
كم ساعد وبيضة وجمجمة	طرحتها عند هياج الغممة
وأسمّر روّيته من غلصمة	وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم، وأمكنته الفرصة من «لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلاً، وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وفرّ الباقون على وجوههم لا يعرجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتوا غنائمها وكانت كثيرة.

ثم أنشأ البطال بن عمرو يقول:

لقد علم الروم الأراجس أننا	قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوساً في القتام مجدلاً	فَقَبَّحَ ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أبداً في العجاج كُما تهم	ونحن هزمتنا جيشها وخميسها

ونحن إذا ما الحرب شبت وأرهجت  
ونحن قسمنا فيئها ونساءها  
وكان لبوسٌ كهفها وعمادها  
وكانت له الأبطال تسطو لأنه  
وسوف نُكرُ الخيل فينا شوازبا  
نريد بها «أليون» كيما نثيره  
ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها<sup>(١)</sup>  
نخوض لظاها عنوة ووطيسها  
ببدروق لما أن أثرنا شريسها  
وكان لعمري ليشها وهموسها  
إذا ناب أمر لم تجده حَسيسها  
عنا جيجَ تبدي في الغبار جَسيسها

وهكذا عمل البطل كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيراً من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم.

\*\*\*

---

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧ / ١٤١ - ١٤٣.

## جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك

### محاصرة القسطنطينية:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لنفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد بن عبد العزيز قال: أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همَّ بالإقامة ببيت المقدس، وجمع الناس والأموال بها، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمة بن عبد الملك، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبر أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبَّت جماعةً فيهم امرأة لها ذكر، فغضب وقال: ما هو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزوَنَّهُم غَزْوَةً أَفْتَحَ فِيهَا القسطنطينية أو أموت دون ذلك. ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال: أشيروا عليَّ. فقال موسى: يا أمير المؤمنين، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية، ومن العراق إلى خراسان، كلَّما فتحوا مدينة اتخذوها داراً وحازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوبِ فافتح ما فيها من الحصون والمطامير والمسالح، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدِّمَتْ حصونها وأوهيت قوتها، فإنهم سيعطون بأيديهم. فالتفت إلى مسلمة فقال: ما تقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمرُ إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولا ينقضه رأيت أن تعمل منه ما عملت ولا يأتي على ما قال خمس عشرة سنة، ولكنِّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البر والبحر القسطنطينية فيحاصرونها، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عنوة، ومتى ما يكون ذلك فإنَّ ما دونها من الحصون بيدك. فقال سليمان: هذا الرأي. فأغزى

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٣٥.

جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَارِيّ، وعلى الكلّ مسلمة بن عبد الملك.

قال الوليد بن مسلم: فأخبرني غير واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها: فاقدرُوا لذلك قدره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلّم الناس، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية: فانفروا على بركة الله تعالى، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة.

قال الذهبي: وأما مسلمة فسار بالجيش، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعيّار، وأخذ عهوده ومواريثه على المناصحة والوفاء، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برّح بهم الحصار، وعرض أهلها الفدية على مسلمة، فأبى أن يفتحها إلا عنوة، قالوا: فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال: إن ملّكتُموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه، فخرج وقال لمسلمة: قد أجابوني أنهم يفتحونها، غير أنهم لا يفتحونها ما لم تُنحَ عنهم، قال: أخشى غدرك، فحلف له أن يدفع إليه كلّ ما فيها من ذهب وفضة وديباج وسبي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج، فملأوا الأهرار<sup>(١)</sup> وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة، ففكر راجعًا، فأدرك شيئًا من الطعام، فغلّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاء العهد، فأرسل إليه إليون يقول: ملّك الروم لا يبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهرًا، حتى أكل الناس في العسكر الميتة، وقُتل خلق، ثم ترحل<sup>(٢)</sup>.

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام.

(٢) تاريخ الإسلام/ حوادث ٨١ - ١٠٠ ص ٢٦٩ - ٢٧١، وانظر تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦.

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبارين موسى ابن نصير ومسلمة بن عبد الملك في غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أولاً، وإنما تفتح بلاد الروم شيئاً فشيئاً فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها داراً، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لا يتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر والبحر، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفاً لآراء أهل الخبرة الحربية.

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية.

ولقد بذل المسلمون جهوداً عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاق المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ما قبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلاً ميسوراً.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم ماداموا تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها.

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير: وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فخلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية، فبنوا له جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.

قال: وبالجملية كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منشورة، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً، وأحصى بعزمه قصوراً وبقاعاً، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ - ٣٤٢.

## جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك

مازال المسلمون في جهاد مع الروم، ومن أبرز معاركهم معهم ما جرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشاً بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطل، فجاء الخبر إلى البطل بأن ملك الروم «إليون» قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له: المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك، ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديداً، والأبطال تحوم بين يدي البطل ولا يتجاسر أحد أن ينوّه باسمه خوفاً عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلظاً منه، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يقتلون ويأسرون وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها.

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطل بآخر رمق فقال له: ما هذا يا أبا يحيى؟ فقال: هكذا تُقتل الأبطال، فاستدعى إليون الأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم، تأمر من معك من المسلمين أن يُلوا غسلي والصلاة علي ودفني، ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى<sup>(١)</sup>.

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقوداً من الزمن، فما أعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر! وما أسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة!!

وقد كان ملك الروم «إليون» يعرفه جيداً لأن «إليون» كان مع المسلمين، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية، ثم خدعهم كما سبق، وملّكه الروم عليهم،

(١) البداية والنهاية ٣٤٥/٩.

والظاهر أن حرصه على علاج البطل وبقائه حيًّا من أجل أن يأخذه أسيراً فيساوم به قادة المسلمين لكون البطل من عظماء المسلمين وأبطالهم.

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة.

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطل بن عمرو، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطل ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى<sup>(١)</sup> واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطل ولكنه ذكر أن كنيته أبو الحسين، واتفقا على نسبته إلى أنطاكية لأنه كان قد نزلها<sup>(٢)</sup> وذكره الإمام ابن تيمية في مناسبة بيان من نُسجت حولهم الأساطير لشهرتهم بالشجاعة وذكر اسمه عبد الله البطل وذكر أن كنيته أبو محمد<sup>(٣)</sup>.

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثا اسمه الحسين، فمرة يكنى بيحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين، ولكنه قد اشتهر في الحروب باسم البطل سواء عند المسلمين أو عند الروم.

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها، وقد انطلق إليهم «إليون» بجيشه فحاصروهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البردُ بقُدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣١٧، ٣٤٥ .

(٢) الكامل ٤ / ٢٤٨ .

(٣) فتاوى ابن تيمية ١٨ / ٣٥٢ .

(٤) البداية والنهاية ٩ / ٣٤٧ .



## فتح عمورية

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها «شمعون» فوجه إلى المسلمين قائداً من قاداته يقال له «ورسيب» ومعه أربعون ألفاً، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفاً، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائد البطل بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم، واقتتلوا، وأسرع القتل في المشركين، وحمل «ورسيب» على البطل وهو لا يعلمه، وعلم البطل أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلاً وانهزم جيشه.

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطل بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالاً شديداً، وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشري فقد قتل الله شمعون، فكبرَّ مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطل قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة.

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم، ثم حمل وحمل الناس معه، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها.

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول عبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي:

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة      ذو البأس والإقدام عند المعمة

إذا التقى الأبطال وسَطُ المعمة      والروم قد سارت إلينا مجمعة

ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي:

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله      جرير شيخي وله فضيله

فضيلة عظيمة جليته من النبيّ صاحب الوسيلة<sup>(١)</sup>  
وفي هاتين المعركتين أظهر المسلمون بسالة عالية وثبتوا لأعدائهم ثباتاً عظيماً،  
فقد انتصرت مقدمة جيش المسلمين المكونة من عشرة آلاف بقيادة البطال بن عمرو  
على مقدمة جيش الروم المكونة من أربعين ألف مقاتل بقيادة ورسيب، وكان  
للبطال بن عمرو الأنطاكي أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب  
وقائد جيش الروم أمير عمورية شمعون، ومعلوم أن قتل قادة العدو يوقع الفشل  
في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك.

\*\*\*

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧ / ١٣٥ - ١٣٦.

## فتح نقفورية

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية، فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجال، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه: أن احملوا، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: يا أهل الشام لا شام لكم، ويا أهل العراق لا عراق لكم، ويا أهل مصر لا مصر لكم، إن أنتم وليتم الأدبار، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين.

ونادى محمد بن مروان وقال: يا أهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعدة الصلبان! أما ترغبون فيما رغبتكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم.

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة ما يلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكسه إلى الأرض، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقعهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشروعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهم، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة ابن عبد الملك: يوجب الله لكم الرضوان، فاجتمع عليه الناس ثم تواصلوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضا، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولّوا الأدبار والسيوف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلؤلؤ بعضهم على بعض.

وسبق البطل بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها، وغنموا ما فيها<sup>(١)</sup>.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٧ - ١٣٨.

وبعد: فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزاماً كلياً فلن يبقى منهم أحد حيث لا حصون لهم إلا ظهور الخيل.

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها، وهذه لفتة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام، فعظم في نفوسهم الشعور بالمسئولية، وانطلقوا في هجومهم على الأعداء بطاقتهم الكاملة، كما ذكرهم محمد بن مروان بما وعده الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا.

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعزعوا لما سقط قائدهم على الأرض، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهم، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه.

\*\*\*

## فتح السماوة الكبرى

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفي: وسار المسلمون نحو مدينة «السماوة الكبرى» وبها يومئذ بطريق من البطارقة الرومية يقال له «إفريطون» في ثمانين ألفاً من الروم، وقد حصن السماوة قبل ذلك، ونصب على سورها عشرين منجنيقاً وثلاثين عرادة<sup>(١)</sup>، قال: فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة، ثم أمر بمجانيقه فُنصبت عليها من كل جانب وترامى الفريقان رمياً متداركاً، ودامت الحرب بينهم أربعين يوماً لا يفترون عن ذلك ليلاً ولا نهاراً.

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له: «قرطس» إلى مسلمة ابن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفر له<sup>(٢)</sup> وقال: أيها الأمير إن السماوة حصن حصين، وفيها خلق كثير، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يُفتح لك من داخلها فتدخلها، وإن أفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ، وغصبنى على ابنة لي فأخذها مني قهراً، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك، واقترّب من باب المدينة، والحقّ الحرب بينك وبين الروم، وقدّم أبطال عسكريك بين يديك فإنّي فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك.

قال: فقال له مسلمة: إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي.

قال: فقال له قرطس: أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ما أحببت، قال: ثم رجع قرطس إلى المدينة.

فلما كان من غد عبى مسلمة أصحابه كما كان يعيبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة - وهي السماوة - وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه،

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق.

(٢) يعني وضع يده على صدره وطاقاً رأسه تعظيماً على عاداتهم.

(٣) يعني نادوا بالحرب على طريقته.

قال: ثم عَطَّطَت الروم<sup>(١)</sup>، وكَبَّرَ المسلمون فاختلف الفريقان، واشتبكت الحرب على باب المدينة، وفح ذلك البطريق الباب، واقتحم المسلمون معه، فجعلوا يقتلون ويأسرون.

قال: وفتح أفريطون باباً آخر من أبواب السماوة وخرج هارباً على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية<sup>(١)</sup>.

وبعد: فإن في هذا الخبر مثلاً من استعداد المسلمين الجيد، وذلك من ناحية إعداد القوة لقتال الأعداء بما يتناسب مع عصرهم، حيث كانوا يحملون معهم عدداً من المجانيق التي تعادل المدافع في العصر الحاضر، وقد كان عددها وافراً حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب على المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ليكونوا في ذلك على الأقل مثل أعدائهم، إلى جانب ما يتفوقون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي.

وفي هذا الخبر مثل حيّ لأثر العدل ومكارم الأخلاق في كسب القلوب والظفر بولائها ونصرتها، بغض النظر عن العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة، والتي أبرزها الاتفاق في الدين، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية.

كما أن فيه مثلاً حيّاً لأثر الظلم ومساوئ الأخلاق في نفرة القلوب وميلها إلى الانتقام، والتشفي من الظالمين، بالرغم من الاتفاق في العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة.

فهذا القائد الرومي الذي كان من عظماء ذلك البلد والذي أعلن ولاءه للمسلمين واستعداده لنصرتهم، ثم قام بتنفيذ ذلك حسب اتفاقه مع المسلمين، إنما دفعه إلى ذلك اعتباران: الأول أنه تعرض للظلم وانتهاك العرض على يد أمير تلك المدينة، فنفر منه وتربص الفرصة المناسبة للانتقام منه، ولا شك أن النفوس الأبية تتحمل كثيراً من أنواع الظلم ولكنها لا تتحمل انتهاك أعراضها.

(٢) الفتوح لابن أعمش ٧ / ١٣٩ - ١٤٠.

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهن.

والاعتبار الثانى: ملاحظة ما اشتهر به المسلمون من العدل ومكارم الأخلاق، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسبقهم إلى كل مكان يريدون فتحه، فتكون نفوس الشعوب مهياة لقبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين. فلو كان المسلمون المحاصرون لتلك المدينة من جملة الأمم التي تريد الهيمنة على الأرض لبسط جبروتها وظلمها لما كان هناك فرق بينها وبين ذلك الجبار المسيطر على تلك المدينة، وإذا فتحتم جبروت القريب أولى من تحمل جبروت البعيد، ولكن لما سَبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة في فتوحاتهم كان ذلك مشجعاً لكل من مال إلى تقدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يظهر نصرتهم.

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسؤولية، كي لا يستهينوا بمن تحت ولايتهم، وأن لا يغتروا بما في أيديهم من القوة والسلطان، فإن النفوس الأبية تصبر على الضيم مادامت تحت الغلبة والهيمنة، فإذا لاحت لها فرصة للتشفي والانتقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصرفاتهم بشرع الله تعالى، حيث يغلبون جانب المصالح العامة على المصلحة الخاصة، ويراعون جانب الإبقاء على دولة الإسلام والحفاظ على عزة المسلمين.

هذا وإن ما سخره الله تعالى في هذه المعركة من خروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداداً لنصرة المسلمين يعتبر مثلاً من أمثلة تأييد الله تعالى لأوليائه المؤمنين لما كانوا أهلاً لذلك، ولما يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام، فقد كانت تلك المدينة من المناعة بحيث يصعب على المسلمين فتحها من خارجها فقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم.

\*\*\*

## فتح مدينة المسيحية

قال ابن أعثم الكوفي: واقترب المسلمون من المسيحية، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة، فنأدى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه، فخرج بهم من المسيحية، وبين يديه بطريق يقال له: شماس في ثلاثين ألفاً، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفاً.

قال: فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة، وقد قُتل منهم جماعة، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية، واشتبكت الحرب على باب المسيحية.

قال: وجعل «شماس» البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه، حتى قتل نفراً من المسلمين.

قال: وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين، وتقدم إفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم، فجعل يكافئ المسلمين<sup>(١)</sup>.

قال: وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني ابن مروان] على فرس له أصدى<sup>(٢)</sup> وهو يرتجز ويقول:

قد علم الروم ومن والاهما      وكل عالج أقلف ساواها  
أنّي إذا الحرب خبّت لظاها      ألقيت أخراها على أولاها

قال: واختلفا بطعنتين، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتم المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غماً شديداً، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول:

لا بد من عرض ومن مقام      على مليك صمدٍ منعم  
فجاهدي يا نفس لا تلامي      بكل عَضْبَ ذَكَرٍ حسام

(١) يعني يظهر كفاءة الروم بما يشبه كفاءة المسلمين.

(٢) يطلق الصدّى على لطافة الجسم.



ثم حمل البطل على إفريطون، والتقىا بطعتين، طعنه البطل طعنة جدلة قتيلا، ثم نزل فاحتز رأسه ورفع على رمحه، ثم كبر وكبر المسلمون معه.

قال: ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكساراً، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب، فولّوا الأدبار وكبستهم خيل المسلمين، وأخذتهم السيوف، فقتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم، وسلّموا مدينة المسيحية بجميع ما فيها فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا، واحتوا على غنائمها<sup>(١)</sup>.

### هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز:

**الموقف الأول:** في مقدرة المسلمين الحربية التي تمثلت في سرعة عودتهم إلى القتال بعد الانهزام، وهذا يدل على أن ما حصل لهم إصابة مؤقتة بسبب حرب مفاجئة لم يعدوا لها أو بسبب تقصير في تطبيق بعض عوامل النصر، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا، ودحروا قوة أعدائهم.

**والثاني:** موقف محمد بن عبد العزيز بن مروان لما أقدم على مبارزته ذلك الرومي الشجاع، وإن محط الإعجاب في ذلك ليس في مجرد المبارزة، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقصى مراحل الحرب، ويغامرون بأنفسهم في موقف يكونون فيه أقرب إلى الموت، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم.

**أما الموقف الثالث:** فهو في شجاعة البطل بن عمرو وإقدامه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محمد بن عبد العزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه، مع ما شاهده من مصرع صاحبه، وعدم تهيبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسبب ما أحرز من نصر. ثم إن عظمة هذا البطل المقدم تبدو في سرعة استحضاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف، وما سيقدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب، وإن هذا الذكر القلبي واللساني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العالية التي اكتسبها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزته العنيف في أسرع وقت.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧ / ١٤٠ - ١٤١.

## فتح مدينة «بدروق»

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى «بدروق» فلما علم بذلك أميرها «لبوس» استنجد بملك الروم فأمدّه بخمسين ألفاً إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفاً.

ولما دنا منهم المسلمون كبروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعباً وخوفاً، وتقدم قائدهم «لبوس» أمام جيشه، فنظر إليه البطال بن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة: أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو: كُفيت أيها الأمير، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في هذا الوقت.

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قل للأمير ذي الصيال مسلمة	وابن الكرام السادة المكرمة
ومق عصي الأبطال يوم الملحمة	إني أنا البطال جدي علقمة
كم ساعد وبيضة وجمجمة	طرحتها عند هياج الغممة
وأسمّر روّيته من غلصمة	وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم، وأمكنته الفرصة من «لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلاً، وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وفرّ الباقون على وجوههم لا يعرجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتوا غنائمها وكانت كثيرة.

ثم أنشأ البطال بن عمرو يقول:

لقد علم الروم الأراجس أننا	قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوساً في القتام مجدلاً	فَقَبَّحَ ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أبداً في العجاج كُما تهم	ونحن هزمتنا جيشها وخميسها

ونحن إذا ما الحرب شبت وأرهجت  
ونحن قسمنا فيئها ونساءها  
وكان لبوسٌ كهفها وعمادها  
وكانت له الأبطال تسطو لأنه  
وسوف نُكرُ الخيل فينا شوازبا  
نريد بها «أليون» كيما نثيره  
ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها<sup>(١)</sup>  
نخوض لظاها عنوة ووطيسها  
ببدروق لما أن أثرنا شريسها  
وكان لعمري ليشها وهموسها  
إذا ناب أمر لم تجده حَسيسها  
عنا جيجَ تبدي في الغبار جَسيسها

وهكذا عمل البطل كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان  
يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من  
أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيراً من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم  
لأمتهم.

\*\*\*

---

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧ / ١٤١ - ١٤٣.

## جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك

### محاصرة القسطنطينية:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لنفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد بن عبد العزيز قال: أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همَّ بالإقامة ببيت المقدس، وجمع الناس والأموال بها، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمة بن عبد الملك، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبر أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبَّت جماعةً فيهم امرأة لها ذكر، فغضب وقال: ما هو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزوَنَّهُم غَزوةً أفُتِحَ فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك. ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال: أشيروا عليَّ. فقال موسى: يا أمير المؤمنين، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية، ومن العراق إلى خراسان، كلَّما فتحوا مدينة اتخذوها داراً وحازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوب فافتح ما فيها من الحصون والمطامير والمسالح، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدِّمَتْ حصونها وأوهيت قوتها، فإنهم سيعطون بأيديهم. فالتفت إلى مسلمة فقال: ما تقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمرُ إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولا ينقضه رأيت أن تعمل منه ما عملت ولا يأتي على ما قال خمس عشرة سنة، ولكنِّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البر والبحر القسطنطينية فيحاصرونها، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عنوة، ومتى ما يكون ذلك فإنَّ ما دونها من الحصون بيدك. فقال سليمان: هذا الرأي. فأغزى

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٣٥.

جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَارِيّ، وعلى الكلّ مسلمة بن عبد الملك.

قال الوليد بن مسلم: فأخبرني غير واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها: فاقدرُوا لذلك قدره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلّم الناس، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية: فانفروا على بركة الله تعالى، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة.

قال الذهبي: وأما مسلمة فسار بالجيوش، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعيوار، وأخذ عهوده ومواريثه على المناصحة والوفاء، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برّح بهم الحصار، وعرض أهلها الفدية على مسلمة، فأبى أن يفتحها إلا عنوة، قالوا: فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال: إن ملّكتُموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه، فخرج وقال لمسلمة: قد أجابوني أنهم يفتحونها، غير أنهم لا يفتحونها ما لم تُنحَ عنهم، قال: أخشى غدرك، فحلف له أن يدفع إليه كلّ ما فيها من ذهب وفضة وديباج وسبي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج، فملأوا الأهرار<sup>(١)</sup> وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة، ففكر راجعًا، فأدرك شيئًا من الطعام، فغلّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاء العهد، فأرسل إليه إليون يقول: ملّك الروم لا يبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهرًا، حتى أكل الناس في العسكر الميتة، وقُتل خلق، ثم ترحل<sup>(٢)</sup>.

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام.

(٢) تاريخ الإسلام/ حوادث ٨١ - ١٠٠ ص ٢٦٩ - ٢٧١، وانظر تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦.

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبارين موسى ابن نصير ومسلمة بن عبد الملك في غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أولاً، وإنما تفتح بلاد الروم شيئاً فشيئاً فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها داراً، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لا يتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر والبحر، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفاً لآراء أهل الخبرة الحربية.

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية.

ولقد بذل المسلمون جهوداً عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاق المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ما قبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلاً ميسوراً.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم ماداموا تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها.

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير: وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فخلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية، فبنوا له جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.

قال: وبالجملية كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منشورة، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً، وأحياى بعزمه قصوراً وبقاعاً، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ - ٣٤٢.

## جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك

مازال المسلمون في جهاد مع الروم، ومن أبرز معاركهم معهم ما جرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشاً بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطل، فجاء الخبر إلى البطل بأن ملك الروم «إليون» قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له: المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك، ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديداً، والأبطال تحوم بين يدي البطل ولا يتجاسر أحد أن ينوّه باسمه خوفاً عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلظاً منه، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يقتلون ويأسرون وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها.

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطل بآخر رمق فقال له: ما هذا يا أبا يحيى؟ فقال: هكذا تُقتل الأبطال، فاستدعى إليون الأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم، تأمر من معك من المسلمين أن يُلوا غسلي والصلاة علي ودفني، ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى<sup>(١)</sup>.

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقوداً من الزمن، فما أعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر! وما أسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة!!

وقد كان ملك الروم «إليون» يعرفه جيداً لأن «إليون» كان مع المسلمين، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية، ثم خدعهم كما سبق، وملكه الروم عليهم،

(١) البداية والنهاية ٣٤٥/٩.



والظاهر أن حرصه على علاج البطل وبقائه حيًّا من أجل أن يأخذه أسيراً فيساوم به قادة المسلمين لكون البطل من عظماء المسلمين وأبطالهم.

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة.

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطل بن عمرو، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطل ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى<sup>(١)</sup> واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطل ولكنه ذكر أن كنيته أبو الحسين، واتفقا على نسبته إلى أنطاكية لأنه كان قد نزلها<sup>(٢)</sup> وذكره الإمام ابن تيمية في مناسبة بيان من نُسجت حولهم الأساطير لشهرتهم بالشجاعة وذكر اسمه عبد الله البطل وذكر أن كنيته أبو محمد<sup>(٣)</sup>.

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثا اسمه الحسين، فمرة يكنى بيحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين، ولكنه قد اشتهر في الحروب باسم البطل سواء عند المسلمين أو عند الروم.

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها، وقد انطلق إليهم «إليون» بجيشه فحاصروهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البردُ بقُدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

---

(١) البداية والنهاية ٣١٧/٩، ٣٤٥.

(٢) الكامل ٢٤٨ / ٤.

(٣) فتاوى ابن تيمية ١٨ / ٣٥٢.

(٤) البداية والنهاية ٩ / ٣٤٧.

**الجهاد مع الروم  
في  
عهد العباسيين**

حينما قامت دولة بني العباس عام اثنين وثلاثين ومائة شُغل خلفاؤها بالحروب الداخلية، ولم تستقر إلا في أواخر عهد المنصور الخليفة الثاني، فلم يكن هناك جهاد إلا في عهد الخليفة الثالث المهدي، حيث بدأ الجهاد مع الروم. ثم استمر الجهاد بعد ذلك مع الأعداء بنسبة قليلة متباعدة، وأغلبه جهاد الدفاع عن دار الإسلام.

وقد كان الجهاد في العهد العباسي موجهاً ضد ست من الأمم: الروم، وأهل المشرق، وأهل الهند، والصليبيين، والتتار، ونصارى الأندلس.

وكان الجهاد في العصر العباسي الأول موجهاً من الخلفاء أنفسهم، وذلك إلى نهاية عهد المعتصم، ثم أصبح موجهاً من الدويلات التي استقلت بشئون حكمها مع بقاء تبعيتها للدولة العباسية. وإن كان بعضها قد استقلت تماماً كالدولة الأموية بالأندلس وما تلاها من دويلات.

علماً بأن الدولة العباسية قد انتهت من بغداد في عام ستة وخمسين وستمائة عندما اجتاحتها التتار، ولكنها عادت في عام ثمانية وخمسين في مصر حينما بايع الظاهر بيبرس أحد بني العباس بالخلافة كما سيأتي، غير أنها ظلت خلافة بالاسم وكان الحكم بيد المماليك إلى أن قضى العثمانيون على المماليك فانتهى وجود الخلافة العباسية.

ومازال القتال دائراً بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى أن زالت بلاد الشام ومصر عن الروم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم زال شمال أفريقية عنهم في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وفي عهد بني أمية، ودخلت كل هذه البلاد في دولة الإسلام، ولكن الحروب ظلت بين الروم والمسلمين من جهة بلاد الشام، وكان إنشاء هذه الحروب غالباً من المسلمين، ولكن دولة الروم كلما آنت من دولة الإسلام ضعفاً أغارت جيوشها على أطراف بلاد المسلمين.

## ١ - جهاد الروم في عهد المهدي والرشد

### غزو القسطنطينية:

قام أمير المؤمنين هارون الرشيد بغزو بلاد الروم في عهد أبيه المهدي وبعد توليه الخلافة، فالغزوة الأولى وجهه فيها أبوه الخليفة المهدي، وفي ذلك يقول الإمام الطبري: ووجهه أبوه - فيما ذكر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة<sup>(١)</sup> غازياً إلى بلاد الروم، وضم إليه الربيع مولاه، فوغل هارون في بلاد الروم، ولقيته خيول «نقيطاً» قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد<sup>(٢)</sup>، فأرجل يزيد، ثم سقط «نقيطاً» فضربه يزيد حتى أثخنه، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم.

قال: وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي عليه القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ «أغسطه» امرأة أليون، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية، فقبل ذلك منها هارون، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق<sup>(٣)</sup> في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل.

قال: وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسلّمت الأسارى<sup>(٤)</sup>.

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية، منها موقف يزيد بن مزيد الشيباني حينما بارز قائد الروم «نقيطاً» فقتله، وكان ذلك سبباً في انهزام جيشه، وهكذا كان جهد هذا القائد الشجاع يزيد بن مزيد مغنياً عن جهود كبيرة سيذلها المسلمون في مقاومة الروم لو ظلوا على إقدامهم ومعنوياتهم الأولى، ولكن حينما تحطمت معنوياتهم بقتل قائدهم سهل على المسلمين هزيمتهم.

(١) يعني من سنة خمس وستين ومائة.

(٢) هو يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير أرمينية وأذربيجان وكان من الشجعان المشهورين.

(٣) أي المشتعلة على ما يحتاجه المسافرون.

(٤) تاريخ الطبري ٨ / ١٥٢ - ١٥٣ باختصار.

ومن المواقف الجهادية العالية وصول المسلمين بقيادة هارون الرشيد إلى القسطنطينية، وهذا يعتبر مغامرة جريئة لبعد ذلك المكان عن دار الخلافة، وقد وصلها المسلمون قبل ذلك عدة مرات أهمها وأعظمها وصولهم إليها أول مرة في خلافة معاوية رضي الله عنه بقيادة ابنه يزيد كما تقدم.

### فتح هرقل الأول:

أما جهاد هارون الرشيد في بلاد الروم في خلافته فقد تكرر عدة مرات أبرزها ما ذكره الإمام ابن جرير الطبري بقوله: فذكر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة<sup>(١)</sup> كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق<sup>(٢)</sup>، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافئد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قال: فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام.

ثم شَخَص من يومه وسار حتى أناخ بباب «هرقل» ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخرَّب وحرَّق واصْطَلَم<sup>(٣)</sup>، فطلب نقفور المودعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقّة نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعه إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفافاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام.

(١) أي ثبتت طاعة الروم له.

(٢) هذا تعبير عن ظهورها أمام الرشيد بمظهر الضعف.

(٣) أي استأصل.

وذكر أنهم احتالوا عليه بإنشاد الشعر المتضمن ذلك، ومنه قول الحجاج بن يوسف التيمي:

نقضَ الذي أعطيته نقفور	وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه	غُثمٌ أتاكَ به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى	بالنقض عنه وافد وبشير
ورجتُ يمينك أن تعجل غزوة	تشفى النفوس مكانها مذكور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى	عنك الإمام لجأهـل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفلت	هبلتكَ أملك ما طننت غرور

ثم ذكر أن هارون الرشيد لما سمع هذا الشعر قال: أَوْقَدُ فعل نقفور ذلك! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكَرَّرَ راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائنه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد<sup>(١)</sup>.

ففي هذا الخبر مواقف عالية لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله تعالى، حيث أظهر عزة الإسلام ودولته لما استهان بذلك ملك الروم، فكان جوابه بالفعل لا بالقول حيث غزاه بذلك الجيش العظيم الذي خلع فؤاد ذلك الملك فعاد ذليلاً يطلب ود هارون الرشيد والصلح معه.

وحينما نقض ذلك الملك الصلح وخان العهد لاستبعاده أن يعود إليه المسلمون في الشتاء، وعلم بذلك الرشيد، عاد إليه بجيشه رغم قسوة البرد وشدة المؤونة، حتى لقَّنه درساً لا ينساه وأخضعه لما يريد.

ولقد كان غزو الروم في الشتاء مشقةً كبيرة ومخاطرة عظيمة على المسلمين، ولكن هارون الرشيد أراد أن يعكس الروم أن باستطاعة المسلمين أن يصلوا إليهم في أى فصل من الفصول، وأن غزوهم بلادهم في الصيف إنما كان باختيارهم لكونه أيسر لهم.

(١) تاريخ الطبري ٨ / ٣٠٧ - ٣١٠ باختصار.

## فتح هرقله الثاني وما حولها:

ذكر ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة تسعين ومائة، فقال: وفيها فتح الرشيد هرقله، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دَخَلَهَا - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سوى الأتباع وسوى المطوّعة وسوى من لا ديوان له، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً، وافتتح شراحيل بن معن ابن زائدة حصن الصقالبة ودُبْسة، وافتتح يزيد بن مخلد الصّفْصاف وملقوبية - وكان فتح الرشيد هرقله في شوال - وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها، وولّى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر، فبلغ حميد قبرص، فهدم وحرّق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً، فأقدمهم الرّافقة، فتولّى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار.

وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب، واتخذ قلنسوة مكتوباً عليها «غاز حاجٌ»، فكان يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابي:

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرَدُّ      فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثَّغُورِ  
فَفِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَلَى طِمْرٍ      وَفِي أَرْضِ التَّرَفِّهِ فَوْقَ كُورِ  
وَمَا حَازَ الثَّغُورَ سِوَاكَ خَلَقَ      مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَلَى الْأُمُورِ

ثم صار الرشيد إلى الطوانة، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلف عليها عقبة ابن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولّى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه استبراق دنانير. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقله كتاباً نسخته:

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم. سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، فإن لي إليك حاجة لا تضرّك في دينك ولا دنياك، هيئة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله، كنت قد خطبتُها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سُرادقائه، فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأحضرت وزُينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه، وسلّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العطر، وبعث إليه من التمور والأخبصة والزبيب والترياق، فسَلَّم ذلك كله إلى رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمسين ألف درهم، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بُزْيُون<sup>(١)</sup>، واثنى عشر بازياً، وأربعة أكلب من كلاب الصيد، وثلاثة برازين. وكان نقفور اشترط ألا يخرّب ذا الكلاع ولا صمّله ولا حصن سنان، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار<sup>(٢)</sup>.

في هذا الخبر مثل من عزة المسلمين وقوة دولة الإسلام في عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد، حيث كان ملك الروم يدفع الجزية والخراج لدولة الإسلام وهو صاغر، ويتذلّل له بالكتاب الذي بعثه إليه ليهبه امرأة من السبي، وإنما علا شأن المسلمين وقويت دولتهم لمحافظةهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد كان الرشيد يغزو سنة ويحج أخرى، وإذا كان هذا هو الغزو الذي يقوم به بنفسه فكيف بالبعوث التي يبعثها مع قادته؟!

\*\*\*

---

(١) البزْيُون: ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج، مركب من: «بز» ومن: «يون»، أي يشبه البز.

وانظر الألفاظ الفارسية لأدي شير ٢٢ - هامش تاريخ الطبري - .

(٢) تاريخ الطبري ٨ / ٣٢٠ - ٣٢٢.



## ٢- جهاد الروم في عهد المعتصم

كان سبب ذلك أن ملك الروم «توفيل بن ميخائيل» لما بلغه أن جيوش المسلمين ذهبت إلى أذربيجان وما حولها لغزو «بابك الخرمي» غزا بجيشه أطراف دولة الإسلام فهجم على «زبطرة» وقتل رجالها وسبى الذراري والنساء ثم أحرقها. وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح.

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم صاح في قصره: النفير، ثم ركب دابته وأخذ استعداد الحرب، ولمّا لم يتهيأ له الخروج في ذلك اليوم حتى تتم تعبئة الجيش جلس في دار العامة، ووجه عَجَيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني ومحمد كوته وجماعةً من القواد إلى «زبطرة» إعانة لأهلها، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده، فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

وبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، وأمر بتجهيز جيش كبير لغزو الروم، وسأل: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقليل: عمورية، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبُنُكُها<sup>(١)</sup> وهي أشرف عندهم من القسطنطينية<sup>(٢)</sup>.

وذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين المعتصم جهز جيشاً لم يتهيأ لخليفة قبله مثله من اكتمال السلاح والعدد.

قال: ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللّمس وهو على سلوقية قريباً من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم.

(١) البنك بضم الباء أصل الشيء وخالصة.

(٢) تاريخ الطبري ٩/ ٥٦ - ٥٧، الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٤٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٦٢.

وقد قسم المعتصم جيشه ثلاثة أقسام: قسمًا بقيادة الأفشين، وقسمًا بقيادة أشناس وقسمًا قاده بنفسه، وقد أمر الأفشين بالتقدم ثم أمر أشناس بالسير بعده، ثم تبعهم ببقية الجيش، وقد جعل الموعد بينهم مدينة «أنقرة».

أما ملك الروم فإنه بلغه خبر خروج الجيش الإسلامي فأقبل بجيشه يريد مواجهة جيش المسلمين، فلما كان قريبًا من أولهم علم بأن جيشًا للمسلمين كبيرًا قد جاز من طريق آخر وهو جيش الأفشين، فأخذ ملك الروم بعض جيشه لمواجهة جيش الأفشين وأبقى بعض الجيش بقيادة أحد أقاربه ليلاقى طليعة جيش المسلمين القادم من ذلك الطريق.

وقد التقى ملك الروم بجيش الأفشين فانهزم مشاة الجيش الإسلامي وقُتل منهم كثير ولكن فرسان المسلمين كروا على جيش الروم فهزموه وشتتوه، وانحاز ملك الروم مع قلة من جنده حتى استطاع الوصول إلى مقر جيشه فإذا بهم قد اختلفوا على قائده وتفرقوا عنه فقتل ذلك القائد، ورجع نحو القسطنطينية ليجمع فلول جيشه.

وقد علم أشناس بذلك بواسطة بعض الأسرى الذين أسرهم فأرسل إلى المعتصم يخبره ففرح بذلك، والتفت جيوش المسلمين حول أنقرة، وكان أهل هذا البلد قد أخلوه وهربوا<sup>(١)</sup>.

وبعد ففي هذا الخبر مواقف، منها موقف العزة والشهامة والشجاعة من أمير المؤمنين المعتصم حينما دعا بالنفير إلى الجهاد لما بلغه مصاب المسلمين على يد الروم، ولقد بلغ به الحماس للجهاد والانتصار للمسلمين إلى حد أنه ركب دابته وأخذ سلاحه حال سماعه الخبر.

ومن ألطف مواقفه وأروعها إجابته نداء تلك المرأة المسلمة الأسيرة التي نادته باسمه ليخلصها من أسر الروم، وفي بيان هذه النخوة والشهامة يقول الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله تعالى:

رُبَّ وامعتصماه انطلقت      ملء أفواه الصبايا اليتم  
لامست أسماعهم لكنها      لم تلامس نخوة المعتصم

(١) تاريخ الطبري ٩ / ٥٧ - ٦٢.

وما يذكر للمعتصم أنه أسرع في تجهيز جيش لنجدة المسلمين المنكوبين وصد الأعداء عنهم، ثم بدأ في إعداد جيش كثيف لتأديب الأعداء والانتقام منهم. وإن نهوض المعتصم بذلك الجيش يعتبر إظهاراً لعزة الإسلام وقوة دولته، وردعاً قوياً لأعداء الإسلام حتى لا يتجرؤوا مرة أخرى على الإغارة على أطراف بلاد المسلمين.

ومن المواقف المذكورة في هذا الخبر موقف المسلمين من أبناء المناطق المجاورة لمدينة «زبطرة» حيث هبَّ جميع الذين يملكون الأسلحة والدواب لنجدة إخوانهم الذين داهمهم العدو، وهذا فهم منهم لفرضية الجهاد وتعيينه على من داهمهم العدو ومن حولهم ممن تقوم بهم الكفاية، وقد استطاعوا دحر العدو ووقف تقدمه نحو بلاد الإسلام حتى اضطر إلى التراجع إلى بلاده، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان لدى المسلمين آنذاك، حيث لم يعتبر أهل كل بلد مصالح بلدهم خاصة، وإنما اعتبروا العدو على بلد إسلامي عدواناً عليهم جميعاً، وبهذا الشعور الحي العام يشعر الأعداء أن كل بلد إسلامي موصول بالبلدان الإسلامية الأخرى وأنه ليس بإمكان العدو التوغل في بلاد الإسلام اعتماداً على بُعد عاصمته وجيشه.

ومن المواقف الرائعة في هذا الخبر مقدرة فرسان المسلمين الفائقة في جزء من الجيش الإسلامي على هزيمة معظم جيش الروم، الذي كان بقيادة ملكهم، وهذا يُلقِّنهم درساً بليغاً، لأنه لو حصل اللقاء مع جيش المسلمين الكامل فإن النتيجة ستكون إبادة جيش الروم، ولهذا لم يفكر ملك الروم بالعودة لفك الحصار عن «عمورية» التي تعتبر من أعظم مدنها.

### فتح مدينة عمورية:

أما فتح «عمورية» من بلاد الروم، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن المسلمين وصلوا إليها وحاصروها، وكان لها سور حصين وراءه نفق، فتحصن أهلها داخلها قال: وكان رجل من المسلمين قد أسر أهل عمورية فتنصّر وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم الحصن<sup>(١)</sup> فلما رأى أمير المؤمنين ظهر وصار إلى

(١) يعني لم يتصرف عند دخول فلول المنهزمين من الروم إلى عمورية والتحصن بها.

المسلمين، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعاً من المدينة حمل الوادى عليه من مطر جاءهم شديد، فحمل الماء عليه فوق السور من ذلك الموضع فكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع فتوانى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوف الوالى أن يمر الملك على تلك الناحية فيمر بالسور فلا يراه بُني، فوجه خلف الصُّنَّاع فبنى وجه السور بالحجارة حجراً حجراً، وصير وراءه من جانب المدينة حشوا، ثم عقد فوقه الشُّرف كما كان، فوقَّف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف، فأمر المعتصم فضرب مضربه من ذلك الموضع، ونصب المجانيق على ذلك البناء، فانفجر السور من ذلك الموضع، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علَّقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشباً غيره وصيروا فوق الخشب البراذع ليرسوا السور.

فلما ألحَّت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور فكتب ياطس والخصي<sup>(١)</sup> إلى ملك الروم كتاباً يعلمانه أمر السور، ووجه الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام عربي وأخرجاهما من الفصيل، فعبرا الخندق ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفرغاني، فلما خرجا من الخندق أنكروهما فسألوهما: من أين أنتما؟ قالا لهم: نحن من أصحابكم، قالوا: من أصحاب من أنتم؟ فلم يعرفا أحداً من قواد أهل العسكر يسميانه لهم، فأنكروهما وجاؤوا بهما إلى عمرو الفرغاني بن أرنجاء، فوجه بهما عمرو إلى أشناس، فوجه بهما أشناس إلى المعتصم، فسألهما المعتصم وفتشهما فوجد معهما كتاباً من ياطس إلى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جمع كثير، وقد ضاق بهم الموضع، وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصن، ويفتح الأبواب ليلاً غفلةً، ويخرج فيحمل على العسكر كائناً فيه ما كان، أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب، حتى يخلص من الحصار ويصير إلى الملك.

(١) هما من قادة الروم وكانا دخلا عمورية بعد المعركة التي انهزم فيها الروم.

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلم منهما العربية والغلام الذي معه ببدة<sup>(١)</sup>، فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عمورية، فقالا: ياطس يكون في هذا البرج، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيه ياطس طويلاً، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخُلَع، ومعهما الكتاب، حتى فهمها ياطس وجميع الروم وشموهما من فوق السور، ثم أمر بهما المعتصم فنحوهما.

وأمر المعتصم أن تكون الحراسة بينهم نواب، في كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها، لئلاً يُفتح الباب ليلاً فيخرج من عمورية إنسان، فلم يزل الناس يبيتون كذلك نواب على ظهور الدواب في السلاح ودوابهم بسروجها، حتى انهدم السور ما بين بُرجين من الموضع الذي وُصف للمعتصم أنه لم يُحكم عمله.. إلى أن قال:

فلما كان من الغد قاتلهم على الثلثة، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه، وكان الموضع ضيقاً، فلم يمكنهم الحرب فيه، فأمر المعتصم بالمنجنقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور فجمع بعضها إلى بعض، وصيروها حول الثلثة وأمر أن يُرمى ذلك الموضع، وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه فأجادوا الحرب وتقدموا.

فلما كان اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة، ومعهم المغاربة والأتراك، والقيّم بذلك «إيتاخ» فقاتلوا فأحسنوا واتسع لهم الموضع المتثلّم، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات.

ثم ذكر أن الحرب بالنسبة للروم اقتضت على القائد المتاخم لتلك الثلثة وجيشه، وأنه طلب من بقية قادة الروم الذين اقتسموا حراسة البروج حول المدينة أن يشاركوا في القتال وإلا ذهبت منهم المدينة فأبوا وقالوا: قد سلم السور من ناحيتنا وليس نسألك أنت تمدنا فشأنك وناحيتك، فعزم هذا القائد هو وأصحابه على الاستسلام للمسلمين.

---

(١) البدة كيس توضع فيه الدنانير والدراهم.

فلما أصبح هذا القائد وهو «وندو» خرج فتفاوض مع أمير المؤمنين على التسليم مقابل الأمان على الذرية والمتاع والسلاح، فدخل المسلمون من تلك الناحية واستولوا على جميع ما في عمورية<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم فتح مدينة «عمورية» التي تعتبر من أعظم مدن الروم وأشدها تحصيناً، وكان من أسباب تعجيل الفتح ما قام به ذلك الرجل المسلم الذي تنصر ظاهراً لماً وقع أسيراً في يد الروم، وذلك حينما دل المسلمين على نقطة الضعف في سور المدينة، وهذا موقف يذكر لهذا الرجل فإن الخروج من تلك المدينة المحصنة بغير توجيه من قادتها يعتبر أمراً في غاية الصعوبة والخطورة، وقد خاطر هذا الرجل بحياته من أجل أن يدل المسلمين على مفتاح دخول تلك المدينة المحصنة.

ومما يذكر من المواقف في هذا الخبر ما كان يتمتع به المجاهدون آنذاك من اليقظة ودقة الرصد، حيث لم يستطع رسول الروم أن يفلت منهم مع أن الروم أجادوا اختياره، حيث اختاروا رجلاً يجيد اللغة العربية بفصاحة، حتى يظن المسلمون أنه واحد منهم إذا خاطبوه، ولقد كان لهذا التفوق في الرصد الحربي أثره الكبير في سير أحداث المعركة، حيث جنبَّ المسلمين خطر الهجوم المباغت الذي خطط له الأعداء.

هذا وإننا لنجد في خبر هذه المعركة عبراً عظيمة: منها ما نتج عن تكاسل حاكم عمورية في بناء السور لما تهدم من أثر السيل، فلقد جر تكاسله هذا وبالاً عليه وعلى قومه، وقد كانت عمورية تردُّ الغزاة من قوة ومثانة سورها، لكن هذا الخطأ الفادح من أميرها كان سبباً في انتصار المسلمين وهزيمة الروم، ولقد كان هذا الوالي يفقد عاملاً مهماً من عوامل النجاح في الحكم وهو الحزم.

ومنها تخاذل قادة الروم عن حماية مدينتهم، واعتبارهم كل واحد منهم أن مسئوليته منحصرة في حماية الجزء المخصص له من السور، وكانت الحكمة والسياسة الحربية أن يجتمعوا على حماية مدينتهم من ذلك السور المتهدم، لأن دخول المدينة من جهة يعني الاستيلاء عليها جميعها.

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٦٣ - ٦٨ باختصار.

وهذا الموقف المتخاذل الأناني يدل على تفرق قادة الروم، وعدم وجود قائد  
قدير يخطط لهم وينفذون أوامره.

ومنها أن تركيز المسؤولية في القادة الكبار البعيدين عن ميدان المعركة له أثر كبير  
في الفشل والهزيمة، فإن القائد الرومي الذي عزم على مباغطة المسلمين بالحملة  
عليهم، ثم الانحياز إلى ملك الروم لم يكن قادراً على تنفيذ تلك الخطة إلا  
باستئذان ملك الروم الذي بينه وبينه مسافة بعيدة، فإلى أن يذهب الرسول - فيما  
لو سلم - وحتى يعود تكون المعركة قد حُسمت بينهم وبين المسلمين.

أما قادة المسلمين فإنهم قد عرفوا المبادئ العامة التي يسير عليها قادتهم عادة  
والأحكام والآداب الإسلامية التي يلزمهم تنفيذها، ثم هم بعد ذلك أحرار في  
الاجتهاد واتخاذ القرارات اللازمة بعد أخذ مشورة أهل الرأي في جيشهم، ولذلك  
فإنهم قد اغتنموا فرصاً كثيرة ما كانوا ليستفيدوا منها لو كانوا يرجعون إلى أمير  
المؤمنين في كل أمورهم.

\*\*\*

### ٣- جهاد السلطان ألب أرسلان مع الروم

السلطان ألب أرسلان هو أحد سلاطين السلاجقة وهو محمد بن داود جفري بك بن ميخائيل بن سلجوق، وقد بلغت حدود سلطته من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى أقاصي الشام، ومع ذلك كان تابعاً لخلفاء بني العباس، وكان كريماً عادلاً عاقلاً، وقد دخل بعض الأمراء تحت سلطانه لحسن سيرته وعدله.

وقد توفي مقتولاً بيد أحد الولاة وهو يوسف الخوارزمي وكان السلطان أرسلان يريد قتله فعاجله يوسف وقضى عليه وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائة<sup>(١)</sup>.

#### معركة «ملاذكرد»:

هذه معركة مشهورة حاسمة جرت بين المسلمين بقيادة ألب أرسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس، وفي خبرها يقول ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وستين وأربعمائة: في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج، والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد، فجاؤوا في تجمُّل كثير وزيٍّ عظيم، وقصد بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكرد من أعمال خلاط، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خوي من أذربيجان قد عادَ من حلب، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبُعدها وقُرب العدو، فسير الأتقال مع زوجته ونظام الملك إلى همدان، وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس، وجدَّ في السير، وقال لهم: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمتُ فنعمةٌ من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنَّ ابني ملكُشاه وليُّ عهدي.

وساروا، فلما قارب العدو جعل له مقدمة، فصادفت مقدمته عند خلاط مُقدِّم الرومية في نحو عشر آلاف من الروم، فاقتتلوا، فانهزمت الرومية، وأُسِرَ مقدّمهم فحُمِلَ إلى السلطان فجدع أنفه، وأخذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد.

(١) الكامل لابن الأثير.



فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة، فقال: لا هدنة إلا بالرِّي، فانزعج السلطان لذلك، فقال له إمامه وفقهه أبو نصر محمد ابن عبد الملك البخاريُّ الحنفي: إنك تقاتل عن دين وعدَّ الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فآلَقَهُم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاءُ مقرون بالإجابة.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فليصرف، فما ههنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنَّط، وقال: إن قُتِلت فهذا كفني.

وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجَّل وعفَّر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء، ثم ركب وحَمَلَ وحَمَلَتِ العساكر معه، فحصل المسلمون في وسطهم، وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم، وقُتِل منهم ما لا يحصى، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى.

وأُسِر ملك الروم، أسره بعض غلمان كوهرائين فأراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادم الملك: لا تقتله فإنه الملك، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقاراً له، فأثنى عليه كوهرائين، فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً فكان كذلك، فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده، وقال له: أَلَمْ أُرسل إليك في الهدنة فأبيت، فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد، فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح، قال له: فما تظن أني أفعل بك؟ قال إما أن تقتلني، وإما أن تشهّرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك، قال: ما عزمت على غير هذا، ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق

كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة؟ فدلَّ عليها فقام وكشف رأسه وأوماً إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيَّره إلى بلاده، وسيَّر معه عسكرياً أوصلوه إلى مأمته، وشيَّعه السلطان فرسخاً<sup>(١)</sup>.

وهكذا عشنا مع هذا الخبر الذي ضرب فيه المسلمون بقيادة السلطان ألب أرسلان مثلاً عالياً في البطولة والتضحية.

فهذه المعركة الهائلة لا يشبهها إلا بعض معارك الصحابة رضي الله عنهم كاليرموك ونهاوند، حيث يتقابل المسلمون مع عشرة أضعافهم وأكثر، ثم يكون النصر إلى جانب المسلمين في ساعات معدودة.

ولقد ظهرت القوة المعنوية للمسلمين في هذه المعركة بشكل بارز، حيث لم يعد هناك نظر إلى السلاح، وإنما اشرأبت الأعناق إلى من بيده مقاليد كل شيء جل وعلا، وأيقن القادة والجنود أنه إذا لم يتداركهم الله سبحانه بنصر من عنده فإنهم لن يكسبوا المعركة أبداً، ولكنهم قد وطمَّنا أنفسهم على البديل الأعلى، وهو أن يتقبلهم الله تعالى شهداء، وتعلقت آمالهم بإحدى الحسينين: إما النصر أو الشهادة.

ولقد كان لقائد المسلمين أثر كبير في تقوية معنويتهم، وتعبئة مشاعرهم نحو الثبات أمام الأعداء.

ولا ننسى أثر العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فقد قام بتأييد السلطان، وقوى قلبه برجاء أن يكون الفتح على يديه، وبتذكيره بالهدف السامي الذي يجاهد من أجله وهو نصر هذا الدين العظيم الذي وعد الله سبحانه بنصره على جميع الأديان، وأرشده إلى الوقت الأفضل للهجوم على الأعداء، فتقبل السلطان توجيهاته، وقوي أمله بالله تعالى.

---

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ١٠٩ - ١١٠، وانظر البداية والنهاية ١٢ / ١٠٧ - ١٠٨.

وهكذا يؤدي العلماء الربانيون دورهم المطلوب منهم في تقوية الروح المعنوية لدى المجاهدين، وهذا هو السلاح القوي الذي يملكه المسلمون الصادقون، ويفقده أعداؤهم، وقد ظهر واضحاً في هذه المعركة أثر هذا السلاح.

أما المحاورة التي جرت بين السلطان ألب أرسلان وملك الروم فإنها كانت مثلاً عالياً في تمثيل أخلاق المسلمين وعلو سياستهم.

وإن هذه المعاملة إضافة إلى كونها تمثل أخلاق المسلمين المعروفة في إكرام الزعماء وتألفهم للإسلام، فإنها من الناحية السياسية قد ضمنت لزعماء المسلمين حقهم في التكريم والاحترام فيما لو وقعوا أسرى لدى الأعداء لعقود من الزمن.

فلله در هذا السلطان الكبير والسياسي القدير!!

لقد جاء ملك الروم بقضيه وقضيضه وخيله ورَجَلِه وعتاده ليقضي على المسلمين وليمحو الإسلام من الوجود، وكان من غروره أنه أقطع بلاد المسلمين لأمرائه، فكان له بالمرصاد فرقة من جيوش المسلمين أبادت خضرائه وحطَّت كبرياءه، وعاد ذلك الجبار المتغطرس يقبِّل الأرض بين يدي السلطان ألب أرسلان ويتودد له ليقبله نائباً عنه، وذلك منتهى الشعور بالذلة والمهانة، وإذا كان جزء من جيش السلطان أرسلان قد سحق جيشه فكيف لو أحضر السلطان جيشه كاملاً؟! وكيف لو اتفق مع بقية أمراء المسلمين على جهاد الروم؟!

\*\*\*

**الجهاد مع الروم  
في  
عهد العثمانيين**

## نشأة هذه الدولة

الدولة العثمانية تنسب إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان، وجده سليمان هو زعيم إحدى قبائل الغُزّ التركية، الوافدة من بلاد تركستان على إثر هجمات التتار على بلاد الإسلام، وقد وصل سليمان بقبيلته إلى بلاد الأناضول عام سبعة عشر وستمائة، ثم عاد بقبيلته إلى بلاده بعدما هدأت الأوضاع على إثر وفاة جنكيزخان زعيم التتار، لكنه توفي غرقاً في أحد الأنهار قرب مدينة حلب، فاختلف أبناؤه من بعده، فواصل السير بعضهم، وقرر أرطغرل العودة إلى بلاد الأناضول فعاد معه أربعمئة أسرة من القبيلة.

وقدر الله تعالى أن يواجه أرطغرل ومن معه جيش السلاجقة بقيادة علاء الدين السلجوقي وهم يقاتلون أعداءهم، فقام أرطغرل بنصر السلاجقة الذين كانوا قد أقاموا دولة إسلامية في بلاد الأناضول، فكافأه علاء الدين بأن أقطعه جزءاً من بلاده المجاورة للروم في مقاطعة «اسكي شهر».

ثم توفي أرطغرل وخلفه على تلك الإمارة ابنه عثمان، وشاء الله تعالى أن يموت السلطان علاء الدين السلجوقي عام تسعة وتسعين وستمائة ولم يكن له خليفة يخلفه، فحصلت فتن واضطرابات فقام عثمان بالاستيلاء على دولته، وكان ذلك بداية نشأة الدولة العثمانية.

وقد أحسَّ الأعداء من الروم والتتار بخطورة هذه الدولة الناشئة فقاموا بقتالها، وكان من أعظم الانتصارات التي حققها السلطان عثمان استيلاؤه على مدينة «بورصة» الحصينة، وحينما حاول الروم الاستعانة بالتتار توجه عثمان نحو التتار فشتت شملهم، وحاصر بورصة حتى استولى عليها في عام سبعة عشر وسبعمائة ٧١٧هـ الموافق ١٣١٧م، وقد أصبحت بورصة بعد ذلك عاصمة الدولة العثمانية.

ثم تولى السلطان أورخان بن عثمان بعد وفاة أبيه وذلك في عام ستة وعشرين وسبعمائة ٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٦م، وفي عهده تم تنظيم الجيش العثماني، وبدأ تكوين جيش الانكشارية، وهو جيش مكون من أبناء الدول الأوروبية الشرقية

بعدما دخلوا في الإسلام وتم تدريبهم الحربي، وقد أصبح لهم أثر كبير في توطيد دعائم الدولة العثمانية وفي عهده توسعت الدولة العثمانية حيث استولى على عدد من الأقاليم الآسيوية.

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة - ٧٥٨هـ الموافق ١٣٥٧م - اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده مضيق الدردنيل الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة ومعه جزء من جيشه تحت أستار الظلام، حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ما كان بها من القوارب وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم، فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا، وكان عدده ثلاثين ألفاً، واحتل ميناء «ترنب»، ووقفوا بسقوط جزء من أسوار مدينة «جاليبولي» التي تقع على مضيق الدردنيل من جهة أوروبا، وذلك بسبب زلزال شديد، فدخلها العثمانيون بدون عناء، وكان ذلك بداية استيلاء العثمانيين على شرق أوروبا.

وقد توفي سليمان بن أورخان بعد ذلك بعام وانتقلت ولاية العهد إلى أخيه مراد.

ثم تولى السلطان مراد الأول بن أورخان بعد وفاة أبيه عام واحد وستين وسبعمائة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م، وفي عهده بدأ جهاد العثمانيين في أوروبا الشرقية بشكل واضح، حيث استولى على إمارات البلقان، وسقطت مدينة «أدرنة» بأيدي العثمانيين ثم اتخذوها عاصمة لهم، كما تم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك، ومن أبرز المعارك التي خاضها العثمانيون في شرق أوروبا معركة قوصوه وكانت بقيادة السلطان مراد نفسه وقد انتصر فيها العثمانيون على جيش كثيف من الأحلاف النصرانية التي تكونت من الصرب والبُشناق والمجر والبلغار والألبانيين، وكانت في هذه المعركة نهاية السلطان مراد حيث كان يتفقد القتلى فقام صربي من بينهم فطعنه على حين غفلة منه فقتله.

ثم تولى السلطان بايزيد بن مراد الأول بعد استشهاد أبيه عام واحد وتسعين وسبعمائة، ٧٩١هـ الموافق ١٣٨٩م، وفي عهده قامت حملة صليبية بتحريض من البابا، فاجتمع جيش أوروبي عظيم بقيادة «سجسمند» ملك المجر فزحفوا على

بلدان شرق أوروبا واستردوا بعض البلاد التي استولى عليها العثمانيون، وكان السلطان «بايزيد» غائباً في آسيا، فلما علم بذلك عاد سريعاً والتقى بهم في معركة كبيرة انهزم فيها الصليبيون شر هزيمة وذلك عام ثمانية وتسعين وسبعمائة ٧٩٨هـ الموافق ١٣٩٦م.

وفي عهد السلطان بايزيد تم حصار القسطنطينية، وكاد أن يفتحها لولا مداهمة جيش تيمورلنك المغولي من المشرق، فاضطر إلى فك حصار القسطنطينية والزحف نحو المشرق لمقاومة التتار، وقد جرت بينهم معركة هائلة أبدى فيها السلطان بايزيد بسالة عظيمة إلا أن تفوق التتار في العدد وتسلل بعض جيش العثمانيين نحوهم جعل المعركة لصالح التتار فانهزم العثمانيون، ووقع السلطان بايزيد في الأسر هو وابنه موسى وذلك في آخر عام أربعة وثمانمائة، ثم مات عام خمسة وثمانمائة وتفرق أولاده وحدثت بينهم فتن وحروب كادت تقضي على دولتهم إلى أن استطاع أحدهم وهو السلطان محمد الأول ابن بايزيد أن يسيطر على الوضع، وقد بقي في السلطة ثماني سنوات قضاها في حروب داخلية أخضع بها الأمراء الذين انتقضوا على دولته.

وبعد وفاة السلطان محمد الأول عام أربعة وعشرين وثمانمائة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م، تولى السلطة ابنه مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح، وفي عهده أكمل العثمانيون سيطرتهم على آسيا الصغرى وشرق أوروبا.

ومن أشهر المعارك التي خاضها معركة «وارنه» وكان السلطان مراد قد تنازل عن السلطنة لابنه محمد الفاتح، وكان آنذاك صغير السن حيث لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فاغتر بذلك ملوك أوروبا الذين كانوا قد عقدوا هدنة مع السلطان مراد فنقضوا الهدنة واغتنموا فرصة غياب السلطان مراد حيث كان في عزلة في إحدى قرى الأناضول، وجمعوا جيشاً كبيراً بتحريض من البابا «أوجانيوس الرابع»، وما أن علم السلطان مراد بذلك التجمع حتى خرج من عزلته وعبر مضيق البسفور ومعه أربعون ألفاً قد اختارهم من الجيش العثماني، فزحف بهم نحو تجمع الأعداء، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة تحت أسوار مدينة «وارنه»، وقد كاد النصر أن يكون حليف النصارى لما يتمتعون به من الحماس والحمية

الدينية، ولكن ما قام به السلطان مراد من قتل ملك المجر قد غير مسيرة المعركة، حيث أصيب الأعداء بالخوف والهلع لما رأوا رأس ملك المجر مرفوعة على رمح والمسلمون يكبرون فرحين، فحمل المسلمون عليهم وهزموهم شر هزيمة وذلك في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة.

وفي عام خمسة وخمسين وثمانمائة ٨٥٥ هـ الموافق ١٤٥١ م، تولى السلطان محمد الفاتح بن السلطان مراد، وقد لُقّب بالفاتح لما تم على يديه من فتح القسطنطينية الذي يعتبر من أعظم فتوحات المسلمين<sup>(١)</sup>.

### فتح القسطنطينية:

لقد كان هذا الفتح أملاً كبيراً يتمنى قادة المسلمين تحقيقه منذ أن طرق مسامعهم قول رسول الله ﷺ: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلْنَعْمُ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلْنَعْمُ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»<sup>(٢)</sup>، وقد سبق ذكر الحملة الجهادية التي كانت في عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وكانت بقيادة ابنه يزيد، والحملة الأخرى التي كانت في عهد سليمان بن عبد الملك وكانت بقيادة أخيه مسلمة، ثم كانت محاولات أخرى، ولكن فتح هذه المدينة كان مدخراً للسلطان الشاب الشجاع محمد بن مراد العثماني الذي حاز على لقب الفاتح بعد ذلك، فكيف تم فتح هذه المدينة العظيمة التي أعجزت قادة المسلمين قبل ذلك.

لقد كان واضحاً لدى سلاطين آل عثمان أن فتح القسطنطينية لا يتم إلا من جهة أوروبا لكونها محاطة من جهة آسيا بالبحر، فلذلك عقدوا العزم على توسيع فتوحاتهم في شرق أوروبا، ثم نقلوا عاصمتهم إلى «أدرنه» بعد فتح جزء كبير من أوروبا، فأصبحوا يستطيعون حصار القسطنطينية من جميع جهاتها بعد أن صارت مملكة صغيرة في داخل إمبراطوريتهم الواسعة، فكانت هذه الأعمال الجهادية السابقة تمهيداً لما قام به السلطان محمد الفاتح من فتح هذه المدينة.

---

(١) انظر كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي ص ١١٣ - ١٥٩ وكتاب «تاريخ الدولة

العثمانية» للدكتور على حسون ٨ - ٢١، وكتاب «السلطان محمد الفاتح» للدكتور عبد السلام فهمي ١١

- ٢٢، وكتاب «التاريخ الإسلامي» للدكتور أحمد شلبي ٥ / ٦٦٩ - ٦٧٦.

(٢) مسند أحمد ٤ / ٣٣٥.



ولما عزم السلطان الفاتح على فتح القسطنطينية زحف بجيش يبلغ خمسين ألفاً، ثم سيطر على جميع منافذ المدينة حتى لا يصل إليها مدد من الخارج.

وقد عرض السلطان الفاتح على ملك الروم قسطنطين أن يسلم المدينة في مقابل سلامة جميع من فيها على أرواحهم وممتلكاتهم، فرفض قسطنطين ذلك، وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانمائة ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م.

ولما كان لابد من الحرب فإن السلطان أمر برمي أسوار المدينة بالمدافع، وكان الجيش التركي مزوداً بمدافع من أضخم وأحدث المدافع الموجودة في العالم آنذاك.

وقد خاطب الفاتح قاداته بقوله: إن تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وهذا الخطاب يبين لنا ارتباط الفاتح الوثيق بالدين واستمداده النصر من الله تعالى. وأنه كان يقاتل عن عقيدة دينية قوية، وقد أشاع هذه العقيدة في قاداته وجنده حتى أصبحوا يقاتلون بمعنوية عالية، إلى جانب ما تزودوا به من سلاح مادي قوي، وإذا اجتمعت القوتان المعنوية والمادية حصل النصر بإذن الله تعالى.

### خطط حربية ناجحة:

كان أقرب مكان للسيطرة على القسطنطينية من البحر من ناحية ميناء القرن الذهبي، وكان الروم يدركون خطورته فيما لو دخلت منه سفن المسلمين، فوضعوا في مدخله سلسلة حديدية ضخمة، وقد حاول المسلمون قطع هذه السلسلة فلم يستطيعوا لقوة الحامية المكلفة بالحراسة من الروم، ففكر السلطان الفاتح بخطة لنقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر على مسافة ستة أميال تقريباً، ولما وافق المستشارون على الخطة أمر الفاتح بتمهيد الأرض ومد ألواح

الحشب المدهونة بالزيت والشحم، ثم قام الجنود بسحب السفن عليها، فاستطاعوا أن يُنزلوا في القرن الذهبي سبعين سفينة في ليلة واحدة، وقد أذهلت هذه الخطة الأعداء وحطت من معنيتهم الحربية، حيث أصبح بإمكان سفن المسلمين أن تضرب الأعداء عن قرب وأن تشل حركة الملاحة البحرية لديهم.

ومن الخطط الحربية التي استخدمها المسلمون، حفر الأنفاق لإدخال الجنود منها إلى المدينة، وكانوا كلما اكتشف الأعداء ذلك حفروا في مكان آخر، فكان ذلك مما جعل الأعداء في رعب دائم لاحتمال أن يفاجئهم المسلمون من أي مكان.

ومن الخطط الحربية المذهلة قيام المسلمين بصناعة برج خشبي مرتفع من ثلاثة طوابق، وقد فوجئ به الأعداء وهو يعلو أسوارهم وقد تحصن به عدد من المجاهدين الذين استعدوا لاقتحام سور المدينة من أعلاه، وقد قال المؤرخ البندقي «باربارو» عن هذا البرج الهائل: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر، وقد صنعها المسلمون الأتراك في ليلة واحدة، بل في أقل من أربع ساعات».

وهذا اعتراف من الأعداء آنذاك بتفوق المسلمين في الصناعات الحربية، وقد كان ذلك مكملًا لتفوقهم في الروح المعنوية المبنية على تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف.

### الهجوم الأخير:

حينما استنفذ السلطان الفاتح مقاصده في تحطيم معنوية الأعداء وهدم أجزاء من الأسوار خطط للهجوم العام من البر والبحر، فأمر بالهجوم من جميع الجهات وانطلق الجنود المغامرون نحو الأسوار وصعدوا على السلالم في محاولة للهبوط على المدينة بشكل مكثف، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من الأعداء، سواء من جهة البر أو البحر، واستطاع الأعداء أن يقلبوا بهم السلالم، وسقط عدد من المسلمين صرعى تحت الأسوار، ولكن ذلك لم يفت في عزائم المسلمين، بل استمروا في الهجوم، وكان السلطان يدفع بالجنود إلى الأسوار بالتناوب، وكان ذلك يعطي المسلمين قوة حيث تواجه كل فرقة منهم جيش الأعداء وأفراده قد

أنهكوا من ضراوة الحرب وعُنف المقاومة، وكان السلطان يقصد بذلك تحطيم معنوية جيش الأعداء حتى تضعف مقاومتهم، وفي أثناء ذلك الهجوم المتواصل استطاع أحد الجنود الأتراك أن يقتل قائد الأعداء في المنطقة الشمالية مبارزة، وبمقتله انهارت معنويات فرقته ووُلِّي أفرادها هارين، فانتهاز السلطان هذه الفرصة فدفَع بأفراد فرقة الانكشارية المشهورين بالشجاعة والمغامرة إلى ذلك المكان فاندفعوا كالسيل الجارف واستطاعوا دخول المدينة ورفعوا فوق أسوارها أعلام العثمانيين.

وفي أثناء ذلك أصيب جستينان أبرز قادة الأعداء بجرح بليغ ونُقِلَ بعيداً عن ميدان المعركة، أما الملك قسطنطين فإنه أصيب بالفرع والدَّعر الشديد حينما رأى جنود العثمانيين ينطلقون بعنف وسرعة نحو داخل المدينة، فنزل عن حصانه وخلع ملابسه القيصرية وصار يدافع بسيفه حتى قتل.

وفُتحت جميع أبواب المدينة بعد أن فرَّ حماتها وتم فتح هذه المدينة العريقة التي استعصت على جميع الغزاة من قبل وذلك في عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م، وتحقق في ذلك الأمير الشاب وجنوده بشارة النبي ﷺ وثناؤه العظيم<sup>(١)</sup>.

### فتح مدينة بلغراد:

بعد أن توفي السلطان محمد الفاتح في عام ستة وثمانين وثمانمائة، خلفه في الحكم ابنه بايزيد، ثم تنازل عن الحكم لولده السلطان سليم عام ثمانية عشر وتسعمائة، فلما توفي خلفه في الحكم ابنه سليمان القانوني عام ستة وعشرين وتسعمائة، وهو عاشر سلاطين آل عثمان.

وفي عهده تم فتح مدينة بلغراد، وكان سبب تسيير الجيش نحوها أن ملك المجر قتل السفير الذي أرسله السلطان بطلب دفع الجزية التي كانت مقررة قبل ذلك، فاستشاط السلطان غضباً وأمر بتجهيز جيش كبير لمحاربة المجر وقاده بنفسه، وأرسل أحد مشاهير قواده وهو أحمد باشا لمحاصرة مدينة شابتنس التي تقع إلى الشمال من بلغراد وذلك في شعبان عام سبعة وعشرين وتسعمائة ففتحها، ثم وجه

---

(١) انظر كتاب تاريخ الدولة العلية / ١٦٠ - ١٦٥، وكتاب الدولة العثمانية/ ٢٢ - ٣٢، وكتاب «السلطان محمد الفاتح» / ٧٥ - ١٢٦.

السلطان ذلك الجيش لمساعدة الجيش الذي يحاصر بلغراد، وقد تم فتح هذه المدينة المشهورة بعد دفاع شديد، ثم أصبحت بعد ذلك معقلاً للمسلمين تنطلق منه الجيوش لفتح ما وراء نهر الدانوب<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانت رايات المسلمين ترفرف وسط أوروبا، وهي تحمل عزة الإسلام وقوة دولته، ولولا ما حدث في تاريخ المسلمين من الحروب الداخلية التي أضعفت قوتهم لاكتسحت جيوشهم أوروبا كلها وغيرها من بلاد العالم.

### فتح جزيرة رودس:

كانت جزيرة رودس معقلاً حربياً لأعداء الدولة العثمانية تلجأ إليه سفنهم الحربية، ولقد حاول أسلاف السلطان سليمان القانوني فتح هذه الجزيرة فلم يتمكنوا لشدة اهتمام الدول الأوروبية بها وحمايتهم لها، ولقد كان الدافع للاهتمام بفتحها أن تكون حلقة اتصال بين إسلامبول ومصر ولكي لا تكون مركزاً حربياً للأعداء.

ولقد انتهاز السلطان سليمان فرصة انشغال ملوك أوروبا بحرب بينهم فجهز جيشاً بحرياً وآخر برياً ليكون على الساحل المقابل للجزيرة، وقبل الهجوم أرسل السلطان إلى رئيس الرهبان الذين كانوا مسيطرين على الجزيرة يدعوهم إلى إخلاء الجزيرة مع ضمان عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم، فلم يقبل رئيسهم هذا العرض فأمر السلطان بحصارها، ولقد قاوم أهلها بما عندهم من سلاح ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام المدافع العثمانية، فأرسل رئيسهم اثنين من رهبانه إلى السلطان يطلب منه السماح لهم بإخلاء الجزيرة، وغادروها إلى جزيرة مالطة، وبذلك أصبحت جزيرة رودس جزيرة إسلامية تحت سلطان الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وهذا مثل جيد في دراسة واقع الأعداء، وانتهاز الفرص المناسبة لتحقيق المكاسب الحربية بأقل الخسائر، وهذا يحتاج إلى رصد حربي دقيق واستعداد قوي بالرجال والسلاح لتحقيق الأهداف المطلوبة في الوقت المناسب.

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية/ ١٩٩ - ٢٠٢.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية/ ٢٠٣ - ٢٠٦.

## إنقاذ تونس من النصارى:

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين» عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان ما نصه: وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعوه في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب<sup>(١)</sup> مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة ذلك سنان باشا وقلج علي باشا، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف، فنصر الله المسلمين بعد أن قُتل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد. ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثاً وأربعين سنة فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوماً من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ثم خرّب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسم ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يمهله الأجل رحمه الله. انتهى<sup>(٢)</sup>.

هذا الخبر يبين لنا دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي، فإنه مع بعد بلاد تونس عن عاصمة الدولة العثمانية فإن السلطان سليم قد أهتم أمرها لما بلغه استيلاء النصارى عليها، فأرسل لها جيشاً بحرياً قضى على وجود الأعداء فيها وأعادها إلى حكم المسلمين.

إن هذا الاهتمام الكبير من سلاطين آل عثمان ببلاد الإسلام يجعل الأعداء يترددون كثيراً في الهجوم على أي بلد إسلامي وإن كان صغيراً ولا قوة فيه، وهذا

(١) أي سفينة.

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١٢٩٩ عن كتاب «نشر المثنى» للشيخ محمد القادري.

من مزايا وجود الدولة الإسلامية الكبرى، فالأشبال في العرين ضعاف وليس بإمكانهم إنقاذ أنفسهم، ولكن يوشك أن يعود الأسد إلى عرينه فينتقم ممن أوقع الضرر بأشباله وإن بعد مكانه.

### جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق:

كان ميخال حاكماً لبلاد الأفلاق من قبل السلطنة العثمانية، فخرج عن الطاعة وجمع جموعاً من النصارى وتمرد وعاث في بلاد العثمانيين في أوروبا، فأرسل له السلطان محمد بن مراد بن سليم جيشاً بقيادة أحد وزرائه، ولكن الأعداء ظفروا به وبجيشه فزاد الأعداء عتوا وتجبراً.

وقد أشار عليه وزيره سنان باشا بأن يسافر إلى الأعداء بنفسه، فخرج بجيشه من دار خلافته في شوال سنة أربع بعد الألف، ووصل إلى قلعة في غاية المنعة والتحصين، فنازلها بجنوده فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا طائعين، وسلموها في أواخر صفر سنة خمس وألف، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأتراك فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة، فكاتب ملوك النصارى يطلب الإمداد منهم بالعساكر والذخائر فجاءوا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء، وكان السلطان محمد سار بعسكره إلى القلعة التي بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الإسلام حينئذ غير مستعد والنصارى في غاية الكثرة جداً بحيث إن جمعهم المخدول لا يُحصى، وكان يوم دهمتهم يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول من السنة ووقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا، وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضاً واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقى في الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بدءاً ووصلوا إلى مخيم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجه سعد الدين وكان في صحبتته فحضر بين يديه وجعل يثبته، والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله، فلم يكن بأسرع من أن قَوِيَ المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال، وتراجع جميع العسكر فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارّون حتى قتل بعضهم بعضاً من

الزحام وغيره، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة، وأكثر ذلك كان على يد الوزير سنان باشا ابن جغال والوزير حسن باشا ابن محمد باشا، وأُحصيت قتلَى المسلمين فكان الذي استشهد من القوَاد ما يقرب من أربعمئة، ومن أصحاب الأُلوية المعبر عنهم في اصطلاح الروم بالصناجق بضعة عشر رجلاً، ومن الأمراء الكبراء أربعة أنفار، ومن العساكر ما بين فارس وراجل مالا يُحصى، ووافق بعد الظفر أن السلطان قتل من عسكره الفارّين جماعة كثيرين وقبض على باقيهم وحقرهم غاية التحقير في منصرفه وعاقب بعض من فرّ بقطع علوفته<sup>(١)</sup> وضبط ملكه وماله لجهة بيت المال.

والحاصل أن ما وقع له من هذه النصرة لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان، وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمداد رباني غير متناه، ولقد حكى كثير من السيّاح أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان: «صاحب القرآن» وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لا تُسامى، وأنهم على عادتهم يصوِّرون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رُزقها<sup>(٢)</sup>.

وبعد: فإن ما جرى في هذه المعركة من انتصار المسلمين كان على خلاف المعتاد في المعارك الحربية، فالسلطان محمد كان في جيش صغير بالنسبة لجيوش النصارى الكثيرة التي اجتمعت من بلاد كثيرة، وداهمت المسلمين على غرة، ولقد حصل في بداية المعركة انهزام وتفرق في جيش المسلمين أمام هجوم النصارى المركز، وهذا شيء طبيعي، ولكن الشيء الذي جرى على خلاف المعتاد أن ينتصر السلطان هو ومن ثبتوا معه وهم قليل على عدو يفوقهم كثيراً في العدد والاستعداد، ولا تفسير لذلك إلا ما كان من لجوء السلطان إلى الله عز وجل واستغاثة به، وما كان من معلمه سعد الدين الذي ظل يثبتته ويقوي عزيمته، فكان هذا السلاح المعنوي

(١) أي راتبه.

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ١١٤٠ - ١١٤٣، عن كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للشيخ فضل الله المحبي.

أقوى من كل ما أعدّه الأعداء من جنود وذخائر، وإذا تذكرنا ما جاء في ترجمته من أنه كان صالحاً عابداً ساعياً في إقامة الشعائر الدينية مراعيّاً لأحكام الشريعة، فإننا لا نستغرب أن يظفر بنصر الله تعالى وتأييده.

إن الجندي بحكم تكوينه الجسماني يملك طاقة كبيرة، ولكنه لا يستخدم - عادة - إلا قليلاً منها، وهذا القليل في الحرب يصرف جزءاً منه للدفاع عن نفسه فيكون جهده الذي يبذله في الهجوم بنسبة قليلة جداً، ولكن حينما يدخل في ميزان المعركة عامل الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره الذي يفرض على المسلم أن يؤمن بأنه لا يمكن أن يموت قبل حلول أجله . . . وحينما يدخل عامل الإيمان بأن المسلم إنما ينتظر في جهاده إحدى الغايتين الحسنتين: إما الظفر بالنصر العزيز على الأعداء، وإما الظفر بالشهادة التي هي أسمى أماني المؤمنين . . . حينما يدخل ذلك في ميزان القوى فإن الجندي الذي يحمل هذه المعاني السامية سيقا تل أعداءه بكل ما وهبه الله جل وعلا من طاقة، وبالتالي فإنه سيكون معادلاً لعشرات الجنود ممن لا يحملون هذه المعاني .

وذلك إلى جانب ما يعتقد به المؤمن من أن الله تعالى يمد أوليائه المؤمنين المتقين بمدد من ملائكته الكرام عليهم السلام، فهو حينما يلقي أعداءه لا ينظر إلى عدد أفراد جيشه، وإنما يكون فكره متجهًا نحو السماء بطلب المدد من الله تعالى.

وما جاء في آخر هذا الخبر من أن ملوك الفرنج كانوا يطلقون على السلطان محمد بن مراد بأنه صاحب القرآن دليل على اعتقادهم بأنه قريب من الله تعالى وأن نصره عليهم في هذه المعركة لم يكن بجهود مادية وإنما كان بتأييد من الله جل وعلا لتطبيقه ما جاء في كتابه سبحانه.

وهكذا تم عرض أمثلة من جهاد العثمانيين، ولم يكن المقصود استيعاب ذلك ولا كتابة تاريخ لهذه الدولة العظيمة، وإنما المقصود بيان شيء من مواقفهم في إعزاز الإسلام والجهاد في سبيله.

\*\*\*



مواقف وعبر في  
جهاد المسلمين  
في بلاد الهند والسند

**الجهاد والفتوحات  
في  
عهد الأمويين**

## نبذة عما سبق من الأحداث:

لقد كانت رغبة المسلمين في فتح بلاد السند منذ عهد عمر رضي الله عنه ولكن حال دون ذلك انشغال المسلمين بجهاد الدولتين العظميين آنذاك: دولة فارس والروم، إلى جانب قلة الموارد وكثرة عصابات اللصوص في تلك البلاد.

ففي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأ الجهاد في السند والهند، ومن أخبار ذلك ما ذكره البلاذري من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولّى على عمان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وأنه مضى إلى عمان ووجه أخاه الحكم إلى البحرين<sup>(١)</sup> وذكر أن عثمان بن أبي العاص قاد حملة بحرية إلى «تانه»، ووجه حملة أخرى بحرية إلى «بروص» بقيادة أخيه الحكم، وحملة بحرية ثالثة إلى «خور الديبل»<sup>(٢)</sup> وذكر أنه لقي العدو فظفر، وأنه كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه: يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم<sup>(٣)</sup>.

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على عثمان بن أبي العاص الثقفي لكونه أولاً غزا بلاد السند والهند بغير إذنه، ولكونه ثانياً لا يرى الوقت مناسباً لهذا الغزو حيث إن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد عن طريق البر، فهو يخشى على المسلمين أن يُقتطعوا ويهلكوا في البحر.

ولكن لما وصل الفتح الإسلامي إلى مشارف تلك البلاد أذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بغزوها، وذلك في سنة ثلاث وعشرين، وفي ذلك يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه.

(١) البحرين هي الأحساء كما تقدم.

(٢) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن تانه يطلق عليها «تهانه» وأنها مدينة هندية قديمة على البحر في شمال مدينة بومباي الحالية، وذكر أن بروص يطلق عليها «بهروج» وأنها على ساحل الهند أيضاً، وذكر أن «خور الديبل» يحتمل أن تكون هي مدينة كراتشي الحالية وسيأتي ما يؤيد ذلك - موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٣١.

(٣) فتوح البلدان / ٦٠٧.

قالوا: وقصد الحكم بن عمرو التغلبي لمكران، حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتھوا إلى دوين النهر، وقد انفضّ أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا، وعبر إليهم راسل ملكهم ملك السند<sup>(١)</sup>، فازدلف بهم مستقبل المسلمين. فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعدما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق بهم أخراهم، فهزمهم الله وانهمزم راسل وسلب، وأباح المسلمين عسكره، وقتلوا في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أياماً، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجعوا فأقاموا بمكران. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صحرار العبدى، واستأمره في الفيلة، فقدم صحرار على عمر بالفتح والمغانم، فسأله عمر عن مكران - وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه - فقال: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشل<sup>(٢)</sup>، وتمرها دقل<sup>(٣)</sup>، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شرّ منها، فقال عمر: أسجّاع أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال: لا، والله لا يغزوها جيش لي ما أطعت، وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل ألا يجوزن مكران أحد من جنودكم، واقتصرا على ما دون النهر، وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه.

وقال الحكم بن عمرو في ذلك:

لقد شبع الأرامل غير فخرٍ	بفنيّ جاءهم من مكران
أناهم بعد مسغبة وجهدٍ	وقد صفر الشتاء من الدخان
فإني لا يذمّ الجيش فعلي	ولا سيفي يذمّ ولا سناني <sup>(٤)</sup> (٥)

(١) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن الطبري أخطأ في جعل «راسل» ملك السند، وذكر أنه حاكم ولاية سندية وأنه يطلق عليه نائب الملك، وأن ملك السند هو «جج» الذي تولى الملك من السنة الأولى للهجرة حتى سنة أربعين - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٣٤

(٢) الوشل الماء القليل

(٣) الدقل أردأ التمر.

(٤) في رواية ابن كثير ولا لساني وهو الظاهر لأن السيف هو السنان - البداية ٧ / ١٣٦.

(٥) تاريخ الطبري ٤ / ١٨١.

فلما ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه وولّى عبد الله بن عامر بن كربز على العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه يخبره، فوجه حكيم بن جبلة العبدي، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين قد عرفتُها وتَنَحَّرْتُها، فقال: فصفها لي: قال: ماؤها وشكل، وثمرها دَقْل، ولصها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان: أخابر أم ساجع؟ فلم يُغزها أحداً<sup>(١)</sup>.

يعني هل أنت قصدت السجع في الكلام أم أنك تريد معنى ما تقول، ولما تبين له أنه يخبره عن حقيقة ما رأى عزم على عدم غزو تلك البلاد، وقد تقدم كلام صحار العبدي في وصف تلك البلاد، وهو يشبه كلام حكيم العبدي وكونهما قد اتفقا في الوصف دليل على الخبرة الدقيقة.

ثم كانت محاولة في عهد على بن أبي طالب رضى الله عنه حيث توجه الحارث بن مرة العبدي في آخر سنة ثمان وثلاثين ومعه ألف مقاتل، وقد واجه عشرين ألفاً من أهل القيقان في معركة دامية انتصر فيها المسلمون وأسروا آلافاً من الأعداء.

وهكذا رأينا ما قام به هذا الجيش من أعمال بطولية، حيث ثبتوا بشجاعة نادرة أمام جيش يبلغ ضعفهم عشرين مرة ومع ذلك لم يفروا وواصلوا القتال حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم وظفروا بذلك العدد الكبير من الأسرى.

وهذا مثل يضاف إلى بطولات المسلمين العظيمة في الثبات واحتمال الشدائد.

ولكن هذا القائد قد استشهد هو وعدد من جيشه في معركة أخرى لقلّة جيشه أمام جيش الأعداء وذلك في عام اثنين وأربعين<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٧.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب لعبد الله الطرازي / ١ - ١٣٥ - ١٣٦ فتوح البلدان / ٦٠٧ - ٦٠٨.

## الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه

كانت في هذا العهد محاولات أخرى لفتح بلاد السند وجرت فيها معارك بين المسلمين والكفار وقد تولى القيادة والإمارة على ما فتح من بلاد السند كل من:

راشد بن عمرو الجديدي سنة ٤٢هـ.

عبد الله بن سوار العبدي سنة ٤٣هـ.

المهلب بن أبي صفرة سنة ٤٤هـ.

عبد الله بن سوار العبدي مرة أخرى سنة ٤٥هـ.

سنان بن سلمة بن المحبق سنة ٤٨هـ.

راشد بن عمرو الجديدي مرة أخرى سنة ٤٨هـ.

سنان بن سلمة بن المحبق مرة أخرى سنة ٥٠هـ.

عباد بن زياد بن أبيه سنة ٥٣هـ.

المنذر بن الجارود سنة ٦١هـ.

حرّي بن حرّي الباهلي سنة ٦٢هـ.

وكان النصر في أكثر المواجهات الحربية حليف المسلمين، كما أنهم أصيبوا في بعضها<sup>(١)</sup>.

ولقد سطر التاريخ مواقف عالية لبعض هؤلاء القادة، من ذلك ما ذكره البلاذري عن عبد الله بن سوار العبدي أنه كان سخيا، لم يوقد أحد نارا غير ناره في عسكره، فرأى ذات ليلة نارا فقال: ما هذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يُعمل لها خبيص، فأمر أن يُطعم الناس الخبيص ثلاثا<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط / ٢٠٥ - ٢١٣. فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٨ - ٦١١. شذرات الذهب

لابن العماد الحنبلي / ١ / ٥٣.

(٢) فتوح البلدان / ٦٠٨.

ومن ذلك ما ذكره خليفة بن خياط عن سنان بن سلمة بن المحبق قال: فحدثنا أبو اليمان النبال قال: غزونا مع سنان «القيقان» فجاءنا قوم كثير من العدو فقال سنان: أبشروا فأنتم بين خصلتين: الجنة والغنيمة، ثم أخذ سبعة أحجار وواقف القوم، قال: إذا رأيتموني قد حملت فاحملوا، فلما صارت الشمس في كبد السماء رمي بحجر في وجوه القوم وكبر، ثم رمي بها حجراً حجراً حتى بقي السابع، فلما زالت الشمس عند كبد السماء رمي بالسابع ثم قال: حم لا ينصرون، وكبر وحمل وحملنا معه فمناحونا أكتافهم فقتلناهم، وسرنا أربعة فراسخ فأتينا قوماً متحصنين في قلعة فقالوا: والله ما أنتم قتلتمونا ولا قتلنا إلا رجال ما نراهم معكم الآن على خيل بلق، عليهم عمائم بيض، فقلنا: ذلك نصر الله، فرجعنا والله ما أصيب منا إلا رجل واحد فقلنا لسنان: واقفت القوم حتى إذا زالت الشمس واقعتهم؟ قال: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

وكون هذا القائد يتذكر هذه السنة النبوية ويطبقها دليل على علمه وصلاحه، وهي سنة اختيارية يقدم العمل بها إذا لم تقتض مصلحة القتال غير ذلك.

وموضوع رمي الأحجار لعله أراد بها وسيلة انضباط للجيش حتى لا يقدموا على القتال حتى يرمي الحجر السابع، والمقصود هو التكبير ولكن لعل بعض أفراد الجيش لا يسمعون التكبير بينما يرون رمي الأحجار.

وكون هذا الجيش نُصر بالملائكة عليهم السلام دليل على صلاح القائد والجنود وأنهم قد بذلوا كل طاقتهم في الاستعداد للمعركة والقتال، ولكن الأعداء كانوا فوق إمكاناتهم فنصرهم الله تعالى بجنود من عنده، والملائكة في القتال يقدر الله تعالى أن الكفار يرونهم ليصابوا بالرعب والفشل بينما لا يراهم المؤمنون لكي لا يتكلوا عليهم.

\*\*\*

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط / ٢١٢ - ٢١٣.

## الجهاد في السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

نظراً لما حدث في البلاد الإسلامية من الاضطرابات بعد وفاة معاوية رضي الله عنه فإن الفتوحات الإسلامية قد توقفت في بلاد السند، وحينما استقرت أوضاع بلاد الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان بدأ النشاط الجهادي في هذا الإقليم حينما تولى الحجاج بن يوسف إمرة العراق والمشرق.

### ولاية سعيد بن أسلم الكلابي على السند:

ولّى الحجاج بن يوسف سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على إقليم مكران الذي تم فتحه من بلاد السند عام خمسة وسبعين، وكان الوضع فيها مضطرباً حيث كان يسيطر عليها طائفة من العرب الذين تمردوا على الدولة الإسلامية وانضموا إلى «داهر» ملك السند وهم العلافيون، وكان يتزعمهم رجلان منهم هما معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي، وهم يتنسبون إلى علاف وهو ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة، وقد استطاع سعيد بن أسلم أن يسيطر على البلاد، إلا أن العلافين خرجوا عليه وقتلوه واستطاع محمد ومعاوية العلافيان أن يسيطرا على الحكم في البلاد وذلك في عام ثمانية وسبعين<sup>(١)</sup>.

### ولاية مجاعة بن سعر التميمي:

ولّى الحجاج بن يوسف مجاعة بن سعر التميمي على إقليم مكران عام تسعة وسبعين، وأسند إليه مهمة القضاء على العلافين وتثبيت حكم الإسلام في ذلك البلد واستئناف الجهاد لفتح السند، وبعث معه جيشاً قوياً، ولما أن علم العلافيون بقدومه تركوا البلاد وهربوا إلى داخل بلاد السند تحت حماية «داهر» ملك السند، ولما وصل مجاعة إلى مكران وفرغ من أمور توطيد الأمن بها توجه إلى «قنديل» ففتح نواحي منها، ولكنه ما لبث أن توفي بعد عام من وصوله إلى بلاد السند<sup>(٢)</sup>.

(١) فتوح البلدان/ ٦١١، الكامل في التاريخ ٤/ ٣٦ تاريخ خليفة بن خياط/ ٢٩٦، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية للطرازي ١/ ١٥٦.

(٢) فتوح البلدان/ ٦١١، تاريخ خليفة بن خياط/ ٢٧٨، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية ١/ ١٥٨.



ولاية محمد بن هارون النمري على مكران:

بعد وفاة مجاعة بن سعر ولَّى الحجاج بن يوسف على مكران محمد بن هارون ابن ذراع النمري، وذلك في عام ثمانين للهجرة.

وقد حدث في ولايته أن أهدى ملك جزيرة الياقوت<sup>(١)</sup> إلى الحجاج سفينة تحمل مجموعة من النساء المسلمات اللاتي وُلدن في تلك الجزيرة ومات أبائهن وكانوا تجاراً، فأراد بذلك التقرب إلى رجال الدولة الإسلامية، فعرض لتلك السفينة جماعة من اللصوص في بوارج قرب مدينة الديبل، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع: يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فأرسل إلى ملك السند «داهر» يسأله تخلية النسوة، فقال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم.

فبعث الحجاج جيشاً بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي لإنقاذ تلك النساء، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده.

ثم بعث الحجاج جيشاً آخر بقيادة بُدَيْل بن طَهْفَةَ البجلي وكان شاباً شجاعاً فدارت معركة دامية من الصباح إلى المساء وكان فرس بديل يهيج من هيبة الفيلة فربط عينيه وقاتل بشجاعة نادرة واستطاع بمفرده أن يقتل نحو ثمانين رجلاً من العدو حتى استشهد وانهزم جيشه ووقع بقيتهم في الأسر حيث ضمَّهم ملك السند إلى سجناء الديبل<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) وتسمى جزيرة سرنديب وهي سيلان التي أصبحت تسمى سيرلانكا.

(٢) فتوح البلدان / ٦١١ - ٦١٢، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب للطرازي / ١ - ١٦٢ - ١٦٣.

## حملة محمد بن القاسم وفتح السند

لما بلغ الحجاج بن يوسف خبر أسر المسلمين في السند ونكبة الجيشين اللذين بعثهما استشاط غضباً وحزن على مصير هذين الجيشين فأقسم على غزو السند بحملة كبيرة وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالأحداث المؤلة في بلاد السند ويستأذنه في بعث جيش كبير لفتح السند وتخليص السجناء من المسلمين والمسلمات فوافق الوليد بعد تردد.

وجهاز الحجاج جيشاً كبيراً في عام تسعة وثمانين، صرف عليه أموالاً عظيمة وأسند قيادته لمحمد بن القاسم الثقفي<sup>(١)</sup>، وكان الحجاج قد عرف فيه الجد والشجاعة وحسن الإدارة، ولقد وُفِّقَ إلى حد كبير في إدارة ذلك الجيش ثم في إدارة شئون البلاد بعد فتحها كما سيتبين لنا من عرض فتوحاته وسيرة عمله الإداري.

وسار محمد بن القاسم من العراق في ستة آلاف بكامل تجهيزهم وقد أعد الحجاج له مدداً من شيراز فسار حتى وصل شيراز وانضم إليه ستة آلاف آخرون، فأرسل المنجنقات والأسلحة الأخرى الثقيلة بحراً مع بعض الجيش إلى ميناء الديبل بقيادة خريم بن عمرو وابن المغيرة وأمرهما أن يسبقاه إلى الديبل وسار هو عن طريق مكران<sup>(٢)</sup>.

وهكذا رأينا كيف تجهز هذا الجيش بالأسلحة الثقيلة كالمنجنقات التي أصبحت فيما بعد تسمى المدافع، وهذا دليل على تقدم المسلمين في الاستعداد الحربي، وسرعتهم في الاستفادة مما وجدوه من ذلك عند الأمم الأخرى، مع ما أضافوا إلى ذلك من ابتكارات جديدة.

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، يجتمع هو والحجاج في الحكم - الكامل في التاريخ ٤ / ١١١.

(٢) فتوح البلدان / ١٦٢، الكامل في التاريخ ٤ / ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب / ١ / ١٦٤ - ١٦٧

هذا ولما وصل محمد بن القاسم إلى مكران انضم إليه وإليها محمد بن هارون النمري مع جيشه المكون من أربعة آلاف حيث أصبح جيش ابن القاسم ستة عشر ألفاً.

بعد ذلك قام ابن القاسم بفتح بعض المدن في أول السند حيث فتح قَنْزِيُور وأرمابيل تمهيداً للهجوم على الديبل التي تعتبر من أكبر مدن السند وميناء البلاد، ويرجح بعض الباحثين أنها هي مدينة كراتشي الحالية. ثم سار بجيشه حتى وصل إلى الديبل وذلك في يوم الجمعة من شهر محرم عام ثلاثة وتسعين.

ووصلت في الوقت نفسه المراكب البحرية التي كان تحمل بعض الجنود والأسلحة الثقيلة، فأمر بحفر خندق حول الجيش وقام بتنظيم أموره حيث أنزل الناس على راياتهم، ووضعت المجانيق الثلاثة التي تزود الجيش بها، وأهمها منجنيق يسمى «العروس» يقوم على القذف به خمسمائة رجل، فحاصر المسلمون مدينة الديبل وجرت بينهم وبين أعدائهم مناوشات حربية.

ولما بدأ المسلمون بالهجوم بالمنجنيق على الحصن خرج منه رجل وطلب الأمان، فأعطاه ابن القاسم الأمان، فذكر لهم اعتقاداً سائداً عندهم وهو أن بلادهم ستفتح على يد جنود الإسلام، وأن الأمان من ذلك بقاء العلم المثبت فوق المعبد وكان معبدهم عظيم الارتفاع وفوقه قبة عليها علم كبير يتدلّى من الجهات الأربع.

فلما سمع ابن القاسم ذلك الكلام قرر الاستفادة من هذا الاعتقاد فوجه المنجنيق الضخم نحو ذلك المعبد، وأمر قائد المنجنيق جَعُوبَةَ السلمي بضرب ذلك العلم ووعدة بعشرة آلاف درهم جائزة له إذا أصاب الهدف، ولكن جعوبة اشترط أن يقطع من طول المنجنيق بقدر مترين، فقال محمد بن القاسم: إذا لم تنجح فقد ضاعت أهمية آلة المنجنيق، فقال جعوبة: إذا لم أسقط العلم ولم أكسر قبة المعبد فلتقطع يدي، وعندئذ وافق ابن القاسم على قطع المنجنيق بعد حصوله على الإذن من الحجاج، ثم صوب الرامي منجنيقه فانطلقت القذيفة الحجرية الأولى وأسقطت

العلم، ثم أطلق القذيفة الثانية فكسر بها قبة المعبد، فعند ذلك هاج الكفار وخرجوا فناهضهم المسلمون حتى هزموهم وردوهم.

وأمر ابن القاسم بالسلام فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر عنها، واختط محمد بن القاسم للمسلمين بها بيوتاً وبنى فيها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف من المسلمين<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم فتح حصن من أهم حصون الكفار في ذلك البلد، وجرى في أثناء ذلك أمور تستحق الوقوف عندها، منها التنويه بخبرة المسلمين الحربية حيث كان جعوبة السلمي صاحب المنجنيق واثقاً من إصابته الهدف إلى الحد الذي غامر فيه على ذلك بقطع يده، وقبل ذلك دقة خبرته بآلته حيث اشترط قطع مترين من طول المنجنيق ليتكفل للقائد بإصابة الهدف.

فلله درهم ما أسرع تفاعلهم مع مكتشفات عصرهم!

وما أبرعهم في الاستفادة من قدراتهم في الوصول إلى معالى الأمور!!

لقد آمنوا بالإسلام حقاً وصدقاً ففجّر هذا الدين طاقاتهم ووجههم نحو العلو في الأرض على قواعد الصدق والعدل، وكان لابد للوصول إلى هذا الهدف العالي من اكتساب جميع الخبرات العسكرية والمدنية من حولهم ثم التفوق على غيرهم في ذلك، وكان لهم ما أرادوا فكانوا أبرع من الأعداء في استخدام الأسلحة التي توارثها الأعداء كابراً عن كابر.

وهكذا تكون نهضة الأمم وريقها نحو المعالي والتمكين في الأرض.

ومن الأمور التي تستحق الوقوف براعة القائد محمد القاسم في اغتنام الفرص المؤدية إلى النجاح، فما أن علم بعقيدة أولئك الكفار القائمة على اعتقاد حلول الهزيمة بهم مع زوال علمهم الكبير حتى غير خطته الحربية وبدأ بقصف ذلك العلم والقبة التي تحمله ليهزمهم معنوياً قبل أن يواجههم عسكرياً.

---

(١) فتوح البلدان ٦١٣ - ٦١٤، الكامل في التاريخ ٤ / ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٦٨ - ١٧١.

وهكذا يجب على القادة أن يتلمسوا مواطن الضعف عند الأعداء ليوجهوا ضرباتهم من خلال جوانب الضعف، فيجتمع على الأعداء جانب الضعف الذي يهز معنوياتهم ويضعفها إلى جانب قوة المسلمين التي لا يقف أمامها أحد في الغالب.

ولقد كانت هذه العقائد مصدر إزعاج وضعف للكفار أمام المسلمين الأقوياء بعقيدتهم الصافية القوية، فاستفاد المسلمون من ذلك فوائد عظيمة كما سبق لنا في عرض مواقف المسلمين مع الفرس والروم.

وأخيراً وصل محمد بن القاسم إلى السجن الكبير الذي كان ملك السند قد احتجز فيه جمعاً من المسلمين والمسلمات، بعضهم من التجار ونسائهم، وبعضهم من أسرى الحرب، ونساء فقدن أولياءهن من التجار الذين هلكوا في تلك البلاد وما حولها، فأفرج عنهم وتركهم فترة للراحة، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن القاسم في ذلك إجابة الحجاج حينما قال: يا لبيك، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان: يا حجاج.

وهكذا كان المسلمون أعزّة باعتزازهم بدينهم، واهتمامهم بأمور إخوانهم المسلمين، فليس من شأن المؤمن الحق أن ينام قرير العين هادئ البال، وأن ينعم بالطيبات والأمن والراحة وإخوانه المسلمون يقتلون ويشردون ويعذبون، وتُمكّلُ بهم السجون، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب.

ولقد كان الحجاج بن يوسف من قساة القلوب الذين اشتهروا بالظلم والجبروت، ومع ذلك جهز تلك الجيوش لإنقاذ المسلمين من أيدي أعدائهم، لأن المسلمين في ذلك الزمن لو عيهم الديني يدركون أن إذلال الكفار للمسلمين يعتبر إهانة للإسلام نفسه، فالمسارعة لإنقاذ المسلمين تعتبر إعزازاً للإسلام بالدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية.

هذا ولقد توجّ ابن القاسم أعماله في فتح مدينة الديبل بالعفو عن المشرف على السجن لماً شهد السجناء المسلمون بأنه كان يعاملهم معاملة كريمة، فعفا عنه ابن القاسم من باب مبادلة الإحسان بالإحسان، بالرغم من أن أوامر الحجاج تنص

على قتله هو وأمثاله، إضافة إلى أنه فوض إليه الإشراف على الأمور المالية في مدينة الديبل.

وكان من نتيجة هذه المعاملة الكريمة من ابن القاسم أن ذلك السجّان الديبلي أعلن إسلامه<sup>(١)</sup>، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة في تاريخ المسلمين الأوائل التي يكون فيها إسلام الكفار بسبب معاملة المسلمين الكريمة لهم.

وإن ما قام به ابن القاسم من تفويض الأمور المالية إلى ذلك الرجل يعتبر لفتة إدارية عالية، تدلنا على ما كان يتمتع به ابن القاسم من خبرة دقيقة في معادن الرجال، فالرجل الذي كان يعامل أعداءه في الدين معاملة كريمة في السجن وهو قادر على ضد ذلك، ثم يسارع إلى اعتناق دين أعدائه لما أدرك أحقيته وسموه جدير بأن تُسند إليه مهام الأمور.

ووقفه أخيرة في هذه النقطة تدلنا على تمتع القادة المسلمين آنذاك بحرية التصرف، انطلاقاً من مبدأ «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب» فالحجاج قد أمر بقتل المقاتلين والمشرفين على سجن المسلمين، ولكن هذا السجّان قد شفع له كريم معاملته للمسلمين في السجن، فالاجتهاد وارد في الحكم في القضايا من منطلق دراسة الواقع.

### فتح مدينة النيرون:

لما انتهى محمد بن القاسم من فتح الديبل اتجه إلى مدينة النيرون [حيدر أباد حالياً] ونزل في مواضع من ضواحيها ولم يكن نهر السند يمر به فضايق الجنود من العطش حتى أمطرت السماء وامتألت الخزانات بالمياه وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى.

وهكذا قيض الله جل وعلا ذلك المطر لإنقاذ المسلمين وتقوية قلوبهم حتى يواجهوا أعداءهم بقوة ونشاط، وهذا مثل من كون الله تعالى مع أوليائه بنصره ومعونته لما يريد بهم من إظهار دينه وإعلاء كلمته في الأرض.

ووصل ابن القاسم بجيشه تلك المدينة بينما وصلت المؤن الثقيلة التي بعث بها مع بعض الجنود على السفن في نهر ساكره.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧١ - ١٧٢، فتوح البلدان ٦١٣ - ٦١٤.

وحاصر المسلمون تلك المدينة عدة أيام وكان واليها غائباً، فلما قدم أبرز كتاب صلح بينه وبين الحجاج وفتح المدينة للمسلمين.

ثم حضر بهندركن والي المدينة إلى محمد بن القاسم ومعه الهدايا والتحف فأكرمهم ابن القاسم واتَّخذه مستشاراً وولَّى على مدينته والياً مسلماً<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان ابن القاسم يعامل المسالمين معاملة كريمة ويستفيد من خبرة من يظهر النصيح للمسلمين مع عدم الاعتماد عليه في القرارات النهائية، وتلك منقبة من مناقبه العظيمة التي جعلته يفتح ذلك الإقليم الواسع في وقت قصير، مع ما قام به من ترسيخ أقدام المسلمين هناك وبث الإسلام بين أبناء البلاد.

### فتح إقليم سيوستان:

ثم اتجه ابن القاسم إلى إقليم سيوستان وبصحبه بهندركن والي النيروني وكان له أتباع بوذيون في ذلك الإقليم فاجتمعوا به وأخبروه بأنهم موافقون على ما جاء في رسالة الحجاج إليه من قوله «كل من طلب الأمان له الأمان» ولكن حاكم ذلك الإقليم رفض الصلح وهو بَجْهرا بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السند، فحاصره ابن القاسم وصبَّ المجانيق نحو مدينتهم لمدة أسبوع ليلاً ونهاراً حتى شعر السكان بالضيق والخوف فتوقفوا عن القتال، ولما علم الأمير بأن السكان قد يؤسوا من المقاومة هرب في المساء من الباب الشمالي وعبر النهر متجهاً إلى منطقة البودھية.

وبعد هروب الحاكم دخل محمد بن القاسم مدينة سيوستان فاتحاً وأعلن أهلها البوذيون منهم الطاعة وعيَّن نواباً من أماكن متعددة وجمع الغنائم ما عدا ما يخص البوذيين الذين أعلنوا الطاعة.

ومما هو جدير بالذكر إسلام جماعة كبيرة من البوذيين على يد محمد بن القاسم من أهل جنه في سيوستان، وقصة إسلامهم مؤثرة حيث أرسلوا مندوباً لهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم، وحين وصل كان جنود الإسلام قد وقفوا في الصلاة في خشوع مهيب خلف إمامهم محمد بن القاسم فاندھش لمنظرهم، وأخبر

---

(١) الكامل في التاريخ ٤ / ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٧٣.

قومه بذلك، فقالوا: إذا كان العرب هكذا يعبدون الرب ويطيعونه ولا يتركون صلاتهم حتى في أخطر المواقف وهم بهذا الشكل من الاجتماع فلا يمكن لنا مقاومتهم وهذا دليل على صحة دينهم.

واختاروا وفدًا من زعمائهم أرسلوهم إلى ابن القاسم وعرضوا له طاعتهم وأعجبوا بأخلاقه ومعاملته فأعلنوا إسلامهم، ثم عادوا لقومهم فدعوهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا عظمة الصلاة وبركتها وتأثيرها القوي على مشاعر من يشاهد لأول مرة المصلين وهم يصلون، وخاصة إذا كانوا يصلون جماعة.

وإن من أهم عوامل التأثير في الصلاة ما تشتمل عليه من الخشوع القلبي القائم على حضور القلب مع الله تعالى، والذي يترتب عليه سكون الجوارح وخضوعها لله جل وعلا، من وضع اليد على اليد حال القيام والنظر الدائم إلى موضع السجود وعدم تحريك الأعضاء إلا بموجب حركات الصلاة.

وإن أبلغ ما في الصلاة من التأثير قيام الجماعة من المسلمين في صفوف منتظمة متساوية خلف إمام واحد، وتزيد عظمة هذه الجماعة ومنظرها المهيبة حين يتضخم العدد فيصل إلى الألوف من المصلين كما هو الحال في تجمعات الجيوش وتجمعات المدن الكبيرة.

وإن مما يزيد في إعجاب الأعداء كما هو مذكور في الخبر كون المسلمين لا يتنازلون عن صلاتهم الجماعية حتى في أخرج المواقف وهم واقفون أمام أعدائهم، وهذا يبين لنا حكمة من حكم شرعية صلاة الجماعة.

### المعركة الفاصلة مع ملك السند:

استمر محمد بن القاسم يتقدم ويفتح المدن صلحاً في غالب الأمر حتى وصل إلى جيش الملك داهر وكان بينهما نهر السند، فأرسل إليه ابن القاسم رسولا يسمى الشامي ومعه مترجم وهو قبلة بن مهترائج الذي كان مشرفاً على سجن الديبل وأسلم على يد محمد بن القاسم، فلما دخل على ملك السند لم يسجد له تعظيماً

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٧٤ - ١٧٦.



حسب عادة أهل السند مع ملكهم، وكان الملك داهر يعرفه فغضب وقال: لو لم تكن رسولاً لقتلتك، فقال هذا الديبلي: نعم إنني الآن مسلم ولا يصح في الإسلام أن يسجد إنسان لإنسان وإنما السجود لله رب العالمين، وإن قتلتنني فإن المسلمين ينتقمون لي.

ثم ذكر حديث رسول المسلمين الشامي للملك حيث ذكر له رسالة ابن القاسم إليه بتخيري بين أن يعبر النهر إلى المسلمين أو يتركهم يعبرون إليه بعد أن رفض الدخول في الإسلام ودفع الجزية<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا موقفًا عاليًا من ذلك الرجل الديبلي الذي أسلم حديثًا حيث تفقه في الدين سريعًا فأدرك التقاليد الجاهلية التي تتعارض مع الإسلام وفهم توحيد الله سبحانه للعبادة والتعظيم فلم يسجد لذلك الملك كما يصنع قومه الكفار، ثم أظهر اعتزازه بانتمائه للمسلمين حيث أظهر التحدي لذلك الملك ببيان عزة المسلم وكرامته عند إخوانه حتى لو كان حديث عهد بالإسلام، هذه العزة التي من مظاهرها غضب المسلمين لإخوانهم وانتقامهم ممن اعتدى عليهم مهما كلفهم ذلك من أموال ومتاعب.

وهكذا كان المسلم آنذاك يظهر إسلامه بشخصية عالية وعزة متناهية حتى وهو بين أحضان الكفار وعند ملوكهم، وماذا إلا لقوة المسلمين وظهور دولتهم على دول الباطل وعدم خضوعهم لأعداء الإسلام.

ولقد كان لهذه الصور القوية التي أبرزت عظمة الإسلام في نفوس المسلمين وقوة تأثيره على سلوكهم الأثر البالغ في جذب الناس إلى اعتناق هذا الدين الحنيف لما يشعرون به المنتمي إليه من عزة وحصانة في الدنيا ومآل سعيد خالد في الحياة الآخرة.

وقد استشار ملك السند وزيره سياكر فنصحته بالموافقة على عبور المسلمين مسوِّعًا ذلك بانقطاع المؤن والإمدادات عن المسلمين إذا عبروا النهر فيسهل القضاء عليهم، وكان في جيش داهر قوم من العرب من العُلافيين بقيادة محمد العلاف،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٠، فتوح البلدان ٦١٤.

وهم عرب تمردوا على دولة الإسلام ولحقوا بملك السند فكانوا يحاربون معه المسلمين، فاستشار داهر محمد العلافى فأشار بعدم تمكين المسلمين من العبور وعلل ذلك بأنهم أشداء في الحرب وأن لهم هدفين في القتال إما النصر وإما الموت، وحيث إنهم لا يفرون فمن الصعب على أعدائهم هزيمتهم، كما أشار بتسليط اللصوص عليهم لنهب الغلات والمواشي والعلف من كل مكان قريب من المسلمين حتى ينتشر بينهم الجوع والمرض فيتفرقوا ويسهل عند ذلك قتالهم وهزيمتهم.

وقد تحيرَ الملك بين الرأيين فقرر أن يترك الخيار للمسلمين في ذلك، ووقف بجيشه على الشاطئ الشرقي للنهر، وقرر محمد بن القاسم عبور النهر، وفي هذا الوقت وصل إليه خطابان من الحجاج يأمره فيهما بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور من موضع مناسب، ويطلب منه إرسال خريطة للنهر لدراستها وإبداء الرأي.

وفي الوقت نفسه استعد الملك داهر فوقف بجيشه على الشاطئ الشرقي من النهر وأمر بعض قواده بالمرابطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منه العبور ليلجئ المسلمين إلى العبور من المواضع الخطرة، وكان يريد القضاء عليهم وهم في حال العبور.

وقد توقف ابن القاسم عن العبور لمواجهة خطط ملك السند ولأن منطقة سيوسان انتقضت عليه فوجه أحد قاداته بجيش لإعادة فتحها حتى يكون الطريق من خلف الجيش الإسلامي في أمان.

ونظراً لتأخر ابن القاسم في العبور ما يقرب من خمسين يوماً ولما قامت به العصابات من سحب المؤن والأعلاف والأغذية من حول المسلمين فقد أصيبت خيول المسلمين بالمرض.

وقد اغتنم داهر ذلك الوضع السيئ بالنسبة للمسلمين فأرسل إلى ابن القاسم يعرض عليه تقديم مساعدة غذائية في مقابل أن ينسحب المسلمون إلى الخلف، ولكن ابن القاسم رفض ذلك بشدة وكرر قولته المشهورة بأنه لن يترك أرض السند قبل أن يرسل رأس داهر إلى الحجاج في العراق.

وهكذا كان قادة المسلمين وجنودهم يتمتعون بالصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء حتى ينزل عليهم الفرج من الله تعالى، ولقد نال المسلمون بالصبر الطويل نتائج معارك طالت مدتها واكتنفتها الأهوال، وكان أبرز الفوارق بينهم وبين أعدائهم أنهم أكثر منهم صبراً على حر القتال واحتمال الشدائد.

وجاء الفرج من الله تعالى حيث علم الحجاج بن يوسف بما وصلت إليه حال الجيش هناك فأسرع بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة والمواد الغذائية والخلّ المجفف في القطن المحلوج، وذلك للطعام والدواء.

كما أن الحجاج قام برفع معنوية محمد بن القاسم حتى لا يضعف أمام تلك الأهوال حيث عينه والياً على بلاد السند كلها وفوض إليه الأمور ليتصرف كيف شاء، ولكنه في الوقت نفسه حذره من الصلح وشجعه على عبور النهر والقضاء على داهر مهما كلفه ذلك، وأشار عليه بأن يعبر النهر من منطقة «بت» حيث يقل العرض والماء ويسهل العبور، وذلك بعد دراسته لخارطة البلاد، ونصحه أيضاً ببناء جسر على الماء من القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار.

وهذا موقف يذكر للحجاج بن يوسف حيث كان وراء ذلك الانتصار الباهر في بلاد السند وفي غيرها من بلاد المشرق.

هذا وقد رتب محمد بن القاسم الخطط الحكيمة لعبور النهر حيث كان يدرك جيداً أن خطة الملك داهر أن يقضي على جيشه أثناء العبور، فأرسل فرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي نحو الحدود الغربية لمدينة راور حتى يمنع الأمير جيسيه ابن الملك داهر من التحرك وقت عبور الجيش، وأرسل فرقة من خمسمائة فارس لمراقبة طريق منطقة كنداره لمنع وصول الإمدادات لجيش داهر، وأمر فرقة ثالثة بقيادة كبار التكاكرة من أهل المنطقة للوقوف في جزيرة بتّ للدفاع، وفرقة إلى جيبور قرب راور لمواجهة جيش داهر في خليج يقع بين روار وجيبور، وأمر بهندركن الحاكم النيروني الذي اتخذه مستشاراً له بجمع الغلة وتوفير العلف للجيش استعداداً للعبور.

بعد هذا الاحتياط الكافي قرر المسير نحو الشاطئ ثم العبور وأرسل أمام الجيش فرقا استطلاعية، ووصل بجيشه إلى الشاطئ بأمان فأمر بإحضار المراكب ليعمل منها جسراً يتم العبور عليه وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال والأحجار لتثبت في النهر ثم أمر بتسميرها بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر، ثم أمر الفرق الفدائية بالتوجه بسفنهم إلى جهات متعددة لحماية الجيش أثناء العبور، وزحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلاً بإتقان وسرعة وحذر حتى تم عبورهم إلى الشاطئ الشرقي.

كل ذلك والملك يغط في نومه في عاصمته، وكان قد انشغل باللهو والصيد ولعب الشطرنج اعتماداً على نجاح خططه التي دبرها لإبادة المسلمين أثناء محاولات العبور التي يبدو أنها كانت صعبة للغاية لولا عناية الله تعالى ثم التدابير المحكمة التي خطط لها ابن القاسم ثم نفذها بتوجيه من الحجاج بن يوسف.

وما أن وصل المسلمون إلى الشاطئ الشرقي حتى بادروا بالهجوم ليلاً على قوات الملك داهر المرابطة فانزعجوا وانهزموا، وهرب قواد الملك إلى العاصمة وأخبروا الملك داهراً بالخبر فانزعج لذلك وكاد يفقد وعيه<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجحت خطط المسلمين بقيادة أميرهم الشاب محمد بن القاسم الثقيفي لاعتمادهم قبل كل شيء على الله تعالى وشعورهم القوي بالمسئولية المنوطة بهم وانصرافهم إلى الجدد في كل أمورهم واغتنام كل الفرص المتاحة لهم، بينما فشلت خطط الملك داهر التي اعتمد فيها على مجرد الرأي والتدبير والخبرة الحربية، وقد حمّله بعده عن الله تعالى واعتماده الكامل على خططه.. حمّله ذلك على الغرور والغفلة وإضاعة الفرص المناسبة حتى داهمه الجيش الإسلامي وهو في لهوه وغفلته.

ولما علم ملك السند داهر بما حل بذلك الجيش بعث جيشاً آخر بقيادة محمد العلاف وهو الذي سبق أن ذكرنا أنه وجماعة معه من العرب المتمردين على دولة الإسلام، فبعثه ملك السند لخبرته بقتال العرب، ولكنه ما أن واجه جيش المسلمين حتى رموه بالسباب وعيروه بالخيانة حتى انهزم وتقهقر إلى الورا.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٨١ - ١٨٦، فتوح البلدان / ٦١٥، الكامل في التاريخ ٤ / ١١١.

فلما علم بذلك ملك السند أرسل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الأمير جيسيه فخرج بجيشه ومعه عدد من الفيلة المقاتلة، ووجه له ابن القاسم جيشاً بقيادة عبد الله بن علي الثقفي الذي حارب بشجاعة وقتل كثيراً من جنود العدو وقام بهجوم خاطف على قلب الجيش السندي وحاصر القواد وقتل معظمهم، فهرب الأمير جيسيه من المعركة وانتصر جيش الإسلام.

ولما علم الأمير «راسل البوذي» أحد كبار القادة والحاكم الجديد لمنطقة بت أن الأمير جيسيه انهزم وفر هارباً أدرك أن الغلبة للمسلمين، فأرسل مبعوثاً إلى محمد ابن القاسم بأنه يريد المبايعة والانضمام إليه، وطلب منه أن يرسل جيشاً صغيراً لأخذه أسيراً إليه في أثناء توجهه إلى الملك داهر حتى لا يلومه قومه، فخرج راسل من المدينة وولّى والده عليها وطلب منه أن يستسلم للمسلمين إن قدموا عليه، وأرسل محمد بن القاسم جيشاً من الفرسان وأسروا راسل فعاهد على الولاء والعمل تحت راية الإسلام.

وهكذا استسلم حاكم هذه الولاية وعاهد على العمل مع المسلمين كما فعل ذلك قبله حاكم الولاية السابق وحكام آخرون، وهي ظاهرة غريبة لم تقع بهذا الشكل في سائر الفتوحات العالمية، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى ما كان يتمتع به حكام المسلمين وأمراؤهم في الغالب من العدالة والمواساة لمن تحت أيديهم من المسؤولين والرعية، وكان ابن القاسم مثالا لهذه الأخلاق الكريمة فاجتذب بسمو أخلاقه والتزامه بآداب الإسلام أولئك الأمراء، واستفاد من خبرتهم في بلادهم كثيراً حيث ضمهم إلى جيشه وجعلهم مستشارين.

وأمر آخر لعله كان دافعاً لهذا التوجه بهذا الشكل الظاهر من أولئك الأمراء، وهو كونهم جميعاً يعتنقون الديانة البوذية بينما كان داهر برهمي المذهب، وكان البراهمة يعيشون في كبر وخیلاء ويحتقرون الناس من حولهم ويعتقدون أنهم آلهة وأن الناس عبيد لهم، فولد ذلك في نفوس الناس كراهية لهم وحقداً عليهم، فلما سنحت الفرصة للأمراء البوذيين للتخلص منهم اغتنموا ذلك ورأوا في المسلمين خير بديل عنهم لما رأوا فيهم السماحة والعدل والتواضع على خلاف ما ألفوه من البراهمة.

واغتنم ابن القاسم هذه الفرصة فمنح هؤلاء ثقة كبيرة وأكرمهم وأشعرهم بوجودهم كأمرأء لهم مكائنتهم بين قومهم فأفاد الجهاد الإسلامي فائدة كبرى بكسب رأي هؤلاء وخبرتهم ومساندتهم جيش المسلمين بالجنود والعتاد الحربي .

بعد ذلك استعد ابن القاسم لقتال الملك داهر ، فانتقل إلى موضع يقال له نارائي ومعه الأمير راسل والأمير موكة ، وكان الملك داهر يعسكر في موضع قريب منه يقال له قاجيجاق وكانت بينهما بحيرة ، وقد أشار راسل بضرورة عبور البحيرة وأحضر القوارب ، ونقل عليها الجنود في ظلام الليل إلى داخل خليج هناك ، ثم تقدموا قليلاً نحو مدينة جيבור حتى وصلوا عند نهر دوهاواه الذي تقع عليه قرى كثيرة ، فعسكروا هناك ليسهل القيام بالهجوم على الملك داهر من الأمام والخلف .

وعلم داهر بوصول المسلمين إلى جيבור فترك أسرته في قلعة راور وتحرك بجيشه ووقف على بعد فرسخ من المسلمين ، وتقدم محمد بن القاسم ووقف على بعد نصف فرسخ ، واستعد الجيشان للحرب المصيرية .

وبدأت الحرب بتقابل فرق من الجيشين لمدة أسبوع ، بدأت بعدها الحرب الشاملة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بانتصار المسلمين وكان النصر في جميع تلك اللقاءات لجيش المسلمين .

ولما رأى الملك داهر تلك النتائج السيئة لجيوشه قرر أن يخوض المعركة النهائية بنفسه ، فجمع قواته كلها التي بلغت مائة وعشرين ألفاً يقودها خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء والقواد المشهورين ، ومعهم عشرة آلاف فارس بكامل تجهيزهم وثلاثون ألفاً من المشاة المجهزين بالدروع والسهام والرماح إلى جانب عشرات الألوف من أفراد القبائل المختلفة ، يتقدمهم مائة من الفيلة الرهيبة التي كانت أخطر ما يواجهه المسلمون من سلاح الأعداء .

ونظّم ابن القاسم جيشه فجعل على المقدمة عطاء بن مالك القيسي مع جيشه من الفرسان ، وجعل جهم بن زحر البجعي مع جيشه من الفرسان على الميمنة ، وجعل ذكوان بن علوان البكري على الميسرة ونباتة بن حنظلة الكلابي في المؤخرة ، وبقي هو في القلب ومعه محرز بن ثابت وبعض القواد من العرب والسند ، وأعلن في الجيش بأنه إذا قُتل في الميدان فالقيادة العليا لمحرز بن ثابت .

وبدأت المعركة فتقدم محرز بن ثابت بفرقة من القلب فاستشهد وتقهقرت فرقته، وكذلك تقدمت فرقان فانهمزتا بسبب الهجوم الشرس من الفيلة<sup>(١)</sup>.

هذا وقبل الحديث عن المعركة فإنه لابد من الإشادة بموقف محرز بن ثابت الذي ولاه محمد بن القاسم قيادة الجيش من بعده فيما لو استشهد.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية الدنيوية التي يتسابق الناس فيها على التسلق نحو درجات المجد والشهرة وما يتبع ذلك من الحصول على الأموال والتمتع بطيبات الحياة. . إذا نظرنا إلى ذلك فإن الحال تقتضي أن يحاول هذا القائد البديل أن يحمي نفسه من بأس الأعداء بمجموعة من الحراس حتى يُبقي على حياته ليتبوأ ذلك المنصب المرتقب، ولكن المسلمين الصادقين من أمثال محرز بن ثابت تهون عليهم أنفسهم وحياتهم الدنيا بما فيها من مجد ورفعة في سبيل إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، فلذلك كان أول مغوار فدى أمته بنفسه حتى خرَّ صريعاً تحت أقدام الفيلة وخیول الأعداء، فله دَرُّهم ما أكبر همتهم وما أبعد غايتهم!

ولما رأى محمد بن القاسم ما أصاب بعض المسلمين من الانهزام والتقهقر أمام جيش الفيلة ناداهم بأعلى صوته وحثهم على الصبر والجهاد فقاموا بحملة قوية على الجيش السندي وقتلوا تسعة من الفيلة فتشجعوا بذلك، وأخذ الكفار يتقهقرون إلى الخلف حتى توقف القتال عند المساء.

وانتهى اليوم الأول من هذه المعركة الكبرى، وقد أبلى المسلمون بلاءً حسناً وأخذوا فيه خبرة كافية عن سلاح الأعداء وقوتهم وتخطيطهم الحربي.

ولقد كان لابن القاسم موقف يذكر حيث كان رابط الجأش ثابت الجنان بالرغم من صغر سنه، فلم يتزعزع حينما رأى المسلمين يتفرقون ويتضعضعون أمام الفيلة، بل ثبت وناداهم بقوة ليجتمعوا وليبذلوا طاقتهم في قتال عدوهم.

وإنَّ توفر هذه المقدرة الفائقة عند ابن القاسم. . من الشجاعة الفائقة ودقة التخطيط وحسن التدبير والثبات عند المواقف الصعبة مع أنه كان في سن الشباب دليل واضح على تفوق المسلمين في مجال التربية، وأنهم كانوا يهتمون بتأهيل

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٧ - ١٩٠، فتوح البلدان/ ٦١٥.

أبنائهم منذ الصغر للمجالات التي ينشدون تفوقهم فيها، إذ أن مثل هذه المقدرة لا تتوفر في سن مبكرة بغير الإعداد التربوي الجاد المنظم.

ولقد كان جديراً بقول الشاعر فيه :

إن السماحة والمروءة والندى      لمحمد بن القاسم بن محمد  
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة<sup>(١)</sup>      يا قُربَ ذلك سُودداً من مولد

كان هذا اليوم الأول من المعركة يوافق يوم الأربعاء التاسع من رمضان المبارك من عام ثلاثة وتسعين للهجرة كما ذكر المؤرخون.

وفي يوم الخميس الموافق للعاشر من رمضان استؤنفت المعركة بين الطرفين، وقد حصل تغيير لبعض مواقع القادة من الجانبين حسبما تقتضيه ظروف المعركة.

ولقد كان مما خرج به الأعداء في اليوم الأول أنهم أدركوا خطورة سلاح الفيلة على المسلمين فعزموا على تركيز هجومهم بالفيلة في اليوم الثاني، كما أن المسلمين أدركوا ذلك فعزموا على توجيه اهتمامهم في القضاء على تلك الفيلة، وكان مع المسلمين ثلاثة منجنقات يحركها ويرمي بها تسعمائة من الرماة، فقسم ابن القاسم هؤلاء إلى ثلاث فرق وأمرهم بأن يشعلوا النيران وأن يوجهوا قذائفهم المشتعلة بالنفط نحو الفيلة والمجموعات التي تقودها.

وبدأ المسلمون يومهم ذلك بعد صلاة الفجر بسماع خطبة حماسية ألقاها قائد المسلمين الشاب، حثهم فيها على النصر والثبات ومواصلة القتال مهما كانت الظروف، وذكرهم بالله تعالى وما أعده لعباده المؤمنين الصابرين.

وبدأت المعركة بهجوم فرقة من مائتي فارس من المسلمين بقيادة نبهان أبو فقيه القشيري، وتقدم لها فرقة من السند فانهمزوا أمام المسلمين وقُتل كثير منهم، وكانت بداية طيبة رفعت معنوية المسلمين.

وتلا ذلك اشتباك بين فرق من الجيشين، وبدأ الرماة بالقذف بالسهم المشتعلة بالنفط من المجانيق على قلب الجيش السندي الذي تصدّرتُه الفيلة، فحصل للسند

---

(١) أي لسبع عشرة سنة، وذلك محمول على ابتداء أمر إمارته وقيادته حيث تولى إمارة خراسان عام ثلاثة وثمانين للهجرة.



فزع واضطراب، وتفرَّقَ جمعُهم قليلاً حتى تمكن المسلمون من الدخول في جيشهم.

وكان أحد قادة المسلمين وهو «الشجاع الحبشي» قد أقسم أن لا يذوق الطعام إلا إذا هجم على فيل داهر، وكان قائد الفيلة، وهو فيل ضخّم أبيض اللون، فربط الحبشي عيني فرسه حتى لا يهيج من الفيلة وهجم على الفيل الأبيض وجرحه، فهاج وتأثرت بذلك بقية الفيلة وأخذت تصيح وتميل شمالاً ويميئاً وأحدثت خللاً في توازن الجيش، ولكن داهر استطاع أن يرمي الحبشي بسهم قاتل فوقع شهيداً رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وهكذا قام هذا الفدائي المسلم بعمل يقربه من الله تعالى وأقدم على عمل يرجو فيه الشهادة والاثخان في العدو ونصر المسلمين فتحقق له ما أراد.

وهذا من النماذج الكثيرة التي لا تتوفر لدى غير المسلمين إلا بنسبة قليلة وبدافع من تعويض مادي كبير أو منصب رفيع يرجو فيه صاحبه أن يُحظى بالنجاة ليتمتع بذلك العوض، وهذا الرجاء يُضعف من مقدرة الفدائي وإقدامه كثيراً لأنّ الهم الكبير الذي يستولي عليه هو أن يدافع عن نفسه حتى يظفر بالحياة التي علّق عليها الآمال السعيدة، بينما يندفع المسلم بكل طاقته في الهجوم لعله يظفر بالشهادة ليُحظى بالحياة السعيدة في الآخرة، حيث يعلق عليها كل آماله السعيدة، وفرق كبير بين من يقاتل ليُقتل وبين من يقاتل ليبقى على قيد الحياة.

وهكذا كانت جيوش المسلمين في ذلك العصر الذهبي إلى جانب كونها تضم القادة الأكفاء الذين يقدرون الكفاءات ويستشيرون أهل الرأي ويعيشون قضيتهم بكل أحاسيسهم فإنها كانت تضم الجنود المخلصين الذين جعلوا قضيتهم الكبرى هي نصر الإسلام والمسلمين وإغاظة الأعداء ودحر الجبابرة والظالمين.

وفي أثناء القتال توجهت طائفة من قواد السند وجنودهم نحو محمد بن القاسم طالبين الأمان فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم أمامه، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٢ - ١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥.

في أيام الفتوحات، وقد عرض هؤلاء القواد والجند على محمد بن القاسم خطة عسكرية ليثبتوا صحة إيمانهم وولائهم، بأن يأذن لهم أن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر على غفلة على أن يقوم الجيش الإسلامي في الوقت نفسه بهجوم شامل من الأمام، ووافق محمد بن القاسم على الخطة، وجعل مروان بن أشحم اليميني، وتميم بن زيد القيسي عليهم، ففاجأوا العدو بالهجوم الخاطف العنيف من الخلف، وكذلك من الأمام، فأذهلهم بذلك وقتل كثير من جيشهم فهاجوا وحميت المعركة<sup>(١)</sup>.

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على عزة المسلمين وقوة تأثيرهم على أعدائهم، فإن هؤلاء انفصلوا عن جيش قومهم، ولم يكتفوا بمجرد الانضمام إلى جيش المسلمين بل أعلنوا إسلامهم وبرهنوا على صحة عقيدتهم بالخطة الحربية الرائعة التي اقترحوها على قائد المسلمين، وهذا دليل واضح على أن الدافع لهم كان إعجابهم بالإسلام وصدق توجههم نحوه، إذ لو كان الدافع مجرد عدا بينهم وبين قومهم لاكتفوا باللجوء إلى جيش المسلمين أو إعلان الانضمام إليهم في القتال ولم يتخطوا ذلك إلى التخلي عن دينهم والدخول في دين الإسلام.

وكان من آثار ثبات المسلمين الرائع وما قام به بعضهم من مواقف فداية، وما تم من إسلام بعض أهل السند وانضمامهم إلى جيش المسلمين. . . كان من آثار ذلك أن جيش السند أخذتهم الحمية فشددوا هجومهم على المسلمين من كل جانب، وحملوا حملة جماعية في محاولة مستميتة لكسب نهاية المعركة، وكان لتلك الحملة المركزة أثر في اضطراب جيش المسلمين بعض الوقت، فلما رأى ذلك قائد المسلمين محمد بن القاسم الثقفي نادى أبطال المسلمين وقادتهم بأسمائهم حتى اجتمعوا ثم علت أصواتهم بالتكبير حتى ملأت الآفاق وكانت على الأعداء كالصواعق المرسلة ففزع الجيش السندي وتحيروا، وحمل عليهم المسلمون حملة صادقة حتى قتلوا عدداً كبيراً من جنود العدو وقادتهم وبعض الفيلة حتى لم يبق مع داهر من فرسانه من أبناء الأمراء والقادة الكبار إلا ألفاً من خمسة آلاف، وهو دليل على قوة إيثان المسلمين بجيش عدوهم.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٣ - ١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥.

وفي الوقت الذي اشتدت فيه حملة المسلمين أمر ابن القاسم رماة المنجنقات بأن يصوبوا سهام النار المشتعلة بالنفط نحو هودج فيل داهر، فأصيب الهودج بالحريق، وعطش الفيل من الحرارة فاتَّجَّه به داهر نحو النهر ليسقيه وليطفئ النار، وكان حوله بعض القادة لحمايته، فطاردهم المسلمون وأمطروهم بوابل من السهام ثم اشتبكوا معهم في قتال شديد، ونزل داهر من فيله وقاتل حتى قتله عمرو بن خالد الكلابي، وأسرع بعض قادة السند فأخفوا جثته في خليج راور، ثم توقف القتال عند المساء بانتصار حاسم للمسلمين<sup>(١)</sup>.

### فتح مدينة راور:

بعد انتهاء المعركة الفاصلة مع جيش السند ومقتل ملكهم داهر توجه المسلمون بقيادة محمد بن القاسم لفتح مدينة راور التي جرت حولها تلك المعركة الحاسمة، وقد دخلها المسلمون إلا أن قلعتها بقيت محصنة بفرقة كبيرة من الجيش السندي وعلى رأسها الأمير جيسيه ولي العهد، وقد قرر جيسيه مواصلة القتال، لكنه أخيراً قبل مشورة وزيره سياكر ومحمد العلافى بترك القلعة والسير إلى مدينة برهمناباد لقوة تحصينها، وقررت زوجة الملك داهر «بائي» البقاء في القلعة مع النساء وفرقة من القادة والجيش للدفاع عنها.

وقد توجه محمد بن القاسم إلى القلعة فرفض أهلها التسليم، فأمر بضربها بالمنجنقات، وقسم جيشه قسمين: قسم يقاتل بالنهار بالسهم والرمح، وقسم يقاتل بالليل بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنقات حتى هدمت الأبراج.

ولما رأت الملكة «بائي» أن المسلمين كادوا يفتحون القلعة جمعت الأميرات وأحرقن أنفسهن بالنار ليلحقن بأزواجهن تطبيقاً للتقاليد الدينية السائدة بتلك البلاد.

وتم فتح القلعة ودخلها محمد بن القاسم وكان بها ستة آلاف جندي فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام<sup>(٢)</sup>.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ١٩٤ - ١٩٦، وانظر البادية والنهاية باختصار ٩٢ / ٩٢.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ١٩٦، فتوح البلدان ٦١٦.

وفي هذا الخبر مثل من تأثير العقائد الجاهلية على أصحابها بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهؤلاء النسوة اللاتي أحرقن أنفسهن قد تعجلن عذاب النار في الدنيا، ولو كان في اعتقادهن أنهن إن فعلن ذلك سيخلدن في الآخرة في نار جهنم وأنهن لو دخلن في الإسلام سيخلدن في جنات النعيم وينجون من عذاب النار لسارعن إلى الدخول في الإسلام.

فالعقل الرشيد السليم يهدي صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالذين دخلوا في الإسلام على يد ابن القاسم أصبحوا أمراء وقادة في بلادهم، وهذا من سعادة الدنيا، مع ما ينتظرون من السعادة العظمى في الآخرة.

أما الذين وقفوا ضد دعوة الحق وحاربوا دعائه فقد باؤوا بالخسران والهلاك بأنواع القتل في الدنيا وسيبؤن في الآخرة بالخلود في نار جهنم.

### فتح بهرور ودهليّة:

تحرك محمد بن القاسم من راور متوجهاً إلى برهمناباد التي تحصن بها جيسيه، وكان عليه أن يفتح مدينتين محصنتين في طريقه إلى برهمناباد وهما بهرور ودهليّة.

فقد توجه أولاً إلى مدينة بهرور وهي على بعد فرسخ من برهمناباد وفيها نحو خمسة عشر ألف جندي، فحاصرها وقاومه أهلها أياماً فرماها المسلمون بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت جدرانها وأبوابها وقتل معظم من فيها فدخلها محمد بن القاسم، وولى عليها حاكماً من المسلمين.

ثم سار إلى مدينة دهليّة وكان بها نحو ستة عشر ألف جندي فحارب أهلها بشدة حتى هرب حاكمها الأمير ديوراج وهو ابن عم داهر ومعه بعض سكانها في الليل نحو بلاد الهند، فاستولى عليها المسلمون، وولى عليها ابن القاسم نوبة بن هارون كما فوض إليه الإشراف على حركة السفن في تلك المنطقة<sup>(١)</sup>.

### انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين:

قبل فتح برهمناباد كان محمد بن القاسم قد بعث برسائل إلى الأمراء والوزراء يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة مع ضمان الأمان لمن أجاب إلى ذلك، فلما

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ٢٠٠ - ٢٠١ ..

علم بذلك «سياكر» وزير الملك داهر بعث رجلاً إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان، فأعطاه ذلك، وحضر الوزير إليه ومعه بقية النسوة المسلمات اللاتي كن قد استغثن بالحجاج، فاستقبله محمد بن القاسم بكل تكريم وأهدى إليه هدايا ثمينة، وفوض إليه مهمة الوزارة وصار يستشير في أمور الدولة والمهمات الحربية<sup>(١)</sup>.

هذا وإن ما حدث من انضمام هذا الوزير إلى جيش المسلمين مع رفعة منزلته في دولته وما حدث من انضمام بعض أمراء السند كما تقدم يدلنا على أهمية مكارم الأخلاق في سياسة الأمم، فقد كان محمد بن القاسم يتصف بالحكمة والعدالة وتقدير وجهاء البلاد، وإنزال الناس منازلهم، ولقد كان لهذه الأخلاق الكريمة أثر في اجتذاب زعماء السند إلى الإسلام، ولا ينبغي لنا مع ذلك أن نغفل جانب القوة، فإن ظهور قوة المسلمين يجعل زعماء البلاد يخضعون لعزتهم ويتيح الفرصة لعقولهم كي تفكر تفكيراً سليماً في مستقبل أمرهم وأمر بلادهم، وإذا كان هؤلاء الزعماء يرون أن قائد أعدائهم قد قرب ساسة بلادهم الذين دخلوا معه وأسند إليهم المناصب المهمة فإن هؤلاء الزعماء لن يفقدوا بإسلامهم مناصبهم التي هي العائق الكبير بينهم وبين الإسلام، والتي من أجلها يحملون جنودهم على حروب لا يعلمون ما هو مصيرها.

### فتح إقليم برهمناباد:

تولى الأمر بعد داهر ابنه جيسيه وهو رجل سياسي شجاع ولذلك اهتم ابن القاسم بالقضاء عليه حتى لا يعود إلى حكم بلاد السند وقد كان جيسيه أخذ بمشورة مستشاريه فانتقل إلى بلدة برهمناباد لوجود حصن منيع فيها فتحصن به وجمع إليه قواته من أنحاء السند، وكان معه في ذلك التجمع ستة عشر ألف قائد ومعهم عشرات الآلاف من الجنود.

وقد استفاد قادة السند من تجاربهم مع المسلمين في الحرب فرأوا أنه ليس بإمكانهم مهما بلغ عددهم أن يقاوموا المسلمين في الصحراء وجهاً لوجه، فكان من تخطيطهم أن يتحصنوا بذلك الحصن المنيع وأن يخرجوا فرقاً كبيرة من الجيش لقتال المسلمين فإذا انهزموا لجأوا إلى الحصن.

(١) المرجع السابق / ٢٠١ - ٢٠٢.

ولما علم بذلك ابن القاسم سار بجيشه حتى وصل قرب تلك المدينة، وأرسل رسولا إلى الأمير جيسيه وأهالي برهمناباد يدعوهم إلى الإسلام أو الاستسلام مع دفع الجزية وإلا فإنه سيقاثلهم بشدة، فرفض جيسيه ذلك وقرر الحرب، وعندئذ أمر محمد بن القاسم بحفر الخنادق، ووزع الجيش إلى فرق ووحدات استعدادا للقتال.

ثم بدأت المعارك فكانت تخرج فرقة كبيرة من الجيش السندي مكونة من أربعين ألف جندي فيواجهها الجيش الإسلامي ثم تعود منهزمة عند المساء إلى المدينة فتتحصن بها، واستمرت المعارك على هذه الطريقة لمدة شهرين، ثم توقف القتال بين الطرفين لأن جيش السند قرر التحصن داخل المدينة.

ولقد ساءت حال الجيش الإسلامي لطول مدة الحصار وقلة الموارد الغذائية، فأرسل ابن القاسم إلى الأمير موكة بن بسايه حاكم منطقة بتّ يستشيريه في الأمر فأجاب بضرورة طلب قوات أخرى حتى يضطر الأمير جيسيه إلى الجلاء عن تلك المنطقة.

وقد أخذ ابن القاسم بهذا الرأي فكتب إلى نوابه من الأمراء المسلمين على المناطق المفتوحة لِيَمْدُوا الجيش الإسلامي بالعدد الكافي من الجنود، ووفد عليه أولئك الأمراء وعلى رأسهم حاكم منطقة بتّ، فلما رأى الأمير جيسيه الجيوش قادمة لإمداد الجيش الإسلامي أصابه الرعب وانسحب من تلك المدينة بأسرته وذهب إلى منطقة جيتور على الحدود الهندية، بينما افترق عنه محمد العلافي العربي المتمرد على دولة الإسلام الذي سبق ذكره هو ومن معه من العرب فاتجهوا نحو بلاد كشمير.

وهكذا شتت الله تعالى شمل الأعداء حيث أوقع في قلوبهم الرعب وخالف بين آرائهم.

ومن المواقف التي نلاحظها في هذه المعارك مقدرة المسلمين الفائقة على الصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء بالرغم من كون الأعداء متحصنين في بلادهم المنيع.

ومن تلك المواقف مقدرة محمد بن القاسم العالية في كسب القلوب واكتساب الأنصار من غير المسلمين وعدم الاعتداد بالرأي حيث استشار حاكم منطقة بتّ السندي وأخذ برأيه فكان ذلك سبباً في جلاء أعدائه وتفرقهم، وقد كان ما اشتهر به ابن القاسم من العدل والحكمة ودمائة الخلق سبباً مباشراً لذلك الولاء الذي تم بينه وبين حكام السند الذين خضعوا لحكم الإسلام.

وبعد خروج جيسيه من مدينة برهمناباد تم فتحها وإخضاعها لحكم المسلمين وقام ابن القاسم بتنظيم أمورها بما يتفق مع حكم الإسلام، وكان رحيماً عادلاً مع الأهالي الذين لا يحملون السلاح ضد المسلمين.

وبعد أن تم فتح هذه المدينة المحصنة بقي محمد بن القاسم فترة من الزمن يقوم بتنظيم أمور البلاد الإدارية، فعين حكاماً من المسلمين العرب على مناطق السند وكان اختياره لأولئك الأمراء مبنياً على كفاءتهم الإدارية والحربية مع النظر إلى احتياج البلاد لتلك الكفاءات حسب تنوعها، ولذلك كان ينقل بعض الأمراء إلى مناطق يرى أنها أحوج إليهم من مناطقهم الأولى<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن توفر الرجال الأكفاء مع ابن القاسم كان له الأثر الكبير في نجاحه في أعماله الحربية وأعماله الإدارية، إلى جانب ما تحلى به هذا القائد من الحكمة ورجاحة العقل وحسن التدبير، فاستطاع بهذه الأخلاق العالية أن يوجه طاقات الرجال الأكفاء معه بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب.

### احتواء القبائل المتوحشة:

ولما انتهى من تنظيم أمور البلاد الإدارية تفرغ للتفكير في القبائل المتوحشة مثل قبيلة الزط التي انصرف أفرادها للأعمال اللصوصية حيث كانوا يخيفون الآمنين ويقطعون السبل فاستشار في أمرهم كلاً من الوزير السندي سياكر وموكة حاكم منطقة بتّ فذكرا له أن هذه القبائل لا يمكن أن تخضع إلا بالقوة وأن حكام السند كانوا يعاملونهم بالقسوة والإذلال وكانوا يلزمونهم بلباس معين حتى يحذر الناس

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ - ٢٠٥، فتوح البلدان للبلاذري/ ٦١٦، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٢.

منهم، وكانوا إذا قبضوا على أحدهم متلبساً بالسرقة حكموا عليه وعلى جميع أفراد أسرته بالحرق.

ولما سمع ذلك منهم ابن القاسم أخذ تلك القبائل مؤقتاً بالحزم، وأمر عليهم أفضل قادته وهو خريم بن عمرو المدني المعروف بالتقوى والشجاعة والسياسة، ثم بدأ يضم أفراد هذه القبائل مع الجيوش الإسلامية، فلما رأوا كرم الوفادة وحسن المعاملة ارتفع مستواهم الفكري ودخل كثير منهم في الإسلام وتحسنت أخلاق من بقي منهم، ولم يبق على الطباع الشرسة والوحشية إلا الذين اعتصموا بمناطقهم ولم يختلطوا مع المسلمين<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف يذكر لمحمد بن القاسم وقادته العظماء وعلى رأسهم خريم بن عمرو المدني الذي أوصى الحجاج محمد بن القاسم بأن يلازمه دائماً، لفضله ودهائه وشجاعته، حيث تحول كثير من أفراد هذه القبائل المتوحشة إلى أعلى المستويات الحضارية، فدخل أكثرهم في الإسلام، ومن لم يدخلوا فيه تأثروا بأخلاق المسلمين ومعاملتهم الكريمة ونبذوا ما كانوا ألفوه من العادات الرذيلة.

### فتح مدينة أرور:

بعد أن قام محمد بن القاسم الشقفي بفتح برهمناباد الحصينة وبعد أن أخضع القبائل السندية المتمردة كتب إلى الحجاج بن يوسف بذلك فأمره بالتوجه نحو عاصمة السند أرور ثم إلى مدينة الملتان لأنهما من أقوى القواعد الحربية في البلاد وهما مقر عظماء السند.

وقد توجه ابن القاسم بجيشه نحو العاصمة في محرم من عام أربعة وتسعين وفي طريقه إليها فتح مدن منهل وهراور وبسمد وساوندري وقد صالح أهل هذه المدن وأسلم بعض أهلها.

ووصل ابن القاسم بجيشه إلى العاصمة أرور وعسكر على بعد ميل من قلعتها المحصنة، وكان أميرها قوفي بن داهر قد حصنها تحصيناً قوياً وشجع قواده وجنده على الحرب.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب / ١ - ٢٠٢ - ٢٠٨.



وقد بدأت الحرب واستمرت أياماً إلا أن ابن القاسم اختصر الطريق على المسلمين، وذلك أن المسلمين لما فتحوا مدينة برهمناباد وقعت الأميرة «لادي» إحدى زوجات الملك داهر في الأسر فأكرمها المسلمون، فلما كان حصار مدينة أرور العاصمة أرسلها ابن القاسم مع رجال من السند إلى باب المدينة فاجتمع بها بعض زعمائها فأخبرتهم بأنها أرملة داهر وأن الملك قد قتل مع قواده المشاهير، والباقيون استسلموا، وأشارت عليهم بأن يستسلموا للعرب وأن يصالحوهم.

فلما سمع أهل تلك المدينة بمقتل ملكهم وبما يتصف به المسلمون بقيادة ابن القاسم من العدل والتسامح والقوة قرروا قبول الصلح، ولما علم بذلك الأمير قوفي قرر الفرار مع أسرته ليلاً إلى مدينة جيپور على الحدود الهندية ليبقى مع أخويه جيسييه ودكيه.

وفتح أهل أرور الأبواب ودخلها ابن القاسم صلحاً، وهكذا نجحت سياسة ابن القاسم في محاولة تأليف قلوب زعماء السند حيث استفاد منهم كثيراً في إقناع قومهم بالصلح وتجنب القتال كما استفاد من خبرتهم الحربية حيث كان يستشير بعضهم في أموره المهمة.

هذا وقد بقي ابن القاسم بعض الوقت ينظم أمور عاصمة السند الإدارية، وقد عين «رواح بن أسد» حاكماً عليها وعين على شؤون القضاء موسى بن يعقوب بن طائي الثقفي وبنى فيها مسجداً جامعاً، وقد كان تجاوب أهلها سريعاً مع الإسلام حيث أسلم بعض سكانها آنذاك<sup>(١)</sup>.

#### فتح مدينة «باتيه»:

بعد ذلك اتجه محمد بن القاسم لمدينة «باتيه» وكان حاكمها «ككسه» ابن عم الملك داهر، وقد اشترك معه في المعركة الأخيرة، ثم عاد إلى «باتيه» ولما علم بقدوم محمد بن القاسم أرسل إليه مندوبه واستقبله بالهدايا والضمانات والرهائن وعرض الصلح معه، فقبل محمد بن القاسم ذلك منه، وكان ككسه حكيماً فاتخذ محمد بن القاسم مستشاراً له كما فوض إليه الأمور المالية في بلاده، وقدمه

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ٢١١ - ٢١٣، فتوح البلدان / ٦١٧، الكامل في التاريخ ٤ / ١١٢

على جميع قادة السند الذين كانوا معه، وقد أخلص هذا الأمير للمسلمين ثم دخل في الإسلام على يد محمد بن القاسم، وكان بينهما ثقة كبيرة وانتفع المسلمون به في حروب السند الأخيرة<sup>(١)</sup>.

وهكذا مازلنا نجد أمثلة حية لهذه الظاهرة التي تميزت بها فتوح بلاد السند حيث أقدم على الإسلام عدد من زعمائها وأهلها وبقي عدد من زعمائها مخلصين للمسلمين حتى مع بقائهم على دينهم.

وهذا شاهد واضح على أن سلاح القوة الذي ظهر به المسلمون ما هو إلا مفتاح يَلْجُونَ منه بلاد الكفر والضلال، أما مفاتيح القلوب فقد كانت بالخشوع المهيب بين يدي الله عز وجل الذي كان يظهره المسلمون في الصلاة وخاصة صلاة الجماعة، وفي الأخلاق العالية والمعاملة الكريمة التي كان المسلمون يتحلون بها حتى مع أعدائهم، فبينما نجد الأعداء يتمنون أن يقع المسلمون بين أيديهم ليحرقوهم، إذا بهم يقفون أمامهم مشدوهين حيارى قد أخذت قلوبهم مما يرون من سمو المسلمين وعظمتهم سواء في علاقتهم مع ربهم أو مع الناس، ثم لا يلبثون طويلاً حتى يُعلنوا انتماءهم للإسلام الذي لامس شغاف قلوبهم ووافق فطرتهم وأجاب على أسئلتهم المحيرة التي كانت قبل ذلك تصطدم بجدر الوثنية المصمتة التي لا تحير جواباً ولا تحل إشكالاً.

#### فتح مدينة «اسكلنده»:

ثم اتجه ابن القاسم إلى مدينة «اسكلنده» وهو في طريقه إلى الملتان في إقليم البنجاب، واصطحب معه الأمير السندي «ككسه» وكانت مدينة اسكلنده محصنة للغاية وأهلها قد استعدوا للحرب، فخرج أهلها لقتال المسلمين، فوجه إليهم ابن القاسم الجيش بقيادة زائدة بن عميرة الطائي ومعه الأمير ككسه، واشتدت المعركة بين الطرفين إلى أن انهزم أهل اسكلنده وتحصنوا بقلعتهم فلجأ المسلمون إلى سلاحهم الثقيل حيث قذفوا القلعة بأحجار المجانيق والسهام المشتعلة لمدة أسبوع، حتى نقصت الغلة في جيش السند وهرب حاكم المدينة إلى حصن «سكه» بقرب

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ٢١٣.

الملتان، فدخل محمد بن القاسم المدينة ودارت معركة داخلها فقتل كثير من جنود السند ووقع آخرون أسرى، وأعطى ابن القاسم الأمان لعامة الناس، ثم ولَّى على المدينة عقبة بن مسلمة التميمي<sup>(١)</sup>.

### فتح قلعة سكه:

ثم اتجه الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم إلى قلعة «سكه» وهي قلعة حربية ليس فيها إلا الجنود ويحكمها الأمير «بجهر» وقد وقعت فيها بين المسلمين والسند معارك دامية استمرت سبعة عشر يوماً، واستشهد فيها عشرون قائداً من قادة المسلمين وخمسة عشر ومائتان من جيش المسلمين، وقد حزن ابن القاسم حزناً شديداً على أولئك الشهداء وخاصة القادة فأقسم أن يهدم تلك القلعة، وقد هرب أميرها بجهر إلى الملتان، فاستولى محمد بن القاسم على القلعة وأمر بهدمها وقتل من بقي فيها من الجنود<sup>(٢)</sup>.

وهذا مثل يصور لنا المعاناة الشديدة التي واجهها المسلمون الأوائل وهم يفتحون تلك البلاد المنيع، والضحايا التي قدموها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام في الأرض، فعلى أشلاء أولئك الشهداء في أنحاء المعمورة، وبدمائهم الزكية التي رووا بها أرضها قامت بعد ذلك البلاد الإسلامية التي لا يزال أهلها أو أكثرهم يعبدون الله تعالى.

فهل يتذكر الخلف المعاصرون ما قام به أسلافهم الأماجد من الجهود الجبارة في تحويل تلك الممالك الوثنية إلى أوطان إسلامية تخفق فوقها راية التوحيد، فيحافظوا على وجود الإسلام القوي فيها؟

لعلهم يتذكرون، ولعلهم بعد ذلك يفعلون.

### فتح مدينة الملتان:

زحف محمد بن القاسم الثقفي بالجيش الإسلامي نحو مدينة الملتان عاصمة إقليم البنجاب، والتقوا بجيش السند بقيادة الأمير «كندا» حاكم الملتان ومعه الأمير

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ٢١٤.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ٢١٤، فتوح البلدان / ٦١٧.

بجهرها حاكم قلعة سكه الذي فرَّ منها واستمر القتال بعنف لمدة يومين سقط فيها كثير من القتلى، ثم استخدم المسلمون سلاحهم الثقيل حيث رموا تلك المدينة بالمجانيق لمدة شهرين على فترات متقطعة، ونفدت المواد الغذائية<sup>(١)</sup>.

يقول البلاذري: فأبلى زائدة بن عميرة الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة، وحصرهم محمد، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحُمُر، ثم أتاها رجل مستأمن فدلَّهم على مدخل الماء الذي منه شربهم وهو ماء يجري من نهر بسمد فيصير في مجتمع له مثل البركة في المدينة وهم يسمونه البلاح، فغوره، فلما عطشوا نزلوا على الحكم، فقتل محمد المقاتلة، وسبى الذرية وسبى سدة البُدَّ - يعني الصنم - وهم ستة آلاف<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان بلاء المسلمين عظيمًا وانتصاراتهم متوالية في كل معركة يخوضونها مع الأعداء، ولم يكن يحدُّ من قوتهم واندفاعهم إلا الأسوار الضخمة والحصون المنيعه، وهذه قد استخدموا لها المجانيق ونحوها، ولكن قد تكون هناك بعض العوائق تحول دون وصول هذا النوع من السلاح كما هو الحال في مثل هذا البلد وبلدة برهمناباد وهما من أعظم تلك البلاد تحصينًا.

ولقد قيض الله للمسلمين في حصارهم للملتان هذا الرجل الذي دلَّهم على عورة بلاده حيث يتسرب إليهم ماء الشرب عبر مسارب خفية، فكان قطع ذلك الماء وسيلة ناجعة إلى إلقاء أهل ذلك البلد على النزول على حكم المسلمين.

ولربما كان من المناسب أن نعود إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة حتى لا يظن بعض الناس أن هؤلاء الذين قدموا الخدمات الجلييلة للمسلمين ليسوا إلا أناسًا نفعيين يسعون لتأمين مصالحهم الخاصة، والحقيقة أن هذه الظاهرة ناتجة عن إعجاب أولئك القوم بالإسلام وميلهم إلى المسلمين وما يرجونه من الخلاص على أيديهم من قهر الولاة وظلمهم لما اشتهر به المسلمون آنذاك من العدل والرحمة والمواساة، ومما يدل على ذلك استمرار المشهورين من هؤلاء على الولاء للمسلمين ودخول كثير منهم في الإسلام.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١ / ٢١٥.

(٢) فتوح البلدان / ٦١٧.

وبعد فتح الملتان جاء الخبر بوفاة الحجاج بن يوسف، فرجع محمد ابن القاسم إلى عاصمة السند «أرور» وتلقى تعازي الناس حيث كان الحجاج ابن عمه ووالد زوجته.

### فتح إقليم الكيرج:

بعد فترة من الراحة خرج محمد بن القاسم بالجيش إلى إقليم الكيرج على حدود الهند حيث لجأ إليها الأمير جيسيه الذي كان ابن القاسم يعتبر بقاءه خطراً على مستقبل المسلمين في السند، وجرت هناك معارك حامية بين المسلمين وأهل كيرج قُتل فيها حاكمها دوهو وفي ذلك يقول الشاعر:

نحن قـتلنا داهراً ودوهراً والخيل تردي منسرا فـمنسرا  
وسقطت المدينة بيد المسلمين<sup>(١)</sup>.

### نهاية محمد بن القاسم:

اتجه ابن القاسم إلى مدينة قنوج التي رفض حاكمها قبول الإسلام والاستسلام. ولما كاد ابن القاسم أن يصل إلى قنوج التي تعتبر آخر بلاد السند جاء الأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله والقُدوم إلى العراق<sup>(٢)</sup>، حيث توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي قام بعزل جميع الولاة الذين أيدوا الوليد في سعيه لنقل الخلافة من سليمان إلى عبد العزيز بن الوليد، وحيث لم يتم ذلك وآل الأمر إلى سليمان فقد أقدم على عزل أولئك الولاة من غير نظر إلى ما يترتب على ذلك من ضرر على المسلمين وعلى دعوة الإسلام.

وبعزل محمد بن القاسم توقف الجهاد في بلاد السند، بل إن بعض مناطقها قد انتقضت بعد ذلك على حكم المسلمين.

ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة لابن القاسم أن سليمان بن عبد الملك ولَّى على العراق صالح بن عبد الرحمن وكان بينه وبين الحجاج عداً قديماً حيث كان

(١) فتوح البلدان / ٦١٨، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب / ١ / ٢١٩.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب / ١ / ٢١٩ - ٢٢، فتوح البلدان / ٦١٨.

الحجاج قد قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لكونه يرى رأي الخوارج، فانتقم صالح من أقارب الحجاج الذين منهم محمد بن القاسم، فقد ولَّى صالح بن عبد الرحمن على السند يزيد بن أبي كبشة وأمره بأن يقيد محمد بن القاسم وأن يرسله إلى العراق، ففعل ذلك واستسلم ابن القاسم طاعة لأولي الأمر بالرغم من شعبيته الكبيرة في بلاد السند وكثرة جنوده حيث بلغ عددهم خمسين ألفاً من العرب والسند.

وحمل ابن القاسم إلى العراق مقيداً وأدخله صالح بن عبد الرحمن في سجن واسط، ولقد كان تأثره من تلك المعاملة القاسية شديداً وحزنه بالغاً حيث قال في ذلك:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها      رهن الحديد مكبلاً مغلولاً  
فلرب قينة فارس قد رعتها      ولرب قرن قد تركت قتيلاً  
وقال أيضاً:

لو كنت أجمعت الفرار لوطئت      إناث أعدت للوغى وذكور  
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا      ولا كان من عكّ عليّ أمير  
ولا كنت للعبد المزوني تابعا      فيالك دهر بالكرام عشور  
وقد عذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل الثقفين حتى قتلهم<sup>(١)</sup>.

وهكذا قُتل هذا الشاب على يد هذا الوالي الظالم الذي أخذ بجريرة الحجاج كل من ينتسبون إلى جده أبي عقيل على عادات الجاهلية.

وأفلّ هذا النجم الساطع الذي أضاء سماء بلاد السند بقوة وسرعة فائقة بعد أن قام بتلك الأعمال الجهادية العظيمة وأرسى قواعد الدولة الإسلامية في بلاد السند. لقد كان محمد بن القاسم ناجحاً في الأعمال الحربية والأعمال الإدارية، فقد نجح في كل حروبه التي قادها ونجح في إدارته لتلك البلاد الواسعة التي حكمها، واستقطب محبة وإعجاب قادة المسلمين الذين كانوا تحت إدارته وقادة السند الذين أعلنوا الولاء له طوعاً وقدموا له خدمات كبيرة في أعماله الجهادية والإدارية.

(١) فتوح البلدان / ٦١٨ - ٦١٩.

ولقد كان محمد بن القاسم بارعاً جداً في استمالة زعماء الكفار حيث كان يقدرهم ويلطفهم ويبقي على سيادتهم في أقوامهم . .

وكان لهذه السياسة البارعة أثر كبير في ولاء عدد منهم لدولة الإسلام ودخول بعضهم مع أقوامهم في الدين الإسلامي .

ولقد بلغ من نتائج هذه السياسة الحكيمة أن استطاع محمد بن القاسم أن يضم إلى جيشه أكثر من ثلاثين ألفاً من جنود السند مع قاداتهم حتى بلغ جيشه في آخر معركة خاضها خمسين ألفاً .

وفي تقديره أنه لو استمر في القيادة مع دعم دولة الإسلام له لاستطاع أن يفتح جميع بلاد الهند ولخضع له ملوكها . . ولكن قاتل الله السياسة الهوجاء واتباع الهوى وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة المسلمين العامة .

فلقد كان الهمُّ الكبير الذي يحمله سليمان بن عبد الملك أن ينتقم من ولاة أخيه الوليد الذين كان لهم معه مواقف غير مرضية من غير أن ينظر مصلحة المسلمين العامة ومصلحة دولة الإسلام .

ولهذا الغرض اختار الولاة الذين يندفعون اندفاعاً أهوج نحو تحقيق هذا الغرض ، وكان ابن القاسم من ضحايا هذا الانحراف السياسي . بل كانت الدولة الإسلامية ومستقبل دعوة الإسلام من ضحايا ذلك . فرحم الله ابن القاسم وجزاه خيراً على ما قدم للإسلام والمسلمين .

\*\*\*

## الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك

بعد أن توفي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك في يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة انتقلت الخلافة إلى أخيه أمير المؤمنين سليمان، ثم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وذلك في يوم الجمعة لعشر مضي من صفر سنة تسع وتسعين، ثم إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك في يوم الأربعاء ليلال بقين من شهر رمضان سنة إحدى ومائة، ولم يكن في تلك العهود جهاد بارز في السند<sup>(١)</sup>، غير أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان له جهد واضح في دعوة زعماء الكفار إلى الدخول في الإسلام، وقد أجابه إلى ذلك بعضهم وولى بعض هؤلاء على بلادهم كما هو مذكور في بيان موافقه.

وحينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان في أواخر شهر شعبان من سنة خمس ومائة<sup>(٢)</sup> نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند.

### ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المري:

في سنة سبع ومائة تولى الجنيد بن عبد الرحمن المري بلاد السند، وهو رجل سياسي كبير وقائد بصير، وكانت السند قد عظمت بها الفتن والقتال وقل بها الأمن، وعظم سلطان الأمير جيسيه الذي كان قد استولى على منطقة برهمناباد وأقره عليها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما دخل في الإسلام.

ولما وصل الجنيد إلى بلاد السند قام بجولة في مناطقها فلما وصل إلى منطقة برهمناباد رفض جيسيه أن يسمح له بدخولها قائلاً: إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح<sup>(٣)</sup> بلادي، ولست آمنك، فأعطاه رهناً وأخذ منه رهناً بما على بلاده من

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٤٩٥، ٥٥٠، ٥٧٤.

(٢) المرجع السابق ٧ / ٢٥.

(٣) يعني عمر بن عبد العزيز.



الخراج، وخاف جيسيه من هجوم الجنيد عليه فاستعد له واستعان بحكام إقليم كجرات من بلاد الهند، وكان كل واحد من القائدين يراقب تحركات الآخر إلى أن وقعت بين الجيشين معركة انهزم فيها جيش جيسيه ووقع هو في الأسر فقتله الجنيد.

ثم قام الجنيد بعد ذلك بإخضاع مدينة الكيرج وكان محمد بن القاسم قد فتحها ثم انتقضت على دولة الإسلام وأراد حاكمها الاستقلال كما فعل جيسيه، فسار إليها الجنيد بجيشه وجرت بين الجيشين معركة دامية انهزم فيها حاكم الكيرج وتحصن بالمدينة، فأمر الجنيد بن عبد الرحمن باستخدام المنجنيقات بالقذائف النارية والحجرية فقاذف المسلمون بها واستخدموا آلة حربية تسمى كباش وهي آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فيدق بها الحائط فينهدم، فدكوا بها حائط المدينة حتى انثلم، فدخلوا المدينة وقاتلوا أهلها بشدة حتى هزموهم، وهرب حاكمها واستسلم أهلها.

ولما انتهى الجنيد من إخضاع منطقة السند جهز جيشاً كبيراً لإخضاع مناطق الهند المجاورة التي كانت تمتد المتمردين في السند، ففتح عدداً من المدن منها مرمد ومندل ودهنج وبنجاسر عاصمة إقليم كجرات الشمالية.

وعلم الجنيد بأن الكجراتيين يعدون العدة لحربه في مدينة بروص (بهروج) فتوجه إلى هناك وحارب أهلها وفتح المدينة ثم توجه نحو مدينة ماليه (مالوه) وفتحها كما فتح مدينة أرنين (أجين) ومدينة بهرم<sup>(١)</sup>.

وهكذا قام الجنيد بن عبد الرحمن المري بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن.

### ولاية الحكم بن عوانة الكلبي:

لم يستمر الأمن والاستقرار في السند طويلاً حيث تم نقل الجنيد بن عبد الرحمن إلى ولاية خراسان لاحتياج الدولة الأموية له هناك، وذلك في سنة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٢ - ٢٣٨، فتوح البلدان للبلاذري/ ٦٢٠ - ٦٢١، الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٤.

إحدى عشرة ومائة، فتولى إمرة السند بعده تميم بن زيد العتيبي ولم يكن في مثل كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق، وقد مات في الطريق، وعلم والي العراق خالد بن عبد الله القسري بذلك فولّى على السند الحكم بن عوانة الكلبي سنة اثنتي عشرة ومائة، وقدم الحكم إلى السند وهي في ذلك الوضع المضطرب، فسار سيرة حسنة وأحيى الجهاد، وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو بن محمد بن مسلم الثقفي نائباً عنه، لأنّ عمرًا محبوب في السند لشهرة أبيه فاتح السند، وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش، فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن، فرجع من جولته منتصرًا واستقرت الأوضاع في السند ورضي أهلها بولاية الحكم.

ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام اثنين وعشرين ومائة، حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء<sup>(١)</sup>.

#### ولاية عمرو بن محمد بن القاسم:

بعد استشهد الحكم بن عوانة ولّى والي العراق يوسف بن عمر على السند عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصنًا للمسلمين عند أي هجوم من الأعداء، وقد أفاد ذلك حيث هجم أحد ملوك الهند المجاورين للسند على تلك المدينة لما أحسّ بقلّة جيش المسلمين المرابط فيها، فتحصن بها المسلمون لعدم مقدرتهم على قتال ذلك الجيش المهاجم، وطلب عمرو المدد من والي العراق فأمدّه بأربعة آلاف مقاتل، فقرر عمرو مهاجمة الجيش الهندي وجعل على مقدمته معن بن زائدة الشيباني، وهجموا ليلاً على الجيش الهندي فانتهز المسلمون وقتل الكثير من الجيش الهندي، ووقع ملكهم في الأسر ولكن المسلمين لم يعرفوه، فأنقذه جنوده ولاذوا جميعًا بالفرار وتركوا وراءهم أموالهم والأسرى الذين أسرهم المسلمون<sup>(٢)</sup>.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ٢٣٨ - ٢٤٤، فتوح البلدان / ٦٦٢ - ٦٦٣، تاريخ خليفة بن خياط /

٣٥٤، الكامل في التاريخ / ١٣٥.

(٢) تاريخ يعقوبي ٢ / ٣٢٤.

**الجهاد والفتوحات  
في  
عهد العباسيين**

## الجهاد في الهند في عهد المهدي

لم يكن فيما بعد عهد هشام بن عبد الملك أخبار مهمة عن مواقف المسلمين الجهادية في بلاد السند، حيث اشتغل المسلمون بالخلافات والقتال فيما بينهم حتى آلت الخلافة إلى العباسيين فاشتغلوا بتوطيد حكمهم ومقاومة الفتن الداخلية طيلة عهد أبي عبد الله السفاح وأبي جعفر المنصور.

وبعد وفاة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ببيع بالخلافة لولده المهدي محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، وذلك في يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر الطبري في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة أن المهدي وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخصهم معه، وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المراتبات ألفاً وخمسمائة رجل، ووجه معه قائداً من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجي في سبعمائة من أهل الشام، وخرج معه من مطوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل، فيهم -فيما ذكر- الربيع بن صبيح، ومن الأسواريين والسبابجة<sup>(٢)</sup> أربعة آلاف رجل، فولّى عبد الملك بن شهاب المنذر بن محمد الجارودي علي الألف رجل المطوعة من أهل البصرة، وولى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي رجل الذين من فرض البصرة، وولى عبدالواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة الرجل من مطوعة المراتبات، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا، وكان المهدي وجه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرز بن إبراهيم، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربند<sup>(٣)</sup> من بلاد الهند في سنة ستين ومائة<sup>(٤)</sup>.

(١) تاريخ الطبري ٨ / ١٠٨.

(٢) ذكر الطرازي أنهم من السند - موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ٢٦٤.

(٣) ذكر الطرازي أن أصلها بهاروت وهي ميناء صغير يقع على بعد سبعة أميال من ميناء بهروج (بروص) -

المرجع السابق ١ / ٢٦٤.

(٤) تاريخ الطبري ٨ / ١١٦-١١٧.

وذكر المؤرخ ابن الأثير أنهم نزلوا أهل تلك المدينة وحاصروها من نواحيها،  
وحَرَّضَ الناس بعضهم بعضاً على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم  
عنوة، وأن أهلها احتَمَمُوا بالبدِّ وهو الصنم الذي لهم فأحرقه المسلمون عليهم  
فاحترق بعضهم وقُتِلَ الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون  
رجلاً<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الكامل في التاريخ ٥ / ٥٥.

## جهد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند

قبل الحديث عن جهد هذا البطل الكبير والقائد البصير فإنه يحسن بنا تقديم نبذة موجزة عن حياته وعن دولته الفتية القوية التي استولى بها على معظم أقطار الهند وقضى بها على معظم ملوكهم.

فهو السلطان أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة سبكتكين، لقَّبه أمير المؤمنين القادر بالله بعدما جعله سلطاناً بعد موت أبيه «يمين الدولة وأمين الملة» فاشتهر بذلك.

تولى أبوه إمارة «غزنة»<sup>(١)</sup> من قبل السامانيين بعدما مات حاكمها أبو إسحاق ابن البكتين، وكان سبكتكين أبرز رجاله، فاجتمعت كلمة مُقَدِّمي تلك الإمارة على تأمير سبكتكين لشهامته وشجاعته.

وقد آل الأمر إلى ابنه محمود بعد موته بعد نزاع كان مع أخيه إسماعيل، وقد قام محمود بتوسيع نطاق دولته حيث استولى على خراسان وانتزعها من يد السامانيين سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، فقويت بذلك دولته، وأصبح أمراء خراسان من أركان دولته وجيشه وشاركوه في فتوحاته.

ثم إن بلاد سجستان دخلت في طاعته سنة ثلاث وتسعين بدون قتال، وذلك بدخول قوادها وولاة أمرها تحت سلطانه.

وقد فرض على نفسه غزو بلاد الهند كل عام.

ذكر ذلك ابن خلكان ثم قال: ولم يزل يفتح في بلا الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تُتْلَ به قط سورة ولا آية. وقد توفي رحمه الله سنة إحدى أو اثنتين وعشرين وأربعمائة<sup>(٢)</sup>.

(١) هي عاصمة إقليم زابلستان، ويقع هذا الإقليم بين خراسان والهند - معجم البلدان ٤ / ٢٠١.

(٢) وفیات الأعيان ٥ / ١٧٥ - ١٨١.

وذكر الحافظ ابن كثير أنه سار في رعاياه سيرة عادلة وقام في نصر الإسلام قياماً تاماً، قال: وفتح في بلاد الكفار من الهند فتوحات هائلة، لم يتفق لغيره من الملوك، لا قبله ولا بعده، وكسر من أصنامهم شيئاً كثيراً<sup>(١)</sup>.

### جهاده مع جييال ملك الهند:

يقول المؤرخ العلامة أبو الحسن على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: في هذه السنة [يعني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] أوقع يمين الدولة محمود بن سبكتكين بجييال ملك الهند وقعة عظيمة، وسبب ذلك أنه لما اشتغل بأمر خراسان وملكها وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد، وخلا وجهه من ذلك أحب أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين، فشئى عنانه نحو تلك البلاد فنزل على مدينة برشور، فأتاه عدو الله جييال ملك الهند في عساكر كثيرة، فاختر يمين الدولة من عساكره والمطوعة خمسة عشر ألفاً، وسار نحوه فالتقوا في المحرم من هذه السنة، فاقتتلوا، وصبر الفريقان، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقُتل فيهم مقتلة عظيمة، وأسر جييال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته، وغنم المسلمون منهم أموالاً جلييلة وجواهر نفيسة، وأخذ من عنق عدو الله جييال قلادة من الجوهر العديم النظير، قومت بمائتي ألف دينار، وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي الأسرى<sup>(٢)</sup>.

وإن ما شعر به محمود بن سبكتكين من ارتكاب الذنب في قتال حكام الدويلات المجاورة من المسلمين يدل على اتصافه بشيء من الورع والخشية، ولعل الله تعالى أن يكفر عنه عمله هذا بجهاده الطويل ضد الكفار وتحطيم الآلاف من الأصنام ودخول الآلاف من الكفار في الإسلام على يديه.

وما جاء في هذا الخبر من وصف ذلك الحاكم الهندي وحاشيته من التحلي بالجواهر النفيسة الغالية يدل على ما كانوا يعيشون فيه من حياة الترف والبذخ الذي يقوم غالباً على ظلم المستضعفين فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا كثرة جنودهم وعتادهم لما حلت بهم نقمة الله تعالى على يد جنوده المجاهدين.

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٧ / ٢١٣.

## جهاده مع بيدبا صاحب كواكير:

ذكر ابن الأثير أن السلطان محمود بعد أن غزا الملتان سار عنها إلى قلعة كواكير، وكان صاحبها يعرف ببَيْدَا، وكان بها ستمائة صنم، فافتتحها وأحرق الأصنام، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة لكالنجار، فسار خلفه إليها، وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة، وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة، فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالا حدًّا له، فأمر بقطعها، ورأى في الطريق وادياً عظيم العمق بعيد القعر، فأمر أن يطم منه مقدار يسع عشرين فارساً فطموه بالجلود المملوءة تراباً، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوماً، وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه، ثم بلغه عن خراسان اختلاف فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف من الفضة<sup>(١)</sup>.

وهذا الخبر فيه مثل من الصعاب والمشاق التي كان يواجهها يمين الدولة محمود ابن سبكتكين في جهاده في بلاد الهند واجتهاده في هدم معالم الشرك التي أهمها الأصنام.

## جهاده في بلاد الغور:

وذكر ابن الأثير أيضاً غزو يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الغور فقال: بلاد الغور تجاور غزنة، وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غَلَقَة، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها، فلما كثر ذلك منهم أنفَ يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر، فجمع العساكر وسار إليهم وعلى مقدمته التونتاش الحاجب صاحب هراة، وأرسلان الجاذب صاحب طوس، وهما أكبر أمرائه، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد شُحِن بالمقاتلة، فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان، فسمع يمين الدولة الحال فجَدَّ في السير إليهم، وملك عليهم مسالكهم ففترقوا وساروا إلى عظيم الغورية المعروف بابن سوري، فانتهوا إلى مدينته التي تُدعى آهنكران فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم المسلمون إلى أن

(١) الكامل في التاريخ ٧ / ٢٢٨.



انتصف النهار، فرأوا أشجع الناس وأقواهم على القتال، فأمر يمين الدولة أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ففعلوا، فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعادوا عن مدينتهم، فحينئذ عطف المسلمون عليهم ووضعوا السيوف فيهم فأبادوهم قتلاً وأسرا، وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ابن سوري، ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا ما فيها، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها، فلما عاين ابن سوري ما فعل المسلمون بهم شرب سماً كان معه فمات، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه، وعاد<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين مغامراً جسوراً حينما سار بجيشه إلى أولئك القوم الأشداء الذين قد امتنعوا بجمالهم الوعرة وحصونهم المنيعه، ولقد وُفق بقيادة وجنود طائعين فدائيين حيث قاموا بتلك المهمة الصعبة.

كما أنه وُفق في خطته الحربية التي أظهر فيها التراجع خدعة لأعدائه ثم كر عليهم بعدما أبعادوا عن حصونهم ففاجأهم بما أذهلهم وحط من قواهم فتفرقوا وانهزموا.

وإن من مواقفه العالية اهتمامه بدعوة أولئك القوم إلى الإسلام، وتكليف من يعلمونهم شرائعه.

### جهاده في وسط الهند:

من مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية، ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة أربع وأربعمئة قال: في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير، وقصدوا سطة البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره، فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه، وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك فاحتفى به وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصاف هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم، وغنموا ما معهم من مال وفيلة وسلاح وغير ذلك.

(١) الكامل في التاريخ ٧ / ٢٥٣.

وُجِدَ في بيت بُدَّ عظيم<sup>(١)</sup> حجر منقور، دلَّت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة، فعجب الناس لقلة عقولهم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا انتصر المسلمون على ذلك الحاكم الهندي على الرغم من كونه قد أحكم أمره حينما لجأ إلى ذلك الجبل، ثم جمع جنده واستنجد بكل من حوله حتى كَوَّن جيشاً عظيماً، ولكنهم لم يثبتوا أمام عزم المسلمين القوي وصبرهم الشديد.

### جهاده في بلاد تانيشر:

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة خمس وأربعمائة أنه قد ذكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب، وأن صاحبها غَال في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين، فعزم على غزوه في عقر داره، وأن يذيقه شربة من كأس قتاله، فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقى في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف، بعيدة الأكفاف، والماء بها قليل، فلقوا بها شدة وقاسوا مشقة، إلى أن قطعوها، فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهراً شديداً الجرية صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره، ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدَلُّ بها، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور، ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود، وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهزم الهنود وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة موفورين ظافرين<sup>(٣)</sup>.

وهذا الخبر يشتمل على خطة حربية ناجحة خطط لها يمين الدولة ونجح في تنفيذها، حيث أشغل الجيش الهندي بطائفة من جيشه ليتمكن بقية الجيش الإسلامي من عبور النهر، فعبروا وطوقوا الكفار من كل الجهات، ولقد كان أولئك الجنود المنتخبون لإشغال الكفار في غاية الشجاعة والتضحية حيث فدوا بقية الجيش الإسلامي بأنفسهم، وتلقوا الضربات الأولى التي تكون هي أشد القتال وأعنفه.

(١) البد بضم الباء وتشديد الدال المضمومة هو الصنم.

(٢) الكامل في التاريخ ٧ / ٢٧٠-٢٧١.

(٣) الكامل في التاريخ ٧ / ٢٧٢.

## جهاده في بلاد قشмир وما حولها:

وذكر ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة سبع وأربعمئة أن يمين الدولة غزا بلاد الهند، عازماً على غزو قشмир، إذ كان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشмир، وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل، مما وراء النهر وغيره من البلاد، وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيراً دائماً، وعبر سيحون وجيلوم، وهما نهران عميقان شديداً الجرية، فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة، فلما بلغ درب قشмир أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده، فبلغ ماء جون في العشرين من رجب، وفتح ما حولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة، حتى بلغ حصن هودب وهو آخر ملوك الهند، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه، وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلباً للخلاص، فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى كلجند، وهو من أعيان الهند وشياطينهم، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة، فسير كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقاً مختصرة إلى الحصن من خلفهم فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم قتالاً شديداً فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا، وأخذهم السيف من خلفهم، ولقوا نهراً عميقاً بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم، وكان القتلى والغرقى قريباً من خمسين ألفاً.

وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه.

ثم سار [يعني يمين الدولة] نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند، وهو من أحصن الأبنية، على نهر، ولهم به من الأصنام كثير، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، وكان فيها من الذهب ثلاثمائة وتسعون ألفاً وستمائة ألف مثقال، وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي.

وسار نحو قنوج وصاحبها راجييال، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كَنَكْ، وهو ماء شريف عندهم، يرون أنه من الجنة وأن من غرَّق نفسه فيه طهر من الآثام، فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها، وهي سَبْع على الماء المذكور، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم، يذكرون أنها عُمِلت من مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذباً منهم وزوراً، ولما فتحها أباحها عسكره<sup>(١)</sup>.

وإننا نلاحظ من هذا العرض وما سبقه كثرة الأصنام في الهند إلى حد كبير، كما نلاحظ إغراقاً من زعمائها وحاشيتهم في الترف والزينة، فكان لهم بالمرصاد بطل الإسلام يمين الدولة محمود بن سبكتكين الذي قضى على ما جمعه من زخارف الدنيا وسلب منهم ذلك وتقوى به على الجهاد في سبيل الله تعالى، واذال في مدة قصيرة ما بناه مضللوهم من الأصنام على مدى آلاف السنين. وهكذا يتبوأ المسلمون أعمال الإصلاح والتطهير عن طريق الجهاد الإسلامي العظيم.

### جهاده في مملكة كجورامة:

ومن مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية ما ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وأربعمائة. قال: في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند غازياً، واحتشد وجمع واستعد وأعد أكثر مما تقدم.

وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنوج وهرب صاحبها «رأي قنوج» منها أرسل بيذا اللعين - وهو أعظم ملوك الهند مملكة وأكثر جيشاً وتسمى مملكته كجورامة - أرسل رسلاً إلى رأي قنوج - واسمه راجييال - يوبخه على انهزامه وإسلام بلاده للمسلمين، وطال الكلام بينهما، وآل أمرهما إلى الاختلاف، وتأهب كل واحد منهما لصاحبه وسار إليه، فالتقوا واقتتلوا، فقتل راجييال وأتى القتل على أكثر جنوده، فزاد بيذا بما اتفق له شراً وعتوا وبعُدَ صيت في الهند وعلواً، وقصده بعض ملوك الهند الذي ملك يمين الدولة بلاده وهزمه وأباد أجناده وصار في

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

جملته وخدمه، والتجأ إليه فوعده بإعادة ملكه وحفظ ضالته عليه، واعتذر بهجوم الشتاء وتتابع الأنداء<sup>(١)</sup>.

فتمت هذه الأخبار إلى يمين الدولة فأزعجته وتجهز للغزو وقصد بيذا وأخذ ملكه منه، وسار من غزنة وابتدأ في طريقه بالأفغانية وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه -فقصد بلادهم وسلك مضايقتها وفتح مغالقتها وخرب عامرها، وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم الكثير.

ثم استقل على المسير، وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته، وعبر نهر كَنَك، ولم يعبره قبلها، وجد به السير فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له «بروجييال» قد سار من بين يديه مُلتجئاً إلى بيذا ليحتمي به عليه، فطوى المراحل فلحق ببروجييال ومن معه رابع عشر شعبان، وبينه وبين الهنود نهر عميق، فعبر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال، ثم عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامة نهارهم، وانهزم بروجييال ومن معه، وكثر فيهم القتل والأسر، وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون، وأخذوا منهم الكثير من الجواهر، وأخذوا ما يزيد على مائتي فيل، وسار المسلمون يقتصون آثارهم، وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمنه، ولم يقنع منه إلا بالإسلام، وقُتِل من عساكره مالا يُحصى، وسار بروجييال ليلحق ببیدا، فانفرد به بعض الهنود فقتله.

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والإتاوة.

وسار يمين الدولة بعد الوقعة إلى مدينة باري، وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها، فرآها من سكانها خالية، وعلى عروشها خاوية، فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً.

وسار يطلب بيذا الملك فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر، وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلاً، وترك عن يمينه وشماله طريقاً يبسا يقاتل منه إذا أراد القتال

(١) لعله أراد الأمطار.

وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس وأربعة وثمانين ألف راجل، وستة وأربعين وسبعمائة فيل، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال، فأخرج إليهم بيدا مثلهم، ولم يزل كل عسكر يد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم.

فلما كان الغد بكرَّ يمين الدولة إليهم فرأى الديار منهم بلاقع، وركب كل فرقة منهم طريقاً مخالفاً لطريق الأخرى، وخزائن الأموال والسلاح بحالها، فغنموا الجميع، واقتنوا آثار المنهزمين، فلحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا بيدا فريدا وحيدا، وعاد يمين الدولة إلى غزنة منصوراً<sup>(١)</sup>.

وهذا الخبر يبين لنا دقة رصد المسلمين الحربي، حيث عرف يمين الدولة عن تحركات ملوك الهند نحو التحالف مع الملك بيда بالرغم من بُعد المسافة، كما يدل على ضعف ملوك الهند في ذلك، حيث لم يعلم الملك بروجييال عن تحرك المسلمين إلا بعد أن قابلوه أو قربوا منه، كما أن في هذا الخبر مثلاً من شجاعة أبطال المسلمين حيث عبر النهر إلى جيش الهند بعض أصحاب يمين الدولة، فشغلوهم بالقتال حتى عبر بقية جيش المسلمين، كما أن في هذا الخبر أمثلة واضحة من سلاح الرعب الذي نصر الله تعالى به المسلمين، وأبرز ذلك هروب ملك الهند بيда الذي جمع من السلاح والجنود ما لم يجمعه الملوك قبله، فلما رأى ضراوة قتال المسلمين أصيب بالرعب وأيقن بالهزيمة، فاغتتم فرصة ظلام الليل ليهرب هو وجيشه في كل ناحية.

### جهاده في بلاد أخرى:

من أخبار هذا المجاهد الكبير يمين الدولة محمود بن سبكتكين ما ذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة عشر وأربعمائة أنه غزا مدينة في الهند فيها ألف قصر مشيد وألف بيت للأصنام، وفيها من الأصنام شيء كثير، ومبلغ ما على الصنم من الذهب ما يقارب مائة ألف دينار، ومبلغ الأصنام من الفضة زيادة على ألف صنم، وعندهم صنم معظم يؤرخون له وبه -بجهالتهم- ثلاثمائة ألف عام، وقد

(١) الكامل في التاريخ ٧ / ٣٠١ - ٣٠٢.

سَلَبَ ذلكَ كلُّه محمود بن سبكتكين وذكر أن عدد القتلى من الهنود خمسون ألفاً، وأسلم منهم عشرون ألفاً<sup>(١)</sup>.

وذكر العالم المؤرخ ابن الأثير أن ابن سبكتكين غزا الهند في سنة أربع عشرة وأربعمائة، فأوغل فيها فغنم وقتل، حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع، ليس له مصعد إلا من موضع واحد، وهي كبيرة تسع خلقا، وبها خمسمائة فيل، وفي رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع ما يحتاج الناس إليه، فحصرهم وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال، فقتل منهم كثير، فلما رأوا ما حلَّ بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان، فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منهم<sup>(٢)</sup>.

### جهاده في سومنات :

من أبرز مواقف السلطان محمود الجهادية قضاؤه على أعظم أصنام الهند «سومنات»، وفي خبر ذلك يقول المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ست عشرة وأربعمائة: في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن، وأخذ الصنم المعروف بسومنات، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند، وهم يحجُّون إليه في كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف إنسان، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن شاء، وأن المدَّ والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته، وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس، ويعطون سدنته كل مال جزيل، وله من الموقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية، وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر مالا يحصى قيمته.

ولأهل الهند نهر كبير يسمى كَنَكُ يعظمونه غاية التعظيم، ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم، وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يُحمل من مائه كل يوم إلى سومنات ما يغسل به. ويكون عنده من البرهمنين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه، وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم.

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٨-٩.

(٢) الكامل في التاريخ ٧ / ٣١٥.

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود: إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات، ولو أنه راض عليها لأهلك من قصدها بسوء، فلما بلغ يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام، فاستخار الله تعالى وسار من غزنة عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة، وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان.

وفي طريقه إلى الهند برية قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة، فتجهز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد «أنهلوار» ، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصوناً مشحونة بالرجال، وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها، فيسر الله تعالى فتحها عند قربها منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها، وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه .

وسار إلى أنهلوار فوصلها مستهل ذي القعدة، فرأى صاحبها المدعو «بهيم» قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب، وقصد حصناً له يحتمي به، فاستولى يمين الدولة على المدينة.

وسار إلى «سومنات» فلقى في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحُجَّاب والنقباء لسومنات، على ماسول لهم الشيطان، فقاتل من بها وفتحها وخرّبها وكسر أصنامها، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء، فلقى فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم، وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا «دبولوار» وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها ظناً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم، فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها.

وسار عنها إلى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذي القعدة، فرأى حصناً حصيناً مبنيّاً على ساحل البحر، بحيث تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم.



فلما كان الغد -وهو الجمعة- زحف وقاتل من به، فرأى الهنود من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله، ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم، وصعدوا إليه، وأعلنوا بكلمة الإخلاص، وأظهروا شعار الإسلام، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب، وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفروا له حدودهم وسألوه النصر، وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض.

فلما كان الغد بكرَّ المسلمون إليهم وقتلوه، فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات، فقاتلوا على بابه أشد قتال، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات فيعتنقونه ويكفون ويتضرعون إليه، ويخرجون فيقاتلون إلى أن يُقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضاً وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وسومنات من حجر، طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء، وليس بصورة مصورة، فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه إلى غزنة فجعله عتبة الجامع.

وكان بيت الصنم مظلماً وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا من، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حُرِّكت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهمنين إلى عبادتهم، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجواهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم.

وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع، وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل<sup>(١)</sup>.

وبعد، ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أولاً: إقدام محمود بن سبكتكين على قطع تلك المسافات البعيدة المشتملة على الصحارى المهلكة التي لا ماء فيها ولا طعام، ولقد كان يعلم خطورة قطع تلك

(١) الكامل في التاريخ ٧ / ٣٢٠-٣٢١.

الصحاري، فاستعد لها الاستعداد الكافي، وإذا عرفنا أن استعدادة الاحتياطي عشرون ألف جمل يَحْمِلُ الماء والطعام فإننا نعرف ضخامة العناد الذي أعده يمين الدولة لتلك الرحلة الجهادية الشاقة.

ثانيًا: حرص يمين الدولة على نشر الإسلام، فقد كان سفره ذلك وتحمله تلك المشاقَّ العظيمة للقضاء على ذلك الصنم الكبير، من أجل أن يدرك الهنود أنه ليس هناك آلهة مع الله تعالى ينصرون عابديهم أو ينفعونهم، فيدفعهم ذلك إلى الإسلام.

ثالثًا: نصر الله تعالى أولئك المجاهدين بسلاح الرعب واضح في عدة مواطن، وهذا دليل على صلاح ذلك الجيش وصدق نية أفراد.

رابعًا: في تلك المعركة الفاصلة حَوْلَ أكبر أصنام الهند اجتمع عباد الله تعالى الذين يعبدونه ويستلهمون منه النصر والتأييد مع عباد ذلك الصنم الذين يعبدونه ويطلبون منه النصر والتأييد، وكان في يقينهم أن من احتذى بذلك الصنم لا يُغْلَب، بل كانوا يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يدخلوا مع العدو المهاجم في معارك، لاعتقادهم بأن تلك الساحات ستكون مقبرة للغزاة بمجرد غضبة من ذلك الصنم، ولذلك وقفوا على الأسوار يتفرجون على المسلمين انتظارا منهم لتلك اللحظة التي يتحولون فيها إلى حطام مبدد وركام ملبد.

فإذا بهم يرون من المسلمين قتالا منعدم النظير، وإذا بهم يشاهدونهم وهم يصعدون إلى السور وهم يكبرون الله جل وعلا ويوحدونه.

وعاد الكفار أدراجهم يعانقون صنمهم ويطلبون منه النصر والحماية، ولكن لا حياة لمن تنادي.

إنه لعجب أن ينحدر الفكر البشري فيتوقع أن صنمًا من الجُمَادِ يستطيع نصره وإنقاذه، ولقد كانت تلك العقيدة الساذجة مشتركة بين أمم العالم قبل الإسلام، فزالت تلك العقيدة بدخول الناس في الإسلام، ولكنها بقيت في بلاد الهند آنذاك حيث لم يصل الفتح الإسلامي إلا إلى أطرافها الغربية.

إن أى عاقل يتصور هذا الموقف يدرك الفرق الشاسع بين قوم يستلهمون النصر من حجر، وقوم يستلهمونه من خالقهم وخالق أعدائهم وخالق كل شيء جل وعلا .

ولقد ظهر الحق وزهق الباطل حينما انتصر عباد الله سبحانه على عباد الأصنام، وخسر أولئك الكفار دنياهم وآخرتهم، كما خسر عبّاد الأصنام من قبلهم .

خامساً: حطّم ذلك القائد الكبير يمين الدولة أكبر أصنام الهند وما حوله من الأصنام، كما حطّم قبل ذلك آلاف الأصنام، ولم يرَ عليّ أن قائداً مسلماً حطم من الأصنام بقدر ما حطم السلطان محمود بن سبكتكين، ويكفي مثالا على ذلك أنه لما فتح بلاد قنوج وجدَ بها ما يقرب من عشرة آلاف صنم فأبادهما كما تقدم، وهذه منقبة عظيمة لهذا القائد الكبير .

ولفتة جليلة حينما حمل السلطان محمود جزءاً من صنم الهند الكبير «سومنا» فجعله عتبة لباب المسجد الجامع في غزنة، وكأنه أراد أن يقول للناس: هذا الصنم الذي يعبدّه ويقدسه مئات الألوف من البشر هو الذي نطّؤه نحن بأقدامنا، وهذه صورة معبرة من إذلال الكفر وأهله .

سادساً: لقد منَّ الله تعالى على يمين الدولة بتلك الانتصارات المذكورة لكونه جمع بين القوتين: المادية والمعنوية، فهو لم يهمل الأسباب المادية، بل أعد كل ما تمكن منه من السلاح والعتاد والجنود المدربين، إلى جانب اهتمامه بشكل أبلغ بالقوة المعنوية، حيث كان متوكلاً على الله تعالى رافعاً شعار توحيده، يستلهم منه النصر والتأييد، وقبل ذلك كان مستقيماً عادلاً في حكمه .

#### من مواقفه في الإصلاح والعدل:

ومن مواقفه في الإصلاح والعدل ما ذكره الحافظ ابن كثير بقوله: وبنى على جيحون جسراً تعجز الملوك والخلفاء عنه، غرم عليه ألفي ألف دينار، وهذا شيء لم يتفق لغيره .

قال: وكان عادلاً جيداً، اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله في كل وقت، فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته، وقد حار في أمره، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه خوفاً وهيبة للملك، فلما سمع الملك ذلك غضب غضباً شديداً وقال للرجل: ويحك متى جاءك فأتني فأعلمني، ولا تسمعن من أحد منك من الوصول إلى، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني، ثم إن الملك تقدم إلى الحجابة وقال لهم: إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إلى من ليل أو نهار، فذهب الرجل مسروراً داعياً، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت واختلى بأهله، فذهب باكياً إلى دار الملك فقبل له إن الملك نائم، فقال: قد تقدم إليكم أن لا أمنع منه ليلاً ولا نهاراً، فنبهوا الملك فخرج معه بنفسه وليس معه أحد، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد، وعندهما شمعة تَقْدُ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ثم جاء فاحتز رأس الغلام وقال للرجل: ويحك الحقني بشربة ماء، فأثاء بها فشرب ثم انطلق الملك ليذهب، فقال له الرجل: بالله لِمَ أطفأت الشمعة؟ قال: ويحك إنه ابن أختي، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح، فقال: وَلِمَ طلبت الماء سريعاً؟ فقال الملك: إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أنصرك، وأقوم بحقك، فكنت عطشاً هذه الأيام كلها، حتى كان ما كان مما رأيت. فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعاً إلى منزله، ولم يشعر بذلك أحد<sup>(١)</sup>.

فهذا الخبر يدلنا على كمال اتصاف السلطان محمود بن سبكتكين بالعدل وإنصاف المظلومين من ظالمهم، فحينما سمع بهذه الشكوى من ذلك المتظلم اهتم كثيراً وقام بالبحث والتحري بنفسه، فلم تغلبه العاطفة نحو أقاربه على الحكم بالحق الذي دفعه إليه إيمانه الراسخ. . لم تغلبه من إقرار العدالة وإنصاف المظلومين وإن كانوا من عامة الناس، وعقاب الظالمين وإن كانوا من أقرب أقاربه.

لقد تأثر كثيراً من إقدام ابن أخته على تلك الجريمة النكراء منتهزاً فرصة قرابته منه، فمنع نفسه الطعام والشراب حتى ينصف المظلوم ويرد الظالم.

(١) البداية والنهاية ٢ / ٣٢ - ٣٣.

وإن اتصاف هذا السلطان بالعدل وإنكار المنكر والتخلق بكمكارم الأخلاق كان سبباً في انتصاراته العظيمة على الأعداء، وبلوغه في الفتوحات حداً لم يصل إليه غيره، لأن من خضع لشريعة الله تعالى وطبقها على نفسه وعلى من هم تحت ولايته ينال معية الله جل وعلا بالحفظ والنصر والتأييد.

أما إصلاحاته التي ذكر منها ابن كثير بناء ذلك الجسر العظيم، فإنها تدل على اهتمامه بأمور رعيته ورحمته بهم، ورغبته الصادقة في الأعمال الصالحة، رحمه الله رحمة واسعة.

\*\*\*

## جهد مسعود بن محمود وابناه مودود وإبراهيم في بلاد الهند

١- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وعشرين وأربعمائة أن السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين سار بجيشه إلى بلاد الهند، وقصد قلعة سرستي، وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها فحاصرها، وقد كان أبوه حاصرها غير مرة لم يتهياً له فتحها، فلما حاصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالا على الصلح فأجابه إلى ذلك، وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة القرار الذي عليه، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها بضعف الهنود بها وأنه إن صابروهم ملكها، فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره، وفتح الله عليه، وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم، وأخذ ما جاورها من البلاد<sup>(١)</sup>.

٢- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أنه اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا «لهاوور»<sup>(٢)</sup> وحصاروها، فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين يستنجد به، فسير إليه العساكر، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقههم وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ويعرف بدوبال هربانه فانهزم منهم، وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحاصروهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك التي لهم، فحملهم الخوف وعدم الأقوات إلى إجابتهم إلى ما طلبوا، وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال، وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف رجل.

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ٦-٥.

(٢) لعلها مدينة لاهور الحالية.

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني واسمه ثابت بالرّي فتقدم إليهم ولقيهم واقتتلوا قتالا شديداً، وانهزمت الهنود، وانجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح، وأسرّ ضعفاؤهم، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم.

فلما رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا إلى ذلك<sup>(١)</sup>.

٣- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة أن السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين غزا بلاد الهند فحاصر قلعة «أجود» وهي على مائة وعشرين فرسخاً من «لهاور» وهي قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة، فقاتلوه وصبروا تحت الحصار، وزحف إليهم أكثر من مرة فرأوا من شدة حربه ما ملأ قلوبهم خوفاً ورعباً، فسلموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر.

ثم ذكر أنه فتح قلعة روبال وموضعين آخرين يقال لاحدهما «دره نوره» والآخر «وره» وكان النصر حليفه في كل تلك الحروب<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قام السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بإكمال ما بدأه أبوه وثبت حكم المسلمين في الهند، وكذلك ما قام به ابنه مودود وإبراهيم، وهذا الحكم الإسلامي في بلاد الهند الذي امتد تلك السنوات الطويلة مكن لوجود الإسلام في الهند حيث استمر بعد ذلك دخول الهنود في الإسلام وقيام الحكم الإسلامي فيها.

\*\*\*

---

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ٢٨ .

(٢) الكامل ٨ / ١٢٧ .

**الجهاد والفتوحات  
بعد العباسيين**



## جهد السلطان محمد شاه البهمني

هو محمد بن الحسن البهمني، السلطان المجاهد في سبيل الله. قام بالملك بعد والده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بأرض دكن، وافتتح أمره بالعدل والسخاء، وسار إلى بلاد تلكانه سنة ثلاث وستين، فقاتل أهلها وغنم من الذهب والجواهر الثمينة ما لا يحصى، وعاد إلى كبركه، ثم صار في سنة أربع وسبعين إلى تلك البلاد، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة أرسل إليه يطلب المصالحة على مال يؤديه، فأبى محمد شاه ثم أجابه إلى ذلك على ثلاثمائة فيل ومائتي فرس وثلاثة عشر مائة هنّ وبلدة كوكنده، فأرسل إليه كل ذلك صاحبها وأرسل إليه سريراً مرصعاً من الذهب والجواهر، فرجع إلى كبركه وأرسل خمس الغنائم إلى الشيخ سراج الدين الجنيدي ليفرقها على من يستحقها من السادة والمشايخ.

وفي تلك السنة قدم إليه صاحب بيجانكر وأخذ قلعة مدكل عنوة وقتل ثمانمائة من المسلمين ممن كانوا فيها، فلما سمع محمد شاه اشتعل غضباً وحلف أنه يقتل من الوثنيين مائة ألف في قصاص المقتولين، ثم جعل ولده المجاهد وليّ عهده وأوصى إليه وسار بتسعة آلاف فارس إلى صاحب بيجانكر وكان معه ثلاثون ألف فارس وتسعمائة ألف راجل<sup>(١)</sup>، ونهر كشنه كان عظيمًا كثير الزيادة لا يخطر على قلب أحد أن محمد شاه يقدر على عبوره، وأيده الله سبحانه على العبور، فأقام على شاطئه، وألقى الله تعالى الرعب في قلب صاحب بيجانكر فهابه وبعث الأحمال والأثقال كلها إلى بيجانكر، وأقام بمعسكره ليستشير أصحابه في الحرب، فإن رضوا بالحرب حاربوه وإلا يذهب إلى بيجانكر ويتحصن بها، والأحمال التي بعثها إلى بيجانكر لم تتجاوز ميلين لشدة الوحل ذلك اليوم، فلما سمع محمد شاه أنه ينتهز الفرصة للفرار بكرّ إليه بعساكره، فتركوا الفيلة والأموال وما كان معهم من الأحمال وفروا إلى قلعة أودني فأقام محمد شاه في معسكره وقبض على أمواله وأمر بالقتل، فقتل من الوثنيين في ذلك اليوم سبعين ألفاً من الرجال

(١) هكذا جاء هذا الرقم في الخبر، ولعل فيه خطأ أو مبالغة من الراوي.

والنساء والولدان من غير تفريق، وحصل له من المغنم ألفان من الفيلة وثلاثمائة من عجلات المدافع وسبعمائة من الأفراس.

ثم سار إلى مدكل وأقام بها، ولما انقضت أيام المطر قصد قلعة أودنى، فلما سمع صاحب بيجانكر استخلف بها ابن أخيه وذهب إلى ناحية من نواحي بلاده، فسار محمد شاه إلى بلاد بيجانكر مع المقاتلة، وأرسل الأحمال والأفيال إلى كلبركه وقصد معسكر صاحبها، فبعث إليه صاحب بيجانكر مقدم عساكره بأربعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل، وكان عساكر محمد شاه خمسة عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل مع ما لحق به من بعض عساكر الأمراء بعد خروجه عن كلبركه، فالتقوا واقتتلوا وانهزم الوثنيون، وأكثر محمد شاه في القتل فلم ينج منهم إلا القليل النادر، وأقام بها سبعة أيام.

وسار محمد شاه في أثر صاحب بيجانكر وحاصرها وضيق على أهلها وأدام الحصار إلى شهر كامل، ثم دبر الحيلة وتمارض وأمر برجوع العساكر من بيجانكر، فلما سمع المشركون ذلك طمعوا في قتلهم ونهب أموالهم، فخرج صاحب بيجانكر من القلعة وتعقب المسلمين حتى وصل إلى ماء تمهندره وعبرها ووصل إلى أرض قفراء، فقام محمد شاه من فراشه وجلس للناس وقت المساء وقويت عساكره برويته فأمرهم أن تجهزوا للحرب، وسار بعساكره في الليل إلى معسكر المشركين وكانوا مشغولين بالرقص والغناء، ولم يعلموا بمجيئه إلا حين وقف على رؤوسهم في البكرة، فاختلت حواسهم وفر كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي الأرض وتركوا جميع ما لهم من الأموال والأحمال، وأمر محمد شاه بقتلهم فقتل منهم حينئذ عشرة آلاف، وغنم محمد شاه أموالاً طائلة، ثم تعقبهم إلى أربعين ميلاً من بيجانكر وقتل وغنم، فاضطروا إلى الصلح وأرسل كشن راي إلى محمد شاه يطلب الصلح على مال يؤديه عاجلاً، فرجع محمد شاه إلى كلبركه واشتغل بمهمات الدولة، واستقل بالملك سبع عشرة سنة وتسعة أشهر<sup>(١)</sup>.

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية منها:

---

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ١٢٩٩-٣٠١ نقلا عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الإعلام الحي الندوي.

١- جرأة السلطان محمد شاه على ملاقاته جيش يتكون من ثلاثين ألف فارس وتسعمائة ألف راجل -كما جاء في الرواية- بتسعة آلاف فارس، وهذا الرقم المذكور لجيش الأعداء قد يكون فيه مبالغة، ولكنه يدل على أن جيش الأعداء كان كبيراً وأن الفارق بين الجيشين كبير جداً، وهذا يدل على جسارة عظيمة، وشجاعة عالية، واختيار جيد للجنود، ولا شك أن الروح المعنوية لجيش المسلمين كانت عالية جداً، وما ذلك إلا من قوة تمسكهم بالإسلام، حيث كان لعلماء الدين آنذاك دور كبير في تربية الأمة على الاستقامة والإخلاص.

٢- إقدام السلطان محمد شاه على عبور نهر كشنه مع كثافة وزيادة مائه، بحيث يغلب على الظن -حسب المعتاد- عدم القدرة على العبور، وذلك -بعد توفيق الله تعالى- شاهد على شدة الإقدام وقوة الحماس عند المسلمين، ولعل هذا الإقدام الشديد الذي يصل إلى حد المغامرة كان سبباً من أسباب إصابة الأعداء بالرعب من المسلمين.

٣- دقة رصد السلطان محمد شاه، حيث علم بما يدور في معسكر الأعداء من المشاورة على الإقدام على قتال المسلمين أو التحصن بمدينة «بيجانكر»، ثم ما كان عليه هذا السلطان من الحزم واغتنام الفرص المناسبة، حيث أقدم على قتال الأعداء مع أول النهار قبل أن ينسحبوا وكانوا في حال تردد وانهزام معنوي، فكان ذلك ممهداً لهزيمتهم عسكرياً، حيث لاذوا بالفرار وتركوا فيلّتهم التي كانت هي أسلحتهم الثقيلة وتركوا أموالهم، وأكثر المسلمون من القتل فيهم وهم منهزمون، وكون المسلمين قتلوا بعض نساء العدو وأطفالهم مخالفة شرعية حيث لا يجوز قتل النساء والصبيان إلا إذا شاركوا في القتال، ولعلهم كانوا قد شاركوا، أو لعل ذلك صدر من بعض جنود المسلمين جهلاً منهم بالحكم الشرعي في ذلك.

٤- لم يكتف السلطان محمد شاه بهذا النصر المؤزر على أعدائه، بل سار خلفهم ليقضي على ما تبقى من قوتهم حتى لا يفكروا بغزو المسلمين مرة أخرى، وقد اعتبر أن الخطر على المسلمين ما زال باقياً مادام رأس أعدائه قائماً على حكم بلاده، فسار إليه حتى حاصر عاصمة ملكه «بيجانكر»، وهذا التصميم منه على إنهاء ملك تلك البلاد دليل على خبرته الحربية والإدارية.

٥- في المعركة الأخيرة مع عدوه استعمل الخداع الحربي حينما حالت التحصينات القوية والجدر السميكة بينه وبين عدوه، حيث أظهر أنه مريض ورجع إلى بلاده، وجازت هذه الخدعة على أعدائه فخرجوا يتعقبون المسلمين ليوقعوا بهم، فلما وصلوا إلى المكان الملائم للحرب نهض السلطان محمد من فراشه وصار يزاول مهامه القيادية بقوة وحزم، ثم داهم الكفار وهم غارقون في لهوهم فأوقع بهم فلم يكن لهم مقاومة، بل فروا وتركوا أمتعتهم.

وهكذا انتهت هذه المعارك المثيرة بين السلطان محمد شاه وعدوه صاحب «بيجانكر» بانتصار حاسم للمسلمين في جميع تلك اللقاءات.

\*\*\*

## جهااد السلطان محمود بن محمد الكجراتي

هو السلطان العادل المجاهد أبو الفتح سيف الدين محمود بن محمد بن أحمد الكجراتي المشهور بمحمود بيكره.

كان من خيار السلاطين، ولد بكجرات سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وقام بالملك بعد داود شاه سنة اثنتين وستين وثمانمائة وكان يوماً مشهوداً، واستقل بالملك خمساً وخمسين سنة، وفتح قلعة باردو وفتح قلعة كرنال وكانت من أمنع قلاع الهند، وأنشأ مدينة في سفح الجبل وسماها مصطفى آباد وجعلها دار المملكة.

وفتح قلعة بيت ودواركا وفيها صنم من أشهر أصنام المشركين في الهند، يحجون إليه ويرون من العبادة تكلف المشاق في الوصول إليها، حتى إن منهم من ينبطح على وجهه ويمد يديه أمامه ويقف ثم يضع قدمه على منتهى يده وينبطح ويمد يده ويقف، وهكذا يقطع الطريق إليها ولو من مسافة أشهر، فملكها سنة خمس وثمانين وثمانمائة، وسار إلى جانبانير وحاصر قلعتها، وكانت قلعة حصينة متينة على قلة جبل<sup>(١)</sup> لاتكاد تفتح، فضيق في الحصار وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها سنة تسع وثمانين وثمانمائة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قضى السلطان محمود بن محمد الكجراتي على ذلك الصنم الذي يعظمه الوثنيون في الهند ويحجون إليه، ويتكلفون المشاق في بلوغه، وإن القضاء على الأوثان من أهم الوسائل الناجحة في الدعوة إلى التوحيد، لأن الأصنام هي أكبر العوائق التي تحول بين العقل والطموح نحو المعاني السامية التي يدعو إليها الإسلام، فإذا أزيلت ولم يحدث لمن أزالها ضرر فإن الناس من عابديها يفهمون بأنها لا قيمة لها في الضرر والنفع، فيصبحون بعد ذلك مهيين لقبول دعوة التوحيد.

(١) رأس جبل.

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ٨٧٧، نقلا عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام» للشيخ عبدالحلي الندوي الحسني.

ومن مآثره الجميلة قيامه بالعدل والإحسان وإنفاذ أمر الشرع في السياسة، ومما يحكى عنه في ذلك أنه بلغه عن بهاء الملك بن علاء الملك ألف خان سهراب أنه قتل سلاحداراً<sup>(١)</sup> له، فطلبه، فلاذ بعماد الملك وعضد الملك واستجار بهما، فلم يجدا لخلاصه سبيلاً سوى نسبة القتل إلى غيره، فأرضيا شخصين على ضمان الخلاص لهما، وبعد الإقرار به سعيًا في الدية وكانا عولا عليها في الخلاص فلم تقبل الدية ومضى الحكم بقتلهما وخلص بهاء الملك، وبعد يسير وقف محمود شاه على حقيقة الحال وتعب إلى الغاية وجلس للقضاء وأمضى في الملكين حكم القصاص، ولم يمنعه كونهما من عظماء ملوكه الخاصة به من أن يعمل بالشرعية<sup>(٢)</sup>.

وهذا التصرف من هذا السلطان يدل على قوة إيمانه بالإسلام وخشيته من الله تعالى، فإن مما ينظر إليه الساسة في تثبيت سيادتهم مداراة رؤوس مراكز القوي في دولهم، وإن أضر ذلك بعامة الناس، وهذا عمل أهل الدنيا لأنهم ينظرون إلى تثبيت السلطة من غير نظر إلى الحساب في الآخرة، أما أهل الآخرة فإنهم ينظرون إلى النجاة من المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة، وهذا يتطلب منهم أن يحكموا بالعدل حتى مع الكبراء، وإذا كانت العدالة قد تفقد المسؤول دعم بعض مراكز القوى فإنها تمنحه دعم الألوף من الرعية الذين يتمتعون بعدله، كما كانت حال هذا السلطان الذي بقي في السلطة خمسًا وخمسين سنة.

ومن مكارمه أنه استقل بالملك خمسًا وخمسين سنة وجاهد في الله حق الجهاد ووسع حدود ملكه إلى مالوه وإلى بلاد السند، ولكنه في تلك المدة الطويلة لم يطمح إلى بلاد المسلمين ولم يستشرف لها قط، وإذا استولى القوي منهم على الضعيف قام بنصرة الضعيف، كما وقع له في سنة ست وستين وثمانمائة إذ وصل إليه حاجب نظام شاه البهمني صاحب دكن يخبره أن محمود شاه الخلجي صاحب مالوه خرج إليه بعساكره، فعطف السلطان عنانه من الصيد وتوجه إلى سلطان يور بمن حضر معه، وأمر الوزير أن يلحقه بالعسكر، ولما نزل بسلطان يور قدم حاجب

(١) أي حافظ الأسلحة ومتوليها.

(٢) المختار المصون/ ٨٧٨، عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام».

آخر يخبر بالحرب وأنه حاصر دار ملكه بيدر، فنهض السلطان من سلطان يور، ولما كان منزله تهالنير قدم حاجب آخر يخبر برجوع الخلجي، وذلك لأنه سمع بوصول محمود شاه الكجراتي فترك بيدر ورجع إلى مندو، وكذلك في سنة سبع وستين وثمانمائة وصل حاجب نظام شاه يخبر أن الخلجي خرج بتسعين ألف فارس إلى حدود نظام شاه، فنهض السلطان مع الحاجب وبلغ الخلجي ذلك بفتح آباد من أعمال تلنكانه فرجع إلى دار ملكه، فكتب السلطان إلى محمود شاه الخلجي ما معناه: ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم وقد التزمت حفظ ملكه إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت في حده خرجت إلى حدك وفيما يليك من جهات الكفر ما يغني عنه ويرفع درجتك بالجهاد.

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مذاك فلا تجاوز

وكذلك لما بلغ محمود شاه سنة سبع وسبعين وثمانمائة خروج النوتك القواسه على سلطان السند بلغ عددهم أربعين ألفاً، وهي طائفة بحرية تسكن الجزر بناوحي السند، لا تجتمع على طاعة أحد، إنما هي من لصوص البحر، فنهض من مصطفى آباد يسير كل يوم ستين فرسخاً، فلما قرب من السند تفرقوا، فتوقف السلطان بمنزله إلى أن وصل رسول ملك السند برسالة تتضمن شكره، فرجع إلى دار ملكه، وكذلك لما بلغه أن جماعة من الأمراء تغلبت في خاندیس واختل بها نظام الملك نهض إلى برهانپوز بعساكره، وولى عليها عالم خان بن أحسن خان الفاروقي أحد وارثي المملكة، ولقبه أعظم همايون عادل خان، وكان ابن بنته، وذلك في سنة أربع عشرة وتسعمائة.

ومن ذلك أنه لما توفي محمود شاه الخلجي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وبلغ وفاته ترحم عليه فعرض عليه بعض أرباب الرأي الخروج إلى مندو، فأجابه: ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين في وقت واحد على أهل بيته: فقد ذاته، وخلل جهاته.

ومن ذلك أنه لما سمع سنة ست وتسعمائة أن ناصر الدين شاه الخلجي سم أباه غياث الدين الخلجي خرج إلى مندو وقصد تأديبه لا ملكه، وبينما كان ينهض تواترت الرسل من ناصر الدين ببراءة ذمته فتركه، وفي كلها مفخرة عظيمة له<sup>(١)</sup>.

(١) المرجع السابق / ٨٧٨ - ٨٧٩.

وبعد: فهذه أخبار عالية عن السلطان محمود بن محمد الكجراتي في الزهد في الجاه، والعفة عن دماء الناس وأموالهم، فقد عاش الأمراء المسلمون من حوله خمساً وخمسين سنة بسلام، ونعمت الهند بشيء من الاستقرار السياسي الذي ينتج عنه تمتع الناس بنعمة الأمن، حيث كان لا يعتدي على الإمارات الإسلامية التي حوله، ولا يترك القوي من أولئك الأمراء يعتدي على الضعيف، وهذه خصلة حميدة وسياسة عالية، ولقد سبق بذلك هيئة الأمم في مهمتها السياسية العالمية، ولكن بشكل مصغر اقتصر على الإمارات الإسلامية في الهند، ولقد كان انطلاقه في هذه السياسة من واجبه الإسلامي، حيث جاء في الإسلام وجوب نصر المظلوم على الظالم، انطلاقاً من قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتَلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[الحجرات: ٩، ١٠].

وقول رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه -أو تمنعه- من الظلم فإن ذلك نصره» أخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (١).

\*\*\*

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٩٥٢، الإكراه (١٢/ ٣٢٣).



## جهاد السلطان بابر

هو السلطان بابر بن عمر بن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور التيموري .  
تولى السلطان في «أندجان» من بلاد ما وراء النهر في عام تسعة وتسعين  
وثمانمائة وله اثنتا عشرة سنة، ثم وسع سلطنته فاستولى على أفغانستان وبعض  
الهند .

وشعر أحد أمراء الهند الوثنيين القدامى بخطر قيام حكومة يحكمها المسلمون  
الغزاة الوافدون من الخارج، وإفلات الأمر من يدهم، وهو الأمير «رانا سانكا»  
حاكم «جتور»، وكان قائداً بأسلاً محنكاً، فعبأ جيشاً كبيراً، واتفق معه من الأفغان  
من كان منتصراً للأسرة اللودھية الأفغانية التي انتزع منها «بابر» الحكم، فتألف  
بذلك نحو مائتي ألف محارب، وتوجه الجيش إلى «أكره» وتوجه «بابر» بجيشه  
وهو يتألف من اثني عشر ألف جندي، وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث  
وثلاثين وتسع مائة للهجرة، واستقر في موضع يسمى «كانوه» أو «خانوه» .

كاد الوهن يدب إلى جيش «بابر» فقام في الجيش وأعلن توبته عن تعاطي الخمر  
الذي كان معتاداً له، واستحلف قادة الجيش على الصمود حتى يقضى الله في  
شأنهم وحميت المعركة واستعر القتال، وكان الفتح للجيش الإسلامي، وقتل من  
الجيش المنافس من لا يأتي تحت العد والحصر، وكان فتحاً حاسماً قضى بقيام  
حكومة مسلمة، على رأسها الأسرة المغولية من أحفاد بابر دامت أكثر من ثلاثة  
قرون، حتى انتزعها منها الإنجليز في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، وكانت  
هذه الحرب المقررة لمصير المسلمين السياسي في الهند في ثلاث وثلاثين وتسع  
مائة<sup>(١)</sup> .

في هذا الخبر بيان علو همة السلطان بابر، حيث شملت إمارته بلاد ما وراء  
النهر وأفغانستان والهند، وفي المعركة المذكورة التي كانت بينه وبين ملك الهند  
يظهر مثل من عظمة المسلمين الحربية، ومقدرتهم القتالية الفائقة، حيث انتصر

(١) المختار المصون / ٨٤٣ - ٨٤٤، عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام .

السلطان بابر بجيشه الذي لا يتجاوز اثني عشر ألف على ملك الهند الذي يتكون جيشه من مائتي ألف، وإذا عرفنا أن وسائل القتال آنذاك مشتركة بين المتحاربين، وأنه ليس هناك تفوق ظاهر في السلاح لأحد الفريقين المتقاتلين فإننا ندرك مدى القوة المعنوية التي يتمتع بها المسلمون.

وفي هذا الخبر إشارة إلى إدراك هذا السلطان بأن النصر الحقيقي هو من عند الله تعالى، وأن عباده المسلمين ليسوا أهلاً لنصره وهم يرتكبون المعاصي، فكان منه أن أعلن توبته عن شرب الخمر، وهذا يعني أنه في تلك الحال كان في إقبال شديد على اللجوء إلى الله جل وعلا والتوكل عليه.

وفي هذا الخبر بيان أن المسلمين في الهند قبل حكم هذا السلطان كانوا في ضعف شديد وأن ملوك الهند الوثنيين قد ظهروا عليهم، فكان قدومه وانتصاره إعزازاً لوجود المسلمين في الهند، وسبباً في دوام دولتهم فيها أكثر من ثلاثة قرون، ولهذا كانت هذه المعركة مصيرية حسمت واقع السلطة على الهند لصالح المسلمين.

\*\*\*

## جهد السلطان عالمكير

هو الإمام المجاهد أبو المظهر محيي الدين محمد أورنكك زيب عالمكير بن شاهجهان .

ولد سنة ثمان وعشرين وألف في أيام جده جهانكير بن أكبر شاه، ونشأ في مهد السلطة، وتولى الإمارة سنة ثمان وستين وألف، فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس .

فتح الفتوحات العظيمة وساس الأمور وأحسن إلى الرعية وصرف أوقاته في القيام بمصالح الناس، وكلما فتح بلادا شرع في فتح أخرى حتى لحقت حدود مملكته في الجهة الشمالية إلى حدود خيوا وبخارى، وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحيط الهندي، وفي الجهة الغربية إلى سومنات على شاطئ بحر الهند وفي الجهة الشرقية إلى بوري منتهي أرض أريسه .

وكان ماهراً بالرمي والطعن والضرب والفروسية وغيرها من الفنون الحربية، وكان شجاعاً مقداماً بأسلاً لا يظهر له في الهيجاء فزع ولا جزع ولا طيش ولا خفة، بل من رآه ظن أنه قد جاء من بعض المنتزهات وهو قد خرج من معركة تطير لها العقول وتشيب لها الولدان .

وكان مشهوراً بالشجاعة منذ صغره، فقد جاء من أخباره أن والده شاهجهان كان يوماً يتفرج في البرج المشرف على نهر «جَمَن» على مصارعة الأفيال التي كانت في عرصة القلعة فيما بينها وبين النهر، والأفواج كانت قائمة بين ظهرانيها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك العرصة، وكان عالمكير أيضاً في ذلك الزحام وهو يومئذ في الرابعة عشرة من عمره وكان على فرس على جري العادة، فإذا بفيلة قد ثارت وقصدت الأفواج، ففر الناس كلهم من بين يديها إلا عالمكير فإنه ثبت على مقامه، فتوجهت إليه الفيلة ولقت فرسه بخرطومها، وصرع عالمكير من صهوة الفرس، ثم قام وسل السيف عليها، ثم جاء الناس ودفعوها بالضرب

والطعن وإيقاد النار وغير ذلك، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة قلَّ أن توجد في أبناء الملوك في تلك السن.

ومن مآثره أنه نصب الجزية على الكفار بعد أن لم تكن، وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه.

ولقد اشتهر بالعبادة والزهد وكان ذلك من أسباب تفوقه في الجهاد، فقد حفظ القرآن الكريم بعد توليه السلطة، وكان يداوم على الطهارة بالوضوء، ويحافظ على الأذكار والأدعية الماثورة عن النبي ﷺ والصلاة في الليل وكان يصلي بالناس صلاة التراويح.

وقد وُصفَ بالملك العادل الزاهد، وبلغ من الزهد مبلغاً أناف فيه على ابن أدهم، فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيماً من خبز الشعير من كسب يمينه.

وكان له اهتمام جيد بالعلم، ومن اهتمامه بعلم الحديث أنه ألف كتاب «الأربعين» قبل أن يتولى السلطة، ثم ألف كتاباً آخر بعد الولاية جمع فيه أربعين حديثاً وترجمها إلى الفارسية وعلق عليهما الفوائد النفيسة، وكانت له مهارة تامة بالفقه، ويُضرب به المثل في استحضار المسائل الجزئية، وقد صنف العلماء بأمره «الفتاوى الهندية» في ستة مجلدات كبار، فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية، وعم النفع بها وصارت مرجعاً للمفتين، وقد أنفق على جمعها مائتي ألف من النقود.

وكان ماهراً في الإنشاء والترسل، لم يكن له نظير في زمانه في ذلك، وقد جمع شيئاً منها كثيراً أبو الفتح قابل خان التتوي في «آداب عالمكيري» وعناية الله خان في «الكلمات الطيبات» و«الرقائم الكرائم».

ومن مآثره أنه كان سخياً يبذل على الفقراء وأهل الحاجة العطايا الكبيرة ويسامحهم في الغرامات، ومن ذلك أنه أبطل ثمانين نوعاً من الضرائب في سنة تسع وستين وألف، وكانت تُدْرُ عليه ثلاثين لكاً في كل سنة<sup>(١)</sup>.

(١) أي ما يعادل ثلاثة ملايين.

ومن ذلك أنه بذل أموالاً طائلة في إصلاح الشوارع والطرق في نواحي الهند وأفغانستان، وحفر الآبار وأجرى العيون وأسس الجسور والرباطات وغير ذلك.

كما أنه اهتم بالمساجد، فبنى مساجد كثيرة وعمر القديمة منها، وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين، وجعل الرواتب للمساجد لتأمين ما تحتاج إليه من بسط وسرج وغير ذلك.

وكان مقتصداً في الخيرات غير مسرف في المال، فإنه كان لا يعطي الشعراء ولا أهل الغناء خلافاً لأسلافه فإنهم كانوا يسرفون في ذلك، وكان إذا أعطى العلماء يشترط أن يكون ذلك في مقابل التدريس والإفادة، وإذا بعث الأموال إلى الحرمين الشريفين -زادهما الله تشریفاً- يشترط بأن تعطى لأهل الحاجة، ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه من ذلك.

ولم يزل على سيرته الحميدة حتى توفي بدكن سنة عشر ومائة وألف، رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) المختار المصنوع ١٣٧٠-١٣٧٨ عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الإعلام» بتصرف.

## جهد السلطان أحمد شاه الدراني

هو أحمد شاه بن زمان خان الدراني المعروف بالأبدالي، نسبة إلى قبيلة كان أبوه أميراً عليها، وهو أفغاني الأصل ومؤسس الدولة الأفغانية بقندهار.

ولد سنة ١١٣٦هـ، ولما توفي أبوه قبض حسين شاه صاحب قندهار عليه وأسرعه عنده، فلما غزا نادر شاه قندهار سنة ١١٥١هـ أطلق أحمد شاه من أسره، ووجهه إلى بلاد فارس، وجعله على فرقة من الفرسان واستأثر به وتفرس فيه النجابة والنبوغ، وكان معه عند غزوه للهند سنة ١١٥١هـ، وتوسم فيه نظام الملك مؤسس الدولة الأصفية في حيدر آباد آثار الرشد والعظمة، وتنبأ بأنه سيكون في يوم من الأيام ملكاً كبيراً، ولما قتل نادر شاه حاول أحمد شاه أن يأخذ ثأره وبذل جهده فلم يساعده القدر لكثرة جيوش الفرس وقوتهم، فلجأ إلى معاقل الجبال في بلاد قومه الأفغانيين ونشر راية الاستقلال وجرى تنويجه في جامع قندهار سنة ١١٦٠هـ ولقب نفسه «أحمد شاه» و«در دوران» فاجتمع إليه كثير من الأمراء بقبائلهم العديدة، وبذل فيهم أموالاً كثيرة، وأحسن صلتهم، فغزا بهم الجهات المجاورة لمملكته، فاستولى على تلك الولايات، وعلى قسم من مملكة الفرس، وجعل مركز سلطته قندهار، ثم اجتاز إلى أراضي الهند وداس أرض بنجاب وكشمير، وغزا الهند عدة مرات بين ١١٦١هـ و ١١٧٠هـ، وتوغل في البلاد حتى وصل إلى دهلي سنة ١١٧١هـ، وصاحبها حينئذ عزيز الدين عالمكير الثاني ووزيره عماد الملك الذي نصبه، وكان داخله الحسد لامتداد سطوة وزيره المذكور، وحاول كسر شوكته، فلجأ عزيز الدين إلى أحمد شاه واستماله إليه ووافقه على أفكاره فحملة على أن يبقّي له السلطة ودخل أحمد شاه دهلي واستباح غنائمها وولّي ابنه تيمور شاه علي بنجاب بعد أن أقام شهراً في دهلي، وزوج ابنه بابنة صاحب الهند.

ثم خرج من دهلي بعد أن استخلفه عليها، فلما خرج قام الوزير فطرده من دهلي وقتل سلطانه وأقام مكانه محيي السنة بن كام بخش بن عالمكير الأول فاهتبلت «المرهتة»<sup>(١)</sup> الفرصة وطرّدوا الأولياء وأقاموا أولياء من الهنود فجرد أحمد

---

(١) قوم من كفار الهنود.

شاه عساكره سنة ١١٧٣ هـ وقصدهم، فمضت عليهم سنة هو في التأهبات الحربية والمقاتلات الخفيفة إلى أن تحصن المرهته في بعض الحصون المنيعة فحاصروهم أحمد شاه وأكرههم على القتال، فانتشبت الحرب وكان يوماً مشهوداً، قاتلت فيه المرهته قتالاً شديداً وأبلوا بلاءً حسناً، وقد رأى أحمد شاه باب الفرج غير أنهم أطبقوا عليه من كل جانب، وضيقوا على عساكره وبذلوا الجهد في المقاتلة فانكسرت عساكر أحمد شاه واستولى المرهته على دهلي وأسروا العائلة الملكية بجملتها واستولوا على كل المجوهرات، غير أن أحمد شاه جدد القتال، فكانت المعركة الحاسمة في ساحة بانسي بت في سنة ١١٧٤ هـ، واجتمعت الجيوش الإسلامية تحت رايته فظفر في هذه الواقعة بالمرهته وقتل منهم مقتلة عظيمة، قتل فيها من المرهته ثمانية وعشرين ألفاً، وأسر اثنين وعشرين ألفاً، وفي تلك الأثناء خرج عليه خارجة من لاهور، فسار إليها وانقض على المتمردين بجموعه فهزمهم أقبح هزيمة وفتح للأفغانين طريق كشمير، وتوفي أحمد شاه سنة ١١٨٦ هـ بقرب مدينة قندهار.

كان أحمد شاه من كبار القادة العسكريين ومؤسسي الحكومات الذين نبغوا في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، قد جمع شمل الأفغان، ونظمهم في سلك واحد، وضبط البلاد، وحفظ الثغور، وسن القوانين العادلة، وأقام الحسبة، وكان جامعاً بين صفات الفروسية ومكارم الأخلاق والنبل، محباً للعلوم والآداب، أليفاً ودوداً، وقوراً مهيباً إذا كان على منصة الحكومة، متواضعاً بعيداً عن التكلف في غير هذا الوقت، متديناً حريصاً على صحة العلماء والصالحين، مكرماً للسادة والمشايخ، يذاكرهم في الأمور الدينية، والمسائل العلمية، رحيماً كثير العفو عن الأعداء، كارهاً للقسوة محباً للمساواة، منح الحرية الدينية لجميع الطوائف، وشجع على النكاح الثاني للأيامى، الذي كان يكرهه الأفغان ويتعبرون منه، حمل العلماء والمؤلفين على وضع كتب في تاريخه، وتسجيل وقائعه وأيامه، وكان كاتباً يؤلف، ويتمنى أن يصل إلى درجة الولاية.

ومن أشهر مآثره وأعظمها أنه هزم المرهته الذين شكلوا أكبر خطر على الحكومة الإسلامية في الهند وعلى الكيان الإسلامي هزيمة منكرة، لم تقم لهم قائمة

بعدها، وكان في توجهه إلى الهند لحماية المسلمين سهم كبير لشيخ الإسلام وليّ الله بن عبدالرحيم الدهلوي، الذي حث الأمير نجيب الدولة على دعوته إلى الهند، وكان -لو بقي في الهند- تاريخ آخر للمسلمين فيها، ولكنه كان مرتبطاً ببلاده ومصالحها، لا يحب أن يعيش بعيداً عن مركز سلطته وقوته، فعاد إلى قندهار على أثر الفتح العظيم، فاضطربت الأحوال في الهند، ولم يستطع المسلمون أن ينتفعوا بهذا الفتح طويلاً لضعف القيادة، وتفرق الكلمة، فكان ما كان، وكان أمر الله قدراً مقدوراً<sup>(١)</sup>.

وبعد: فهذه صفحات من جهاد السلطان الكبير أحمد شاه الدراني، والذي يلفت النظر هو معاركه مع كفار الهند «المرهتة» الذين انتهزوا فرصة الخلاف بين زعماء المسلمين فهجموا على البلاد وانتزعوا السلطة، وأفسدوا في الأرض، وإننا نلاحظ أن السلطان أحمد شاه لما أخفق في قتالهم في المرة الأولى لم ييأس بل عاود الكرة بعد ذلك وهو يعلم أن مسلمي الهند لا طاقة لهم بهم، لأنهم محاربون مهرة ويدافعون عن عقائدهم الباطلة، وقد وفق في المرة الثانية بالقضاء عليهم توفيقاً عظيماً، حيث لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة، وأنقذ دولة الإسلام في الهند، وهو يعتبر من المجاهدين الكبار الذين أبقوا دولة الإسلام في الهند مدة أطول.

ولا ننسى دور العلامة المشهور ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، الذي كان سبباً في قدوم السلطان أحمد شاه لجهاد الكفار، حيث كان يعلم بأنه هو الذي يستطيع التغلب عليهم.

\*\*\*

---

(١) المختار المصنوع/ ١٣٥٦ - ١٣٥٨، عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الإعلام».



**مواقف وعبر  
في  
فتوح المغرب**

## ١ - فتوحات عبدالله بن سعد

كانت الفتوحات في أفريقية قد توقفت في عهد عمر رضي الله عنه بعد فتح مصر حيث لم يأذن لعمر بن العاص رضي الله عنه بالتوغل بجيوش المسلمين قبل رسوخ حكمهم وقوتهم في مصر، واكتفى عمرو بتأمين حدود مصر من الناحية الغربية حيث فتح برقة وزويلة من بلاد ليبيا والنوبة من بلاد السودان بقيادة عقبة بن نافع الفهري.

ولما تولى الخلافة عثمان رضي الله عنه ولّى على مصر عبدالله بن سعد بن أبي السرح، وكان عبدالله مشاركاً في فتوح مصر حيث كان على ميمنة جيش عمرو بن العاص وولاه عمر بن الخطاب على صعيد مصر مع عمرو بن العاص، وكان عمرو يبعثه في بعض الغزوات، فاكسب خبرة واسعة بتلك البلاد، فلما ولاه عثمان علي مصر وما وراءها استأذنه في غزو أفريقيا من ناحية الغرب، فاستشار عثمان أهل الشورى من أصحاب رسول الله ﷺ فأشار أكثرهم عليه بالإقدام على ذلك، وقد سار عبدالله بن سعد بجيش قوامه عشرون ألفاً وانضم إليه عقبة بن نافع الذي كان مرابطاً في ليبيا، وجرت الموقعة الكبرى بين المسلمين والروم ومن معهم من البربر وكان الروم بقيادة جرجير، وانتصر المسلمون عليهم كما تقدم.

واستمر عبدالله بن سعد في غزواته وفتوحه حتى أتم فتح المغرب الأدنى [تونس] إلى أن توقف الجهاد بسبب الفتنة الكبرى التي كان فيها قتل عثمان رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٤، النجوم الزاهدة لابن تغري بردي ١/ ٧٩ وانظر قادة فتح المغرب العربي لمحمود شيت خطاب ١/ ٥٤.

## ٢- فتوحات معاوية بن حُديج

كان أحد القادة في فتوح أفريقيا معاوية بن حُديج السكوني الكندي الذي اتخذ مقراً للمسلمين في تونس وثبت وجود المسلمين فيها، وذلك في عام أربعة وثلاثين للهجرة، ثم فتح مدينة بنزرت عام واحد وأربعين.

قال ابن عذاري: وفي سنة ٤٥ غزا معاوية بن حديج الكندي إفريقية، وكانت حرباً كلاًها. قال الطبري: وذلك أن حُباحبة الرومي قدم على معاوية بن أبي سفيان، فسأله أن يبعث معه جيشاً إلى إفريقية، فوجه معاوية بن حُديج في عشرة آلاف مقاتل. فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية، فاستعمل عليها حباحبة الرومي. ومضى ابن حديج حتى دخل إفريقية. وكان معه عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن أبيه وعبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه! وعبدالمك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشرف قريش، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فأخرج إليه معاوية بن حديج عبدالله بن الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال، ينظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسة اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نجفوراً، أقلع في البحر، منهزماً من غير قتال. فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة، فوقف على البحر، وصلى بالمسلمين صلاة العصر، والروم يتعجبون من جرأته، فأخرجوا إليه خيلاً، وابن الزبير مُقبلٌ على صلاته، لا يهولُه خبرُها، حتى قضى الصلاة، ثم ركب، وحمل على الروم بمن معه، فانكشفوا منهزمين، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القَرْن<sup>(١)</sup>.

وهكذا رأينا ذلك الزعيم الأفريقي يأتي إلى أمير المؤمنين ويطلب منه توجيه جيش لفتح إفريقية وتخليصها من ظلم الروم، وهذا أثر من آثار العدالة الإسلامية، والمعاملة الكريمة التي عامل بها المسلمون أبناء البلاد التي فتحوها، فصار أعداؤهم الذين غزواهم عوناً لهم على عدوهم المشترك، دولة الروم، وما

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١ / ١٦، وجبل القرن في تونس وحوله أنشأ معاوية بن حديج مدينة القيروان.

كان هناك من سبب لتفضيل حماية المسلمين إلا ما كانوا يتمتعون به من العدالة والأمانة والوفاء .

وفي هذا الخبر موقف لعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، حيث لم يفزع من مجيء جيش الروم وهو يصلي بالناس، بل أتم صلاته بطمأنينة، وهذا دليل على شجاعته وقوة خشوعه وحضور قلبه مع الله تعالى، وقد اشتهر بأداء الصلاة الكاملة .

وقد أصيب الروم بالرعب والذهول من هذا المشهد الغريب، وكان ذلك من أسباب انهزامهم حينما حمل عليهم ابن الزبير بالجيش الإسلامي .

وأخرج ابن عبدالحكم من خبر عثمان بن صالح قال: فأنتهى -يعني معاوية بن حديج- إلى قونية وهي موضع مدينة قيروان، ثم مضى إلى جبل يقال له: القرن، يعسكر إلى جانبه، وبعث عبدالمملك بن مروان إلى مدينة يقال لها: جلولاء في ألف رجل فحاصرها أياماً، فلم يصنع شيئاً فانصرف راجعاً، فلم يسر إلا يسيراً حتى رأى في ساقية الناس غباراً شديداً، فظن أن العدو قد طلبهم فكري جماعة من الناس لذلك، وبقي من بقي على مصافهم، وتسرع سرعان الناس، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها. وانصرف عبدالمملك إلى معاوية بن حديج، فاختلف الناس في الغنيمة فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان. فكتب أن العسكر رده للسرية، فقسم ذلك بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضرب للفرس بسهمين، ولصاحبه بسهم، قال عبدالمملك: فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار، واشترت بها جارية<sup>(١)</sup>.

ولم تقتصر جهود معاوية بن حديج على الغزو البري فقد وجه حملة بحرية بقيادة عبدالله بن قيس إلى جزيرة صقلية، وفي ذلك يقول ابن عذاري: وأغزي معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا، وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر، فاقتسموا فيئهم، وبعث ابن حديج بالخمسة إلى معاوية بن أبي سفيان<sup>(٢)</sup>.

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبدالحكم / ١٣١-١٣٢، وانظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١٨/١.

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١ / ١٦ - ١٧.

### ٣- فتوحات عقبة بن نافع الأولى

أما الرجل الذي اقترن باسمه فتح بلاد المغرب ونال في ذلك شهرة واسعة فهو عقبة بن نافع الفهري القرشي، وهو من مواليد العهد النبوي واختلف في صحبته، وقال ابن الأثير: لاتصح له صحبة<sup>(١)</sup>.

وقد بدأ جهاده في فتوح مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، واكتسب خبرة حربية عالية من صحبته لعمرو الذي كان يُعِدُّه للمهمات الحربية.

وقد بعثه عمرو على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة» وذلك في سنة إحدى وعشرين، فأصبح ما بين برقة وزويلة من بلاد ليبيا سلفاً للمسلمين.

وفي هذه السنة بعثه عمرو إلى بلاد النوبة جنوب مصر، فالتقى المسلمون مع أهلها في قتال شديد، ثم انصرف عقبة عنهم، وبذلك كان أول من مهد لفتح بلاد النوبة من المسلمين.

كما أنه شارك في بعض غزوات أفريقيا تحت إمرة عبدالله بن سعد بن أبي السرح.

ومما يُذكر له رباطه مع جيشه في برقة عدة سنوات لحماية دولة الإسلام من الغرب، وأصبحت تلك البلاد قاعدة لفتح البلاد الأفريقية، وقد قام آنذاك بعدة غزوات برية وبحرية لتأمين البلاد وتأديب بعض المتمردين الذين ينقضون العهد<sup>(٢)</sup>.

#### مغامرات في جوف الصحراء:

من غزوات عقبة بن نافع المثيرة ما قام به من الغارة على بعض بلدان الصحراء الكبرى، وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن عبدالحكم فيما رواه عن الليث بن سعد: ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين، ومعه بسر بن أبي أرطاة، وشريك بن سمي المرادي، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سرت قال: وبلغه أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم، ومنعوا ما كان

(١) أسد الغابة ٣ / ٤٣٠.

(٢) انظر قادة فتح المغرب العربي ٩٤-٩٥.

بسر بن أبي أرطأة فرض عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرًا قبل ذلك ، وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي . ثم سار بنفسه وبمن خلف معه أربعمائة فارس وأربعمائة بغير وثمانمائة قربة . حتى قدم ودان فافتتحها .

وأخذ ملكهم فجذع أذنه . فقال : لِمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبًا لك ، إذا مسست أذنك ذكرتك ، فلم تحارب العرب .

قال : ثم سألهم عقبة : هل من ورائكم أحد؟ فقليل له : جَرَمُه . وهي مدينة فَرَّان العظمي . فسار إليها ثمانين ليال من ودان . فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة . وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب . وكان ناعما فجعل يبصق الدم . فقال له : لِمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة : أدبًا لك إذا ذكرتك لم تحارب العرب .

قال : ثم مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزان ، فافتتحها قصرا قصرا ، حتى انتهى إلى أقصاها ، فسألهم هل من ورائكم أحد؟ قالوا : نعم . أهل خاوار ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة ، في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبه كوار ، فسار إليهم خمس عشرة ليلة ، فلما انتهى تحصنوا . فحاصرهم شهرا . فلم يستطع لهم شيئا ، فمضى أمامه على قصور كوار فافتتحها ، حتى انتهى إلى أقصاها ، وفيه ملكها ، فأخذه فقطع أصبعه . فقال : لم فعلت هذا بي؟ قال : أدبًا لك إذا أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب .

قال : فسألهم هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل : ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة . فانصرف عقبة راجعا ، فمر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ، ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة أيام . فأمنوا ، وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم ماء فرس ، ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد أشفى منه عقبة وأصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين . ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاء فانفجر منها الماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصره

عقبة، فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسيا، فشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فرس. ثم رجع عقبة إلى خاوار، من غير طريقه التي كان أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقتهم ليلا، فوجدتهم مطمئين. قد تمهدوا في أسرابهم. فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم، وأموالهم، وقتل مقاتلتهم. ثم انصرف راجعا، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر، وقد جمّت خيولهم وظهرهم، فسار متوجهاً إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم، وأخذ إلى أرض مزاة، فافتتح كل قصر بها، ثم بعث خيلا إلى غدامس، فافتتحت غدامس، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصه، فافتتحها وافتتح قسطلية<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان عقبة على رأس هذه الحملة المغامرة وكان بإمكانه أن يبعث قائداً غيره وأن يبقى مع جيشه في أمان، ولكنه كان من قوم يتسابقون إلى المعالي، حيث ساعات الأُنس والراحة عندهم بين صليل السيوف وصهيل الخيول وقطع الفيافي، فهو لا يبرُّ غيره بعمل تهواه نفسه ويتنظر من ورائه رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

أما مسوغ هذه المغامرة بهذا العدد القليل فهو كون الجيش الخفيف أسرع تحركاً في الصحراء، ولكون البلاد الصحراوية تخلو عادة من التجمعات الكبيرة، ويصعب الإمداد فيها لبعده المسافات.

وهكذا كان عقبة بن نافع ناجحاً في تخطيطه الحربي كما كان ناجحاً في سياسته الإدارية، وإن أهم عوامل نجاحه قربه من الله تعالى واعتماده عليه في تفريج الكربات وتذليل الصعوبات.

### إنشاء مدينة القيروان:

لما انتهى عقبة بن نافع من غزواته المذكورة أراد أن يتخذ للمسلمين مكاناً يستقرون فيه لا يشركهم فيه غيرهم، ليكون أماناً لهم، ولينطلقوا منه في أعمالهم الجهادية، وفي ذلك يقول إبراهيم بن القاسم فيما ذكره ابن عذاري: ووصل عقبة

(١) فتوح مصر وأخبارها ١٣٢ - ١٣٣ باختصار.

ابن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها، ودخلها، ووضع السيف في أهلها، فأفنى من بها من النصارى. ثم قال: إن أفريقية، إذا دخلها إمامٌ، أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر! فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر لئتم لها الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة<sup>(١)</sup>، فهم مرابطون، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قربوها من السبخة فإن دوابكم الإبل، وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد، حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول، وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها، آمنة من عادية البربر والنصارى.

قال: وفي سنة إحدى وخمسين شرع عقبة في ابتداء بناء مدينة القيروان، وأجابه العرب إلى ذلك. ثم قالوا: إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض<sup>(٢)</sup> لا ترام. ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك! وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائرهم من التابعين. فدعا الله - سبحانه - وأصحابه يؤمنون على دُعائه، ومضى إلى السبخة وواديها، ونادى: أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ. فارحلوا عنا فإننا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجَب، من أن السباع تخرج من الشعراء<sup>(٣)</sup> وهي تحمل أشبالها سمعاً وطاعةً، والذئب يحمل جروه، والحية تحمل أولادها. ونادى في الناس: كَفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحش والسباع والهوام والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حر الشمس، فلما لم يروا منها شيئاً، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عاماً لا يرون بها حيةً، ولا عقرباً، ولا سباعاً. قال: فاخترت عقبة أولاً دار

(١) يعني أن تكون أدنى من المسافة التي تقصر فيها الصلاة.

(٢) الشعار الشجر الملتف، والغياض الأراضي التي يجتمع فيها الماء فنبت فيها الشجر.

(٣) أى من الشجر.



الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاخطفه، ولم يحدث فيه بناء. وكان يصلي فيه وهو كذلك فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها، فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارك الشمس، فلماً رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً، فدعا الله - عز وجل - أن يُفَرِّج عنه. فأتاه آت في منامه فقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عنقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحدٌ من المسلمين غيرك. فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به، فاستيقظ من منامه وهو جزعٌ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشرفُ الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أن الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عنقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه، وقال: هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة.

ثم أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت، وشد الناس إليها المطايا من كل أفق وعظم قدرها. وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمئة ذراع حتى كمل أمرها.

وكان عقبة خير وال وخير أمير، مُسْتَجَاب الدعوة<sup>(١)</sup>.

وإننا أمام هذا الخبر نلاحظ عدداً من المواقف والعبر، فمن ذلك:

أولاً: أن عقبة بن نافع - رحمه الله تعالى - قد أصاب الرأي السديد حينما اتخذ مكاناً آمناً يكون مأوى للمجاهدين المرابطين، ومن تحت حراستهم من الذراري والمتاع.

وفي الاحتياطات الأمنية التي ذكرها في مسوغ إبعاد المكان عن البحر دلالة على عمق إدراكه الحربي، وتخطيطه لمواجهة العدو حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة.

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١ / ١٩ - ٢١. وانظر تاريخ الطبري ٥ / ٢٤٠، والكامل لابن الأثير ٣ / ٢٣٠ وفتح مصر لابن عبدالحكم / ١٣٣.

وفي حرص بعض أفراد ذلك الجيش على القرب من البحر مع خطورة ذلك دلالة على صدق إيمانهم وقوة تقواهم حيث كانوا يرجون ثواب المرابطين على البحر لمواجهة المباشرة للعدو.

ولكن القائد الذي يشعر بمسئوليته عمن تحت ولايته كما يشعر بمسئوليته عن مستقبل الإسلام ودولته لا يندفع مع حماس بعض أقوياء الإيمان، بل ينظر لمواضع خطوه ونتائج عمله قبل الإقدام، وكون طائفة من الجيش يقبلهم الله تعالى شهداء عنده خير كبير لهم، وهذا من أذكى ما يتنافس فيه السابقون، ولكن يجب على القائد قبل ذلك أن ينظر إلى الأمور التي تقوي دولة الإسلام وتظهر عزة المسلمين، في الوقت الذي يحرص فيه على كيد الكفار والنكايه بهم، وحيث إن استشهاد طائفة من المسلمين يضعف من شأنهم ويقوي جانب أعدائهم، ويجرؤهم على المسلمين فإن قصد الشهادة وإن كان نبيلاً لا يجوز للقادة أن يتخذوه هدفاً لهم، ولكن إذا وقع ضرورة فإن من واجب القادة أن يغتنموا في رفع معنويات الجنود ودفعهم إلى النكايه بالأعداء.

ومع هذه الملاحظة المهمة فإننا نجد عقبة لا يكسر ما في نفوس هؤلاء المتحمسين من هذه الرغبة السامية نحو الحصول على ثواب المرابطين في نحر العدو، بل يجمع لهم بين الأمرين: اتخاذ المكان الآمن من مفاجآت العدو، مع قربهم من البحر إلى الحد الذي لا يعتبر مسافة قصر، وهذا يجعلهم جميعاً من المرابطين في سبيل الله تعالى.

وإن هذا التصرف الحكيم يعطينا فكرة عما كان يتمتع به عقبة من بعد النظر، مع الإبقاء على معنوية أفراد الجيش، والحفاظ على بروز شخصيتهم، حتى يكون عطاؤهم في الجهاد مفتوحاً، لا تحده العوائق، ولا تضعفه المثبطات.

ثانياً: فيه عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أوليائه لما يريد بهم من نصر الإسلام ونشره في الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبهم الخوف منه، وقدّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك.

وقد رأى ذلك قَبِيلٌ كثيرٌ من البربر فأسلموا، كما ذكر ابن الأثير في روايته<sup>(١)</sup>.  
هذا وقد حمل بعض المحققين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها  
الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج  
الجيش الإسلامي فحملت أولادها وولّت هاربة.

وهذا التأويل من عجائب بعض المحققين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من  
أجل ردّ ما لا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رَووا هذه  
الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم  
الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن  
التأويل الذي اعتمده لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية  
إذا تعرضت للفرع تأوي إلى جحورها الآمنة لتستخفي بها ولا تلجأ إلى الهرب  
حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد  
فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو  
إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل  
ذلك، ولم يكن في ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة  
الغريبة.

وقد جاء في إحدى روايات ابن عبدالحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثني  
زياد بن العجلان: أن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمسّت حية أو  
عقرب بألف دينار ما وُجدت.

ثالثاً: عبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة  
وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى  
لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم  
مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات  
على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله  
تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر.

---

(١) الكامل ٣ / ٢٣٠.

### ٣- فتوحات أبي المهاجر

أبو المهاجر هو دينار مولى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري، وكان معاوية بن أبي سفيان قد وُلِّيَ على مصر مسلمة بن مخلد، وكان أبو المهاجر قد تعلم من مسلمة كثيراً من أمور الحرب والإدارة، ورأى فيه كفاءة فولاه على أفريقية التي كانت تطلق على البلاد التي تقع غرب مصر، وكان مركزها القيروان في تونس، وكان ذلك في عام خمسة وخمسين للهجرة، وعَزَلَ عنها عقبة بن نافع الفهري بعد ولايته الأولى.

ومن مواقف أبي المهاجر الجهادية أنه قاد الجيش الإسلامي إلى «قِرطاجنة» عاصمة الروم في شمال أفريقية<sup>(١)</sup> فحاصرها وتحصن الروم بأسوارها العالية، فشدد عليهم أبو المهاجر الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قِرطاجنة طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر على أن يُخلوا له جزيرة «شريك»<sup>(٢)</sup> التي كان الروم يتخذونها مركزاً لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين.

وقد أشاد اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصنيع من أبي المهاجر واعتبر ذلك تخطيطاً حربيّاً عالياً حيث كسب المسلمون موقعاً مهماً يستطيعون من خلاله أن يراقبوا تحركات الروم<sup>(٣)</sup>.

ومن مواقفه أنه أول من أقام مرابطاً بجيشه لمدة سنتين في مدينة «ميلة» بين المغرب الأدنى والأوسط، وذلك بعد أن فتحها، وكان القواد قبله يغيرون ويفتحون البلاد ثم يرجعون، وقد قام بجهود طيبة خلال تلك المدة في نشر الإسلام بين البربر.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة «أوربة» من البربر وكان زعيمها «كسيلة بن لمزم» وكان البربر يجلبونه ويحبونه، فلما رأى أبا المهاجر قد

(١) وهي مدينة قديمة على ساحل البحر الأبيض بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً -معجم البلدان ٧/ ٥٢.

(٢) وهي واقعة بين سوسة وتونس كما في معجم البلدان وذكر محمود شيت خطاب أنها شبه جزيرة.

(٣) قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩.

رابط في ميله علم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فصار يجمع الجيوش لصد المسلمين فاجتمع له جيش من البربر والروم.

وسمع أبو المهاجر بجمعه فسار إليه في مكان عسكره بتلمسان والتقى الجيشان هناك، ودارت بينهما معركة حامية، انتصر فيها المسلمون، وأُسِرَ كسيلة فحُمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك، وأظهر كسيلة الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر دلالة على نجاح أبي المهاجر في القيادة الحربية حتى استطاع التغلب على ذلك الخصم المطاع الذي اجتمع له الروم والبربر.

ثم إن فيه دلالة على اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام حيث اهتم بإسلام ذلك الزعيم البربري، وبإسلامه يمكن أن ينجذب قومه إلى الإسلام، كما أنه يدل على نجاحه في الدعوة حيث استخدم في ذلك الجانب الأخلاقي، وذلك بحسن التعامل وإكرام الرعاء المتبوعين تألفاً لقلوبهم وقلوب أقوامهم.

ومما يذكر لأبي المهاجر أنه أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط.

وبعد هذه الرحلة الناجحة في الدعوة والجهاد عاد أبو المهاجر إلى القيروان، ولما تولى يزيد بن معاوية الخلافة عزل أبا المهاجر عن ولاية أفريقية وأعاد إليها عقبة بن نافع الفهري، وقام عقبة برحلته الجهادية الطويلة كما سيأتي.

وكان بصحبته أبو المهاجر، وكان أبو المهاجر يسدي إليه النصائح القيمة في مجال الإدارة والحرب على الرغم مما حدث بينهما من الجفوة، ومن أبرز هذه النصائح إشارته عليه بإكرام زعيم البربر القوي كسيلة، ومحاولة تأليفه ليقى على الإسلام وكان قد أسلم على يد أبي المهاجر، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانها، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام إليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثق من الرجل فإنني أخاف فتكه.

(١) فتوح مصر/ ١٣٣ - ١٣٤، قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩.

فتهاون به عقبة، فلما انصرف من غزوه نكث البربر ما كانوا عليه وأقبلت النفرة إلى عقبة، فقال له أبو المهاجر: عاجله قبل أن يجتمع أمره.

واغتنم كسيلة فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي فقال عقبة لأبي المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا اغتنم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الخبر يتبين لنا تفوق أبي المهاجر من ناحية السياسة والإدارة، فإنه قد خاض معركة كبرى واحدة دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومهم في الإسلام، ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة لا بد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم.

ولا شك في أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين.

ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بإسلام، ولم يدخلوا فيه عن قناعة وإنما من باب الاستسلام والخضوع للأقوى.

ولم يكن وضع كسيلة في تظاهره بالإسلام خافياً على أبي المهاجر، وإنما قبل منه ظاهر أمره واستبقاه في جيشه ليأمن شره، ثم لعل إسلامه الظاهري يتحول إلى إيمان باطني مع مخالطة المسلمين ومعاملتهم الكريمة، وكلام أبي المهاجر السابق يدل على ذلك حيث شبه كسيلة بجبابرة العرب الذين كان رسول الله ﷺ يتألفهم للإسلام، وحيث قال لعقبة بعدما جرى منه ما جرى: توثق من الرجل فإنني أخاف فتكه.

(١) قادة فتح المغرب ١ / ١٣٧ - ١٤٢ عن الاستقصاء ١ / ٧١ - ٧٢، رياض النفوس ١ / ٢٦ - ٢٧ وانظر النجوم الزاهرة ١ / ١٥٨ - ١٥٩.

ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقائه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم.

وسيتبين لنا في مواقف فتوح السند المكاسب الكبيرة التي حصل عليها المسلمون من حسن تصرف محمد بن القاسم في معاملة زعماء تلك البلاد، حيث أصبح من دخل منهم في الإسلام أو حالف المسلمين سنداً قوياً لجيش المسلمين.

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة.

وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر لمصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهد أبي المهاجر أوفق إلى الصواب في هذه القضية. رحمهما الله وأجزل مثوبتهما.

\*\*\*

#### ٤ - فتوحات عقبة الثانية

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين، فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب.

خرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، واستخلف على من بقي زهير بن قيس البلوي، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعث نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله - ثم قال - يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملثوا صدوركم بالشعر وتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدين ذلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبّق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجّهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا. - ثم قال -: عليكم سلام الله وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا - ثم قال -: اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك.

وهكذا ما أن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده «إني قد بعث نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله»، فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا



عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[التوبة: ١١١]﴾.

فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض.

وكان السنوات الثمان التي حيل فيها بينه وبين الجهاد كانت سجنًا طويل الليالي عظيم الأثقال.. حتى إذا أُفرج عنه وصارت إليه القيادة سارع إلى حشد القوى والخروج في سبيل الله تعالى.

فماذا تنتظر من رجل قيادي وجهادي من الدرجة الأولى وقد مكن من ممارسته هوايته العظمى بعد الحبس الطويل؟ إنه سيسخر كل طاقاته التي وهبها الله له من أجل بلوغ غايته السامية.

ولقد وفق عقبة بجنود يحبون فيه روح المغامرة والجهاد المتواصل، فبذلوا من طاقاتهم ما يرضي طموحه وشوقه إلى الإنجاز السريع والعطاء المثمر.

وإننا لنجد في وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

**الوصية الأولى:** الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيئه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

**الوصية الثانية:** البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذلٌّ بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهم بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل.

ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: «اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك».

وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة.

وقد سار عقبة في جيش عظيم حتى انتهى إلى مدينة «باغاية» لا يدفعه أحد، والروم يهربون من طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتفى المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على «تلمسان» وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من البربر والروم، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن الله منّ عليهم بالصبر، فكانوا في ذلك أشدّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألقواهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة.

واستمر عقبة في سيره نحو المغرب الأقصى حتى وصل بلاد الزاب فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ف قيل له «أربّه» وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم.

وقام عقبة في الناس خطيباً فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله

بِيعَةِ الرِّضْوَانِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ أَشْرَافُكُمْ وَالسَّابِقُونَ مِنْكُمْ إِلَى الْبَيْعَةِ، بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِجَنَّتِهِ بَيْعَةً رَابِحَةً، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ، وَإِنَّمَا بَايَعْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَيْكُمْ فِي مَكَانِكُمْ هَذَا، وَلَمْ تَبْلُغُوا هَذِهِ الْبِلَادَ إِلَّا طَلَبًا لِرِضَاةٍ وَإِعْزَازًا لِدِينِهِ، فَأَبْشُرُوا فَكُلَّمَا كَثَرَ الْعَدُوُّ كَانَ أَخْزَى لَهُمْ وَأَذْلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَرَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُسَلِّمُكُمْ، فَالْقُوهُمْ بِقُلُوبٍ صَادِقَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَكُمْ بِأَسَهِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ فَقَاتِلُوا عَدُوَكُمْ عَلَى بَرَكَاتِهِ وَعَوْنِهِ، وَاللَّهُ لَا يَرُدُّ بِأَسَهِ عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ.

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة. . ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين.

وما أعظم شَبَّهُه عقبة بـخالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي كان يُسَرُّ ويدخله شعور بالقوة والتعاضد - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذ له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة.

وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين.

إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به.

ولقد مرت علينا في معركة الأحزاب ومؤتة واليرموك وغيرها أمثلة رائعة لارتفاع نسبة اليقين لدى الصحابة رضي الله عنهم، إلى الحد الذي أصبحوا يشعرون فيه بقوة ارتباطهم بالله تعالى وعمق توكلهم عليه ورجائهم لنصره

وتأييده، حيث تضخم في حسهم وشعورهم هذا السلاح المعنوي الفعال، وأصبح السلاح المادي أمراً ثانوياً مكملًا.

ولفرط إحساسهم بفعالية هذا السلاح المعنوي، وقوة إدراكهم لضرورته فإنهم كانوا شديدي الحساسية من مخالفة أوامر الله تعالى، يحاسبون أنفسهم حساباً شديداً، وينكرون على الغافلين الذين لا يتنبهون لأهمية ذلك، ويأخذهم قادتهم غالباً بالحزم والمتابعة المتواصلة في هذا المجال.

والتقى المسلمون بأعدائهم في مدينة «تاهرت» وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقُتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وهكذا نصر الله تعالى المسلمين في هذه المعركة وما سبقها من معارك مع عدم التكافؤ في العدد والقوى مع أعدائهم لتفوق المسلمين في السلاح المعنوي إلى حد لا يمكن أن تُجرى فيه نسبة مع الأعداء لخواء الأعداء من ذلك السلاح.

ومازال عقبة يسير من نصر إلى نصر رغم قوة أعدائه وكثرتهم وكونه غريباً في بلادهم مع بعده عن قاعدته «القيروان» حتى وصل إلى المحيط الأطلسي فقال: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك» ثم قال: اللهم أشهد أنني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يُعبد أحد من دونك».

ثم وقف ساعة، ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً<sup>(١)</sup>.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٨ - ٣٠٩، البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٢٣ - ٢٧، قادة فتح المغرب العربي للواء الركن محمود شيت خطاب ١/ ١٠٨ - ١٢٠.

وهكذا نجد عقبة بن نافع القائد المجاهد، وقد عشنا معه في مغامراته وتنقلاته السريعة التي قطع بها أكثر من ألف ميل وخاض عدداً من المعارك الضارية كان النصر فيها حليفه، حيث استمر يفتح البلاد ويُرهب الكفار ويظهر عزة الإسلام، ويحرر عقول الناس حتى يفهموا دعوة الإسلام.

وندرك من قوله المذكور مدى هُيامه بالجهاد وشعوره بالمسؤولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دُول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها.

فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تُشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه.

وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يُعبد إلا الله جل وعلا وحده، وما دام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد إذاً هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام كي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس.

#### نهاية عقبة بن نافع:

قفل عقبة بن نافع من رحلته الطويلة في الغزو راجعاً إلى القيروان من المغرب الأقصى، ولما صار قريباً من منطقة القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان، وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين.

وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً، وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداءً به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد والإداري في أي عمل يتوجه إليه.

ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قبلَ لهم به.

وفي هذا الوقت الذي أدرك فيه عقبة حصول الشهادة له ولجنده تظهر البطولات الكبيرة، والتطبيق الحيّ لتوجيهات الإسلام العالية نحو التضحية وفداء الإسلام بالنفوس.

فقد كان بإمكان عقبة أن يتسلل مع رفقة قليلة من جيشه ليلحق بجيشه الكبير في القيروان، ولكنه أثر بهذه الفرصة أبا المهاجر الذي كان والياً على أفريقية في الوقت الذي عُزل فيه عقبة عن الولاية، وكان عقبة قد اصطحبه معه في تلك الغزوات، فلما شاهد عقبة الموقف الذي يغلب على الظن فيه استئصال المسلمين بالكامل قال لأبي المهاجر: «الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة».

وعقبة بهذا الكلام قد لاحظ أمرين مهمين عنده: أولهما أن يولي على المسلمين في القيروان من يقوم بشؤونهم، وقد رأى أن أولى الناس بذلك أبا المهاجر، والأمر الثاني اغتنام فرصة الشهادة التي طالما انتظرها ببالغ الشوق، وقد لاحت له بوادرها في ذلك اليوم.

ولكن أبا المهاجر يرد عليه بقوله: «وأنا أيضاً أريد الشهادة».

وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً آخر من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا، واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى.

ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار، ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد «تهوذة» من أرض الزاب.

ويذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها<sup>(١)</sup>.

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩، البيان المغرب ١/ ٢٨، قادة فتح المغرب العربي ١١١/ ٢.

إنه موقف عظيم من مواقف الثبات، ومفخرة كبرى يعتز بها المسلمون، حيث لا يوجد في تاريخ أعدائهم أن جيشاً بأكمله يثبت في القتال حتى يُقتل جميع أفرادها، إذ أن المشكلة الكبرى التي يواجهها قادة الأعداء ويضعون لها الحلول المتعددة هي لجوء أكثرهم إلى الفرار حينما تميل الكفة لصالح المسلمين كما مر علينا في مواقف كثيرة.

ولا شك أن هذا الموقف العالى من الثبات قد برهن للأعداء عن صدق المسلمين في دينهم، وعلو مستواهم في الثبات والصبر، وذلك يجعلهم يترددون في مواجهتهم فيما لو كان عددهم أكبر من ذلك.

وإن مما هو مقرر في نظام الحروب أن المقاتل المستقل الذي يريد الموت لا يُقتل حتى يُقتل عدداً من الأعداء على قدر شجاعته وقوته، لأن طاقته الكاملة موجهة للإثخان في العدو، بحيث يلغي من حسابه الدفاع عن النفس، وهذا يدلنا على أن هؤلاء الثلاثمائة تقريباً قد قتلوا أضعافهم من الأعداء في تلك المعركة، ولكن الأعداء كانوا مصرين على القضاء عليهم لما يتوقعونه من المكاسب الكبيرة لهم في ذلك.

ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض تلك المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره.

وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداءً بمصر وانتهاءً بالمغرب الأقصى.

وكان قائداً بارعاً وإدارياً ناجحاً، استطاع بأخلاقه وحكمته وحزمه أن يكسب قلوب أتباعه وأن يوجههم توجيهاً سليماً نحو الجهاد وإعزاز الإسلام.

\*\*\*

## ٥ - فتوحات زهير البلوي

لما تم لكسيلة البربري القضاء على عقبة بن نافع ومن معه زحف بجيشه على القيروان، وفي ذلك يقول ابن عذاري: وفي سنة أربع وستين دخل كُسيلة البرُنسي مدينة القيروان، وانتزعها من أيدي المسلمين في محرم، وذلك أنه اجتمع معه جميع أهل المغرب، وزحف إلى القيروان، فعظم البلاء على المسلمين. فقام زُهير ابن قيس خطيباً في الناس، فقال: «يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك، فقال حنشُ الصنعاني: لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولايةٌ، ولا عملاً أفضلَ من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: «يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني، فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام مُرابطاً إلى دولة عبد الملك ابن مروان.

وأقبل كسيلة البرُنسي بعساكره. فلما قرب من القيروان، خرج من كان فيها هارين، إذ لم يكن لهم طاقةٌ بقتاله لعظيم ما اجتمع عنده من البربر والروم، فأمن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميراً على سائر أفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين إلى أن وُلِّي الخلافة عبد الملك بن مروان.

قال: وفي سنة خمس وستين من الهجرة وُلِّي عبد الملك بن مروان. فلما اشتدَّ سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص أفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال: لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله ديناً وعقلاً، فاستشار مع وزرائه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، وقالوا: هذا صاحبُ عقبة، وأعلمُ الناس بسيرته وتدييره وأولاهم بطلب دمه، فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقة يأمره بالخروج على أَعنة الخيل إلى أفريقية، ليستنقذ من بالقيروان. فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم، فأمدَّه عبد الملك بن مروان بالخيال والرجال والأموال،



وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه . فوفدت الجيوش على زهير ، وتسرع الناس معه إلى أفريقية .

قال : وفي سنة تسع وستين أقبل زهير بن قيس البلوي في عسكر عظيم إلى أفريقية . فبلغ كسيلة بن لمزم قدومه إليه وعزمه عليه . فجعل لا يهابه ولا يخاف منه . وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم ، أضعاف ما مع زهير مضاعفة . فدعا كسيلة أشراف البربر وقال لهم : إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فإن بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهدٌ . ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن ننزل على موضع ممس<sup>(١)</sup> وهي على الماء . فإن عسكرنا خلقٌ عظيم ، فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر وإن هزمونا كان الجبل مناً قريباً والشعراء<sup>(٢)</sup> فنتحصن بهما .

قال : ولما رحل كسيلة عن القيروان ، نزل عليها زهير بن قيس ثلاثة أيام ولم يدخلها ، وفي اليوم الرابع رحل عنها حتى أشرف على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول . فلما أصبح وصلى زحف إليه ، وأقبل كسيلة ومن معه فالتقى الجمعان ، والتحم القتال بين الفريقين ، ونزل الضر وكثر القتل في الفريقين ، حتى يئس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية بالغرب ، ففي تلك الوقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين ، وقتل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم . ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها . ففزع منه أهل أفريقية ، واشتد خوفهم ، فلجؤوا إلى الحصون والقلاع<sup>(٣)</sup> .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً: موقف جهادي مشرف من زهير بن قيس البلوي ، حيث دعا جيش المسلمين إلى جهاد كسيلة البربري ، والحقيقة أن الجيش الإسلامي الذي فتح به عقبة

(٢) يعني الشجر الملتف .

(١) هي مدينة في الجزائر في الجنوب الشرقي لجبال أوراس .

(٣) البيان المغرب لابن عذاري ١ / ٣٠ - ٣٣ ، الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٠٩ ، وانظر قادة فتح المغرب العربي ١ / ١٥١ - ١٥٧ .

ابن نافع المغرب موجود في القيروان ولم يفقد منه إلا عقبة والذين استشهدوا معه، فكان الوضع المقبول أن ينهض المسلمون هناك لجهاد عدوهم، ولكن أكثرهم أطاع حنش الصنعاني الذي دعاهم إلى العودة إلى المشرق.

ومن تحليل ذلك الواقع يتبين لنا أن عودة ذلك الجيش كانت بسبب القلاقل والاضطرابات التي سادت دار الإسلام آنذاك، حيث ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وبايع أهل مكة عبد الله بن الزبير وخرج الحسين إلى العراق فكانت حادثة مقتله، ثم استطاع ابن الزبير بعد موت يزيد أن يستولى على الحجاز والعراق، ولعل حنش الصنعاني رأى أن المشاركة في إصلاح دولة الإسلام من داخلها أولى من الجهاد في أطراف دولة الإسلام، ومن أدلة ذلك أنه انضم إلى ابن الزبير لما رأى أنه أحق بالخلافة، ولا يُظن به ولا بأولئك المجاهدين أنهم تركوا ساحة الجهاد تفضيلاً للراحة وهروباً من لقاء العدو وهم الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى الجهاد. ثانياً: أبان المسلمون للروم والبربر أن انشغال دولة الإسلام عنهم تلك السنوات بالحروب الداخلية لا يعني أن المسلمين قد تخلوا عن جهاد الأعداء والسعي في نشر الإسلام.

وكان زهير البلوي رجل الموقف حيث قضى على دولة قوية من الروم والبربر. ولقد أظهر المسلمون في هذه المعركة تفوقهم العالي في الصبر على حر القتال، حيث كان القتال متكافئاً بين الطرفين، نظراً لأن الروم والبربر يعتبرونها معركة مصير، فكانت نتيجة المعركة لصالح المسلمين الذين هم أقوى احتمالاً وأشد تجلداً. **نهاية زهير البلوي وأصحابه:**

عاد زهير إلى القيروان بعدما وطد أقدام المسلمين في تلك المنطقة، وحينما أمّن على وضع المسلمين في القيروان سار ببعض الجيش إلى برقة، وكان يخشى عليها من هجوم الروم حيث لم يترك بها إلا حامية صغيرة.

وقد حصل ما كان يخشى منه زهير حيث أغار الروم على برقة ونهبوا أموالها وسبوا بعض رجالها، ووصل زهير إلى برقة والروم ينقلون الأسرى من المسلمين إلى مراكزهم، فاستغاث به المسلمون فأسرع إلى نجاتهم على غير استعداد منه للقاء

العدو، وكان جيشه متعباً من السفر فلم يستطيعوا مقاومة الروم، ومع وقوعهم في هذا الظرف السيئ فإنهم ثبتوا للروم رغم قتلهم وكثرة أعدائهم حتى استشهد زهير وأصحابه<sup>(١)</sup>.

وهكذا وقع زهير البلوي في الوضع نفسه الذي وقع فيه عقبة بن نافع الفهري حيث باغتهما العدو على غير استعداد منهما فكانت النتيجة الظفر بالشهادة، وإن كان ذلك قد أثر على وضع المسلمين في أفريقيا.

وبهذا انتهى جهاد زهير بن قيس البلوي، التقي العابد والقائد الشجاع، بعدما أزال طغيان البربر والروم في شمال أفريقيا فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ولعل الذي شجع الروم على الهجوم على برقة - إضافة إلى انشغال زهير بالجهاد في المغرب - ما حدث في دار الإسلام من فتن داخلية، حيث كانت الحرب قائمة - آنذاك - بين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وعبد الملك بن مروان.

\* \* \*

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠، البيان المغرب لابن عذارى ١/ ٣٣.

## ٦ - فتوحات حسان بن النعمان

ذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن مروان ولاه على أفريقية، وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفاً، وقال له: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس، وأخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه.

فتح قرطاجنة<sup>(١)</sup>:

قال ابن عذاري: قدم أفريقية في عسكر عظيم، فلم يدخل المسلمون قط أفريقية بمثل ما دخلها حسان بن النعمان، فلما حصل بالقيروان، سأل أهل أفريقية: من أعظم الملوك بها قدراً؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية فسار حسان حتى نزل عليها. وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة. فخرجوا إليه مع ملكهم، فقاتلهم حسان حتى هزمهم، وقتل أكثرهم، ثم نازلها حتى افتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية.

فلما قدم حسان إليها، وقتل فرسانها ورجالها، اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها. وكانت لهم مراكب كثيرة، فمنهم من مضى إلى صقلية، ومنهم من مضى إلى الأندلس. فلما انصرف عنها حسان وعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب الملك عنها بادروا إليها فدخلوها. فرحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف. فقتلهم قتلاً ذريعاً، وسباهم ونهبهم. وأرسل لمن حواليتها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته، وشدة بأسه. فلما أتوه ولم يبق منهم أحدٌ أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها. فخربوها حتى صارت كأمس الغابر. ثم بلغه أن النصارى اجتمعوا وأمدهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة، فرحل إليهم حسان حتى لقيهم. وقاتلهم حتى هزمهم، وقتل الروم والبربر قتلاً ذريعاً، وحمل عليهم أعنة خيله، فما ترك من بلادهم موضعاً إلا وطئه. ولجأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها، وهرب البربر إلى إقليم بونة. وانصرف حسان إلى القيروان.

---

(١) ذكر ابن عذاري أنها مدينة عظيمة وأنها من مدينة تونس على اثني عشر ميلاً.

## معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة:

قال ابن عذاري: لما دخل حسان القيروان، أراح بها أياماً. ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيسيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجمال أوراس يقال لها الكاهنة، وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون: فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند، فدخل بجيوشه إليها. وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من الجبل في عدد لا يحصى، ولا يبلغ بالاستقصاء وسبقته إلى مدينة باغاية. فأخرجت منها الروم، وهدمتها، وظنت أن حساناً يريد مدينة ليتحصن بها منها. فبلغ خبرها حساناً فنزل بوادي مسكيانة. فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور. فكان هو يشرب من أعلى الوادي، وهي من أسفله. فلما توافت الخيل دنا بعضهم من بعض، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار. فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم. فلما أصبح الصباح التقى الجمعان، فتقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله، وصبر الفريقان صبراً لم ينته أحدٌ إليه، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين. وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعاً، وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه. وسمى ذلك الوادي وادي العذارى. واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس. فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحدٌ منها على نهاية، كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم. فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب، فورد عليه في عمل برقة. فأقام بها وبنى هنالك قصوراً تُسمى إلى الآن بقصور حسان.

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين. فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر: إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها، حتى يئس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر، فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن

وحصوناً من إقليم أفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله. فخربت الكاهنة ذلك كله، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلقٌ كثيرٌ، مُستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية.

وكانت الكاهنة، لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان، وحبست عندها خالد بن يزيد. فقالت له يوماً: ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع! وأنا أريد أن أرضعك، فتكون أخاً لولدي! وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني. وقالت له: نحن جماعة البربر لنا رضاعٌ: إذا فعلناه نتوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير، فَلَتَّتْهُ بزيته، وجعلته على ثدييها. ودعت ولديها، وقالت: كُلَا معه على ثديي، ففعلا، فقالت: قد صرتم إخوة<sup>(١)</sup>.

وقد علل اللواء الركن محمود شيت خطاب انهزام المسلمين رغم كثرتهم بأسباب من أقربها أن المسلمين اغتروا بكثرتهم واحتقروا عدوهم خاصة وأنهم بقيادة امرأة منهم وهي الكاهنة، فلم يبذل المسلمون ما يلزم لتلك المعركة من جهد وطاقة بينما استمات أعداؤهم حيث جعلوا تلك المعركة معركة حياة أو موت<sup>(٢)</sup>.

وأهم من ذلك إن كان هذا هو الدافع للهزيمة ما يترتب عليه من تخلف معية الله تعالى لعباده بالنصر والتأييد إذا اغتروا بكثرتهم وغفلوا عن ذكر الله جل وعلا واستمداد النصر منه، فيصبح المسلمون هم وأعداؤهم في ميزان معنوي واحد لتخلف نصر الله تعالى عن الجميع، وتبقى بعد ذلك الموازين المادية، وقد تفوق فيها الأعداء في تلك المعركة.

### معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة:

قال ابن عذاري: ثم إن حسناً توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك. فدعا حسان عند ذلك برجل يثق به، وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب. فقرأه وكتب في ظهره: إن البربر متفرقون. لا نظام لهم ولا رأى عندهم فاطو المراحل، وجد في السير وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل،

(١) البيان المغرب ٣٤/١ - ٣٧، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١/٤ - ٣٢.

(٢) قادة فتح المغرب ١٨٥/١.

ووجهه بها إلى الأمير حسان. فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة ناشرةً شعرها، تضرب صدرها، وتقول: يا ويلكم! يا معشر البربر! ذهب ملككم فيما يأكله الناس فافترقوا يميناً وشمالاً يطلبون الرجل، فستره الله تعالى حتى وصل حسناً، فكسر الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد، فوجده قد أفسدته النار. فقال له حسان. ارجع إليه، فقال الرجل: إن المرأة كاهنةٌ لا يخفى عليها شيء من هذا<sup>(١)</sup>. فرحل حسان بجنوده إليها. وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم. ورحل إليها حسان. فلما كان في الليل، قالت لابنيتها: إني مقتولةٌ، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسناً. فقال لها خالد: فارحلي بنا وخلي له عن البلاد، فامتنعت، ورأته عاراً لقومها. فقال لها خالد وأولادها: فما نحن صانعون بعدك؟ فقالت: أما أنت يا خالد فستدرك ملكاً عظيماً عند الملك الأعظم وأما أولادي فيدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر عزاً، ثم قالت: اركبوا واستأمنوا إليه، فركب خالد وأولادها في الليل، وتوجهوا إلى حسان. فأخبره خالدٌ بخبرها، وأنها علمت قتلها، وقد وجهت إليك بأولادها. فوكل بهما من يحفظهما، وقدم خالدٌ على أعنة الخيل. وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت: انظروا ما دهمكم فإني مقتولةٌ. ثم التحم القتال، واشتد الحرب والنزال. فانهمزت الكاهنة، واتبعها حسان حتى قتلها.

وكان مع حسان جماعةٌ من البربر استأمنوا إليه. فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع العرب. فأجابوه وأسلموا على يديه. فعقد لولدي الكاهنة، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر. وانصرف حسان إلى مدينة القيروان، بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين. وفي هذه السنة استقامت بلاد أفريقية لحسان بن النعمان، فدوّن الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية<sup>(٢)</sup>.

(١) وجاء في رواية ابن الأثير: فعاد إلى خالد فكتب إليه كما كتب أولاً وأودعه قربوس السرج.

(٢) البيان المغرب ٤٣/١ - ٣٨، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١/٤ - ٣٣.

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمن ذلك: أولاً: ما قام به خالد بن يزيد القيسي من الكتابة إلى حسان بن النعمان وجعله ذلك الكتاب في خبزة ثم في قربوس السرج.

وهذا التصرف من خالد بن يزيد يدلنا على شدة حزمه واحتياطه للأمر حتى لا يقع كتابه بيد أحد جواسيس الكاهنة فتفسد خطة المسلمين ويتعرض هو وبقيّة أسرى المسلمين للأذى والقتل من تلك الحاكمة الجبارة.

وقد أفاد في هذا الكتاب أن أهم عنصر من عناصر القوة لدى الكاهنة قد زال عنها وهو اجتماع قبائل البربر عليها حيث إنهم متفرقون وأن نظامهم قد اختل وأصبحت الفرصة مناسبة للقضاء على قوة أولئك البربر.

ثانياً: في سياسة تلك المرأة الكاهنة الهوجاء عبدة، فإنها فقدت سمعتها شيئاً فشيئاً حيث أساءت معاملة أهل تلك البلاد وظلمت وتجبّرت، ثم خطر ببالها أن العرب إنما يريدون البلاد لما فيها من عمران وأموال فأمرت أتباعها بهدم العمران وقطع الأشجار حتى أحالت المدن العامرة إلى خراب، فكان ذلك وبالاً عليها حيث انقلب عليها أهل البلاد وأصبحوا يتمنون عودة المسلمين ليخلصوهم من ظلمها.

وهكذا هبّ الله للمسلمين الظروف الملائمة والمهدة للقضاء على ذلك العدو المتمكن، وهذا يدلنا على أن المسلمين لم ينتصروا لمجرد قوتهم وشجاعتهم وإنما كان العامل الأول في انتصاراتهم المتوالية هو ما اشتهروا به من العدل والأمانة والرحمة وسائر مكارم الأخلاق التي جعلت الشعوب المغلوبة على أمرها تتمنى قدوم المسلمين عليهم ليخلصوهم من بطش الظالمين وقهرهم.

ثالثاً: مما حدث بعد هذه المعركة من الحوادث المشتملة على مواقف حميدة أن جماعة من زعماء البربر جاؤوا إلى حسان بن النعمان مستأمنين فقبل أمانهم بشرط أن يعطوه اثني عشر ألفاً من قبائلهم يجاهدون مع المسلمين، فأجابوه وأسلموه على يديه، وأحضروا له ذلك العدد، فولّى ولدي الكاهنة على ذلك الجيش.

---

(١) البيان المغرب ٣٤/١ - ٣٨، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣١/٤ - ٣٣.



## ٧- فتوحات موسى بن نصير

لقد آل أمر المغرب بعد حسان بن النعمان الأزدي إلى آخر قادتها الفاتحين وهو موسى بن نصير اللخمي، وذلك في أوائل سنة ست وثمانين تقريباً، وكانت ولايته من قبل أمير مصر عبد العزيز بن مروان.

ولما أكمل موسى بن نصير استعداد جيشه توجه من مصر إلى أفريقية وقام خطيباً في جيشه وكان مما قاله: «إنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله تعالى، وليحضر على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله تعالى لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا وله عندنا قضاؤها على ما عزَّ وهان، مع المواساة إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله»<sup>(١)</sup>.

وهذه خطبة عظيمة قدَّمها موسى بن نصير بين يدي ولايته أمام جنده، وقد قرر فيها قواعد العدل التي بها تستقر أمور الولايات، ويعرف بها الجنود والرعية أن الأمير سيسير بالعدل بين الناس، والإنصاف حتى من نفسه.

وإذا استقرت أمور الناس على العدل فإنهم يستخرجون كل ما لديهم من مقدرة في العمل، فيصبح الواحد منهم عن عشرة أو أكثر ممن لا يُبرزون إلا بعض طاقاتهم.

إن إظهار العدل والالتزام بتطبيقه هو أول علامات نجاح المسؤول لأنه بالتمثل بهذا المبدأ يضمن جنوداً مخلصين له ولقضيته، كما أنه يضمن خلو عمله من المشكلات والمآزق التي تنتج غالباً من تفضيل الأدنى على الأعلى، وإبراز أصحاب القدرات الضعيفة والكفاءات القليلة مع تجاهل أصحاب الكفاءات العالية الذين يبذلون طاقات كبيرة في العمل.

---

(١) قادة فتح المغرب ٢٢٨/١ عن الإمامة والسياسة ٦١/٢ - ٦٢.

ولقد كان موسى بن نصير موفقاً حينما وجه جنده إلى تقويم أعماله التي يقوم بها، ثم القيام بحمد الله تعالى على الحسنات، والنصيحة للقائد بالإكثار منها والمداومة عليها، وإنكار السيئات وبيان الأخطاء. . . وذلك أن الإشادة بالحسنات والتذكير بها مما يدفع المسئول إلى مضاعفتها والالتزام بها، وبيان الأخطاء في حينها مما يدفع المسئول إلى تصحيحها والحذر من تكرارها.

إن الأخطاء إذا تُركت فلم تعالج في أول حدوثها فإنها تترك آثاراً سيئة، وقد يترتب عليها أخطاء أخرى، وقد تتكرر إذا لم يتنبه لها المسئول أو ينبه لها ناصح مخلص.

### جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين:

ما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى وجه ثلاث سرايا لإخضاع المتمردين من البربر، وحيث إنه لم يواجه منهم تجمعاً كبيراً فإنه اكتفى بإرسال هذه السرايا، وفي ذلك كسب للوقت حيث عاد قادة تلك السرايا بالنصر والغنائم، وكان أهم هذه المواقع التي أخضعها جبل «زغوان» الذي كان منيعاً وكان البربر يلجئون إليه.

ولما تم إخضاع المغرب الأدنى وجه ألف فارس إلى قبيلتي هواره وزناتة من البربر في المغرب الأوسط فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا، ثم عرضوا الصلح فصالحوهم، وكذلك صالح موسى قبيلة كتامة.

ثم هاجم موسى قبيلة صنهاجة وهي من القبائل المتمردة، فقتلهم قتل الفناء وسبى منهم كثيراً.

أما أهل سجومة الذين سبق أن أوقعوا بالمسلمين على غرة منهم وقتلوا عقبة بن نافع ومن معه فقد غزاهم موسى بعشرة آلاف، وأعطى اللواء ابنه مروان، حتى إذا كان بمكان يقال له «سجن الملوك» خلف الأثقال وتجرد في الخيول حتى انتهى إلى نهر يقال له: «نهر ملويه» فقطع النهر، فلما وصل إليهم وجدهم قد تأهبوا له فاقتتلوا قتالاً شديداً في جبل شديد لا يوصل إليهم إلا من أبواب معلومة، وبعد

قتال استمر ثلاثة أيام انهزم أهل سجومة ففتح المدينة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة بن نافع (عياضاً وعثمان وأبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم من قَتَلَةِ أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة من كبارهم.

هذا وإن انتصار المسلمين على أهل تلك المدينة مع كونهم في جبل منيع لا يوصل إليه إلا من أبواب معلومة يعتبر مثلاً على تفوق المسلمين الباهر من الناحية العسكرية.

وهكذا أخضع موسى قبائل البربر التي شقت عصا الطاعة بعد مسير حسان بن النعمان إلى المشرق، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن خضعت بعد للمسلمين.

#### فتح مدينة طنجة:

ثم سار موسى يفتح المدن ويخضع القبائل حتى دانت له بلاد المغرب كلها، ولم يبق أمامه إلا منطقة «طنجة» وكانت تخضع للأمير الرومي جوليان. فزحف نحوها موسى وجعل على مقدمته مولاة طارق بن زياد ومازال يقاتل البربر ويفتح المدائن حتى بلغ مدينة طنجة، فلما دنا منها بث السرايا لإخضاع ما حولها من البلاد، وحاصر طنجة حتى افتتحها ونزلها وهو أول من نزلها واختط فيها من المسلمين فأسلم أهلها وجعلها محط إقامة للمسلمين كالقيروان.

#### أعمال ابن نصير الإصلاحية:

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعدما نشر الإسلام في البربر، وقد أبقى عندهم من يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وولى على طنجة وأعمالها مولاة طارق بن زياد وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم.

ولم يبق من بلاد المغرب بيد الكفار إلا منطقة (سبتة) التي كانت في مواجهة الأندلس فكان أهل الأندلس، يمدونها بالمؤن والسلاح حتى استطاع أهلها أن يصمدوا أمام المسلمين فتركها موسى بن نصير لجولة قادمة، ولكن كان قد أمن

على بلاد المغرب من حولها في طنجة حيث أبقي طارق بن زياد ومعه ذلك الجيش الكبير من البربر والمسلمين<sup>(١)</sup>.

وهكذا تبين لنا ما قام به موسى بن نصير من الأعمال الجهادية في بلاد المغرب بأجزائه الثلاثة الأدنى وهو بلاد تونس والأوسط وهو الجزائر والأقصى وهو المغرب حالياً تقريباً، وتم ذلك في وقت قليل نسبياً لأن القادة السابقين من عهد عقبة بن نافع إلى عهد حسان بن النعمان قد مهدوا لذلك وفتحوا أكثر هذه البلاد، ولكن البربر كانوا كلما فارقهم قائد قوي اغتتموا الفرصة فنقضوا عهودهم، وكذلك كان الروم يغتتمون عهود الضعف للمسلمين وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية فيعودون إلى احتلال البلاد مرة أخرى.

لكن موسى بن نصير في الفتح الأخير قد قضى على هذا الوضع المضطرب حيث أبقي حاميات قوية من العرب ومسلمي البربر، كما قام بتطهير بعض الأوكار القريبة التي كان القادة العرب يتركون البربر فيها لمناعتها مثل جبل «زغوان» في تونس، كما أنه أسس قاعدة حربية مهمة في أقصى المغرب وذلك في طنجة حيث أبقي فيها طارق بن زياد في جيش كبير، وبقي هو في القيروان في تونس فلم تطمع أي قبيلة من البربر في الانتفاض على المسلمين بعد ذلك، إلى جانب أنه قام بتكثيف الجهود في الدعوة الإسلامية بين البربر حتى تحولوا إلى جنود مخلصين للإسلام ودولته.

لقد كان طغاة تلك البلاد وأصحاب الأهواء المنحرفة يغتتمون فترات الضعف وانتفاض سيادة المسلمين ليقوموا بدعوة العامة وجمعهم، فتتحول البلاد إلى حالة من الفوضى والاضطراب ويحاول الأقوياء انتهاب الضعفاء، ولكن ما أن يأتي قائد مسلم قوي حتى يفيء إليه العقلاء طلباً لتخليص البلاد من تلك الحال السيئة، ولذلك كان هؤلاء خير معين لحسان بن النعمان حينما عاد مرة أخرى ليظهر البلاد من حكم الطغاة المفسدين في الأرض فتمكن بمعاونتهم من تخليص البلاد من طغاة البربر والروم كما سبق.

---

(١) البيان المغرب ١/ ٤٠ - ٤١، الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢. وانظر قادة فتح المغرب ١/ ٢٢٨ - ٢٣٧.

ثم فرح هؤلاء العقلاء بمجيء موسى بن نصير لما رأوا فيه من الحزم والعزم القوي والعدل الشامل فيسروا له مهمة تطهير البلاد من أوكار الهدم والتدمير .

ثم لما زال حكم الطغاة سارع البربر إلى الدخول في الإسلام حتى تكون منهم جيوش قوية كانت خير معين للعرب في حماية تلك البلاد من طغاة البربر والروم ، حيث لم يكن بإمكان العرب لقتلهم أن يسيطروا نفوذهم على شمال أفريقيا، تلك المنطقة الواسعة فكانوا قبل انتشار الإسلام بين البربر كلما أخضعوا منطقة انتقضت عليهم مناطق أخرى .

وكان من حسنات موسى بن نصير إسرعه في تكوين جيوش من مسلمي البربر وحسن اختياره للقادة منهم من أمثال طارق بن زياد الذي طار ذكره بعد ذلك في فتح الأندلس .

لقد استطاع ابن نصير بمعونة من معه من القادة والدعاة أن يحولوا بتوفيق الله أولئك التائهين الذين كانوا يصرفون طاقتهم في تأمين شهواتهم الدنيوية إلى مجاهدين يحملون بأفكارهم الهدف الأعلى الذي يقاتلون من أجله وهو إعلاء كلمة الإسلام ، ثم إنهم لم يُحرّموا مع العمل لهذا الهدف من الحصول على ما يريدون من الدنيا بالغنائم المباحة التي يصرفونها فيما يرضي الله تعالى .

وهكذا يستطيع القائد المسلم الذي نور الله بصيرته أن ينتزع من الطغاة الذين يتزعمون الناس أعداداً هائلة من الشباب الذين كانوا يعملون من غير هدف إلا الخضوع لتوجيهات هؤلاء الأبالسة الذين يغتنمون نداء الشهوات لدى هؤلاء الشباب فيحققون لهم بعض ما يريدون في مقابل سيادة الفوضى وترويع الآمنين ، وقصر الفكر على متطلبات الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة .

لقد استطاع ابن نصير وأمثاله من القادة العظماء بالتزامهم بالهدف الإسلامي واستقامتهم على المنهج الرباني أن يحرروا أولئك العبيد من رق عبودية الطغاة المتجبرين ، وأن يحولهم إلى جنود يبذلون طاقتهم في عملية التحرير هذه ليحرروا أقواماً آخرين ، مازالوا يرزحون تحت نير العبودية الخائفة ، بدلاً من أن يبذلوا طاقتهم في الإغارة على الآمنين وقطع السبل وإشاعة الفوضى والاضطراب في حياة البشر ،

فتحول المغرب كله في الأخير إلى قاعدة انطلاق كبرى نحو فتح الأندلس ونشر الإسلام فيها ونقل أفرادها من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر جل جلاله، بعدما كان المغرب مسرّحاً للغارات الهمجية التي لا هدف لها إلا تأمين متطلبات هذه الحياة الفانية، وإرضاء الطغاة الظالمين الذين انتهكوا حقوق البشر، وسلبوا من الإنسان حرية التفكير، وحوّلوا أفراد مجتمعهم إلى قطاعات من العبيد تفكر حيث يصوغ لها التفكير زعماءها، وتنطلق في السلوك حيث يرسم لها خطة العمل كبرائها، من غير هدف أعلى يحكم تصرفات القادة والجنود.

### جهود ابن نصير في الجهاد البحري:

هذا وإلى جانب ما قام به موسى بن نصير من إخضاع بلاد المغرب فإنه توجه باهتمامه إلى الجهاد البحري حيث أكمل العمل الذي بدأ به حسان بن النعمان من إعداد مصنع كبير لبناء السفن في تونس وإصلاح الميناء فيها، ثم أمر بصناعة مائة مركب.

وبعد الانتهاء من إعداد المراكب وجّه حملة بحرية بقيادة ابنه عبد الله إلى جزيرة «صقلية» فافتتح مدينة فيها وعاد سالماً غانماً.

كما أنه بعث عياش بن أخيل إلى «صقلية» فأصاب مدينة «سرقوسة» وبعث أيضاً عبد الله بن مرة إلى جزيرة «سردانية» فافتتح مدائنها.

وكذلك جهز موسى ولده عبد الله إلى جزيرتي «ميورقه» و«منورقه» في البحر الأبيض بين صقلية والأندلس فافتتحهما<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان موسى بن نصير موفقاً حينما قام ببناء ذلك الأسطول والشروع في غزو جزر البحر حتى يقطع الطريق على الروم الذي كانوا دائماً يهددون أمن شمال أفريقيا، وبهذه الغزوات البحرية الناجحة وبالقضاء على معاقل الروم في ساحل البحر الأبيض انقطعت حملات الروم التي سبق ذكر شيء منها.

ولقد كان هذا الاهتمام بالغزو البحري وما تم من النجاح فيه ممهداً للغزو الأكبر والفتح الأعظم الذي تم في الأندلس بعد ذلك.

---

(١) قادة فتح المغرب ٣٨/١ - ٤٠ نقلاً عن الإمامة والسياسة ٧٠/٢ - ٧١ النجوم الزاهرة ٢١٦/١، العبر ١٠٤/١، شذرات الذهب ٩٨/١، البداية ٧٧/٩.

**مواقف وعبر  
في  
فتوح الأندلس**

## جهد طريف بن مالك

كان مما هياه الله تعالى للمسلمين أنه كان بين جوليان حاكم مدينة «سبتة» وبين لُذريق حاكم الأندلس عداوة ومنافسة، فأرسل جوليان إلى موسى بن نصير رسالة يعرض فيها تسليم مدينة سبتة ويدعوه لفتح الأندلس، وقد صادف ذلك رغبة في نفس موسى وطموحاً منه لنشر الإسلام في تلك البلاد.

كتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بما جرى بينه وبين حاكم سبتة ويستأذنه في غزو الأندلس، فكتب إليه الوليد: بأن يختبرها بالسرايا وأن لا يغور بالمسلمين، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من البربر وهو طريف بن مالك ويكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعمئة راجل، فجاز البحر في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي «طنجة» وهو الذي عُرف بعد ذلك بجزيرة طريف فأغار منها على ما يليها حتى بلغ مدينة «الجزيرة الخضراء» ورجع سالمًا، وذلك سنة إحدى وتسعين للهجرة.

وقد كانت هذه الرحلة استطلاعية لمعرفة قوة العدو وطبيعة البلاد.

\*\*\*



## فتوحات طارق بن زياد

في رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف بقيادة طارق بن زياد، وقد استفاد المسلمون من المعلومات التي أتى بها طريف بن مالك حيث سار طارق بجيشه من سبتة حتى نزل بالجبل المقابل لها والذي سمي فيما بعد «جبل طارق»، بينما سار طريف قبل ذلك من طنجة ونزل فيما يقابلها حيث سمي جزيرة طريف، ثم اتجه شرقاً نحو جبل طارق، ولعله رأى أنه أفضل مكان لنزول الجيش الإسلامي لمناعته وقربه من سبتة مركز الانطلاق.

وقد سار طارق بالدفعة الأولى من جيشه على السفن الأربع، ووجد عند الساحل بعض الروم وقوفاً فمنعوا المسلمين من النزول، فلم يقاومهم لأنه قصد الدخول بسرية حتى يتم اجتماع جنده ويتأهب للقاء عدوه فعدل إلى مكان آخر فيه وعورة فقام هو وجنده بتسهيله حتى نزلوا ولم يعلم بهم أهل البلاد، ثم استقر في الجبل الذي رآه مكاناً ملائماً للحرب ورجعت السفن تنقل بقية الجيش حتى توافى جميع أصحابه عند الجبل وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين.

وقبل أن أذكر ما قام به طارق بعد ذلك فإنني أحب أن أشيد بهذه الخطة الحربية الممتازة التي سار عليها طارق بتوجيه موسى بن نصير حيث استطاع اختيار المكان الملائم للتحصن من الأعداء حتى يتم اجتماع الجيش كله، إذ أن هناك احتمالاً كبيراً أن يهاجم الأعداء جيش المسلمين قبل تكاملهم، فوجودهم في ذلك الجبل يعطيهم مقدرة على الدفاع عن أنفسهم، ثم إن مما يُشاد به مقدرة طارق وجيشه على التكتّم عن الأعداء حيث دخلوا ولا يعلم الأعداء أنهم محاربون، ثم مازالوا يتجمعون في ذلك الجبل حتى كمل عددهم من غير أن يشعر به عدوهم مع أن تلك المنطقة كان بها أمير من قبل لذريق ومعه جيش معدّ لحماية تلك المنطقة.

ثم سار طارق منحدرًا نحو الجزيرة الخضراء، وقد جرت بينه وبين القوط<sup>(١)</sup> مناوشات حربية انتصر فيها المسلمون، وكان قائد الروم «تُدْمير» الذي كان واليا

---

(١) القوط اسم لسكان الأندلس آنذاك.

على تلك المنطقة، وقد كتب إلى «لُذريق» يعلمه بأن قومًا لا يدري من أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك.

وهكذا وصف المسلمين بوصف يدل على فزعه منهم، وأن قدومهم كان مفاجأة كبرى له، وكونه يتشكك في حقيقة أمرهم هل هم من أهل الأرض أم من أهل السماء، يدلنا على ما كان يتمتع به أولئك الغزاة المسلمون من حيوية وثابة واندفاع عارم أذهل القوط وجعلهم في حيرة من أمرهم.

إن أولئك الكفار لم يألّفوا ذلك الهجوم الصاعق والارتقاء المتفاني في أحضان الموت فشكُّوا في كون أولئك المهاجمين من جنس البشر العاديين.

### المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس:

لما علم حاكم الأندلس لُذريق بزحف المسلمين بدأ يجهز جيشًا كبيرًا ليزحف به نحو الجنوب، وعلم طارق بأخبار هذا التجمع الكثيف، - وهذا يدل على دقة رصد المسلمين لتحركات أعدائهم - فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك ويستتمده، فأرسل إليه قرابة خمسة آلاف مجاهد بقيادة طريف بن مالك، حملتهم سفن المسلمين، وكان موسى بن نصير مذ وجه طارقًا أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل إليه خمسة آلاف، فتوافى المسلمون عند طارق اثني عشر ألفًا.

وقد جمع لُذريق جيشًا كبيرًا هو ما بين مائة ألف وأربعين ألفًا حسب اختلاف الروايات، وقد كانوا مغرورين بكثرتهم وقوة استعدادهم حتى إنهم حملوا معهم الحبال على دواب خاصة لكتاف أسرى المسلمين.

واستعد الفريقان للقتال، وكان أكثر جيش طارق رجالةً حيث لم يكن معهم من الخيول إلا القليل بينما كان جيش القوط يملكون الكثير منها<sup>(١)</sup>.

هذا وقد قال المؤرخ أحمد بن محمد المقرئ في بيان أحداث هذه المعركة وما بعدها:

(١) انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ ١/ ٢٢٤ - ٢٤٢. وانظر التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجّي/ ٤٧ - ٦٧.

وقال الرازي: كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْنَ من شوال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هزم الله المشركين، فقتل منهم خلق عظيم، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض، قالوا: وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلُّ قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفَيءَ وخَمَسَه، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع، وتسامع الناس من أهل بَرِّ العُدوة<sup>(١)</sup> بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشْر<sup>(٢)</sup>، فلحقوا بطارق، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل، ولحقوا بالجبال<sup>(٣)</sup>.

وهكذا عَرَضَتْ كتب التاريخ هذه المعركة عرضاً موجزاً جداً بينما كانت معركة كبيرة وحاسمة حيث فتحت الباب للمسلمين ليتوغلوا بعد ذلك في فتح الأندلس دون مقاومة كبيرة إلا في معارك محدودة.

ولا شك أن تضحيات كبيرة قد قدمها المسلمون خلال تلك الأيام الثمانية التي ظنوا فيها فناءهم كما جاء في بعض الروايات، كما أنهم قد توجهوا في تلك المعركة بإخلاص وروح معنوية عالية غطت على جميع جوانب النقص الكثيرة بالمقارنة بأعدائهم، وإن أبلغ وصف لشجاعة هؤلاء المجاهدين المذهلة، وإقدامهم الذي لا تحدُّ منه العقبات ولا تقف دونه السدود قول حاكم تلك الولاية في وصفهم «لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء» وإذا كان لا يدري فلإننا نقول: بل هم قدر الله تعالى النافذ وقضاؤه الذي لا يرد.

ومما يؤسف له أن كتب التاريخ لم تسجل أحداث هذه المعركة الكبيرة إلا في بضعة أسطر، ولقد كنّا نود أن نعرف الأحداث اليومية لتلك المعركة وما جرى فيها من تضحيات ومواقف عالية من الصمود.

(١) يعني في المغرب الأقصى.

(٢) القشر الزورق الصغير.

(٣) فتح الطيب ١/٢٤٣، وانظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٨/٢.

لقد كان المسلمون مقدّمين على خوض تلك المعركة الهائلة وهم فعلاً يتصورون إحدي الحسينيين . . فإمّا شهادة ينالون بها المقامات العليا في الآخرة وإمّا نصر ينالون به المقام الرفيع في الدنيا إلى جانب ما أعدّه الله تعالى في الآخرة، فلذلك كان قتالهم قتال المستميت وأصبحت طاقتهم أعلى بكثير من طاقة أعدائهم، وصبرهم على الشدائد أشد بكثير من صبر أعدائهم، فكانت لهم نهاية المعركة.

هذا ولم يكن موسى بن نصير وهو المسؤول الأول عن ذلك الفتح بمعزل عن أحداث هذه المعركة وما بعدها، بل كان شديد الاهتمام بأمر أولئك المجاهدين، فكان إلى جانب ما قام به من إمدادهم بالجنود معهم بدعائه وتضرعه إلى الله تعالى، كما قال ابن الكردبوس: «وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما علّم أنه هُزِمَ له جيش قط»<sup>(١)</sup>.

وهذا يدلنا على صفة من صفات موسى بن نصير المهمة التي كانت وراء انتصاراته العظيمة، وهي قوة صلته بالله تعالى وشعوره الصادق بأن النصر بيد الله سبحانه وإن اختلفت موازين التكافؤ في المعركة.

### فتح عدد من مدن الأندلس:

قال المقرئ: ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شَذُونَة، فامتنعوا عليه، فشَدَّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم، فتهيأ له فتحها عنوة، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى مَدُور، ثم عطف على قَرْمُونَة. فمر بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ثم نازل أهل أستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم، فانكسروا، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلاج صاحبها، وكان مغترّاً سيئ التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده، فصادف طارقاً هناك قد أتى لثل ذلك، وطارق لا يعرفه، فوثب عليه طارق في الماء، فأخذه وجاء به إلى العسكر،

(١) التاريخ الأندلسي/ ٦٧، عن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس/ ٤٦ - ٤٧.

فلما كاشفَه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحبَّ، وضرب عليه الجزية، وخلق سبيله، فوفى بما عاهد عليه.

إلى أن قال: ففرَّق طارق جيوشه معهم من أستجة، فبعث مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم، ولم يبق فيهم راجلٌ، وفضلت عنهم الخيل، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة، وقد قيل: إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه، لا مغيث، قالوا: فكمنوا بعدوة نهر شقندة في غيضة أرز شامخة، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها إلا أنه فيه ثغرة<sup>(١)</sup> ووصفها لهم، فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دققة حوافر الخيل، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد، فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقاً، ورجعوا إلى الراعي في دلالته على الثغرة التي ذكرها، فأراهم إيها، فإذا بها غير متسهلة التسنم، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها<sup>(٢)</sup> من التعلق بها، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها، وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خارج، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، وقتلوا نفرًا منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة، فصعد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة، فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه، وهم زهاء أربعمائة، وخرج إلى كنيسة بغربي

(١) ثغرة: مكان يمكن الدخول منه.

(٢) أفنانها: أغصانها.

المدينة، وتحصن بها، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل، ودافعوا عن أنفسهم، وملك مغيث المدينة وما حولها.

قال: وأما من وجّه إلى مألقة فإنهم فتحوها، ولجأ علّوجها إلى جبال هنالك ممتنعة، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى البيرة، فحاصروا مدينتها غرناطة، فافتتحوها عنوة.

قال: ومضى الجيش إلى تدمير، وتدمير: اسم العليج صاحبها، سميت به واسم قصبتها أريولة، ولها شأن في المنعة، وكان ملكها علياً داهية، وقاتلهم مضحياً، ثم استمرت عليه الهزيمة في فُحصها، فبلغ السيف في أهلها مبلغاً عظيماً أفنى أكثرهم ولجأ العليج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيئاً، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبّهات بالرجال، وتصدر قدامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه، فكره المسلمون مراسه<sup>(١)</sup> لكثرة من عاينوه على السور، وعرضوا على السور، وعرضوا عليه الصلح، فأظهر الميل إليه، ونكرّ ذيه، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول، فصالحهم على أهل بلده، ثم على نفسه، وتوثق منهم، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه، وأخذهم بالوفاء بعهده، وأدخلهم المدينة، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرية، فندموا على الذي أعطوه من الأمان، واسترجحوه<sup>(٢)</sup> فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له، وكان الوفاء عادتهم، فسلمت كورة تدمير من معرة المسلمين<sup>(٣)</sup> بتدبير تدمير، وصارت كلها صلحاً ليس فيها عنوة، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح، وخلفوا بقصبة البلد رجالاً منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طليطلة<sup>(٤)</sup>.

وهكذا سار طارق وقواده يفتحون تلك البلاد بسرعة مذهلة وبدون مقاومة كبيرة.

(١) مراسه - بكسر الميم - معالجة شأنه بالقتال ومعاونة ذلك.

(٢) استرجحوه: عدّوه راجح العقل حسن التدبير.

(٣) أي إيذاؤهم لهم.

(٤) نفح الطيب ١/ ٢٤٣ - ٢٤٥، وانظر البيان المغرب ٩/ ٢ - ١٠.

لقد كان أهل الأندلس كسائر البلدان المتحضرة يعيشون آنذاك تحت حكم طغاة متجبرين، وكان أولئك الطغاة يتصارعون على الحكم من أجل امتصاص خيرات البلاد والتجبر على الناس وتحويل المستضعفين إلى مستعبدين أذلاء، فكان أهل البلاد يتمنون الخلاص من أولئك المتجبرين، ولعلمهم سمعوا بما ناله أهل المغرب على يد المسلمين الفاتحين من أمن ورخاء وعدالة، فأصبحوا يتمنون الخلاص من طغاتهم على أيدي المسلمين، ولذلك وجدناهم يفتحون لهم صدورهم قبل أن يفتحوا لهم بلادهم ويسارعون في تقديم الولاء لهم، ويخذلون حكامهم الذين عانوا منهم الأمرين، ولقد انتشر الإسلام سريعاً على إثر انتشار المسلمين في الأندلس فكانت أخلاق المسلمين وعدالتهم وتفانيهم في خدمة دينهم وترفعهم عن الدنيا مفتاح قلوب أهل تلك البلاد.

وفي خبر تدمير ومعاملة المسلمين لصاحبها منقبة عالية للمسلمين حيث وفى المسلمون بعهدهم لذلك الحاكم الأندلسي مع سبق خديعته إياهم، وذلك لشدة اهتمامهم بالوفاء بالعهد الذي ظلوا طيلة فتوحاتهم في الشرق والغرب مشهورين به، ومن المؤكد أن سمعتهم العالية في ذلك قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس وإلا فإنه من المستبعد أن يغامر ذلك الحاكم بنفسه حيث خرج للتفاوض مع المسلمين ثم عرفهم بنفسه بعد تمام الصلح.

إنه في حساب الربح والخسارة من الناحية الحربية قد يقال إن المسلمين قد خسروا بهذا الصلح سبع مدن لم يكن فيها إلا قوة ضعيفة للأعداء وأنه كان بإمكان المسلمين أن يستأصلوا أعداءهم وأن يستولوا على تلك المدن بما فيها من متاع الدنيا، ولكن المسلمين في حساب الإسلام قد كسبوا مكسباً عظيماً حيث تقدموا شوطاً عالياً في الرقي الأخلاقي الذي يعتبر من أهم مقومات الدعوة الإسلامية.

ولا شك أن هذا السلوك الحميد وأمثاله مما يفسر به سرعة دخول أهل تلك البلاد في الإسلام، وتحويلهم إلى جنود يخدمون الإسلام ويسيرون دولته في بلادهم.

\* \* \*

## فتوحات موسى بن نصير

أما بقية فتوح الأندلس فقد شارك فيها موسى بن نصير أمير المغرب، وهو الذي بعث طارق بن زياد لفتح الأندلس.

وقد كان موسى بن نصير قد أشفق على وجود المسلمين في الأندلس حيث توغل طارق في الفتح شمالاً وبقي شرق البلاد وغربها لم يُفتح فخشي أن يطوقه الأعداء، وجاء في بعض الروايات أن طارقاً كتب إلى موسى يستمده لما خشي من إحاطة الأعداء به.

وقد عبر موسى مضيق جبل طارق في جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً وذلك في رمضان من عام ثلاثة وتسعين للهجرة، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقيا.

وبعد وصوله إلى الجزيرة الخضراء استشار مستشاريه في خطة الفتح وذلك في المسجد الذي بناه هناك وهو الذي عرف بمسجد الرايات لكثرة الرايات في ذلك الجيش، وبعد هذه الشورى اتجه إلى الشمال الغربي من الأندلس وذلك لحماية الفتح الإسلامي مما يبيته له الأعداء ولفتح بلاد لم يصل إليها الفتح الإسلامي، ففتح مدينة شذونة ثم اتجه إلى قرمونة وكانت من أشد مدن الأندلس تحصيناً وقد حاصرها المسلمون وأبى أهلها أن يستسلموا، وكان في معية موسى جماعة من حلفائه من أتباع يوليان حاكم سبته فأخبروه أن هذه المدينة لا تفتح إلا بحيلة، فوجه إليها جماعة يوليان وطرقوا بابها على أنهم فلول من جيش البلاد.

وسار خلفهم موسى بخيله، ففتحوا لهم الباب وهجم عليهم المسلمون فقتلوا الحرس واستولوا على المدينة.

وهكذا تم فتح تلك المدينة بجهود يسيرة بتوفيق الله تعالى ثم بسداد الرأي وحسن التدبير من قائد المسلمين.

ثم توجه موسى بجيشه إلى أشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل ملك القوط، فلما ملكوا البلاد نقلوا العاصمة إلى طليطلة، وقد حاصر المسلمون أشبيلية عدة أشهر ثم فتحها الله لهم<sup>(١)</sup>.

(١) فتح الطيب ١/ ٢٥١ - ٢٥٣، وانظر البيان المغرب ١٣/٢ والتاريخ الأندلسي/ ٦٧ - ٧٤.



وقد اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة «ماردة» التي كانت من أشد مدن الأندلس تحصيناً، حيث إن عرض سورها اثنا عشر ذراعاً وارتفاعه ثمانية عشر ذراعاً، ولحصانتها فإن فلول جيش القوط المنهزمة قد لجأت إليها، فتجمع فيها جيش قوي، وقد حاصرها موسى عدة شهور دون جدوى، ولكن موسى لم ييأس حيث استخدم دبابة من صنع المسلمين آنذاك حمل فيها الجنود إلى السور فبدؤوا ينقبون في السور لإحداث ثغرة فيه، فلما استطاعوا المضي فيه قليلاً ثار عليهم جنود العدو فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسمي ذلك البرج برج الشهداء.

وبالرغم من عدم وصول المسلمين إلى ما يريدون من فتح السور فإن أهل البلاد وافقوا على الصلح لما رأوا من إصرار المسلمين على حصارهم<sup>(١)</sup>.

هذا وإن في هذا الخبر دلالة على تفوق المسلمين من الناحية المادية حيث استطاعوا صناعة الدبابات حسب الإمكانيات المتاحة لهم في ذلك الوقت، فلم يكتفوا بقوتهم المعنوية الفائقة بل أضافوا إليها الاستعداد الحربي القوي المناسب لعصرهم.

ومن الملاحظ سهولة فتح الأندلس وأن بعض تلك الفتوحات كانت عن طريق الصلح، وذلك لأن القوط قد تشتتوا وزالت دولتهم وهم الذين كانوا يتحتمسون للقتال ويدافعون عن دولتهم، أما عامة أهل الأندلس فقد شعروا بالأمن والطمأنينة والعدالة بوجود المسلمين فكانت مقاومتهم إياهم ضعيفة، ولكن مع هذا فلا شك أن المسلمين قد عانوا مشقة من السفر المتواصل والإقدام على مغامرات مجهولة النتائج وفي بلاد يقدمونها لأول مرة ويجهلون دروبها ومفاجآتها.

هذا وقد عرضت كتب التاريخ أخبار هذه الفتوح بإيجاز شديد لا يبين إلا قليلاً من مواقف المسلمين التي لا شك أنها كانت عالية وقيمة بناء على ما نتج عنها من سرعة استتباب الأمن وانتشار الإسلام وسرعة اندماج أهل البلاد مع الفاتحين.

إن جهوداً كبيرة قد بذلت في الدعوة إلى الإسلام كان لها الأثر في كل هذه النتائج، وإن من أبرز هذه الجهود القدوة الحسنة والتمثيل الصادق للإسلام،

---

(١) نفع الطيب ١/ ٢٥٢، وانظر البيان المغرب ٢/ ١٤ والتاريخ الأندلسي/ ٧٤.

وخاصة من القادة والأمراء، الذين كانوا على جانب كبير من فهم الإسلام والرغبة الصادقة في نشره والحكم به بين الناس.

هذا ومما ينبغي الإشادة به أن هذه الفتوحات الكبيرة المتواصلة جرت من موسى ابن نصير وقد جاوز الخامسة والسبعين من عمره، ومع ذلك فإنه كان في همّة الشباب وحيويتهم حتى إنه قد عزم في نهاية فتح الأندلس على فتح البلاد الأوروبية وغزو القسطنطينية من الغرب لولا أن الوليد بن عبد الملك أمره بالتوقف والقدوم إلى دمشق وشدّد عليه في ذلك.

ومما يدل على صلاحه أنه دعا الله تعالى أن يرزقه الشهادة أو يموت في المدينة فأجاب الله دعاءه، حيث مات في المدينة وهو ذاهب إلى الحج برفقة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك عام سبعة وتسعين وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) التاريخ الأندلسي ١٢٧ عن نفح الطيب ٢٨٣/١، معالم الإيمان ٢٠١/١، رياض النفوس ٧٨/١.

## جهاد ولاية الأندلس في أواخر العهد الأموي

لما تولى إمارة الأندلس السَّمْحُ بن مالك الخولاني عام مائة كان له نشاط واسع في الجهاد في جنوبي فرنسا، وكان بينه وبين أهلها معارك عديدة، منها معركة بين المسلمين وحاكم «أقطانية» وقد اشتد فيها القتال واستشهد فيها عدد كثير من المسلمين منهم الوالي السَّمْحُ بن مالك الخولاني. وذلك في يوم التروية أو عرفة سنة اثنتين ومائة.

ولما تولى إمارة الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي في صفر عام ثلاثة ومائة استأنف الجهاد في جنوبي فرنسا خلف جبال البرت، وقد توغل في بلاد الفرنجة واستشهد سنة سبع ومائة<sup>(١)</sup>.

### معركة بلاط الشهداء:

تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في شهر صفر من عام اثني عشر ومائة، وقد واصل حركة الجهاد الإسلامي خلف جبال البرت وتوغل في فرنسا، وكانت له مع الإفرنج مواقع كثيرة، إلى أن غزاهم في عام خمسة عشر ومائة، وكان الإفرنج قد استعدوا للمسلمين بجيش كبير مجموع من عدة دول أوروبية بقيادة شارل مارتل، وقد التقى المسلمون بأعدائهم في شهر رمضان المبارك من ذلك العام، واستمرت المعركة حوالي عشرة أيام، وكانت نهايتها استشهاد قائد المسلمين. عبدالرحمن الغافقي وعدد كبير من جيشه، وقد سُميت المعركة لذلك «بلاط الشهداء».

كانت هذه المعركة حاسمة بين المسلمين والنصارى حيث تعثر الجهاد الإسلامي بعدها، وكانت نتيجتها خسارة كبرى لأوروبا حيث حُرمت من نور الإسلام وحضارة المسلمين، ولذلك اعتبرها الكتّاب الغربيون المنصفون نكبة كبيرة أصابت أوروبا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان<sup>(٢)</sup>.

وهكذا وصلت إلينا أحداث هذه المعركة الكبيرة وما سبقها من معارك بشكل موجز مقتضب، ولا شك أن وراء استشهاد هذا العدد الكبير من المسلمين أحداثٌ ضخمة ومواقف عالية.

(١) نفح الطيب للمقري ٢١٩/١ - ٢٢٠، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ١٨٥ - ١٩١.

(٢) نفح الطيب ١٤/٤ - ١٥، التاريخ الأندلسي / ١٩٣ - ٢٠٣.

## جهاد الدولة الأموية الأندلسية

### من مواقف عبد الرحمن الداخل

بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية في العالم الإسلامي وخلفتها الدولة العباسية، استطاع أحد شباب بني أمية أن يفرّ من قبضة العباسيين وأن يُكوّن له دولة في الأندلس لا تخضع لدولة العباسيين، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد دخل الأندلس في سنة ثمان وثلاثين ومائة فأقام فيها دولة لبني أمية بعد حروب بينه وبين معارضيه، ويعرف بعبد الرحمن الداخل لدخوله الأندلس<sup>(١)</sup>.

ولقد كان عهد عبد الرحمن الداخل عهد حروب داخلية بينه وبين المناوئين له، وقد تمكن بعد صراع مرير طويل من القضاء عليهم جميعاً، وقد كان يتمتع بالشجاعة والصبر والدهاء، ولقد كان لكفاءته القيادية أثر واضح في نجاحه، ولما كان ليس من منهج هذا الكتاب الخوض في المعارك التي جرت بين المسلمين فإنني لم أتعرض للكتابة عنها، غير أنني سأذكر شيئاً عن الحرب التي كانت بينه وبين أحد مناوئيه وهو سليمان بن يقطان الكلبي لأن سليمان هذا قد استعان على عبد الرحمن الداخل بملك الإفرنج شرلمان، وبهذا يكون سليمان الكلبي قد خان الأمانة ومكن لأعداء الإسلام من بلاد المسلمين.

وفي بيان هذه الحرب يقول الدكتور محمد السيد الوكيل:

رأى شرلمان أن الفرصة سانحة لغزو الأندلس، وكان هذا هو حلمه الذي كان يحلم به وبخاصة وأنه قد أنهى فتوحاته في أوروبا، بإخضاع السكسون، وليس عليه إلا أن يحقق حلمه، في إقامة إمبراطورية بإخضاع الأندلس.

عبرت جيوش شرلمان جبال البرانس، واستولت على مدينة مبلونة، واستمر في زحفه على مدينة سرقسطة، ولكنه وجدها وقد أغلقت أبوابها في وجهه، حيث

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٦٢/٤ - ٣٦٣، البيان المغرب ٤٧/٢.

أحسن سكانها بقيادة الحسين بن يحيى، بخيانة سليمان بن يقظان، وأنه يريد أن يسلم المدينة إلى شرلمان ملك الفرنجة.

كان شرلمان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، وكان يمني نفسه بتحقيق هذا الحلم، حتى وافته الفرصة، فخرج في ربيع ١٦٣هـ - ٧٧٨م وكان يعتقد أن مدينة سرقسطة ستفتح له أبوابها، ولكنه وجدها قد أغلقت أبوابها، وتحصن بها أهلها، إما رغبة من حسين بن يحيى في الانفراد بحكم المدينة أو غضباً منه على سليمان، لأنه خان الأمانة، ولم يرع حق عبد الرحمن الذي ولاه على المدينة.

واضطر شرلمان إلى محاصرة سرقسطة، ولكن الحصار قد طال، حتى يئس شرلمان من فتحها، وإذا أضفنا إلى ذلك أن أنباء قد وصلت لشرلمان، تحمل إليه أنباء اضطراب قد وقع في بلاده مما اضطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة، وعاد إلى بلده وهو يحمل معه سليمان بن يقظان، لأنه أخل بوعده، ولم يسلمه المدينة كما وعده.

انسحب شرلمان عائداً بخيبة الرجاء، ولما وصل مدينة مبلونة سحب منها حاميتها التي كان قد تركها فيها بعد الفتح، وهدم أسوارها، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل قد استعد للانتقام من شرلمان، فحرض عليه قبائل البشكنس، وتعاونت هذه القبائل مع المسلمين، وأبناء سليمان الذين كانوا يحاولون إنقاذ أبيهم.

وكانت المفاجأة المفزعة لجيش شرلمان في ممرات جبال البرانس الضيقة، حيث انقضت عليه الجيوش بالسهام والحجارة، حتى قضوا على مؤخرة هذا الجيش الذي جاء به ليفتح الأندلس قضاءً تاماً، وقُتل كثير من قواده العظام، وقتل كذلك قائده ورفيق حياته (رولان) واشتد حزن شرلمان على هذا القائد، وكان مقتل هذا القائد موضوعاً لأنشودة من شعر الملاحم الفرنسي، تعرف بأنشودة رولان.

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان بن يقظان من إنقاذه وتخليصه من يد الملك شرلمان، ورجعا به إلى سرقسطة.

وكانت هزيمة شرلمان هذه درسًا قاسيًا، وتجربة جانبها الصواب، حيث حاول تجربة حظه في فتح بلاد إسلامية، فباء بالفشل، ورجع بخيبة الأمل<sup>(١)</sup>.

وهكذا استعمل عبد الرحمن الداخل دهاءه فسلط القبائل المجاورة لجبال البرانس ونظمهم مع المسلمين ليقوموا بهجوم مباغت لجيش شرلمان من مجاهل تلك الجبال فأبادوا كثيرًا من جيشه، فكانت تلك الحرب أنجح من المواجهة ولم تكلف المسلمين خسائر.

وفي هذه المعركة عبرة فيما حصل لسليمان بن يقظان الذي خان الأمانة وتحالف مع الأعداء فقد فشل في تلك المحاولة وأصبح أسيرًا لدى من تحالف معه، ثم اضطر ابنه إلى أن ينضمًا بجيشهما لجيش عبد الرحمن الداخل ليخلصا أباهما من الأسر، وهكذا تمكن عبد الرحمن من تسليط أعدائه على أعدائه حتى ظفر بعدوه الكبير شرلمان.

#### رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل:

نظرًا لما حققه عبد الرحمن الداخل من إقامة دولة أموية في الأندلس والقضاء على جميع مناوئيه مع أنه كان طريد العباسيين من قطر إلى قطر فإنه قد نال إعجاب أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وأثنى عليه على الرغم من العداء القائم بين العباسيين والأمويين، فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي أن أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني عن صقر قريش من الملوك! قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئًا، قالوا: فمعاوية؟ قال: لا، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: ما قلتم شيئًا، قالوا: يا أمير المؤمنين فمن هو؟

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب ١٤٢/٢ عن كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس وكتاب الأمويون أمراء الأندلس.

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحار وقطع القفر،  
ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصرّ الأمصار وجند الأجناد، ودوّن الدواوين،  
وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة.

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلاً له صعبه، وعبد الملك  
ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين يطلب عثرته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن  
منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور  
وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقت والله يا أمير المؤمنين<sup>(١)</sup>.

وقد توفي عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولة قوية في الأندلس سنة اثنتين  
وسبعين ومائة، وخلفه ابنه هشام على إمارة الأندلس<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٦٠.

(٢) الكامل في التاريخ ٥/ ٨٣، البيان المغرب ٢/ ٤٧.

## مواقف هشام بن عبد الرحمن في الأعمال الجهادية والإصلاحية

### مواقفه الجهادية:

من ذلك ما ذكره ابن عذاري من أن أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن جهز جيشاً بقيادة أبي عثمان عثمان بن عبيد الله بن عثمان إلى بلاد ألبّة والقلاع، وأنه لقي بها أعداء الله بجموعهم متوافرين فهزمهم الله على يديه، وقتلوا في السهل والوعر وكان عدد قتلى الأعداء أكثر من تسعة آلاف وذلك في عام ستة وسبعين ومئة .

ثم ذكر أنه في هذه السنة جهز جيشاً بقيادة يوسف بن بخت إلى جليقية فالتقى ببرمود الكبير قائد الأعداء في تلك الناحية، وأنه جرت بينهم معركة انهزم فيها عدو الله وغنم المسلمون عسكره، وبلغ عدد قتلى الأعداء عشرة آلاف سوى من قتلوا بعد المعركة .

ثم ذكر أنه في سنة سبع وسبعين ومائة بعث جيشاً بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث وذلك في فصل الصيف إلى أرض الروم التي تقع شمال الأندلس، وأنه بقي شهوراً يقاتل الأعداء ويخرب الحصون، ثم أوقع بمدينة أربونة، وكان فتحاً عظيماً مشهوراً، بلغ فيه خمس السبي خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين .

ثم ذكر ابن عذاري أنه في سنة تسع وسبعين ومائة أغزى الإمام هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة، حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية . فبلغه أن إذفونش قد حشد بلاده، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من المجوس وغيرهم، وأنه عسكرهم ما بين حيز جليقية والصخرة، وأنه أذن لسكان السهل بالتفرق في شواحق جبال السواحل . فقدم عبد الكريم فرج بن كنانة في أربعة آلاف فارس، ثم رحل في إثره، فألفى أعداء الله، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله، فقتل حماتهم، وأسر جماعة منهم، ثم أمر



بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبث الخيل في القرى، فانتسفت جميع ما أُلْفَتْه من زروعهم، وخربت ما مرت عليه من عمارتهم. وتقدم بعد ذلك إلى وادٍ يُقال له كُوَيْثِيَّة، فلقي به غُنْدُمَارُهُ وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره، وأخذ غُنْدُمَارُهُ أسيراً، وقتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ. وأصاب العسكر جميع ما في تلك الناحية. وتقدم مستنجزاً لإذفونش، فلما بلغه قصده إليه تنحى عن الجبل الذي كان فيه منحازاً عنه إلى حصن له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نُلُون، فتقرب منه عبد الكريم مُقْتَفِياً لأثره، لا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرَّقه، ولا بمال إلا أصابه، حتى أطل على الحصن فانتقل منه إلى حصن مُلكه. واحتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألفى فيه الأُطعمة وضروب الدُّخُر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فَرَج بن كنانة، في عشرة آلاف فارس، يقفوا أثره، فلما قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميع عُدَّتِهِ وذخره، فغنم المسلمون جميع ذلك<sup>(١)</sup>.

وهذا الاهتمام الجيد من الأمير هشام بن عبد الرحمن يدل على عنايته بحماية الدولة الإسلامية وسعيه في إقرار الأمن للمسلمين، فإن الاستسلام لحياة الركود وتعطيل الجهاد يجعل الأعداء يطمعون في الإغارة على بلاد المسلمين ويأخذونهم على حين غفلة منهم، أما إذا كانت ذكريات جهاد المسلمين ماثلة في أذهانهم فإنهم يرغبون في السلامة ولا يفكرون في غزو بلاد المسلمين.

#### مواقفه الإصلاحية:

من أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: وكان هشام يبعث إلى الكُور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم، فيقع نظره بهدم ما تكشفه المحنة له منهم. واعترض له يوماً متظلمٌ من أحد عماله، فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخاه شفقة منه على العامل. فبعث إلى الشاكي وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك، فاضربه، أو هتك لك سترًا، فاهتك ستره، أو أخذ لك مالا، فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله! فجعل الرجل لا يحلف

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٦٣ - ٦٥.

على شيء إلا أُفيد منه . فكان زجره هكذا لعماله أبلغ فيهم من النكال والأدب . وكان كريماً عادلاً فاضلاً متواضعاً عاقلاً ، لم تُعرف منه هفوةٌ في حديثه ، ولا زلةٌ في أيام صباه . ومن كرمه أنه كان يصِرُّ أموالاً في صُرر ، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد ، فإذا وجد واحداً يصلي في مسجد أو لا يصلي وضع بين يديه صرةً ، حتى كثرت عمارة المساجد .

وكان - رحمه الله ! - قد نظر في بنيان قنطرة قُرطبة ، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة . وتولى بناءها بنفسه ، وتعطى الأجرة بين يديه . قال ابن وضاح : لما بنى هشام القنطرة ، تكلم بعض الناس فيه ، وقالوا : إنما بناها لتصيدِه ونزّهته ! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة .

قال القاضي أبو معاوية : أدركتُ صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثلٌ . وكان يحضر الجنائز ، ويزاحم فيها ، كأنه أحد من الناس ، تواضعاً .

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب بن عمران ، فسجّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها ، فنهض الرجل إلى هشام ، وقال له : إن القاضي سجّل عليّ في داري التي كنت أسكنها ، وأخرجني عنها ! فقال له هشام : وماذا تريد مني ؟ والله لو سجّل عليّ القاضي في مقعدي هذا ، لخرجت عنه ! انقياداً منه للحق ، رحمة الله عليه !<sup>(١)</sup> .

فهذه أمثلة من اهتمام الأمير هشام بن عبد الرحمن بالدعوة والإصلاح والعدل ، وإذا قرنت هذه الاهتمامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها .

\* \* \*

---

(١) البيان المغرب ٦٦/٢ .

## مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية

### مواقفه الجهادية:

تولى الإمرة بعد أبيه هشام الذي توفي في عام ثمانين ومائة، وقد كانت له مواقف جهادية، فمن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن عذاري قال: وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر، فتقدم عبد الرحمن بالجنود وتوافت عليه الحشود وحفّت به المطوعة، فألفوا الطاغية خارجاً إلى بلاد المسلمين، ودارت بينهم حروب شديدة ثبت الله فيها أقدام المسلمين فانهزم المشركون، وكانت فيهم مقتلة عظيمة، ففني أكثرهم.

وقال أيضاً: وفي سنة أربع وتسعين ومائة غزا الحكم إلى أرض الشرك. وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفرج (وهي وادي الحجارة). وكان العدو بسبب اشتغال الحكم بماردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام قد عظمت شوكته، وقوى أمره. فشن الغارات في أطراف الثغور، يسبي ويقتل. وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة، وهي تقول: واغوثاه يا حكم! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا، حتى استأسد العدو علينا! فلما وفد عباس على الحكم، رفع إليه شعراً يستصرخه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخها به، وأنهى إليه عباس ما هو عليه الثغر من الوهن والتياث الحال. فرثى الحكم للمسلمين، وحمي لنصر الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازياً إلى أرض الشرك، فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيراً، وأسر كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم، يصلحون به أحوالهم ويفدون سباياهم، وخص المرأة وآثرها، وأعطاهم عدداً من الأسرى عوثاً. وأمر بضرب رقاب باقيهم، وقال لأهل

تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم الحكم؟ قالوا: شفا والله الصُّدُورَ، ونكى في العدو، وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا! فأغاثه الله وأعزَّ نصره!

ثم ذكر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة أن الحكم أغزى عمه عبد الله البلنسي الغزوة الشنيعة المشهورة، وكانت بـيرشلونة: ألقى المشركين قد حلُّوا بها يوم احتلاله، وكان يوم الخميس، فأراد من معه مناشبة الحرب، وتشوفوا للقتال، فمنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني، وهو يوم الجمعة وقت الزوال، أمر بتعبئة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود، وقام فصلى ركعتين، ثم نادى في الناس، وركب هو ومن معه، وناهض أهل الشرك، وما أحسبه فعل ذلك إلا فقهاً وعلماً وتأسياً بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة، فإنَّ فيها تهبُّ الأرواح، وتفتح أبواب الجنة، وتستجاب الدعوات. فمنحهم الله أكتاف المشركين، وانهمزوا. وقتل عامتهم، وفرَّق جمعهم. فلما أفلح عن القتال وانجلت الحرب، نصب قناةً طويلةً، فأثبتت في الأرض، وأمر بالرُّؤوس، فجُمِعت وطُرحت حوَّاليها حتى غابت القناة فيها ولم تظهر.

ثم ذكر في حوادث سنة مائتين أن الحكم أغزى وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد المشركين، فدخلها وتوسطها، وأهلك معائشها ومرافقها، وحطم زروعها، وهدم منازلها وحصونها، حتى استوفى جميع قرى وادي أرون. فحشدت إليه الطاغية - دمرها الله - وإنجلت النصرانية من كل مكان، وأقبلت الجموع، ونزلت بعدوة نهر أرون، وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخاض الوادي، ونهض أعداء الله إليهم، فقاتلوه على كلِّ مخاضة منها، فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين، واقتحم أعداء الله النهر إليهم، فاقتتلوا على مخاضته، ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة، فأضغطوهم في المضائق، وأدخلوهم على غير طريق، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح والغرق في المياه، فقتل من المشركين عددٌ عظيمٌ لا يُحصى كثرة، ومات أكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضاً، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة، وأكثروا الحُرَّاس بالمخاض، ووعروها بالخشب، وحفروا الحفائر، وخندقوا الخنادق. ونزلت الأمطار، وكان قد فرغ ما

كان لأعداء الله من المرافق، وضائق الحال أيضاً بالمسلمين، فقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة<sup>(١)</sup>.

في هذه الأخبار مثل من اهتمام أمير الأندلس الحكم بن هشام بأمر الجهاد وحماية دار الإسلام.

وفي خبر المرأة التي استغاثت بالحكم مثل من الغرب يشبه ما جرى في الشرق من تلك المرأة التي استغاثت بأمير المؤمنين المعتصم بالله العباسي، ولقد اشتهر خبر المعتصم ولم يشتهر خبر الحكم لسهولة تداول تاريخ المشرق، ولقد قام كل واحد من الأميرين بالجهاد وإغاثة المرأة التي استغاثت به.

وهكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في القلب في نعيم الدنيا، وإنما هي في إغاثة الملهوفين وإنقاذ المكرويين وإعزاز الإسلام والمسلمين وإذلال الكفر والكافرين.

#### من مواقفه الإصلاحية:

من أخبار اهتمامه بالعدل ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: كان الحكم - رحمه الله - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تتقى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته، وكان مبسوط اليد، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده، فمرض مرضاً شديداً، فاغتم الحكم لمرضه، فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلةً أرقاً شديداً، وجعل يتململ على فراشه، فقليل له: أصلح الله الأمير! ما الذي عرض؟ فقال: ويحكم! إني سمعت في هذه الليلة ناديةً، وقاضينا مريضاً، وما أراه إلا وقد قضى نحبه. فأين لي بمثله، ومن يقوم بالرعية مقامه؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المصعب بن عمران قاضي أبيه. فولى بعده محمد بن بشير.

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفذهم بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملاً للحكم اغتصبه جاريةً، وصيرها إلى الحكم،

---

(١) البيان المغرب ٧٢/٢ - ٧٥.

فوقعت من قلب الحكم كل موقع، فأثبت الرجل أمره عند القاضي، وأتاه ببينة تشهد على معرفة ما تظلم منه وبملكه للجارية وبمعرفة بهم بها، فأوجبت السنة أن تحضر الجارية، فاستأذن القاضي على الحكم، فأذن له، فلما دخل عليه، قال له: أيها الأمير! إنه لا يتم عدلٌ في العامة دون إقامته في الخاصة! وحكى له أمر الجارية، وخيره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله، فقال له الحكم: أولاً أدعوك إلى خير من ذلك! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها. فقال القاضي: إنَّ الشهود قد شهدوا من كورة جيان، وأتى الرجل يطلب الحق في مظانه، فلما صار ببابك، تصرفه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول: باع ما لا يملك بيع مقهور، فلما رأى عزمه على ذلك، أمر بإخراج الجارية من قصره، فشهد الشهود عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها.

قال: وكان هذا القاضي محمد بن بشير، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداءٍ معصفر، وشعر مفرق، فإذا طُلب ما عنده وُجد أفضل الناس وأورعهم.

وكان الحكم يقول: ما تحلَّى الخلفاءُ بمثل العدل! (١).

وهكذا يضرب الحكم مثلاً من أروع الأمثلة على الاهتمام بتعيين القضاة الأكفاء ويخضع لتطبيق الحق حينما يتوجه عليه، ويشيد بالخلفاء الذين يتحلون بالعدل، وهذه أفعال وأقوال حميدة، وخاصة حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسؤولية في بلادهم، وهي إلى جانب كونها من المثل العالية التي تربي عليها هؤلاء الأمراء في ظل تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب.

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محمد بن بشير حيث أصر على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم، وهو موقف يضاف إلى مواقف القضاة العالية التي أقروا فيها العدالة وحفظوا للأمة الإسلامية أمنها وقوتها.

\*\*\*

---

(١) البيان المغرب ٧٨/٢ - ٧٩.

## مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم .  
تولى إمرة الأندلس بعد موت جده عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن  
الحكم وذلك في عام ثلاثمائة<sup>(١)</sup> .

كان له غزوات كثيرة ضد النصارى ، قاد بعضها بنفسه وأسند قيادة بعضها  
لقادته ، وسأعرض نماذج من أبرز الغزوات التي تمت في عهده باختصار ، فمن  
ذلك :

### غزوة مطونية:

وكانت في العام السادس والثلاثمائة حيث جهز أمير المؤمنين عبد الرحمن  
الناصر حملة بقيادة حاجبه بدر بن أحمد إلى دار الحرب ، وكان سبب ذلك أن  
النصارى تطاولوا على من بجوارهم من أهل الثغور من المسلمين لما انقطعت  
الغزوات الصيفية لبلادهم ، فخرج إليهم الجيش الإسلامي بعدما تجمعت أمداده من  
أنحاء البلاد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر محرم ، وقد تجمع الأعداء  
وحشدوا قواتهم ، فجرت بينهم وبين المسلمين معركة حامية انتصر فيها المسلمون  
وشفى الله صدورهم من أعدائهم ، وقتل من الأعداء عدد كبير وأسر منهم كذلك ،  
وكان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت لخمس خلون  
من ربيع الأول<sup>(٢)</sup> .

### غزوة بلدة:

وفي شهر ذي الحجة من عام ستة وثلاثمائة غزا الناصر لدين الله بنفسه مدينة  
بلدة ، وقد مر في طريقه بحصن دوش أمانتش فنازله وحاربه حتى افتتحه ، ثم  
نهض إلى مدينة بلدة فحاصرها يوم الثلاثاء ليلية بقيت من ذي الحجة ، فنزل من  
كان بها من المسلمين وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمنهم الناصر وقاتل

(١) الكامل في التاريخ ١٤٣/٦ .

(٢) البيان المغرب ١٧٢/٢ بتصرف .

الكفار في المدينة حتى أظفره الله بهم فقتلوا عن آخرهم وملك المسلمون المدينة، واستولوا على بعض الحصون المجاورة<sup>(١)</sup>.

### غزوة مؤيش:

وفي سنة ثمان وثلاثمائة غزا أمير المؤمنين الناصر دار الحرب، حيث خرج من قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر المحرم، وبعد أربعة أيام ورد عليه كتاب فتح من عامله على مدينة الفرج يذكر فيه أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير وأن الله تعالى منحهم أكتاف الكفرة فقتلوا وأسروا كثيراً منهم فاستبشر الناصر وتفاءل باسم المحلة التي كان فيها يوم أن ورد عليه كتاب النصر وهي مخاضة الفتح.

وقد استمر الناصر في مسيره نحو بلاد العدو وأظهر التوجه إلى الثغر الأقصى ثم عرج بالجيش إلى طريق آلبة والقلاع، ثم بعث سعيد بن المنذر الوزير في سرية إلى حصن وخشمة فأغذ السير حتى قرب من الحصن، وسرح الخيل يمينا ويسرة، والمشركون في سكون وغفلة، إذ كان أميرهم قد كاتب أمير المؤمنين مكايذاً له بمحاولة إبعاده عن بلاده بمواعيد وعدها من نفسه فأظهر أمير المؤمنين الناصر قبول ذلك منهم وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة فأصابوا مواشيهم ودوابهم فغنموها ورجعوا إلى العسكر سالمين، ثم كان هجوم الجيش على ذلك الحصن ففر منه الكفار وأخلوه وذلك في صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر.

ثم رحل أمير المؤمنين الناصر إلى حصن قاشترمورش وهو قاعدة الكفار هناك والموضع الذي كانوا يغيرون منه على المسلمين، فلما رآهم أعداء الله أخلوا الحصن وخرجوا هاربين، فدخله المسلمون وغنموا جميع ما فيه، وخرّبوا حصن القبلّة المجاور له.

ثم ارتحل الناصر بالمسلمين إلى مدينة قُلُونِيَّة وكانت من أمهات مدنهم فاستولوا على ما حولها ثم وجدوها خالية قد شرد عنها أهلها إلى الجبال المجاورة لهم، فغنم المسلمون جميع ما أصابوا فيها.

---

(١) البيان المغرب ١٧٣/٢ بتصرف.



ثم ارتحل الناصر لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة لنجدة المسلمين بها حيث كان زعيم النصارى «شأنجه» قد ضايقهم وأخافهم، فسار بالمسلمين برفق لئلا يشق عليهم لاتصال سفرهم حتى وصل إلى تطيلة، ثم قدّم الخيل مع محمد بن بُبّ عاملها إلى حصن قلّهرة الذي اتخذ شأنجه للإغارة على أهل تطيلة، فلما قصدته الخيل أخلاه من كان فيه واستولى عليه المسلمون، وبقي الناصر يومين حتى خربه وغنم ما فيه واستولى على ما حوله.

ثم رحل بالجيش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول قاصداً زعيم النصارى «شأنجه»، فخرج شأنجه من حصن أرنيط بجيشه وتعرض لمقدمة جيش المسلمين فتبادر إليه الشجعان فانهزم الكفار وركبتهم الخيل، فقتل من الكفار من قتل وفر بقيتهم إلى الجبال، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوس قتلى المشركين وتلقوا بها أمير المؤمنين الناصر ولم يكن له علم بالمعركة.

وورد الخبر على الناصر باجتماع أردون وشأنجه واستمداد بعضهما ببعض طامعين في اعتراض مقدمة جيش المسلمين أو قطع ساقاتهم، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها، ثم نهض بهم موغلاً في بلاد الأعداء، فأشرفوا من الصخور والجبال المنيعة وتعرضوا لأطراف جيش المسلمين، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين، فأمر الناصر بالنزول وإقامة الأبنية، فلما نزل الأعداء من الجبال قاتلهم المسلمون فهزمهم وساروا خلفهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم، ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من الأعداء إلى حصن مويش فأحاط به المسلمون من جميع جهاته وحاربوا من لجأ إليه حتى فتحوه وأخرجوا جميع من فيه وقتلوهم، واستولوا على ما فيه وما حوله<sup>(١)</sup>.

### غزوة طُرش:

وفي يوم السبت الثامن من محرم سنة تسع وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر إلى «كورة رية» حتى نزل على حصن «طرش» وكان النصارى قد اجتمعوا فيه وتحصنوا به فحاصرهم المسلمون من جميع الجهات ونصبوا المنجنيقات على

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٧٥، بتصرف.

المرتفعات القريبة منه، وكان الأعداء يبرزون في أول الأمر للقتال حتى مزقتهم الحرب وقل عددهم فأغلقوا الحصن على أنفسهم، فاستمر المسلمون في حصارهم حتى أخذهم الجهد وأشفقوا من الهلاك فخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، فدخله المسلمون وخرج منه النصارى، ثم هُدم وألقيت أحجاره في النهر، وبُني في موضع الكنيسة مسجد جامع<sup>(١)</sup>.

### غزوة مُنت روبي:

وفي يوم السبت لعشر خلون من المحرم عام عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لغزو كورة ألبيرة، وسار حتى نزل على حصن منت روبي، وكان جبلاً منيعاً بعيد المرام، وكان العجم قد لاذوا به، وهو متوسط بين كورة ألبيرة وكورة جيان وعلى طريق بجانة، فكان من سلك تلك السبيل من وارد أو صادر لا يسلم من عادية أهل ذلك الحصن، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال، فأقام عليهم الأمير الناصر خمسة وثلاثين يوماً محاصراً حتى أباد كثيراً منهم، ثم أبقى على الحصن من جنوده من استمر على محاصرتهم، وتقدم إلى حصون قريبة في ألبيرة ورية فحارب أهلها وأبقى من قادته من يحاصرونها، حتى ضعف الأعداء ولم يبق لهم وجود يضر بالمسلمين<sup>(٢)</sup>.

### غزوة بنبْلونة:

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لدين الله لغزو بنبْلونة، وقد سار في عسكر كبير حتى دخل ثغر تطيلة فانضم إليه جنود من أهل ذلك الثغر، ثم دخل بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر فنزل من أول بلادهم على حصن قَلْهَرَّة، وكان زعيم النصارى «شانجه» قد أخلاه، فأمر الناصر بهدمه، ثم انتقل إلى بيطرة آلته، وكانت هناك حصون مانعة فأخلاها الأعداء، ولجأ بعضهم إلى غيران في شفير

(١) البيان المغرب ١٨٠/٢، بتصرف.

(٢) المرجع السابق ١٨٢/٢، بتصرف.

جرف على النهر، فلم يزل المسلمون يتعلقون إليهم فيها ويتسورون عليهم من أعاليها حتى فتح الله عليهم فقتلوا الرجال وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة.

ثم انتقل الناصر بعد ذلك إلى عدد من حصون الأعداء فاستولى عليها، وعزم على الدخول إليهم في عقر دارهم فدخل في مواضع لم يدخلها المسلمون قبل ذلك حتى نزل بقرية بشكُونِشَة التي ينسب إليها «شانجه»، فجمع هذا القائد جنوده واستمد بالنصارى من كل مكان، فأمر الناصر بالتعبئة والاستعداد للحرب واثقاً بالله - عز وجل - ومتوكلاً عليه، فسلك بجيشه بين جبال شامخة، ورجا أعداء الله اقتطاع بعض جيش المسلمين وهبطوا من الجبال فدارت بينهم وبين المسلمين مناوشة يسيرة، ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحملة عليهم حتى اقتلعوهم عن موضعهم وهزموهم حتى اضطروهم إلى مرتقى وعرفاقتحم المسلمون عليهم وسهل الله لهم وعره فقتلوا جملة منهم وغنموا كثيراً من أموالهم، وانصرفوا سالمين لم يصب منهم غير عدد قليل فازوا بالشهادة<sup>(١)</sup>.

وبعد فهذه أمثلة من الغزوات التي قام بها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهذه الأمثلة تبين لنا الجهود الكبيرة التي بذلها حكام الأندلس وقادتهم وجنودهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وتثبيت الدولة الإسلامية، ومن هذه الأمثلة وغيرها ندرك أن ما اشتهر عن حكام الأندلس من أنهم كانوا يتقبلون في أنواع من النعيم ليس على إطلاقه، بل إن ذلك الرخاء والنعيم لم يتوفر لهم إلا في ظل رايات الجهاد الخفاقة التي اندحر بها الأعداء واستسلموا لقوة المسلمين.

\*\*\*

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٥ بتصرف.

## مواقف المنصور محمد بن أبي عامر الجهادية والإصلاحية

### مواقفه الجهادية:

بعد أن توفي الحكم بن عبد الرحمن في عام ستة وستين وثلاثمائة تولى بعده ابنه هشام وكان ابن اثنتي عشرة سنة وكان أمر دولته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي، وكان لابن أبي عامر دور قوي في السياسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن فرقاه هشام إلى رتبة الوزارة، ثم استأثر ابن أبي عامر بالحكم وتخلص من جعفر بن أبي عثمان، ومن بعض القادة الذين ينافسونه في الحكم حتى انفرد أخيراً بشئون الحكم، وكان يحكم باسم الأمير هشام<sup>(١)</sup>، ومع ما وقع فيه من تدبير المؤامرات وقتل المنافسين فإن له مواقف جهادية كثيرة.

ومن أبرز غزواته غزوة «سنت ياقوب» وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري هذه الغزوة بقوله:

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصر على الملوك الطاغية (دمرها الله)، سما إلى مدينة سنت ياقوب بها من الأرض الكبيرة. وكانت كنسبتها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحواري أحد الاثني عشر رحمهم الله، وكان أخصهم بعيسى عليه السلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه. وقد زعم جماعة منهم أنه ابن يوسف النجار. وسنت ياقوب هي مدفن ياقوب، فهم يسمونه أخا الرب (تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً) وياقوب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفًا ببيت المقدس، فجعل يستقري الأرضين داعيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فقتل بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتل أصحابه رمتها، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره. ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها، وبعد شققتها.

(١) انظر الأمويون بين الشرق والغرب / ٣٨٠ - ٣٨٨.

فخرج المنصور إليها من قُرْطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهي غزوته الثامنة والأربعون.

ثم ذكر خطوات مسيره إلى أن قال: ثم نهض يريد شنت ياقوب، فقطع أَرْضَيْن متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يدها البحر الأخضر. ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فلطارش ومباسيطة والدير وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم تهتد الأدلاء إلى سواه. فقدم المنصور الفَعْلَة بالحديد لتوسعة شعبه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منيه، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأَرْضَيْن أريضة، وانتهت مَغِيرَتُهُمْ إلى دَيْر قَسْطَان وبسيط بلبنوط على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بلايه، وغنموه، وعبروا سِبَاخَهُ إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها.

وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتَّصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه.

ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقي في معبرين أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر إيله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة، كثيرة الفائدة، منها بسيط أونة وقرجيطة ودير شنت برية. ثم انتهوا إلى خليج إيلياء، وهو من مشاهد ياقوب أيضاً صاحب القبر، تلو مشهد قبره عن النصارى في الفضل، يقصد نُساكُهُمْ له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها. فغادره المسلمون فارغاً.

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها. ووَكَّلَ المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه.

إلى أن قال: وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقوب، وقد بلغ غايةً لم يبلغها مسلمٌ قبله.

قال: ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أوأنس يعقوب. فأمر المنصور بالكف عنه<sup>(١)</sup>.

فهذه غزوة من غزوات المنصور ابن أبي عامر الكثيرة، وقد خصصتها بالذكر لما فيها من المغامرات التي لم يسبق إليها في تلك البلاد، ولعل الذي دفعه إلى هذه المغامرات وتدمير ما وصل إليه من عامر تلك البلاد الجبلية هو كون تلك المناطق الوعرة ملاذاً للمخربين من النصاري الذين يقومون بالهجوم على بلاد المسلمين ثم يلجئون إلى تلك البلاد التي لم يكونوا يتوقعون أن أحداً من الغزاة سيصل إليها.

قال ابن عذاري: وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة توفي المنصور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى، قال: وكانت عدة غزواته سبعاً وخمسين غزوة بأشرها كلها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو علة النقرس، عفا الله تعالى عنا وعنه<sup>(٢)</sup>.

#### من مواقفه الإصلاحية:

وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك: ببيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم. ابتدأ المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وفزغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، وصارت صدراً في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة، ولم يكن للقنطرة عدول عنها، فأمر المنصور أمناء بإرضائه فيها، فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها. فرماهم الشيخ بالعرض الأقصى عنده فيما ظنه: أن لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً، كانت عنده أقصى الأمانة، وشرطها صحاحاً. فاغتنم الأمناء غفلته، ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف في غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحاً كما قال. فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنّ عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور. وصارت خبراً سائراً.

(١) البيان المغرب ٢ / ٢٩٤ - ٢٩٧ باختصار.

(٢) البيان المغرب ٢ / ٣٠١.

ومن ذلك أيضاً: ببيان قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شليل، فتجشم لها أعظم مؤنة. وسهّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة<sup>(١)</sup>.

فهذان مثلاً من الإصلاحات العامة التي قام بها، ومما يلفت النظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غبنه، فهو لم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كما فعل أصحابه، بل أعطاه حقه وزيادة على ذلك، فهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه.

قال: ومن ذلك أنه خط بيده مصححاً كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به.

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمتاديل في كل منزل من منازلهم، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويره في حنوطه عند موته، وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه، توقعاً لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته. وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك<sup>(٢)</sup>.

وهذان الخبران يدلان على قوة دينه وعمق استحضاره للحياة الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله.

قال: وكان عدل المنصور في الخاصة والعامة. وأطراحه المهاودة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل.

ومن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة يوماً بمجلسه فناده: يا ناصر الحق لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة. وكان له فضل محل عند ابن أبي عامر، ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم، فلم يأت! فقال المنصور: أوعبد الرحمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ اذكر مظلمتك يا هذا! فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما قطعها من غير نصف، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية! ثم نظر

(١) البيان المغرب ٢ / ٢٨٨.

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٨٨.

إلى الصَّقْلَبِيِّ، وهو قد ذهل عقله، فقال: ادفع الدرقة إلى فلان، وانزل صاغراً، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحقُّ أو يضعك! ففعل، ومثّل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: خذ بيد هذا الظالم الفاسق، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره! ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكرًا، فقال له المنصور: قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلي. فتناول الصقلبيّ بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقي مع التاجر المغربي، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمة، فدافع الحاكم، وظن أن جأه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى، فوكل به في الوقت من حملة إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك، قصة محمد، فصَّاد المنصور، وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب، لحيفٍ ظهر منه على امرأته. قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله، ثم يعيده إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محمد، إنه القاضي وهو في عدله، ولو أخذني الحقُّ ما أطقُ الامتناع منه! عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك. فانكسر الحاجم، وزال عنه ريحُ العناية. وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجه، وزاد القاضي شدةً في أحكامه<sup>(١)</sup>.

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالمهم وإن كانوا من المقربين إليه، وفي الخبر الأول نراه يُنحي باللائمة على ذلك القاضي الذي

(١) البيان المغرب ٢ / ٢٨٩ - ٢٩٠.



عجز عن استقدام المدعى عليه لكونه من المقرين للمنصور، فهو يرى بذلك أن القاضي يجب عليه أن يكون قوياً وأن لا تأخذه في الحق لومة لائم وأن لا يفرق في الخصومة بين كبير أو صغير، ثم إنه بعد أن أخذ المظلوم حقه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خاصة لكونه استغل قربه منه فامتنع من الحضور إلى مجلس القضاء.

قال: ومن ذلك قصة الجوهري التاجر، وذلك أن رجلاً جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته، ودفع إلى الجوهري التاجر صُرتَه، وكانت قطعة يمانية. فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها واليوم قائل وعرقه مُنصبٌ دعت نفسه إلى التبرد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حداً، فاختطف الصرة، تحسبها لحماً، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولا بحيلة، فأسرَّ الحزن في نفسه، ولحقته لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيها. وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان له ما به من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة. فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هَدِيت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ قال: مرَّ مُشرقاً على سَمَت هذه الجنان الذي يلي قصرِك! يعني الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى، وجاء بهم سريعاً، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعاً، وانتقل عن الإضاقَة دون تدرّج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا! ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السَّقي بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة. فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حاضرٌ، وقال له: سبِّ ضاع منا وسقط إليك ما فعلت به؟ فقال: هو ذا يا مولاي؟ وضرب بيده إلى حجرة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طرباً وكاد يطير فرحاً، فقال

له المنصور: صف لي حديثها. قال: نعم! بينا أنا أعمل في جناتي تحت نخلة، إذ سقطت أمامي، فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرِكَ لقرب الجوار، فاحترزت بها، ودعتني فاقتني إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونًا كانت معها مصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها. فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك، وانظرها، واصدقني عن عددها. ففعل وقال: وحق رأسك، يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له. فقال له المنصور: نحن أولى بذلك منك، ولا ننقص عليك فرحتك. ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفورًا عليه. ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا من دنانيره وللجنان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاءً! قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبئن في الأقطار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك! فضحك المنصور، وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره، وحيلته في تفريج كربته<sup>(١)</sup>.

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبي عامر ودقة ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القضايا والبحث الدقيق في خفاياها وملابساتها إنما هو بالدرجة الأولى توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم الأمة وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير، فالذهن في هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة.

\*\*\*

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٢٨٨ - ٢٩٢.

## جهاد المرابطين في الأندلس

قبل أن أتحدث عن دور المرابطين في الجهاد في الأندلس أحب أن أعطي نبذة موجزة عن دولة المرابطين.

وأصل نشوء هذه الدولة التي حكمت بلاد المغرب والأندلس يعود إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الصنهاجي، أمير جدالة، فإنه قد شعر بما كان عليه قومه من الجهل بالدين وعدم وجود علماء يعلمونهم ويذكرونهم، فلما رجع من الحج عام أربعين وأربعمائة مرَّ على القيروان واتصل هو وجماعته بالعالم المربي أبي عمران ابن موسى بن عيسى الفاسي فطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يفقههم في أمور دينهم، فأحالهم إلى تلميذه العابد المربي وجاج بن زللو اللمطي، الذي بني له - بعد تخرجه من شيخه - رباطاً في الصحراء الكبرى في «نفيس» واجتمع حوله فيه تلامذته، وكتب الشيخ إلى تلميذه هذا مع يحيى بن إبراهيم «ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وقد وقع اختيار الشيخ «وجاج اللمطي» على تلميذه «عبد الله بن ياسين الجزولي» وكان اختياراً موفقاً كما تبين فيما بعد، حيث كان عبد الله هذا هو منشئ دعوة المرابطين وأستاذ زعمائهم، وسار عبد الله بن ياسين نحو ديار الملمثيين من جدالة وملتونة مع يحيى بن إبراهيم، وكان يحيى يقدمه لكل قبيلة يتوجه لدعوتها بقوله «هذا عبد الله بن ياسين محيي السنة» وقد أثار إعجاب قبائل البربر بعلمه وأخلاقه حتى قال أحد شيوخهم: رأيت هذا الجمل! لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم.

وبدأ ابن ياسين دعوته بالوعظ والتعليم فأحبه الناس وأقبلوا عليه، ثم بدأ بإصلاح المجتمع وإنكار المنكرات وتطبيق أحكام الإسلام على العامة والكبراء، فقاومه بعض الأكابر الذين يرفضون من الإسلام ما خالف أهواءهم فهدموا داره ونهبوا ما فيها.

عند ذلك فكر هو وصاحبه يحيى بن إبراهيم في إنشاء رباط في جزيرة منعزلة عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي، وتوافد التلاميذ على ذلك الرباط يتعلمون العلم الديني ويتلقون التربية الأخلاقية والجهادية، وقد توسع ذلك الرباط حتى بلغ عدد جماعته أكثر من ثلاثة آلاف<sup>(١)</sup> ومن هؤلاء التلاميذ تكونت فرق المجاهدين التي أنشأت دولة المرابطين بعد جهاد طويل قاده منشىء هذه الدعوة عبد الله بن ياسين، بمؤازرة صاحبه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ثم بقيادة يحيى بن عمر اللمتوني، ثم أخيه أبي بكر بن عمر، إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين الذي وسع الجهاد وأقام دولة المرابطين الواسعة.

### سبب جهاد المرابطين في الأندلس:

بعد أن سقطت إمارة طليطلة وأصبحت كل إمارات الأندلس مهددة بالسقوط في أيدي النصارى اهتم علماء الأندلس ووجهائها بسبيل إنقاذ وضعهم المتدهور، فاتجهت أنظارهم إلى طلب النجدة من أمير المرابطين في المغرب، ووافقهم بعض حكامهم على ذلك، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، فأرسلوا رسلهم إلى الأمير يوسف بن تاشفين ليسرع إلى نجاتهم<sup>(٢)</sup>.

### معركة الزلاقة:

وبعد أن وصلت رسل الأندلس إلى ابن تاشفين يطلبون نجاته سارع إلى ذلك بعد استشارة أهل الرأي، وقد عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس على دفعات حتى تكاملت، وكان عدد فرسان المرابطين سبعة آلاف ومعهم عدد كثير من الرجالة، وذلك في شهر ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وأربعمائة.

ويذكر أنه في حال عبور الأمير يوسف بن تاشفين البحر هبت ريح عاصف أثارت أمواجاً عالية، فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعو الله عز وجل «اللهم إن كنت تعلم أن في جَوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهّل علينا جواز هذا

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٤ / ٧ - ٢٤، أمير المسلمين ابن تاشفين لإبراهيم الجمل / ٣٧ - ٤٩، التاريخ الأندلسي / ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) نفح الطيب ٦ / ٨٧.

البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه» فاستجاب الله دعاءه فسهل له عبور ذلك البحر<sup>(١)</sup>.

وصل ابن تاشفين إلى الأندلس بجيشه، وسارع أمراء الطوائف إلى الاشتراك بقواتهم، وفرح أهل الأندلس بقدوم الأمير ابن تاشفين فرحاً عظيماً، وسار المرابطون إلى إمارة بطليوس وعسكروا في سهل «الزلاقة»، وتوافدت عليهم جيوش الأندلس.

وكان أمير النصارى «الفونسو أذفنوش» يحاصر سرقسطة في طريقه إلى الاستيلاء على بقية الأندلس، فلما علم بقدوم جيش المرابطين فك الحصار وبدأ يستعد وكاتب أمراء النصارى فأجابه عدد منهم واجتمعت عنده جيوش كثيرة، فسار بجيشه مزهواً بتفوقه في العدد والعدد، ونظر إلى جيشه فقال: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء.

وبعد أن اجتمع أمراء الطوائف ضموا جيوشهم وأسندوا قيادة جيشهم إلى المعتمد بن عباد، وصاروا في مقدمة الجيش ومن خلفهم جيش المرابطين.

وقبل المعركة جرت مراسلات بين الطرفين، فقد أرسل ابن تاشفين - عملاً بالسنة - إلى الفونسو يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب، ومما جاء في هذه الرسالة «وبلغنا يا أذفنوش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فُلُكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]. فغضب الفونسو لهذه الرسالة وردّ بكتاب عنيف مملوء بالوعيد، وقد اكتفى ابن تاشفين في الرد عليه بأن كتب على ظهر الرسالة «الذي يكون ستره».

وقد نظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جيشه فجعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد بن عباد وجعلهم في المقدمة، وجعل منهم في الميمنة قوة بقيادة ابن الأفطس، وجعل في الميسرة أهل شرقي الأندلس، وجعل قوات المرابطين في

---

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٠٣ عن دول الطوائف ٣١٩، ٤٤٧.

الخلف، وأفرد منهم قوتين من الفرسان جعلهما جيش احتياط إحداهما بقيادة داود ابن عائشة والأخرى بقيادة أبي بكر سير بن أبي بكر وهما من قادته الكبار.

ولما تقابل الجيشان كتب قائد العدو إلى المسلمين يوم الخميس الحادي عشر من شهر رجب يخبرهم أن المعركة ستكون يوم الاثنين، وكان ذلك منه خداعاً لـيـباغتهم يوم الجمعة.

وقد أدرك المسلمون تلك الخديعة، وأكد ذلك ما ظهر في جيش العدو من الاستعداد للقتال، فأخذ المسلمون حذرهم، وزاد الأمر تأكيداً أن أحد العلماء الصالحين وهو أبو العباس أحمد بن رُمَيْلة القرطبي أخبر برؤيا صالحة، وهي أنه رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة الغد، فاتتبه مسروراً وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب، وكان في جيش ابن عباد، فوصله خبر الرؤيا فبعث إلى ابن تاشفين وأخبره، فكان ذلك تحقيقاً لخديعة الفونسو المذكورة.

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة زحف الفونسو بجيشه على المسلمين. وقد وجه بقواته إلى مقدمة جيش المسلمين، وما كاد الأعداء يوجهون ضرباتهم إلى جيش الأندلس حتى ظهر الفشل والخلل فيهم فإنهم كثير منهم وثبت قائدهم ابن عباد في قلة معه.

وكان قائد يوسف بن تاشفين يلاحظ ما يجري بدقة، فوجه الفرقة الاحتياطية التي كانت بقيادة ابن عائشة لنجدة المعتمد بن عباد، ثم لما احتدمت المعركة وكثف الأعداء من هجومهم وجه ابن تاشفين الفرقة الاحتياطية الأخرى بقيادة البطل المشهور سير بن أبي بكر، وقد استطاع ابن أبي بكر أن يوقف قوات القشتاليين التي يقودها هانيس، ودارت بين القوتين معركة عنيفة انضم إليها قائد النصارى الفونسو.

وتراجع جيش الأندلسيين فاشتغل النصارى بقتالهم ومطاردتهم، وكانت الفرصة الذهبية التي خطط لها ابن تاشفين حيث كان يلتمس نقاط الضعف في العدو لينزل إلى الميدان بهجوم صاعق، فاغتتم فرصة انشغال الأعداء بمطاردة الجيش الأندلسي وبعدهم عن معسكرهم فداهمهم من الخلف وأباد الحامية التي حول معسكرهم

وأضررم فيه النيران، ثم نزل إلى الميدان وهجم بجيشه على مؤخرة الأعداء وصار المسلمون يحصدونهم بسيوفهم.

ولما علم قائد العدو «الفونسو» بما حل بمعسكره رجع بقواته فاصطدم بالمرابطين ودارت بينهم معركة حامية انهزم فيها النصارى.

ثم أراد ابن تاشفين أن يقضي على بقية النصارى فجمع جيشه في صفوف متراصة وهجم بهم على العدو، واستطاع أحد جنود الفرقة السودانية أن يصل إلى الفونسو وأن يقتل فرسه وطعنه في فخذه إلا أنه نجا من تلك الطعنة واستمر القتال إلى غروب الشمس، وفرَّ بقية جيش النصارى، وتسلى الفونسو في الظلام مع خمسمائة فارس مات منهم أربعمائة في الطريق ووصل الفونسو إلى طليطلة ومعه مائة فارس<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانت معركة الزلاقة معركة حاسمة ارتفع بعدها شأن المسلمين وثبت وجودهم في الأندلس وانخفض شأن النصارى وانحازوا إلى معاقلهم.

لقد كان الفونسو عازماً على إنهاء وجود المسلمين في الأندلس، وساعده على ذلك تحالف أمراء النصارى في أوروبا معه وتفرق المسلمين إلى دويلات صغيرة يعيش أمراؤها في تناحر وعداء مستمر، وكانوا من ذلتهم يدفعون الجزية للنصارى، وبلغت الخيانة ببعضهم إلى أن طلبوا المساعدة من أمير قشتالة الفونسو على قتال إخوانهم من أمراء المسلمين، فاغتنم هذا الأمير الفرصة وبدأ يستولي على بلاد الأندلس إلى أن قيض الله له الأمير البطل القائد المحنك يوسف بن تاشفين فقضى على جيشه وحطم آماله.

ولقد كان عجباً أن يخوض ابن تاشفين هذه المعركة الهائلة وهو في الثمانين من عمره، ومع هذا العمر الكبير فإنه قاد جيشه وشارك في القتال وهو على ظهر فرسه، وهذا من الدلائل على صلاحه وعلو همته.

---

(١) نفح الطيب ٦/ ٨٦ - ١٠٣، الكامل في التاريخ ٨/ ١٤١، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لإبراهيم الجمل/ ١١٦ - ١٣٤، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي/ ٤٠٣ - ٤٠٩.

لقد كان من نتائج هذه المعركة الفاصلة أن الإسلام بقي في الأندلس مئات السنين بعد أن اتفق الأعداء من النصارى على القضاء على وجود المسلمين هناك .

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب في شهر شعبان من عام تسعة وسبعين وأربعمائة، وترك جزءاً من جيشه في الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر ليجاهد النصارى، وقد شارك معه في الجهاد أمير بطليوس، أما بقية أمراء الأندلس فإنهم قد تركوا جهاد النصارى ورجعوا إلى منازعاتهم، ولم يستفيدوا من الدروس الأليمة التي مروا بها يوم أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يتحولوا إلى عبيد للنصارى .

### حصار حصن لبيط:

اشتد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس وتكررت هجماتهم خاصة على الجهة الشرقية التي كان المعتمد بن عباد يسيطر عليها، وكانوا يخرجون إلى المسلمين من حصن «لبيط» المنيع وكان النصارى قد أحكموا بناءه ووضعوا فيه آلافاً من المقاتلين، ولما أيس ابن عباد من الانتصار عليهم وخشي من وقوع بلاده تحت أيديهم سار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وشرح له الضرر الواقع على المسلمين من حصن لبيط وطلب منه نجاتهم، فوعده ابن تاشفين بالقدوم إلى الأندلس بجيشه .

وبعد أن أكمل الأمير يوسف بن تاشفين استعداداته سار وعبر مضيق جبل طارق فتلقاه المعتمد في الجزيرة الخضراء المؤن، وكتب ابن تاشفين إلى ملوك الطوائف يستنفرهم إلى الجهاد وحدد مكان اللقاء حصن لبيط، وقد حاصره المسلمون حصاراً شديداً إلى أن وافق أمير قشتالة الفونسو على إخلائه فأخلاه ثم هدمه، وتخلص المسلمون بذلك من بلاء كبير، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب، ولكن الأندلس عادت إلى أسوأ من حالها الأولى<sup>(١)</sup>.

### عودة المرابطين إلى الجهاد:

هذا وقد ساءت أحوال ملوك الطوائف في الأندلس، وجدد بعضهم تحالفه مع النصارى ضد إخوانه المسلمين، فكثرت مناشدة المسلمين للأمير يوسف بن تاشفين

(١) التاريخ الأندلسي/ ٤٢١ - ٤٢٢، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ١٣٥ - ١٤٢ .



بتخليص الأندلس من هؤلاء الملوك، وأفاته العلماء كأبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي بضرورة توحيد الأندلس تحت قيادته ليتمكن من إجلاء الصليبيين منها، وقد استجاب لتلك النداءات وعمل بفتوى العلماء، فجهز جيشاً وعبر إلى الأندلس في أوائل سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقام ببعض الأعمال الجهادية، ثم عاد إلى المغرب وترك عدداً من قادته ليكملوا الجهاد في توحيد الأندلس ومقاومة النصارى، وقد جرت معركة كبيرة بين المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر والنصارى بقيادة البرهانش كان النصر فيها حليف المسلمين وذلك في عام أربعة وثمانين وأربعمائة.

وفي عام واحد وتسعين وأربعمائة التقى المرابطون بقيادة محمد بن الحاج بالنصارى القشتاليين بقيادة الفونسو قرب كنشرة من أعمال طليطلة وقد انهزم النصارى وتكبدوا خسائر كبيرة.

واستمر المرابطون في جهادهم إلى أن توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أول محرم من عام خمسمائة بعد عمر يقارب المائة سنة قضى أكثر من نصفها في الجهاد والإصلاح رحمه الله رحمة واسعة.

وقد خلفه في حكم دولة المرابطين ابنه علي الذي سار على سيرة أبيه في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى.

### معركة أقليمش:

جرت هذه المعركة بعدما تولى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم في أوائل عام واحد وخمسمائة، وقد كتب الأمير علي إلى أخيه تميم باستئناف الجهاد، فتوجه المرابطون إلى مدينة أقليمش الواقعة شرق مدينة طليطلة ففتحوها، وتركها جيش النصارى القشتاليين وتحصنوا بقلعة أقليمش المنيعة، وقد أمد أمير قشتالة الفونسو السادس تلك الحامية بعشرة آلاف فارس، بقيادة ولي عهده ابنه الوحيد شأنجه البالغ إحدى عشرة سنة، مع قائده الكبير البرهانش وقادة آخرين، وكان عدد الجيش القشتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي، وقد جرت هذه الواقعة في السادس عشر من شوال عام واحد وخمسمائة، وقد انتصر فيها المسلمون

انتصاراً رائعاً أعاد ذكرى معركة الزلاقة، وانهزم القشتاليون هزيمة ساحقة قُتل فيها ابن ملكهم شائعاً المذكور<sup>(١)</sup>.

### معركة إفراغة:

بعد انتصار المرابطين في معركة أقليمش جرت لهم أعمال جهادية انتصروا في أكثرها وأصيبوا في بعضها.

ومن أشهر المعارك التي خاضوها معركة إفراغة، في رمضان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وهذه المعركة تعتبر من المعارك المهمة، وكان الجيش الإسلامي مكوناً من المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية، ويعتبر من أعظم قادة المرابطين في ذلك العهد، وكان جيش المسلمين أقل من جيش النصارى الذي يقوده أدفنوش بن رُدْمِير، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة بعد قتال عنيف<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قدم المرابطون للمسلمين صفحات جهادية بيضاء في المغرب والأندلس.

\*\*\*

---

(١) التاريخ الأندلسي/ ٤٢٢ - ٤٢٥ عن البيان المغرب، وتاريخ الأندلس، ونظم الجمان ومصادر أخرى.

(٢) عصر المرابطين الموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان/ ١٢٠ - ١٢٦، التاريخ الأندلسي/ ٤٢٦ - ٤٣٧، عن نظم الجمان، والروض المعطار، والبيان المغرب وغيرها.

مواقفه وعبره في  
جهاد المسلمين  
في المشرق

فتوح بلاد ما وراء النهر  
في  
عهد الأمويين

## ١ - المحاولات الأولى للفتح

كانت الفتوحات الإسلامية قد توقفت في آخر عهد عثمان رضي الله عنه لما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية، واقتصرت الأمور تقريباً على محاولة إخضاع البلاد التي تنتقض على المسلمين، ولم يعد نشاط الفتوح بشكل ظاهر إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك حينما استقرت الأمور الداخلية تماماً.

ولقد أتاح هذا الانقطاع الطويل نسبياً فرصة ترسيخ الإسلام في البلاد التي فتحها المسلمون وتنشئة الأجيال فيها علي هذا الدين حتى أصبح الغزو ينطلق من خراسان وسجستان لغزو بلاد ما وراء النهر وكأنه ينطلق من الكوفة والبصرة في عهد عمر رضي الله عنه.

### جهاد الحكم بن عمرو الغفاري:

حينما تولى زياد بن عبيد على البصرة من قبل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه عام خمسة وأربعين ولّى عدداً من الأمراء على خراسان، ثم ولي الحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه، وفي ذلك يقول البلاذري: ثم ولّى زياد الحكم بن عمرو الغفاري، وكان عفيفاً وله صحبة، وإنما قال -يعني زياد- لحاجبه فيل: ايتني بالحكم، وهو يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي، وكانت أم عبد الله بنت عثمان ابن أبي العاص عنده، فأتاه بالحكم بن عمرو، فلما رآه تبرك به، وقال: رجل صالح من أصحاب رسول الله ﷺ، فولاه خراسان، فمات بها في سنة خمس وخمسين، وكان الحكم أول من صلى من وراء النهر.

قال: وحدثني أبو عبد الرحمن الجعفي قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول لرجل من أهل الصغانيان كان يطلب معنا الحديث: أتدري من فتح بلادك؟ قال: لا، قال: فتحها الحكم بن عمرو الغفاري<sup>(١)</sup>.

---

(١) فتوح البلدان (٥٧٦-٥٧٧).

## رحيل المسلمين إلى خراسان:

ذكر البلاذري أن زياداً ولَّى الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان، وحول معه من أهل المصرين<sup>(١)</sup> زهاء خمسين ألفاً بعيالاتهم، وكان فيهم بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْب الأسلمي أبو عبد الله رضي الله عنه، وبِمِرْوَة توفي أيام يزيد بن معاوية، وكان فيهم أيضاً أبو برزة الأسلمي عبد الله بن نضلة رضي الله عنه، وبها مات، وأسكنهم دون النهر<sup>(٢)</sup>.

وهذا الخبر يعطينا صورة من الجهود الدعوية التي بذلها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون في ذلك العهد، فإن رحيل خمسين ألفاً بأسرهم إلى خراسان سيكون له أثر في دعوة أهل تلك البلاد وبلاد ما وراء النهر، وذلك بالقدوة الحسنة أولاً، ثم بالوعظ والتذكير.

## جهاد عبيد الله بن زياد:

ذكر الإمام الطبري في حوادث سنة أربع وخمسين للهجرة أن معاوية رضي الله عنه ولَّى على خراسان عبيد الله بن زياد، وأنه لما قدم على خراسان قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى في جند ففتح راميش ونصف بيكند - وهما من بخارى - فمن ثم أصاب البخارية - يعني السبي الذين سباهم من بخارى -.

وذكر في رواية أخرى عن عبادة بن محصن قال: ما رأيت أحداً أشد بأساً من عبيد الله بن زياد، لقيناً زحفاً من الترك بخراسان فرأيتهم يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رأيتهم تقطر دماً<sup>(٣)</sup>.

وهذا موقف يُذكر لعبيد الله بن زياد حيث يقاتل هذا القتال الشديد وهو أمير القوم، كما أنه أول قائد مسلم وصل إلى منطقة بخارى.

وذكر البلاذري أن معاوية رضي الله عنه استعمل عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة فقطع النهر في أربعة وعشرين ألفاً، فأتى بيكند،

(١) يعني الكوفة والبصرة.

(٢) فتوح البلدان / ٥٧٧.

(٣) تاريخ الطبري / ٥ - ٢٩٧ - ٢٩٨.

وكانت خاتون<sup>(١)</sup> بمدينة بخارى فأرسلت إلى الترك تستمدهم فجاءها منهم دهم<sup>(٢)</sup> فلقبهم المسلمون فهزموهم، وحووا عسكرهم، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف ألف، ودخل المدينة وفتح راميثين<sup>(٣)</sup> ويكند وبينهما فرسخان، وراميثين تنسب إلى بكند<sup>(٤)</sup>.

ويقول الحافظ ابن كثير في بيان جهاد عبيد الله بن زياد: ولقي الترك هناك فقاتلهم قتالا شديداً وهزمهم هزيمة فظيعة، بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خفيها، فلبست واحدة وتركت أخرى، فأخذها المسلمون وقوموا جواهرها بمائتي ألف درهم، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة<sup>(٥)</sup>.

وفي هذا الخبر إشارة إلى لون من ألوان الترف الذي كان يعيش فيه أمراء الكفار، حيث كانت خفا تلك الأميرة تبلغ قيمتهما أربعمئة ألف درهم، وهذا من مؤشرات زوال السلطة حينما يكون الأمر الذي يهتم به الأمراء ويتنافسون عليه هو مظاهر الحياة الدنيا.

#### جهاد سعيد بن عثمان بن عفان:

ولَّى معاوية رضي الله عنه سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله ورضي عن أبيه خراسان وذلك في عام ستة وخمسين، فعبر النهر، فلما بلغ خاتون أميرة بخارى عبوره النهر حملت إليه الصلح، وأقبل أهل السغد والترك وغيرهم إلى سعيد في مائة وعشرين ألفاً، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد، فلما التقوا انسحب بعض الأعداء من المعركة وانهزم بقيتهم، فلما رأت خاتون ذلك أعطت سعيدا الرهن وأعادت الصلح.

ودخل سعيد مدينة بخارى، ثم غزا مدينة سمرقند، فأعانتها خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها، فقاتل أهلها ثلاثة أيام، ثم لزم العدو المدينة وقد فشت فيهم الجراح، وأتاه رجل فدلَّه على

(١) هي أميرة بخارى في ذلك الزمن.

(٢) أي عدد كبير.

(٣) في فتوح البلدان رامدين وفي تاريخ الطبري راميثين وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم راميثين وذكر أنها قرية ببخارى - ٣ / ١٨.

(٥) البداية والنهاية ٨ / ٦٩.

(٤) فتوح البلدان / ٥٧٧.

قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم، فسار إليهم وحصرهم، فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه طلبوا الصلح فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة متى شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة عشر من أبناء ملوكهم، ثم انصرف، فلما كان بترمز حملت إليه خاتون الصلح، وأقام على ترمز حتى فتحها<sup>(١)</sup>.

### جهاد عبيد الله بن أبي بكر:

ومن أخبار الجهاد في تلك البلاد ما أخرجه الإمام الطبري عن أبي المخارق الراسبي قال: لما ولّى الحجاج المهلب على خراسان وعبيد الله بن أبي بكر على سجستان وذلك في سنة ثمان وسبعين فمكث عبيد الله بن أبي بكر بقية سنته، ثم إنه غزا «رتبيل» يعني أحد ملوك بلاد ما وراء النهر - وقد كان مصالحا، وقد كانت العرب تأخذ منه قبل ذلك خراجا وربما امتنع فلم يفعل، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكر: أن ناجزه بمن معك من المسلمين، فلا ترجع حتى تستبيح أرضه، وتهدم قلاع، وتقتل مقاتلته وتسبي ذريته، فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة، وهو أمير الجماعة، فمضى حتى غل في بلاد رتبيل، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء، وهدم قلاعاً وحصونا وغلب على أرض من أرضهم كثيرة، وأصحاب رتبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا في بلادهم، ودنوا من مدينتهم وكانوا منها ثمانية عشر فرسخاً فأخذوا على المسلمين العقاب<sup>(٢)</sup> والشعاب، وخلّوهم والرساتيق فسقط في أيدي المسلمين، وظنوا أن قد هلكوا، فبعث ابن أبي بكر إلى شريح بن هانئ: إني مصالح القوم على أن أعطيهم مالا ويخلّوا بيني وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فلقية شريح فقال: إنك لا تصالح على شيء إلا حسبته السلطان عليكم في أعطيائكم، قال: لو منعنا العطاء ما حيننا كان أهون علينا من هلاكنا، قال شريح: والله لقد بلغت سنّاً، وقد هلكت لدائي<sup>(٣)</sup>، ما تأتي علي ساعة من ليل أو نهار فأظنها تمضي حتى أموت، وقال: يا أهل الإسلام

(١) فتوح البلدان / ٥٧٨ - ٥٧٩، وانظر البداية والنهاية / ٨ / ٨٢.

(٢) بكسر العين جمع عقبة وهي الطريق الجبلي.

(٣) أي أقراني الذين هم في سني.



تعاونوا علي عدوكم . . إلى أن قال: يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإليّ، فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا فجعل شريح يرتجز يومئذ ويقول:

أصبحت ذا بَثٍّ أقاسي الكبراً      قد عشت بين المشركين أعصرا  
ثُمَّتَ أدركت النبيَّ المنذرا      وبعده صديقَه وعمرا  
ويوم مهران ويوم تُستَرا      والجمع في صِفِّينهم والنهرا  
ويا جُمَيرات مع المشقِّرا      هيهات ما أطول هذا عمرا  
فقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه<sup>(١)</sup>.

وهذه الأبيات تدلنا على أن شريح بن هانئ رضي الله عنه قد عُمِّرَ طويلا فقد أدرك الجاهلية ثم صحب النبي ﷺ وشارك في فتوح فارس الأولى، ثم كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الحروب الداخلية فشهد صفين والنهروان ثم ما زال مجاهدا بعد هذا العمر الطويل الذي يقارب المائة عام أو يزيد حيث إن تلك المعركة التي استشهد فيها كانت عام تسعة وسبعين للهجرة.

وهذا من عجائب ذلك الجيل الفريد حيث اختلط الشوق إلى الجهاد في دمائهم وصار جزءاً من حياتهم، وأصبحت الشهادة في سبيل الله تعالى أسمى أمانيتهم، فأكسبوا بذلك أمتهم الإسلامية عبر الأجيال ذلك الميراث الكبير في الدولة الإسلامية العظيمة.

هذا وإننا في محاولة تقييم ما حدث في مواجهة ذلك الحصار الذي أحكم الأعداء إغلاقه على المسلمين لابد أن نقول إن قائد ذلك الجيش عبدالله بن أبي بكرة قد وقع في شيء من الخطأ حينما توغل في تلك البلاد وهو غير خبير بها ولم يقدِّم أمامه طلائع يكشفون له الطريق ويبلغونه خبر الأعداء.

كما أنه أخطأ حينما لم يعقد مجلس الشورى لبحث سبل الخروج من تلك المعضلة، بل أبرم الصلح مع ملك الترك على دفع مبلغ من المال ليفتح للمسلمين

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٢، البداية والنهاية ٩/ ٢٩.

مخرجاً يخرجون منه ويعودون من حيث أتوا، فكان من نتائج ذلك أن عارض أكبر قادته قائد أهل الكوفة شريح بن هانئ، ثم حصل بسبب ذلك افتراق جيش المسلمين .

إن الذي أقدم عليه عبدالله بن أبي بكرة رأي سديد لأن فيه إنقاذاً للمسلمين من تلك المعضلة التي قد ينتج عنها مهلكة، ولكن الرأي السديد يفقد مفعوله إذا انحلت جماعة الجيش وتفرقت كلمة قادتهم، ولو أن الأمر تمَّ عن طريق الشورى لربما برزت آراء جيدة من أناس لهم وزنهم يُقنعون الطرف الآخر المعارض للصالح، أو لربما انبثق من بين الرأيين رأي وسط يكون فيه حل لتلك المعضلة، فكم واجه المسلمون من معضلات ثم حلوها بالشورى .

أما موقف شريح بن هانئ فإنه يدل على قوة إيمانه وصدق توجهه نحو رضوان الله تعالى والدار الآخرة، ولقد أتبع القول بالعمل فقاتل الأعداء حتى استشهد هو وبعض من معه .

ولكن هل يقال إنه في ذلك الإقدام قد خالف أمر القائد وطاعة القائد واجبة؟

نعم يعتبر ذلك مخالفة، ولكنه فهم أن القائد قد ارتكب مخالفة شرعية في ذلك الانهزام والتسليم للأعداء، والبتَّ بذلك الأمر بدون مشورة أهل الرأي، وإنما الطاعة في المعروف، لكن كان الأولى في هذا الموقف أن يبذل جهده في إنكار ما حدث وأن يحاول تغيير رأي القائد وإقناع الناس ليساعده في ذلك فإن حصل له ما يريد من الرأي وإلا فإن عليه أن يتبع الجماعة، وأن لا يكون سبباً في فرقة المسلمين، لأن ذلك يعزز من موقف الأعداء، وهو لم يكسب في موقفه الشجاع نصراً للمسلمين بشكل ظاهر، وإنما كسب الشهادة هو ومن رزقها معه، وخلَّد لتلك البلاد شرقاً عالياً أن ضمت بين أحضانها جثث أولئك الصالحين الأتقياء، فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم على ما قدموا أحسن الجزاء .

أما الذين نجوا من تلك المعركة فإنهم خرجوا من بلاد رتييل - كما جاء في رواية الطبري المذكورة - فاستقبلهم من خرجوا إليهم من المسلمين بالأطعمة، فإذا أكل أحدهم وشبع مات، فلما رأى ذلك الناس حذروا يطعمونهم، ثم جعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمروا .

## جهاد ابن الأشعث:

جاء في خبر الإمام الطبري المذكور أن الحجاج بن يوسف تأثر من ذلك فكتب إلى عبد الملك يستأذنه في بعث جيش كبير لتأديب الترك وفتح بلادهم فأذن له في ذلك فبعث أربعين ألفاً من أهل الكوفة وأهل البصرة بقيادة عبدالرحمن بن محمد ابن الأشعث، وأنه سار إلى بلاد ما وراء النهر فأوقع بالأعداء واستولى على بعض بلادهم وأموالهم، ثم قفل راجعاً على أمل أن يعود إليهم في العام القادم، وأنه كتب إلى الحجاج بذلك فلامه واتهمه بالضعف وأمره بالعودة لإكمال الفتح، ثم ما كان من فتنة ابن الأشعث حينما ثار على الحجاج وخلع بيعته وجرت بينه وبين الحجاج حروب طويلة كانت نهايتها على ابن الأشعث في دير الجماجم حيث انتصر عليه جيش الشام بقيادة الحجاج<sup>(١)</sup>.

## جهاد المهلب بن أبي صفرة:

إضافة إلى ذلك كانت هناك جهود طيبة في التمهيد لفتح بلاد ما وراء النهر من المهلب بن أبي صفرة الذي كان والياً على خراسان فقد أناب ابنه المغيرة على «مرو» وارتحل بجيشه حتى قطع النهر وقاتل الترك، ثم استقر ببلدة «كس» ورابط فيها سنتين محاولاً تثبيت أقدام المسلمين في أوائل تلك البلاد ليستطيعوا بعد ذلك التوغل داخل تلك الممالك بأمان<sup>(٢)</sup>.

ومن المواقف المذكورة في تلك الحروب ما كان من يزيد بن المهلب وقد أرسله أبوه إلى مرو ليخلفه في إمارتها لما توفي أخوه المغيرة وقد واجه جيشاً من الترك في خمسمائة رجل وكان هو في ستين أو سبعين فطلب الترك منهم شيئاً فأبى يزيد ولكن صاحبه مُجَاعَة العتكي أعطاهم شيئاً من المتاع، فذهبوا ثم غدروا ورجعوا فقال يزيد: أنا كنت أعلم بهم فقاتلوهم، فقاتلوهم واشتد قتالهم وأصاب يزيد عظيماً من عظمائهم وأصيب هو في ساقه، ثم تحاجزوا وطلب الترك منهم شيئاً من المتاع فرفض يزيد، فقال له مُجَاعَة: أذكرك الله قد هلك المغيرة، وقد رأيت ما دخل على المهلب من مصابه، فأنشدك الله أن تصاب اليوم - وكان المهلب قد وجد

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٢٣ - ٣٢٦.

(٢) تاريخ الطبري ٣٢٥ - ٣٢٦.

على فقد ابنه المغيرة وجداً شديداً- فقال يزيد: إن المغيرة لم يعد أجله ولست أعدو أجلي، فرمى لهم مجاعة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا<sup>(١)</sup>.

وهذا دليل على قوة إيمان «يزيد» بقضاء الله وقدره، حيث طلب منه مجاعة تفادي القتال إبقاء على نفسه فرد عليه ببيان حتمية بلوغ الأجل المحدد من العمر وعدم تجاوز ذلك بلحظة واحدة.

وهكذا يصنع الإيمان القوي من المؤمنين رجالاً أبطالا لا يهابون خوض الأهوال ولا ركوب الصعاب.

\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٥١.

## ٢- فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي

أما العهد الذهبي بالنسبة لفتوح بلاد ما وراء النهر فقد بدأ بولاية قتيبة بن مسلم الباهلي، هذا الرجل الشجاع والقيادي الماهر والإداري المحنك، حيث بذل كل طاقته في ذلك الفتح حتى ارتبط به وأصبح بحق فاتح تلك البلاد.

ولقد استفتح إمارته بخطبة جهادية رائعة قال فيها: إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعزَّ دينه، ويذَّبَّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً<sup>(١)</sup> ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عن قتل في سبيل الله أنه حيٌّ مرزوق فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فتتجزوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهويني<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يتبين لنا من خطبة قتيبة أن هدفه الأول في إمارته على خراسان هو دفع الناس إلى الجهاد في سبيل الله تعالى بحزم وقوة، فانطلق في تحقيق هذا الهدف غير متردد ولا وجل، حتى فتح بلاد ما وراء النهر وأقرَّ حكم الإسلام فيها، وأشرف على الصين وأخذ من ملكها الجزية.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٤٢٤.

(١) يعني ذلاً.

ولقد سارع بعض الأمراء القرييين منه إلى عقد الصلح معه لسبق علمهم بقوته وحزمه، وأنه لن يتركهم حتى يوطئ الخيل بلادهم، فأطلقوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين وبادروا إلى الصلح.

وقد أخرج ابن جرير في ذلك عن محمد بن المثنى أن «نيزك طرخان» -يعني ملك طرخان- كان في يديه أسراء من المسلمين، وكتب إليه قتيبة حين صالح ملك شومان فيمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم، ويهدده في كتابه، فخافه نيزك، فأطلق الأسرى، وبعث بهم إلى قتيبة فوجه إليه قتيبة سُلَيْمًا الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوهُ إلى الصلح وإلى أن يؤمنه، وكتب إليه كتابا يحلف فيه بالله: لئن لم يَقدِّم عليه ليغزونه، ثم ليطلبه حيث كان، لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك، فقدم سليم على نيزك بكتاب قتيبة -وكان يستنصحه- فقال له: يا سُلَيْم ما أظن عند صاحبك خيرا، كتب إلي كتابا لا يُكتب إلى مثلي، قال له سليم: يا أبا الهَيَّاج إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر، فقدم نيزك مع سليم على قتيبة فصالحه أهل باذغيس في سنة سبع وثمانين على أن لا يدخل باذغيس<sup>(١)</sup>.

ومن هذا النص ندرك بعض مظاهر عظمة قتيبة القيادية فقد حصل في هذا الكتاب التهديدي القوي على فك أسرى المسلمين كما أنه تفادى بذلك إقحام المسلمين في معارك جانبية تشغلهم عن الهدف الأهم وهو فتح بلاد ما وراء النهر.

### فتح مدينة بيكند:

أخرج الإمام الطبري عن عدد من الرواة: أن قتيبة لما صالح نيزك أقام إلى وقت الغزو، ثم غزا في تلك السنة -سنة سبع وثمانين- بيكند، فسار من «مرو»<sup>(٢)</sup> وأتى «مرو الروذ» ثم أتى «آمل»، ثم مضى إلى «زَمَّ» فقطع النهر، وسار إلى بيكند -وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر يقال لها مدينة التجار على رأس المفازة من بخارى- فلما نزل بعَقَوْتَهُمْ<sup>(٣)</sup> استنصروا الصُّغْد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٤٢٨.

(٢) يعني مرو الشاهجان

(٣) أي بساحتهم.

جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول، ولم يَجِرْ له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج، فأشفق الحجاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار وهم يقتتلون كل يوم.

قال: وكان لقتيبة عين يقال له تَنْذُرٌ من العجم فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يفتأ عنهم قتيبة<sup>(١)</sup>، فأتاه فقال: أخلني: فنهض الناس واحتبس قتيبة ضرار ابن حصين الضَّبِّي، فقال تنذر: هذا عامل يقدم عليك وقد عُزِلَ الحجاج. فلو انصرفت بالناس إلى مرو، فدعا قتيبة «سياه» مولاه فقال: اضرب عنق تنذر، فقتله، ثم قال لضرار: لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به، فاملك لسانك، فإن انتشار هذا الحديث يفتُّ في أعضاد الناس، ثم أذن للناس.

قال: فدخلوا فراعهم قتل تنذر، فوجموا وأطرقوا، فقال: قتيبة: ما يروحكم من قتل عبد أحانه الله؟<sup>(٢)</sup> قالوا: إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين، قال: بل كان غاشاً فأحانه الله بذنبه فقد مضى لسبيله فاغدوا على قتال عدوكم، والقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به.

وهكذا يكون الحزم وسداد الرأي، والتعلق الكريم بالأهداف العالية، إنه حينما أثار ذلك المولى الخائن أمر عزل الحجاج وبعث والٍ آخر على خراسان، لم يدُر في خلد قتيبة أمر مستقبله ومستقبل قبيلته وأعوانه، وإنما كان الذي يهيمن عليه هو مستقبله مع أعدائه، فقد نصب أمامه هدفاً عالياً يسعى لتحقيقه، وهو أن يُظهر عزة الإسلام في الأرض، وأن يُخضع ممالك الطغيان لهذا الدين. وإذا كان الأمر كذلك فليبق أميراً أو ليكن الأمير غيره. كما أن في موقفه هذا تغليب جانب الحذر من مكائد الأعداء وعدم الخفة والإسراع في التأثر بأراجيفهم التي يقصدون منها الفتَّ في أعضاد المسلمين وتوهين أمرهم.

وفيما قام به من المبادرة إلى قتل ذلك الرجل، وأخذ العهد على جليسه حزم وسداد في الرأي لأن فيه قطعاً لموارد الفتنة قبل استفحالها.

(١) يعني أن يصرفه عن قتالهم.

(٢) أي أهلكه.

وهكذا تحطمت مكيدة الأعداء أمام حزم هذا القائد الكبير ورسوخ يقينه .

قال : «فغدا الناس متأهبين وأخذوا مصافهم ومشى قتيبة فحضر أهل الرايات، فكانت بين الناس مشاورة<sup>(١)</sup> ثم تراحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم منح الله المسلمين أكتافهم، فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاؤوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفعلة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة» .

وهكذا كان جزاء الاحتساب والصبر وحسن الظن بالله تعالى والثقة بنصره، فقد كان الأعداء في بلادهم، ويأتيهم المدد متى أرادوا من الطعام والسلاح والمقاتلين، ولكن المسلمين محصورون لا منعة لهم بعد الله جل وعلا إلا بثقتهم بأنفسهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله تعالى .

قال : «وارتحل عنهم يريد الرجوع: فلما سار مرحلة أو اثنتين، وكان منهم على خمسة فراسخ نقضوا وكفروا، فقتلوا العامل وأصحابه، وجَدَعُوا أَنْفَهُمْ وَأَذَانَهُمْ، وبلغ قتيبة فرجع إليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهراً، ثم وضع الفعلة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتتهدم، فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة، فطلبوا الصلح فأبى وقاتلهم فظفر بهم عنوة، فقتل من كان فيها من المقاتلة» .

وهكذا كان قتيبة مصراً على الفتح، حازماً في عدم قبول الصلح، وذلك لأنهم نقضوا العهد، وقتلوا المسلمين ومثلوا بهم، فما جزاؤهم إلا القتل وتطهير الأرض منهم .

وبهذا انتهى قتيبة من أول معركة شرسة يخوضها مع أولئك الأعداء، وأصبح لها ما بعدها، وعرف فيه الترك رجلاً قوياً لا يهادن الباطل ولا يهاب الأهوال .

قال : «وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي، فقال له سُلِّيمُ الناصح: ما تبذل؟ قال:

---

(١) يعني قتالا في الرماح .



خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف، فقال قتيبة: ما ترون؟ قالوا: نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا! قال: لا والله لا تروّع بك مسلمة أبدا، وأمر به فقتل<sup>(١)</sup>.

وهكذا أصر قتيبة على قتل ذلك الرجل الذي كان يخطط للأعداء ويحرضهم على المسلمين، وكان قتيبة موفقًا حينما لم يقبل منه الفداء مع ضخامته لأنه يقاتل المسلمين بفكره وتدييره ولن يكتفي بهذا الموقف الخائن بل سيستمر في تدبير المؤامرات ضد المسلمين، فالحكمة كل الحكمة في قطع دابره.

وحينما لاحظ بعض مستشاري قتيبة ضخامة المال الذي يريد أن يفدي نفسه به وهونوا عليه ما يمكن أن يقوم به من مكيده لاحظ هو مستقبل وضع المسلمين في ذلك البلد، فرأى أن ذلك المبلغ وأضعافه لا يعادل ترويع امرأة من المسلمين، بما يترتب على مكائده من أذى يلحق بالمرابطين في تلك البلاد، وهذا يدلنا على الأهداف السامية التي كانت وراء إقدام قتيبة على فتح تلك البلاد.

هذا وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثمان وثمانين أن قتيبة غزا «تومشكث وراميشنة» من قرى بخارى وأن أهلها صالحوه فانصرف عنهم، وجعل على ساقه الجيش أخاه عبدالرحمن في طائفة من الجيش وأن الترك اجتمعوا مع الصغد وأهل فرغانة بقيادة ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف، وأنهم لحقوا بعبدالرحمن فقاتلهم بجيشه وثبت لهم وأرسل إلى قتيبة فرجع وقد كادوا يستأصلون المسلمين فثبتهم الله وهزموا أعداءهم.

وهذا موقف عظيم يذكر لعبدالرحمن بن مسلم الذي كان غالبا في المقدمة عند الغزو وفي الساقه عند القفول، وفي هذا الموقف دلالة على عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة حيث ثبت جزء من جيش قتيبة لمائتي ألف ولم يفروا<sup>(٢)</sup>.

### فتح مدينة بخارى:

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم الباهلي غزا بخاري عام تسعة وثمانين وأنه فتح قرية دونها تسمى «راميشنة» وأنه رجع من غزوته تلك، وأن الحجاج كتب إليه

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٩ - ٤٣١.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٤٣٦، تاريخ خليفة/ ٣٠٠.

يأمره بالعودة إلى غزو ملك بخاري، وأن قتيبة رجع فلقية الصغد وأهل كشّ ونسّف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان، فلقوه بجمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين، ثم أعطاه الله الظفر عليهم فقال نهار بن توسعة:

وباتت لهم منّا بخرقان ليلة وليتنا كانت بخرقان أطولا  
ثم ذكر أن قتيبة لم يستطع فتح بخارى ذلك العام فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج: أن صورّها لي، فبعث إليه بصورتها، فكتب إليه الحجاج: أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وأنها من مكان كذا وكذا.

قال وقيل: كتب الحجاج: أن كس بكشّ وانسّف نسف، وردّ وردان، وإياك والتحويل، ودعني من بنيات الطريق.

ومن كتابات الحجاج هذه وما قبلها نأخذ فكرة عن اهتمامه البالغ باستمرار الغزو والفتح، وقد كان ذلك من أسباب قيام ابن الأشعث بالثورة عليه، حيث اكتفى ابن الأشعث بغزو أدنى بلاد ما وراء النهر، فلامه الحجاج واتهمه بالضعف.

ثم استمر الحجاج في حث قتيبة على مواصلة الغزو وأمره أن لا يرجع حتى يفتح بخارى، ولما استعصى ذلك على قتيبة أمره الحجاج ببعث صورة لتلك المدينة، فنظر باجتهاده إلى موطن الضعف فيها فأشار على قتيبة بالمكان الذي يدخلها منه، ثم أمر قتيبة بأن يدمّر المدن التي تقف عقبة في طريقه، وذكر منها مدينة نسف، وأمره أن يتجه رأساً إلى وردان ملك بخارى، وأن يجعلها بعد الفتح معقلاً له ينطلق منها، وعبر بقوله «ارجع إلى مراغتك» عن الأمر بلزوم فتح بخارى تشبيهاً لها بمراغة الدابة التي تتقلب فيها.

وأمره أن يجتنب سياسة التحويل حول الهدف ابتغاء اليسر والسهولة، وأن يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف المقصود دون تعريض على الأهداف الجانبية التي تحقق بعض الغنائم والنصر المؤقت.

وهذا يدلنا على أن الحجاج باهتمامه ومتابعته المتلاحقة للقادة كان عاملاً مهماً في فتح بلاد ما وراء النهر، وتلك حسنة توضع في مقابل سيئاته المشهورة.

وفي فتح بخارى أخرج الإمام الطبري بإسناده عن إدريس بن حنظلة «أن كتاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن «وردان خذاه» ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه، ويُعرفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازيا فأرسل وردان خذاه إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرونهم، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليها ليقاتلوهم، فقالت الأزد: اجعلونا على حدة، وخلّوا بيننا وبين قتالهم، فقال قتيبة: تقدموا، فتقدموا يقاتلونهم، وقتيبة جالس عليه رداء أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعاً ملياً، ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة، وجازوه، حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكّين، فكروا راجعين، وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى موقفهم، فوقف الترك على نشر<sup>(١)</sup>.

هذا وإن في إقدام الأزد على مواجهة ذلك الجيش الغازي موقفاً يذكر لهم، فإن التنافس في مواجهة الأخطار فضيلة وشرف، وفي تهقيرهم أمام الترك دلالة على قوة بأس الترك ومهارتهم في القتال، وهذا يدلنا على سبب مهم في تأخر المسلمين في فتح بلادهم وتردد بعض القادة في التوغل في أرضهم، حيث يتمتع الترك ومن حولهم من القبائل بقوة قتالية عالية وصبر على الجلال، وإن من أهم أسباب ذلك كون حياتهم تميل إلى شيء من الخشونة، فلم تفسدهم الحضارة المادية كما هو الحال في دولة فارس.

هذا وإن في ثبات قتيبة في مركز القيادة مع هذا التهقير دلالة على رباطة جأشه، ومقدرته الفائقة على التفكير وحسن التصرف في مواجهة المواقف الصعبة المفاجئة، فقد أوعز حالاً إلى مجنبي جيش المسلمين بالهجوم على الأتراك فأطبقوا عليهم وهزموهم، وألجئوهم إلى مرتفع من الأرض يُحصنه نهر بينهم وبين المسلمين.

قال: «فقال قتيبة: من يزيلهم لنا عن هذا الموضع؟ فلم يُقدم عليهم أحد، والأحياء كلها وقوف، فمشى قتيبة إلى بني تميم، فقال: يا بني تميم إنكم أنتم بمنزلة

---

(١) يعني مرتفع من الأرض.

الخطمية، فيومٌ كأيامكم، أباي لكم الفداء، قال: فأخذ وكيع اللواء بيده وقال: يا بني تميم أنسلمونني اليوم؟ قالوا: لا يا أبا مطرف -وهريم بن أبي طلحة المجاشعي على خيل بني تميم، ووکیع رأسهم -وأناس وقوف، فأحجموا جميعاً، فقال وكيع: يا هريم قدّم، ودفع إليه الراية، وقال: قدم خيلك، فتقدم هريم، ودب وكيع في الرجال، فانتهى هريم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف، فقال له وكيع: أقحم يا هريم، قال: فنظر هريم إلى وكيع نظر الجمل الصئول، وقال: أنا أقحم خيلي هذا النهر، فإن انكشفت كان هلاكها! والله إنك لأحمق، قال: يابن اللّخناء ألا أراك ترد أمري! وحذفه بعمود كان معه، فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال: ما بعد هذا أشد من هذا، وعبر هريم الخيل، وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال لأصحابه: من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر، ومن لا فليثبت مكانه، فما عبر معه إلا ثمانمائة راجل، فذبّ فيهم، حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا حتى دنا من العدو، فجعل الخيل مجنبتين، وقال لهريم: إني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيّل، وقال للناس: شدّوا، فحملوا فما اثنوا حتى خالطوهم وحمل هريم خيله عليهم، فطاعنوه بالرماح، فما كفّوا عنهم حتى حدّروهم عن موقفهم، ونادى قتيبة: أما ترون العدو منهزمين! فما عبر أحد ذلك النهر حتى ولّى العدو منهزمين، فاتبعهم الناس.

وهكذا تبين لنا موقف بني تميم الشجاع حيث أحجمت كل القبائل عن مواجهة أولئك الذين تحصنوا بذلك المرتفع، فلم يقدم على هذا الموقف الهائل إلا وكيع بن أبي أسود التميمي وقبيلته، ولقد أحسن صنعاً حينما عرض قومه على الموت، فاختر منهم من تطوع مقبلاً على الشهادة، لأن مثل هذا الوطن المهلك لا يقدم عليه من له رغبة في الحياة، فاستطاع هؤلاء الأبطال -على قلتهم- أن يزيلوا الأعداء من موقعهم ذلك، لأن كل واحد منهم يعدل عشرات من الجنود العاديين.

وقال قتيبة: من جاء برأس فله مائة، فأتى برؤوس كثير من القتلى.

وهذا يعتبر دافعاً جيداً للجنود ليبذلوا كل طاقتهم في ملاحقة العدو.

وجرح يومئذ ملك الترك خاقان وابنه، وتم فتح مدينة بخارى<sup>(١)</sup>.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٤٢ - ٤٤٤، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٣.

## فتح مدينة سمرقند<sup>(١)</sup>:

أخرج الإمام الطبري في ذلك عن شيوخه: أن قتيبة لما قبض صلح خوارزم قام إليه المُجَشَّر بن مزاحم السلمي فقال: إن لي حاجة فأخْلني، فأخلاه، فقال: إن أردت الصُّعد<sup>(٢)</sup> يوماً من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام، قال: أشار بهذا عليك أحد؟ قال: لا، قال: فأعلمته أحد؟ قال: لا، قال: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك، فأقام يومه ذلك، فلما أصبح من الغد دعا عبدالرحمن -يعني أخاه- فقال سر في الفرسان والمُرامية وقدّم الأثقال إلى مرو، فوجَّه الأثقال إلى مرو، ومضى عبدالرحمن يتبع الأثقال يريد مرو يومه كله، فلما أمسى كتب إليه: إذا أصبحت فوجَّه الأثقال إلى مرو، وسر في الفرسان والمُرامية نحو السغد، وأكتم الأخبار فإنني في الأثر.

قال: فلما أتى عبدالرحمن الخبرُ أمر أصحاب الأثقال أن يمشوا إلى مرو، وسار حيث أمره، وخطب قتيبة الناس فقال: إن الله تعالى قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السغد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا منعونا ما كنا صالحنا عليه «طرخون» وصنعوا به ما بلغكم وقال الله تعالى ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١].

قال: فأتى السغد وقد سبقه إليها عبدالرحمن بن مسلم في عشرين ألفاً، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبخاري بعد ثلاثة أو أربعة من نزول عبدالرحمن بهم، فقال: إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

فحصروهم شهراً، فقاتلوا مراراً في حصارهم من وجه واحد<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان قتيبة حازماً حينما اغتنم تلك الفرصة وقبِل مشورة المُجَشَّر السلمي، وكان من مظاهر حزمه احتياطه البالغ في كتمان خبر مسيره إلى أهل سمرقند حتى يصل إليهم قبل أن يستمدوا الملوك المجاورين لهم، فهدد صاحب المشورة إن هو

(١) سمرقند من أهم مدن ما وراء النهر وتعتبر الآن من المدن المهمة في أوزبكستان.

(٢) الصُّعد اسم لقبيلة كبيرة من قبائل ما وراء النهر.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢، باختصار.

أعلنها، ووجه أخاه عبدالرحمن وأمره أن يكتم الخبر ثم خطب الناس وأعلمهم بمسيره ومسوغات ذلك بعد أن وثق من عدم شيوع الخبر قبل وصول أخيه عبدالرحمن إلى ساحة القوم.

وقد بين في خطبته أن القوم قد نقضوا العهد فزال عهدهم واستحقوا العقاب وأصبح تطهير البلاد منهم أمراً لازماً.

وفي رواية أخرى للطبري عن نهشل بن يزيد عن عمه -وكان قد أدرك ذلك كله- قال: لما رأى غوزك -يعني ملك سمرقند- إلحاح قتيبة عليهم كتب إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة<sup>(١)</sup> وخاقان: إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب، فإن وُصل إلينا كنتم أضعف وأذل، فمهما كان عندكم من قوة فابذلوها، فنظروا في أمرهم فقالوا: إنما نؤتى من سفلتنا، وإنهم لا يجدون كوجدنا، ونحن معشر الملوك المعنيون بهذا الأمر، فانتخبوا أبناء الملوك، وأهل النجدة من فتيان ملوككم، فليخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة فليبيت فإنه مشغول بحصار الصغد، ففعلوا وولّوا عليهم ابنًا لخاقان، وساروا وقد أجمعوا أن يبيتوا العسكر.

وبلغ قتيبة، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس، فكان شعبة بن ظهير وزهير بن حيان فيمن انتخب فكانوا أربعمائة، فقال لهم: إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم وتأيبده إياكم في مزاحفتكم ومكاثرتكم، كل ذلك يُفلجكم الله عليهم فأجمعوا على أن يحتالوا غرتكم وبياتكم، واختاروا دهاقينهم وملوكهم وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأبْلُوا الله بلاءً حسناً تستوجبون به الثواب، مع الذب عن أحسابكم.

قال: ووضع قتيبة عيوناً على العدو حتى إذا قربوا منه قدر ما يصلون إلى عسكره من الليل، أدخل الذين انتخبهم، فكلمهم وحضهم، واستعمل عليهم صالح بن مسلم، فخرجوا من العسكر عند المغرب، فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الذين وُصفوا لهم، ففرّق صالح خيله، وأكمن كميناً عن يمينه، وكميناً عن يساره، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه جاء العدو

(١) الشاش وفرغانة من مناطق دولة أوزبكستان اليوم، وتعتبر طاشكند العاصمة من منطقة الشاش.

باجتماع وإسراع وصمت، وصالحٌ واقفٌ في خيله، فلما رأوه شدوا عليه، حتى إذا اختلفت الرماح شدَّ الكمينان عن يمين وعن شمال، فلم نسمع إلا الاعتزاء، فلم نَرَقَوْمًا كانوا أشد منهم.

قال: وقال رجل من البراجم: حدثني زهير أو شعبة قال: إنا لنختلف عليهم بالطعن والضرب إذ تبينت تحت الليل قتيبة، وقد ضربت ضربة أعجبني، وأنا أنظر إلى قتيبة فقلت: كيف ترى بأبي أنت وأمي، فقال: اسكت دَقَّ الله فاك، قال: فقتلناهم فلم يُفَلتْ منهم إلا الشريد، وأقمنا نحوي الأسلاب ونحتزُّ الرؤوس حتى أصبحنا، ثم أقبلنا إلى العسكر، فلم أر جماعة قط جاؤوا بمثل ما جئنا به، مامنا رجل إلا معلق رأساً معروفاً باسمه، وأسيرٌ في وثاقه.

قال: وجئنا قتيبة بالرؤوس فقال: جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرا، وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باح لي بشيء، وقرن بي في الصلة والإكرام حيَّان العدوي وحليسا الشيباني، فظننت أنه رأى منهما مثل الذي رأي مني، وكسر ذلك أهل السغد، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية فأبي وقال: أنا نائر بدم طرخون كان مولاي وكان من أهل ذمتي<sup>(١)</sup>.

وفي بيان صفة جيش الأعداء المنتخب جاء في إحدى روايات الطبري «فسألناهم<sup>(٢)</sup> عَمَّن قَتَلْنَا، فقالوا: ما قَتَلْتُمْ إلا ابن ملك أو عظيماً من العظماء أو بطلا من الأبطال، ولقد قتلتم رجالا إن كان الرجل ليعدل بمائة رجل»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا جاء المدد لأهل سمرقند الذي من أجله كتم قتيبة خبر إقدامه عليهم ولكن مجيئه كان بعد أن أحكم حصار المدينة، ولقد كان مجيء ذلك الجيش المنتخب من أبناء الملوك والأبطال خيراً كثيراً على المسلمين في مستقبل جهادهم، حيث قتلوا خيرة فرسان فرغانة والشاش، وأسروا بعضهم، فسَهَّلَ عليهم ذلك غزو بلادهم.

---

(١) طرخون حاكمهم الأول الذي عقد الصلح مع قتيبة وقد خلعه وولوا نيزك، يعني أن أهل الذمة الذين يدفعون الجزية يجب على المسلمين حمايتهم - تاريخ الطبري ٦ / ٤٧٦-٤٧٨.

(٢) يعني الأسرى. (٣) تاريخ الطبري ٦ / ٤٧٤.

وهكذا أرادها ملوك الشاش وفرغانة مكيدة للمسلمين ليأخذوهم على غرة، وانتخبوا أفضل ما عندهم من المقاتلين، ولكن المسلمين قد تفوقوا عليهم كثيراً في الرصد الحربي، فعلموا عن تحركهم، فانتخب قتيبة جيشاً من أهل النجدة بقيادة أخيه صالح بن مسلم، ثم بث عيونه فعلم منهم الليلة التي سيصلون فيها.

ورجعت مكيدة الأعداء عليهم، وكان صالح موفقاً حينما وضع لهم الكمين، فلم يفجأ جيش الأعداد إلا المقاتلون من المسلمين على قارعة الطريق، وكان خروج الكمين عند التحام المعركة مفاجأة أخرى مذهلة، بددت طاقاتهم، فقتل أكثرهم وأسر بعضهم.

وهكذا يظهر المسلمون في كل حروبهم في القرن الأول أعظم تفوقاً في التخطيط الحربي، وفي المواجهات الميدانية.

ولقد كان غير خاف على قتيبة أن ذلك الجيش المنتخب سيتقدمه رصد وعيون، خاصة وأن فيهم أبناء ملوكهم، فلم يُخرج الجيش الإسلامي المنتخب لقتالهم إلا ليلة وصولهم، حيث أخرجهم مع المغرب، ومن المرجح أن عيون الأعداء قد خَبَروا الطريق إلى جيش المسلمين في النهار فأفادوا جيش الأعداء القادم بعدم استعداد المسلمين للقائهم، وإنما قصد قتيبة أن يأخذهم ليلاً على غرة كما أرادوا هم ذلك فنجح في توريطهم، وكان عامل المفاجأة له أكبر الأثر في هزيمتهم.

وما يشاد به حضور قتيبة تلك الليلة ومراقبته سير المعركة، فلم يعتمد على القائد المكلف وبيّت هو بأمان وطمأنينة وذلك لاحتمال أن يتغلب جيش الأعداء بعض الشيء وينجحوا في اختراق جيش المسلمين المعدّ لهم، وهنا لابد أنه كان في تخطيط قتيبة أن يتدب لهم من يقاومهم قبل وصولهم إلى الجيش المرابط حول المدينة، فلما رأى ما قام به جيشه المنتخب من اصطلام جيش العدو وإبادته حمد الله تعالى على نجاح الخطة، هذا وإن شعور الجيش بحضور قائده الأعلى ومراقبته يعطيهم دفعة قوية نحو بذل أقصى ما عندهم من قوة، خاصة وأنه لا يُفترض في كل الأحوال توفر من لا يخلطون إرادة الآخرة بشيء من جاه الدنيا.



ومما يشاد به أيضاً خطبة قتيبة بن مسلم التي ربط بها ذلك الجيش بالله تعالى، فنبههم إلى أن ما قاموا به من انتصارات إنما هي بتوفيق الله جلا وعلا، وأن الأعداء قد هالهم واقع تلك الانتصارات، فاختاروا أفضلهم في الحرب لالتماس غرة المسلمين، ثم ثناؤه على جيشه المنتخب ببيان أنهم عظماء المسلمين وفرسانهم، وهذا يعطيهم دفعة قوية نحو البذل والتضحية، ثم الإشارة المهمة إلى ما يرجح كفة المسلمين إن تعادلوهم مع أعدائهم في الكفاءة القتالية، وهو أن الله تعالى فضل المسلمين بدينه، فكل الفريقين منتخَبون من أهل الكفاءة الحربية ولكن الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها المسلمون لا يعادلها أي قوة معنوية أخرى ولا يقاربها.

ثم إشارته المهمة إلى الهدف الأعلى من قتالهم، وهو أن يبلغوا رضوان الله تعالى عنهم، إلى جانب ما يشتركون به مع غيرهم من كونهم يدافعون عن أحسابهم، وهذا دليل على قوة ارتباط قتيبة بالله تعالى، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في انتصاراته المتوالية.

ونعود الآن إلى خبر فتح قتيبة مدينة سمرقند.

قال الإمام الطبري في سياق روايته المذكورة عن شيوخه: «وَصَعَ قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها، وهو في ذلك يقاتلهم لا يُقْلَع عنهم، وناصحه من معه من أهل بخارى وأهل خوارزم، فقاتلوا قتالا شديداً وبذلوا أنفسهم».

وهكذا كان المسلمون متفوقين حتى في العتاد الحربي، فليس للمدن المحصنة من سلاح آنذاك إلا المجانيق ونحوها من الآلات الثقيلة، والحصون وحدها هي التي كانت تقي الأعداء من المسلمين في ذلك الوقت، أما المسلمون فليس لهم حصون إلا ظهور خيولهم، وهذه لا يمكن أن يحد من حركتها أي سلاح يخترعه الأعداء، ولذلك لم يتمكن أعداؤهم في كل ميدان من استعمال الأسلحة الثقيلة ضدهم، وليس بإمكانهم أن يجاروهم في جولاتهم على ظهور الخيل لتفوق المسلمين الباهر في هذا المجال.

ثم ذكر في الرواية المذكورة أن قتيبة اختار الشجعان وأهل الغناء في الحرب فجمع لهم جيد السلاح وزحف بهم فرسانا ورجالا نحو السور، وثلم ثلثة بالمنجنيق، وقال قتيبة: ألحوا عليهم حتى تعبروا الثلثة، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلثة المدينة، ورماهم الصغد بالنشاب فوضعوا ترستهم، فكان الرجل يضع ترسه على عينه ثم يحمل، حتى صاروا على الثلثة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم حتى نصلحك غدا.

ثم ذكر صلحه معهم، وأنه دخل المدينة وبُني له فيها مسجد وصلي فيه، وأنه أُتي بالأصنام فسلبت<sup>(١)</sup>، ثم وُضعت بين يديه، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت، فأمر بتحريقها، فقالت الأعاجم: إن فيها أصناماً من حرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقتها بيدي، فجاء «غوزك»<sup>(٢)</sup> فجثا بين يديه وقال: أيها الأمير إن شكرك علي واجب، لا تعرض لهذه الأصنام، فدعا قتيبة بالنار، وأخذ شعلة بيده، وخرج فكبر ثم أشعلها، وأشعل الناس فاضطربت فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كان قتيبة صارماً في أمر الله لا يهادن على الباطل، فلا بد من إزالة معالم الوثنية حتى تتحرر العقول من تعظيمها، وهذا هو أهم أهداف الغزو الإسلامي، لأن المقصود به تحرير العقول من هيمنة خرافات الوثنية، وحينما يتم حرق تلك الأصنام ثم لا يحصل بحرقها ضرر على المسلمين يتبين لعامة الناس الذين ضللهم كبرائهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع، فتتحرر عقولهم من سيطرتها وسيطرة من يروجون لها، لتكون بعد ذلك هذه العقول أهلاً للتحلي بدين التوحيد الذي لا يفرض سلطة دينية بين الله تعالى وعباده.

ولقد أحسن قتيبة صنعا حين تولى حرقها بنفسه لأن ذلك أبلغ في التنفير منها وتحرير العقول من سيطرتها.

(١) يعني أزيل ما عليها من حلية الذهب وغيره.

(٢) يعني ملك سمرقند.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢، البداية ٩/ ٨٥، الكامل ٤/ ١٢٦.

## فتح إقليمي الشاش وفرغانة:

وقد ذكر الإمام الطبري خبر غزو قتيبة بلاد الشاش وفرغانة سنة أربع وتسعين وأنه لما قطع النهر فرض على أهل بخارى وكشّ ونسّف وخوّارزم عشرين ألف مقاتل، قال: فساروا معه إلى السغد، فوجّهوا إلى الشاش، وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى «خجندة» فجمع له أهلها فلقوه فاقتتلوا مراراً كل ذلك يكون الظفر للمسلمين.

قال: ففرع الناس يوماً فركبوا خيولهم، فأوفي رجل على نشز، فقال: تالله ما رأيت كالיום غرة، لو كان هيج [يعني قتال] اليوم ونحن على ما أرى من الانتشار لكانت الفضيحة، فقال له رجل إلى جنبه: كلا، نحن كما قال عوف بن الحرّج:

نُؤمُّ البلاد لحب اللقا      ولا تتقي طائرا حيث طارا

سنيحاً ولا جاريّاً بارحاً      على كل حال نلاقي اليسارا

وفي هذا دلالة على قوة معنوية أولئك الجنود حيث يقول هذا الذي تمثل بهذين البيتين: إنا على استعداد تام لأي عدو يلقانا لأن المبدأ الذي نجتمع عليه هو حب لقاء العدو.

قال: ثم أتى قتيبة كاشان مدينة فرغانة، وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها، وانصرف قتيبة إلى مرو<sup>(١)</sup>.

وهكذا ذكر الإمام الطبري أخبار فتح الإقليمين المذكورين باقتضاب، ولكن يفهم من ذلك أن النهاية كانت سيادة حكم المسلمين على تلك البلاد.

وقد تقدم معنا أن أهل فرغانة والشاش قد قدّموا لنصرة أهل سمرقند خيار جيشهم من أبناء الملوك ووجوه الناس والأبطال، وأن المسلمين كمنوا لهم في الطريق ليلاً فأبادوا أكثرهم وأسروا بعضهم، فكانت هذه الفاجعة كافية لإثارة الرعب في قلوب أهل تلك البلاد فأصبحت مقاومتهم بعد ذلك ضعيفة.

ثم ذكر الإمام الطبري فتح قتيبة بلاد «كاشغر» وهي تقع حالياً في تركستان الشرقية التابعة للصين، وذلك في سنة ست وتسعين.

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

وذكر أن قتيبة أرسل إلى شعب عصام من يُسهّل له الطريق إلى كاشغر، ثم ذكر أنه بعث كثير بن فلان إليها فسبى منها سبباً، فختّم أعناقهم مما أفاء الله تعالى على قتيبة<sup>(١)</sup>.

وهكذا أيضاً ذكر فتح هذا الإقليم باختصار، وقد تجاوزه قتيبة متجهاً إلى الصين كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وبهذا يكون قتيبة قد أتم فتح أقاليم بلاد ما وراء النهر وأظلمها حكم الإسلام قبل نهاية القرن الأول، واستمر دخول أهلها في الإسلام، حتى أصبحت بعد ذلك تكون جزءاً مهماً من بلاد المسلمين، وأنجبت علماء أفاضل كان لهم دور بارز في نشر الإسلام وترسيخ دعائمه وخدمة العلوم الشرعية، ويأتي على رأس قائمة هؤلاء العلماء الإمام أبو عبد الله البخاري، ثم يأتي الإمام الترمذي والنسفي والبيهقي، وغيرهم من العلماء الكبار.

وقد أصبحت هذه البلاد تُسمى فيما بعد تركستان الغربية وتركستان الشرقية، وقد وقعت الأولى تحت الاحتلال الروسي عقوداً من الزمن، وقسموها إلى خمس دول، وهي أوزبكستان وطاجيكستان، وتركمانستان وقرقيزيا، وكازخستان.

أما تركستان الشرقية فإنها لا تزال تحت الاحتلال الصيني. وما تزال تركستان بشطريها تحتفظ بإسلامها مع ما طرأ عليها من بُعد وانحراف.

### خضوع مملكة الصين للمسلمين:

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم توغل شرقاً حتى قُرب من بلاد الصين وذلك في سنة ست وتسعين.

قال: فكتب إليه ملك الصين: أن أبعث إلينا رجلاً من أشرف من معكم يخبرنا عنكم، ونسأله عن دينكم، فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً - وقال بعضهم عشرة - من أفناء القبائل، لهم جمال وألسن وشعور وبأس، بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه، فكلّمهم قتيبة وفاطنهم<sup>(٢)</sup> فرأى عقولا

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٠٠.

(٢) أي اختبر فطنتهم.

وجمالاً، وأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد، من الخز والوشي واللين من البياض والرقيق -من الثياب- والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم، ودواب يركبونها.

قال: وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مفوهاً بسيط اللسان، فقال: يا هبيرة كيف أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب، وقل ما شئت أقله وأخذ به<sup>(١)</sup>، قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لا تضعوا العمام عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أنني قد حلفت أن لا أنصرف حتى أطا بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم.

قال: فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضا تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا، فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: رأينا قوماً ما هم إلا نساء.

قال: فلما كان الغد أرسل إليهم، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف، وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا، فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك.

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم، فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمعاfer وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح، وتنكبوا القسي، وركبوا خيولهم، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلة فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين، فقبل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا، لما دخل قلوبهم من خوفهم.

قال: فانصرفوا فركبوا خيولهم، واختلجوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم، كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط.

---

(١) يعني قد كفيت المنطق الذي تقتضيه المواقف المختلفة، وقل ما تريد من شؤون الحرب والسياسة أبلغه عنك.

فلما أمسى أرسل إليهم الملك: أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم رجلاً، فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي، وإنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتمكم، قال: سل، قال: لم صنعتم ما صنعتم من الزِّي في اليوم الأول والثاني والثالث؟ قال: أما زينُّ الأول فلبسانا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزيننا لعدونا، فإذا هاجنا هيَّج وفرع كنا هكذا.

قال: ما أحسن ما دبّرتم دهركم، لانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإنني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاًك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه.

قال: فما الذي يرضى صاحبك؟ قال: إنه حلف أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم، ويؤخّتم ملوككم، ويُعطى الجزية، قال: فإننا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطوّه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاه.

قالك فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلّة وردهم، ووطئ التراب<sup>(١)</sup>.

وهكذا أظهر أعضاء هذا الوفد عزة الإسلام أمام ملك الصين وحاشيته، واجتهدوا في الظهور أمامهم بالهيئات الثلاث التي حازت إعجاب الملك بعد أن عرف تفسيرها، وإن كانت الهيئة الحربية هي التي أوقعت الرعب فيهم، وهي التي كان الصحابة رضي الله عنهم يظهرون بها عند مقابلة الكفار.

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٠٠ - ٥٠٣، الكامل ٤ / ١٣٦.

وفي الحوار الذي دار بين ملك الصين وهبيرة نجد هبيرة موفقاً في عرض قوة المسلمين وإظهار عزتهم، حتى أحدث ذلك الخوف في قلب ملك الصين، فتنازل عن تهديده للمسلمين ورضي بأن يحقق لهم جميع ما يريدون في مقابل أن يتفادى القتال معهم وذلك حينما أشعره بأن قوة المسلمين ليست في هذا الجيش الذي حضر بلاده فقط، وإنما جيشهم ممتد من بلاده إلى بلاد الشام التي هي منابت الزيتون.

ولقد كان ملك الصين ووزراؤه أصحاب عقول رشيدة حيث اعتبروا بالدروس التي تلقاها من قبلهم، فلم يقحموا دولتهم في صراع مع المسلمين، وقد سبق ذكر اعتذار ملك الصين من إمداد ملك الفرس لما استنجد به، وبين له أن المسلمين - بناء على الصفات التي نقلت عنهم - لا يمكن أن يقف أمامهم أحد.

ومما يذكر في هذه المحاورة إشارة هبيرة إلى أن المسلمين لا يخافون من الموت، ولا يمكن أن يخيفهم أحد بالقتل، ولا يصنع ذلك فيهم شيئاً، لأنهم يؤمنون بالقدر، ويعتقدون أن لكل إنسان أجلاً لا يتجاوزه، فإذا كتب الله تعالى انقضاء الأجل فإن أكرم أنواع الموت الشهادة في سبيل الله تعالى، وهذه العقيدة العظيمة كانت وراء إقدام المسلمين على خوض الأهوال ومقارعة الأبطال، لأن الإقدام على الخطر لا يقدّم الأجل، والإحجام عنه لا يؤخره عن مواعده المحدد، وإذا كان ملك الصين قد فهم هذا المعنى فإنه مما يثير مخاوفه لأن هذا الاعتقاد مرعب للكفار، حيث إنهم حينما يقاتلون المسلمين فإنما يقاتلون قومًا لا يهابون الموت، والذي يقدم على قتال خصمه وهو يحمل هذا الشعور لا يمكن أن يقف أمامه أحد.

#### نبذة عن حياة قتيبة ونهايته:

يجدر بنا أن نذكر شيئاً من فضائل قتيبة بن مسلم الباهلي وتاريخ حياة هذا القائد العظيم، فهو الذي نقل الإسلام ورسخ دعائم الدولة الإسلامية في بلاد ما وراء النهر التي تمتد من بحر قزوين غرباً حتى حدود الصين شرقاً.

هذا القائد كان نبوغه مبكراً حين كان في العراق، ولمّا يتجاوز الثلاثين من عمره، وقد ظهر نبوغه حينما اعترض على الحجاج، وقد استشار الناس في شبيب

الخارجي الذي أعياه قتاله، فلم يتكلم إلا قتيبة، فقال للحجاج: إنك لم تنصح لله ولا لأمير المؤمنين في قتالهم، فغضب الحجاج، ولكنه كان في وضع يحتاج فيه إلى الناس لشدة هجوم الخوارج فقال له: وكيف ذاك؟ قال: تبعث الرجل الشريف وتبعث معه رعايا من الناس فينهزمون عنه ويستحي فيقاتل حتى يقتل، قال: فما الرأي؟ قال: أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيواسونك بأنفسهم، وعمل الحجاج بمشورته وخرج لهم فكانت هزيمتهم<sup>(١)</sup>.

ولقد أفاد الحجاج من هذه المشورة في قتال ابن الأشعث حيث خرج له بنفسه وقاد المعارك الأخيرة الحاسمة.

وما زال قتيبة محل إعجاب الحجاج حتى ولاه على بلاد «الري» واستعان به في القضاء على فتنة ابن الأشعث، ثم ولاه خراسان، فانطلق منها لفتح بلاد ما وراء النهر، واستغرق فتحها عشر سنوات من سنة ست وثمانين حتى سنة ست وتسعين.

هذا وإن كان قتيبة رجلا ذا مواهب عالية من الشجاعة والمقدرة الإدارية والحربية فإنه يؤخذ عليه إهماله مبدأ الشوري في كثير من أموره، ولئن كان قد سلم من كثير من المشكلات الناجمة عن القرار المنفرد لتوفيق الله له أولاً ثم لما يتمتع به من طاقة فكرية عالية وخبرة حربية واسعة فإن إهمال الشوري قد جر عليه مشكلة قضت على حياته وحياة إخوانه، وذلك حينما بادر من غير مشورة فخلع الخليفة سليمان بن عبد الملك، ثم قام خطيباً فعاب جميع القبائل الذين كانوا معه أشد العيب، فكان نتيجة ذلك أن غضبت القبائل فولّوا عليهم وكيع بن أبي أسود التميمي، وثاروا على قتيبة فقتلوا إخوانه ثم قتلوه وكانت نهاية مؤلمة لهذا البطل الفاتح<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٧٣.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري ٦ / ٥٠٦ - ٥١٦، الكامل ٤ / ١٣٨، البداية والنهاية ٩ / ١٧٤.



### ٣- فتوحات يزيد بن المهلب

لما ولي الخلافة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ولي على خراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وذلك في عام سبعة وتسعين<sup>(١)</sup>.

#### فتح جرجان:

قال الإمام ابن جرير الطبري: وفي هذه السنة -يعني سنة ثمان وتسعين- غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان.

ثم ذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لما ولي يزيد بن المهلب على خراسان كان أهم شيء عنده أن يفتح جرجان وطبرستان<sup>(٢)</sup> لأن هذين الإقليمين كانا على طريق خراسان، وقد تحول الطريق من فارس وكرمان، لعدم وجود الأمان للمسلمين في جرجان وطبرستان.

وكان يحكم جرجان عدد من الأمراء منهم صول التركي وفيروز بن قول، وكان بينهما نزاع وقتال، فذهب فيروز إلى يزيد بن المهلب يستنصر به فأغار صول على إمارته وأخذها، فلما قدم فيروز على يزيد بن المهلب قال له يزيد: ما أقدمك؟ قال: خفت صولاً فهربت منه، قال له يزيد: هل من حيلة لقتاله؟ قال: نعم، شيء واحد إن ظفرت به قتلته أو استسلم لك، قال: ما هو؟ قال إن خرج من جرجان حتى ينزل البحيرة<sup>(٣)</sup> ثم أتيته فحاصرته بها ظفرت به، فاكذب إلى الإصبهيد<sup>(٤)</sup> كتاباً تسأله فيه أن يحتال على «صول» حتى يقيم بجرجان، واجعل له على ذلك جُعللاً ومَنَّةً، فإنه يبعث بكتابك إلى صولٍ يتقرب به إليه لأنه يعظمه، فيتحول عن جرجان فينزل البحيرة.

فكتب يزيد بن المهلب إلى صاحب طبرستان: إني أريد أن أغزو «صولاً» وهو بجرجان، فخفت إن بلغه أنني أريد ذلك أن يتحول إلى البحيرة فينزلها، فإن تحول

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٢٣.

(٢) موقع الإقليمين في شمال إيران واسمهما الآن مازندران -معجم أماكن الفتوح-.

(٣) هي جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ وهما من جرجان مما يلي خوارزم.

(٤) هو حاكم طبرستان.

إليها لم أقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك، فإن حبسته العام بجرجان فلم يأت البحيرة حملت إليك خمسين ألف مثقال، فاحتل له حيلة تحبسه بجرجان، فإنه إن أقام بها ظفرت به، فلما رأى الأصبهذ الكتاب أراد أن يتقرب إلى «صول» فبعث بالكتاب إليه، فلما أتاه الكتاب أمر بالرحيل إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصن بها.

وبلغ يزيد أنه قد سار من جرجان إلى البحيرة، فاعتزم على السير إلى جرجان، فخرج في ثلاثين ألفاً، وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها بدون مقاومة تذكر، ثم سار إلى البحيرة فحاصرها، فكان يخرج إليه صول في الأيام القليلة فيقاتله ثم يرجع إلى حصنه، فمكث الترك محصورين ستة أشهر، حتى شربوا الماء المالح فأصيبوا بداء السُّؤَاد، فوقع فيهم الموت، وأرسل صول في ذلك يطلب الصلح، فقال يزيد بن المهلب: لا، إلا أن ينزل على حكمي، فأبى، فأرسل إليه: إني أصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهل بيتي وخاصتي، على أن تؤمنني فتنزل البحيرة، فأجابه يزيد، فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب، فاستولى المسلمون على الجزيرة، وقتل يزيد بعض من فيها من المقاتلة<sup>(١)</sup>.

فهذا الخبر فيه مواقف جهادية عالية، منها:

١ - اهتمام يزيد بن المهلب بغزو بلاد جرجان وطبرستان، وكانت هذه البلاد لوعورة أرضها وصعوبة مسالكها تصدُّ الغزاة من المسلمين، وقد ذكر الإمام الطبري أن مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني غزا جرجان في عهد معاوية رضي الله عنه في عشرة آلاف مجاهد فأصيب هو وجنده بالرويان، وهي متاخمة لطبرستان، فهلكوا في واد من أوديتها، أخذ عليهم العدو بمضايقه فقتلوا جميعاً، فهو يسمى وادي مصقلة، ولشهرة خبره كان يضرب به المثل: «حتى يرجع مصقلة من طبرستان»<sup>(٢)</sup>. فكان لما أصاب المسلمين في تلك الغزوة ولغيرها أثر على قادة المسلمين وجنودهم.

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٣٥ - ٥٣٨.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٥٣٥ - ٥٣٦.

وقد جرى التوسع في الفتوحات شرقاً حتى بلغ المسلمون في فتوحاتهم بلاد الصين، بينما كانت بلاد جرجان وطبرستان دون خراسان، ومع ذلك تركها المسلمون، فكان اهتمام يزيد بن المهلب بغزو هذه البلاد أمراً يذكر له.

وقد جاء في رواية للطبري أن سليمان بن عبد الملك كان كلما افتتح قتيبة فتحاً قال ليزيد بن المهلب: أما ترى ما يصنع الله على يدى قتيبة؟ فيقول ابن المهلب: ما فعلت جرجان التي حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدت قومس وأبهرشهر؟!<sup>(١)</sup> وهذا يبين بأن ابن المهلب قد اهتم بفتح هذه البلاد قبل أن يكون أميراً على خراسان.

٢- وفي هذا الخبر نماذج من التدابير الحربية الجيدة، فمن ذلك ما جرى من يزيد بن المهلب في كتابه إلى «صول» حاكم جرجان، حيث أخرجه بمكيدة ناجحة من مُتَمَنِّع بلاده بجرجان إلى الجزيرة التي لا يستطيع أن يقاوم فيها طويلاً، فاستطاع يزيد أن يأخذ جرجان بدون مقاومة تذكر، لأن أغلب جيوشها تحولت إلى الجزيرة التي تحصن بها أميرها «صول»، ثم حاصروهم فيها حتى استسلم أميرهم.

ومن المواقف المذكورة في هذه الغزوة ما ذكر الإمام أبو جعفر الطبري من خبر أبي محمد الشقي قال: أصاب يزيد بن المهلب تاجاً بجرجان فيه جوهر، فقال: أترون أحداً يزيد في هذا التاج؟ قالوا: لا، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال: خذ هذا التاج فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه، قال: عزمت عليك، فأخذه، وخرج فأمر يزيد رجلاً ينظر ما يصنع به، فلقي سائلاً فدفعه إليه، فأخذ الرجلُ السائلَ فأتى به يزيد وأخبره الخبر، فأخذ يزيد التاج وعوض السائل مالا كثيراً<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كانت شهرة هذا الإمام الزاهد العابد في الزهد والعفة والورع قد وصلت إلى القادة والأمراء، فكان يزيد بن المهلب يعلم أن محمد بن واسع سيزهد في ذلك التاج، فأراد أن يظهر للناس نموذجاً من البشر قد سمت نفوسهم وعلت طموحاتهم، فتجاوزت ما يتنافس الناس عليه من متاع الدنيا، وحلقت إلى نعيم الآخرة الخالد، فأصبح الجوهر النفيس عندهم يعادل أدنى عملة يمكن أن تقدم لسائل بائس.

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٥٣٩.

لقد كان يزيد بن المهلب وأمثاله من العقلاء يدركون المستوى الرفيع الذي بلغه محمد بن واسع وأمثاله، ولكنهم لا يستطيعون بلوغ ذلك المستوى، لأن نفوسهم لم تتجرد بعد من حب المال والجاء، ولأنهم لم تتمثل في أفكارهم عظمة الجنة ودرجاتها المتفاوتة في السمو والنعيم، ولكن وضع يزيد مع ذلك أفضل بكثير من الذين لم يدركوا في مخيلتهم أن أحداً من الناس يزهد في متاع الدنيا.

### فتح طبرستان:

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عدداً من الشيوخ أن يزيد بن المهلب لما صالح حاكم جرجان رغب في فتح طبرستان، فلما عزم على المسير إليها ولّى عبدالله بن المعمر الشكري على بياسان ودهستان، وخلف معه أربعة آلاف، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلي طبرستان، واستعمل على أندرستان أسد بن عمرو -أو ابن عبدالله بن الربعة- وهي مما يلي طبرستان، وخلفه في أربعة آلاف، ودخل يزيد طبرستان، فأرسل إليه حاكمها الأصبهني يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها وأقام معسكراً هناك.

ووجه يزيد ابنه أبا عيينة في جيش لقتال الأعداء، وكان حاكم طبرستان قد استنجد بأهل جيلان وأهل الديلم، فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل فانهمز المشركون وتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب فدخله المسلمون، فرماهم المشركون من فوق الجبل فانهمز أبو عيينة والمسلمون ورجعوا إلى معسكر يزيد، ولم يتبعهم المشركون خوفاً من هجوم جيش المسلمين عليهم.

وكتب الإصبهني حاكم طبرستان إلى المرزبان ابن عم فيروز بن قول وهو بأقصى جرجان مما يلي البياسان: إنا قد قتلنا يزيد وأصحابه فاقتل من في البياسان من العرب، فخرج بجيشه إلى أهل البياسان والمسلمون آمنون في منازلهم، فقتلوا المسلمين جميعاً وكانوا أربعة آلاف بقيادة عبدالله بن المعمر.

وبلغ يزيد والمسلمين ذلك فهاهم وأعظموا ذلك وبلغهم أن المرزبان كتب إلى الإصبهني ليسد المنافذ على المسلمين، وهذا يعني أن المسلمين قد وقعوا بين جيشين

للأعداء، ففزع يزيد إلى حيان النبطي<sup>(١)</sup> وقال له: لا يمنعك ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين، قد جاءنا عن جرجان ما جاءنا، وقد أخذ هذا بالطرق فاعمل في الصلح، قال: نعم، فأتى حيان الإصبهذ فقال: أنا رجل منكم، وإن كان الدين قد فرق بيني وبينكم فإنني لكم ناصح، وأنت أحب إلي من يزيد، وقد بعث يستمد، وأمداده قريبة، وإنما أصابوا منه طرفاً، ولست آمن أن يأتيك مالا تقوم له، فأرح نفسك منه وصالحه، فإنك إن صالحته صيرَّ حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا، فصالحه على مبلغ كبير من المال، وقد أرسل إليهم يزيد ذلك المال الذي صالحهم عليه حيان النبطي<sup>(٢)</sup>.

وهذا الذي قام به يزيد بن المهلب من مصالحة حاكم طبرستان يعتبر من التدابير الحربية الناجحة، وهذا الصلح وإن كان ظاهره ذلة للمسلمين، حيث سيدفعون لذلك الحاكم مبلغاً كبيراً من المال إلا أنه في الحقيقة نوع من الخداع الحربي، حيث أراد يزيد أن يتقي بذلك شر أحد الجيشين ليتفرغ للجيش الآخر، فإذا تم القضاء عليه رجع للجيش الذي صالحه في الوقت المناسب.

### فتح جرجان مرة أخرى:

وقد ذكر الإمام الطبري فيما يرويه عن شيوخه أن يزيد بن المهلب لما صالح أهل طبرستان قصد لجرجان، فلما بلغ المرزبان حاكم جرجان أن يزيد قد صالح حاكم طبرستان جمع أصحابه وأتى مدينة «وجاه» فتحصن فيها، وأقبل يزيد حتى نزل عليها وحولها أشجار كثيفة ولا يعرف لها إلا طريق واحد، فأقام محاصراً لها سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء، وكانوا يخرجون في بعض الأيام فيقاتلونهم ويرجعون إلى حصنهم.

وفي يوم من الأيام خرج رجل من جيش يزيد من قبيلة طيء يتصيد<sup>(٣)</sup>، فأبصر وعلاً يركي في الجبل فاتبعه، وقال لمن معه: قفوا مكانكم، وصعد في الجبل

(١) هو من العجم وقد كان دخل في الإسلام وحسن إسلامه وتولى بعض الأعمال، وقد كان يزيد غرمه مائتي ألف بسبب إهانة وقعت منه لمخلد بن يزيد.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٥٣٩ - ٥٤١ باختصار.

(٣) وقيل إن الهياج بن عبدالرحمن الأزدي من أهل طوس.

يقتص أثر الوعل، فما شعر بشيء حتى أطل على عسكر الأعداء، فرجع يريد أصحابه فخاف أن لا يهتدي لتلك الثغرة إذا أراد العودة فجعل يُقَطِّعُ قِباءه ويعقد على الشجر علامات، حتى وصل إلى أصحابه، ثم رجع إلى العسكر فأتى إلى عامر بن أيمن الواشجي صاحب شرطة يزيد، فرفع ذلك إلى ابني زُحَر بن قيس فأدخلاه على يزيد، فقال له: أتريد أن تدخل «وجاه» بغير قتال؟ قال: نعم، فأعلمه بذلك الطريق الجبلي المطل على الأعداء، فندب الناس فانتدب له ألف وأربعمائة، فقال ذلك الرجل: الطريق لا يحمل هذه الجماعة لكثرة الأشجار فيه، فاختر يزيد منهم ثلاثمائة فوجههم معه وأمر عليهم أحد قادته وقال له: إن غلبتَ على الحياة فلا تُغلبَنَّ على الموت، وإياك أن أراك عندي منهزماً، وقال للرجل الذي أعلمه بذلك: متى تصل إليهم؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين، قال: امضوا على بركة الله فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر.

فساروا، فلما قارب انتصاف النهار من غد أمر يزيد الناس أن يُشعلوا النار في حطب كان قد جمعه في حصاره إياهم، فصيرَه آكاماً، فأضرموه ناراً، فلم تزل الشمس حتى صار حول عسكره أمثالُ الجبال من النيران، ونظر العدو إلى النار فهالهم ما رأوا من كثرتها فخرجوا إليهم، وأمر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلَّوا وجمعوا بين الصلاتين، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا.

وسار أصحاب تلك السرية بقية يومهم والغد، فهجموا على عسكر الترك قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد والمسلمون يقاتلونهم من الوجه الآخر، فما شعر الأعداء إلا بالتكبير من ورائهم ففروا جميعاً إلى حصنهم، وركبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم، ثم رجع إلى خراسان، وأمر على جرجان جهم بن زحر الجعفي<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجح المسلمون في فتح إقليم جرجان، ولقد كان من مظاهر توفيق الله تعالى ونصره لذلك الجيش أن ألهم ذلك الرجل الصياد إلى صعود ذلك الجبل الشاهق الوعر المكتظ بالأشجار ليطل على الأعداء فيكتشف عورةً لهم، ثم يكون

(١) تاريخ الطبري ٥٤١/٦ - ٥٤٣.

الفتح ونصر المسلمين من ذلك الطريق، ولقد كان ذلك الصياد عالي الهمة حينما حمل على عاتقه مسؤولية كشف ذلك الطريق الذي كان به فرج المسلمين، كما كان يزيد بن المهلب قائدا بارعا حينما اغتتم تلك الفرصة فخطط للقضاء على الأعداء بإرباكهم من خلفهم والهجوم عليهم من أمامهم في وقت واحد.

وإن مما ينبغي الإشادة به موقف تلك السرية التي لا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثمائة، حيث غامر أفرادها بالسير في تلك المجهول، ثم بالهجوم على جيش قوي كثيف من الخلف، إذ أن هناك احتمال أن ينعطف عليهم ذلك الجيش فيبيدهم، فهذا مثل من شجاعة المسلمين العالية ومسارعتهم إلى البذل والتضحية.

\*\*\*

#### ٤ - جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية

##### جهاد المسيب بن بشر الرياحي:

ذكر الإمام الطبري أن خاقان ملك الترك جمعهم ووجههم إلى السغد، فكان على الترك كورصول، وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي.

قال: وقال بعضهم: أراد عظيم من عظماء الدهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة، وكانت في ذلك القصر، فأرسل إليها يخطبها. فأبت، فاستجاش ورجا أن يسبوا من في ذلك القصر، فيأخذ المرأة، فأقبل كورصول حتى حصر أهل القصر، وفيه مائة أهل بيت بذرايعهم، وعلى سمرقند عثمان بن عبدالله بن مطرف وخافوا أن يبطئ عنهم المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً، وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة، وندب عثمان بن عبدالله الناس، فانتدب المسيب بن بشر الرياحي وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل، فقال شعبة بن ظهير: لو كان ها هنا خيول خراسان ما وصلوا إلى غايتهم.

ثم ذكر بعض أسماء من انتدب للقتال من الأبطال إلى أن قال: فقال المسيب بن بشر لما عسكروا: إنكم تقدمون على حلبة الترك، حلبة خاقان وغيرهم، والعوض إن صبرتم الجنة، والعقاب النار إن فررتم، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم.

فانصرف عنه ألف وثلثمائة، وسار في الباقيين، فلما سار فرسخاً قال للناس مثل مقالته الأولى، فاعتزل ألف، ثم سار فرسخاً آخر فقال لهم مثل ذلك، فاعتزل ألف. ثم سار - وكان دليلهم الأشهب بن عبيد الحنظلي - حتى إذا كان على فرسخين من القوم نزل فأتاهم ترك خاقان ملك قبي فقال: إنه لم يبق ها هنا دهقان إلا وقد بايع الترك غيري، وأنا في ثلثمائة مقاتل فهم معك، وعندني الخبر، قد كانوا صالحوهم على أربعين ألفاً، فأعطوهم سبعة عشر رجلاً، ليكونوا رهناً في أيديهم حتى يأخذوا صلحهم، فلما بلغهم مسيركم إليهم قتل الترك من كان في أيديهم من الرهائن.



قال: وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهليّ فنجّا لم يقتل، والأشهب بن عبيد الله الحنظليّ، وميعادهم أن يقاتلوهم غدًا أو يفتحوا القصر، فبعث المسيّب رجلين: رجلاً من العرب ورجلاً من العجم من ليلته على خيولهم، وقال لهم: إذا قرّبتم فشدُّوا دوابكم بالشجر، واعلموا علم القوم. فأقبلا في ليلة مظلمة، وقد أجرت الترك الماء في نواحي القصر، فليس يصل إليه أحدٌ، ودنوا من القصر، فصاح بهما الربیئة، فقالا: لا تصحّ وادعُ لنا عبد الملك بن دثار، فدعاه فقالا له: أرسلنا المسيّب، وقد أتاكم الغياث، قال: أين هو؟ قال: على فرسخين، فهل عندكم امتناع ليلتك وغدا؟ فقال: قد أجمعنا على تسليم نسائنا وتقديمهم للموت أمامنا، حتى نموت جميعاً غدًا. فرجعا إلى المسيّب، فأخبراه فقال المسيّب للذين معه: إني سائر إلى هذا العدو، فمن أحب أن يذهب فليذهب، فلم يفارقه أحدٌ، وبايعوه على الموت.

فسار وقد زاد الماء الذي أجروه حول المدينة تحصينًا، فلما كان بينه وبينهم نصف فرسخ نزل، فأجمع على بيّاتهم، فلما أمسى أمر الناس فشدُّوا على خيولهم، وركب فحثَّهم على الصبر، ورغَّبهم فيما يصير إليه أهل الاحتساب والصبر، ومالهم في الدنيا من الشرف والغنيمة إن ظفروا، وقال لهم: اكعموا دوابكم<sup>(١)</sup> وفودوها، إذا دنوتم من القوم فاركبوها، وشدوا شدةً صادقة وكبروا، وليكن شعاركم: يا محمد<sup>(٢)</sup>، ولا تتبعوا مؤلّياً، وعليكم بالدوابّ فاعقروها، فإنّ الدوابّ إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم، والقليل الصابر خيرٌ من الكثير الفشل، وليست بكم قلةٌ، فإنّ سبعمئة سيف لا يُضرب بها في عسكر إلاّ أوهنوه وإن كثر أهله.

قال: وعبّأهم وجعل على الميمنة كثير بن الدبوسيّ، وعلى الميسرة رجلاً من ربيعة يقال له ثابت قُطنة، وساروا حتى إذا كانوا منهم على غلوتين كبروا وذلك في السحر، وثار الترك، وخالط المسلمون العسكر، فعقروا الدوابّ، وصابروهم

(١) أي اربطوا أفواهها، وذلك أقوى لها على تحمل الشدة والعطش.

(٢) هذا ليس من الاستغاثة لأن الاستغاثة بغير الله تعالى لم تكن معروفة عند التابعين لوضوح كونها من الشرك، وإنما هو مجرد شعار يتعارفون به كما جاء في الخبر.

الترك، فجال المسلمون وانهزموا حتى صاروا إلى المسيب، وتبعهم الترك وضربوا عَجَزُ دابة المسيب فترجل رجال من المسلمين، فيهم البخترى أبو عبدالله المرائي، ومحمد بن قيس الغنوي -ويقال: محمد بن قيس العنبري- وزباد الأصبهاني، ومعاوية بن الحجاج، وثابت قطنة. فقاتل البخترى فقطعت يمينه، فأخذ السيف بشماله فقطعت، فجعل يذبُ بيديه حتى استشهد. واستشهد أيضاً محمد بن قيس العنبري أو الغنوي وشبيب بن الحجاج الطائي.

قال: ثم انهزم المشركون، وضرب ثابت قُطْنَةً عظيماً من عظمائهم، فقتله، ونادى منادي المسيب، لا تتبعوهم، فإنهم لا يدرون من الرعب، اتبعتموهم أم لا! واقصدوا القصر، ولا تحملوا شيئاً من المتاع إلا المال ولا تحملوا من يقدر على المشي.

وقال المسيب: مَنْ حمل امرأة أو صبيّاً أو ضعيفاً حسبةً فأجره على الله، ومن أبى فله أربعون درهماً، وإن كان في القصر أحداً من أهل عَهْدِكُمْ فاحموه. قال: فقصدوا جميعاً القصر، فحملوا مَنْ كان فيه، وانتهى رجلٌ من بني فُقيْمٍ إلى امرأة، فقالت: أغثني أغاثك الله! فوقف وقال: دونك وعجز الفرس، فوثبت فإذا هي على عَجَزِ الفرس، فإذا هي أفرسٌ من رجل، فتناول الفقيمي بيد ابنها، غلاماً صغيراً، فوضعه بين يديه، وأتوا ترك خاقان، فأنزلهم قصره وأتاهم بطعام. وقال: الحقوا بسمرقند، لا يرجعوا في آثاركم. فخرجوا نحو سمرقند، فقال لهم: هل بقي أحد؟ قالوا: هلال الحريري، قال: لا أسلمه، فأتاه وبه بضع وثلاثون جراحة، فاحتمله، فبرأ، ثم أصيب يوم الشعب مع الجنيد.

قال: فرجع الترك من الغد، فلم يروا في القصر أحداً، ورأوا قتلاهم، فقالوا: لم يكن الذين جاءوا من الإنس، فقال ثابت قطنة:

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ مِنْ تَمِيمٍ	غَدَاةَ الرُّوعِ فِي ضَنْكِ الْمَقَامِ
فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ أَكْنَفُونِي	عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي رَهَجِ الْقَتَامِ
بَقَصَرِ الْبَاهِلِيِّ وَقَدْ رَأُونِي	أَحَامِي حَيْثُ ضَنَّ بِهِ الْمُحَامِي
بَسِيفِي بَعْدَ حَظْمِ الرُّمَحِ قُدَمًا	أَذُودُهُمْ بِذِي شُطْبِ جُسَامِ
أَكْرُ عَلَيْهِمُ الْيَحْمُومَ كَرًّا	كَكْرِ الشَّرْبِ أَنْيَةَ الْمُدَامِ

أَكْرُبُهُ لَدَى الْغَمَرَاتِ حَتَّى      تَجَلَّتْ لَا يَضِيقُ بِهَا مَقَامِي  
 فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ      وَضَرَبِي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهَمَامِ  
 إِذَا لَسَعَتْ نَسَاءُ بَنِي دِثَارٍ      أَمَامَ التَّرِكَ بَادِيَةَ الْخِدَامِ!  
 فَمَنْ مِثْلُ الْمَسِيْبِ فِي تَمِيمٍ      أَبِي بَشْرٍ كَقَادِمَةِ الْحَمَامِ<sup>(١)</sup>

ففي هذا الخبر مثل جليل لما يصنعه الصبر والثبات وسمو الأهداف، فهؤلاء الذين لم يتجاوزوا سبعمائة قد انتصروا على جيش كبير يبلغ أضعافهم، وليس كل السبعمائة ثبتوا، بل فرَّ أكثرهم لضراوة القتال وهول الصدام، ولم يثبت مع قائدهم المسيب بن بشر الرياحي إلا القليل، وبهؤلاء الذين ثبتوا حُسمت المعركة وتنزل نصر الله تعالى.

إن هؤلاء الأبطال الأشاوس أشبه شيء بالصخور الصلبة التي تتحطم أمام شموخها وعليائها أمواج الطوفان الهادر. إنه طوفان مدمر يهدم البيوت ويقتلع الأشجار، ويغير معالم الأرض، ولكنه يتفرق ويتشتت أمام صلابة الصخور ورسوخها.

لقد كان المسيب بن بشر رجلاً عظيماً حينما استصفى أصحابه ومحصهم فلم يقبل أن يتبعه إلا عشاق الموت وطلاب الآخرة، لأن هؤلاء الأفاضل هم الذين تبدل بهم الموازين، وتتقرر بهم مصائر الأمم.

ونزل نصر الله تعالى على هذه الفئة القليلة الثابتة، وأنقذوا من في ذلك القصر من المسلمين المحصورين، وأصيب الأعداء بالذهول والحيرة مما حدث، لأنه مما يشبه خوارق العادات، وكذبوا أعينهم التي صوّرت لهم أولئك الأبطال بأنهم من البشر، وغلبوا ما تخيلته عقولهم الحائرة من أن الذين لقوهم كانوا من الجن.

**جهد الجنيد بن عبد الرحمن المري:**

روى الإمام الطبري عن شيوخه من خبر غزو الجنيد بن عبد الرحمن المري أمير خراسان وبلاد ما وراء النهر: أنه خرج غازياً في سنة اثنتي عشرة ومائة يريد

(١) تاريخ الطبري ٦/٦٠٨ - ٦١١، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠.

طخارستان فنزل على نهر بَلَخ، ووجهَ عُمارة بن حُرَيْم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفاً وإبراهيم بن بسَّام الليثي في عشرة آلاف في وجه آخر، وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سَوْرَة بن الحرِّ أحدُ بني أبان بن دارم، فكتب سورة إلى الجنيد: إن خاقان جاش بالترك فخرجتُ إليهم فما قدرت أن أمنع حائط سمرقند، فالغوث.

فأمر الجنيد الناس بالعبور<sup>(١)</sup> فقام إليه المجشَّر بن مزاحم السُّلَمي وابن بسطام الأزدي وابن صبح الحَرَقِي فقالوا: إن الترك ليسوا كغيرهم لا يَلْقُونك صفًا ولا زحفاً<sup>(٢)</sup> وقد فرقتُ جندك، فمُسِّلم بن عبدالرحمن النيروز والبختريَّ بهراة، ولم يحضرَك أهل الطالقان، وعمارة بن حُرَيْم غائب<sup>(٣)</sup> وقال له المجشَّر: إن صاحب خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً<sup>(٤)</sup>، فاكتب إلى عمارة فليأتك وأمهل ولا تعجل، قال: فكيف بسَوْرَة ومن معه من المسلمين! لو لم أكن إلا في بني مرة<sup>(٥)</sup> أو من طلع معي من الشام لعبرت، وقال:

أليس أحقَّ الناس أن يشهد الوغى وأن يقتل الأبطال ضخم على ضخم  
وقال:

ما علَّتِي ما علَّتِي ما علَّتِي      إن لم أقاتلهم فجزوا لِي  
قال: وعبر فنزل «كس» وقد بعث الأشهب بن عبيد الحنظلي ليعلم علم القوم، فرجع إليه وقال: قد أتوك فتأهب إلى المسير.

وهنا نقف قليلاً لتأمل هذا المشهد الذي برزت فيه شجاعة الشجعان في مقابل رأي أهل الرأي، فالتأمل يرى في كلام الأمير الجنيد وعزمه وتصميمه على مواجهة جيش الترك مواقف عالية في الشجاعة والشهامة والرحمة بإخوانه المسلمين المحاصرين بسمرقند والعزم الأكيد على حمايتهم وإنقاذهم مهما كلفه ذلك وجيشه من متاعب.

(١) يعني بعبور نهر جيحون الذي يفصل خراسان عن بلاد ما وراء النهر.

(٢) يعني أنهم يقومون بالغارات المفاجئة. (٣) يعني بطخارستان.

(٤) يعني من كان أميراً على خراسان قبل الجنيد لأن الجنيد حديث عهد بالولاية.

(٥) يعني أفراد قبيلته.

لكن رأى أهل الرأي له وزنه الكبير في تقدير ذلك الموقف لأن المُجَشَّر السُّلَمي وأصحابه أهل خبرة طويلة بقتال الترك بينما الجنيد حديث عهد بذلك .

ومع كون الجنيد لم يقبل برأيهم فإنهم قد أطاعوه وعبروا النهر معه ولم يخذلوه مع غلبة ظنهم بأن الترك سيقطعون جيشه وستكون عليه هزيمة ونكبة كبيرة، وهذا موقف يُذكر لهم في طاعة القائد .

قال: وبلغ الترك<sup>(١)</sup> فغوروا الآبار<sup>(٢)</sup> التي في طريق «كس» وما فيها من الرُّكَايا<sup>(٣)</sup>، فقال الجنيد: أي الطريقين إلى «سمرقند» أمثل؟ قالوا: طريق المحترقة، فقال المُجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي: القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار، إن طريق المحترقة فيه الشجر والحشيش ولم يُزرع منذ سنين فقد تراكم بعضه على بعض، فإن لقيتَ خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان، ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء .

فأخذ الجنيد طريق العقبة . . إلى أن قال: ومضى بالناس حتى دخل الشعب وبينه وبين مدينة سمرقند أربعة فراسخ، فصَبَّحه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهل السُّغد والشاش وفرغانة وطائفة من الترك .

قال: فحمل خاقان على المقدمة وعليها عثمان بن عبد الله بن الشَّخِير، فرجعوا إلى العسكر والترك تتبعهم، وجاءوهم من كل وجه . . إلى أن ذكر أن العدو قصد للميمنة وفيها تميم والأزد في موضع واسع فيه مجال للخيول .

قال: وصبر الناس يقاتلون حتى أَعْيُوا، فكانت السيوف لا تُحيك ولا تقطع شيئاً، فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به، حتى ملَّ الفريقان، فكانت المعانقة فتحاجزوا .

وذكر أنه استشهد في ذلك اليوم مئات من المسلمين، وذكر أسماء عدد من أبطالهم<sup>(٤)</sup> .

(١) أي بلغهم عبور المسلمين إليهم النهر .

(٢) أي دفنوها حتى لا يستفيد منها المسلمون .

(٣) أي منابع الماء .

(٤) تاريخ الطبري ٧ / ٧١ - ٧٤ .

وهكذا انتهت هذه المعركة الهائلة التي قابل فيها المسلمون أضعافهم من الكفار بالتحاجز بين الطرفين، وهذا يعني عدم انتصار أيٍّ من الفريقين على الآخر، وهذا مثال على شجاعة المسلمين وثباتهم وصبرهم.

وما جاء في الرواية من قول الراوي «فكانت السيوف لا تحيك ولا تقطع شيئاً» دليل على الجهد الكبير الذي بذله المسلمون في القتال، حيث كَلَّت السيوف ودرثت من كثرة الضرب بها.

إن من أبرز ما خلَّده المسلمون من عظمة في هذه المعركة غير المتكافئة أنه لم يُذكر أن الأعداء أسروا أحداً من المسلمين ولا أن أحداً منهم فرّ من المعركة، وهذا الثبات العظيم هو الذي أذهل الأعداء فقرروا إنهاء المعركة مع ما كانوا يتوقعونه في البداية من المقدرة على سحق المسلمين وإبادتهم، لقلتهم الظاهرة أمام كثرة أعدائهم.

ونظراً لأن هذه المعركة تمت في أحد شعاب تلك المنطقة فقد اشتهرت بعد ذلك بيوم الشعب.

ومن المواقف التي ينبغي الإشادة بها في هذه المعركة ما ذكره الإمام الطبري في سياق روايته من مواقف بعض الشهداء، ومن ذلك ما ذكره عن يزيد بن المفضل الحُدَّاني أنه حمل يوم الشعب على مائة بعير سويقاً للمسلمين، فجعل يسأل عن الناس، ولا يسأل عن أحد إلا قيل له: قد قُتل فتقدم وهو يقول: لا إله إلا الله، فقاتل حتى قتل.

وذكر أنه قال لأمه بعد عودته من الحج: ادعي الله أن يرزقني الشهادة.

ومن ذكر الطبري محمد بن عبد الله بن حوذان: قال عنه: فحمل سبع مرات يُقتل في كل مرة رجلاً. ثم رجع إلى موقفه فهابه من كان في ناحيته، فناداه ترجمان للعدو: يقول لك الملك: لا تُقبِل وتحوّل إلينا فنرفض صنمنا الذي نعبد ونعبدك، فقال محمد: أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده فقاتل واستشهد<sup>(١)</sup>.

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٧٤.

وهكذا كان غناء هذا البطل المجاهد عن كتيبة من المقاتلين لفرط شجاعته وإقدامه، فلهذا كان الأعداء الذين هم بناحيته يهابون الإقدام على تلك الناحية وكأنهم يجابهون- بشخص هذا المجاهد- كتيبة كاملة، ولقد ناداه الأعداء بذلك العرض الكبير لينحاز إليهم حتى يفقد المسلمون به الرجل القوي الشجاع الذي حمى ناحيته من الأعداء، ولكنه أجابهم بما يملؤ قلوبهم حسرة، وذلك حينما بين لهم الهدف العالي الذي يقاتل من أجله المسلمون ولقد ظفر -رحمه الله- بالشهادة التي هي أفضل نهاية.

ومن ذكر الطبري النَّضْرَ بن راشد العبيدي، وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون فقال لها: كيف أنت إذا أُتيت بأبي ضمرة<sup>(١)</sup> في لَبْدٍ<sup>(٢)</sup> مضرّجا بالدماء؟ فشقت جيبها ودعت بالويل، فقال: حسبك، لو أَعَوَلْتُ عليَّ كلُّ أنثى لعصيتها شوقاً إلى الحور العين، ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله<sup>(٣)</sup>.

وهكذا رأينا شوق هذا المجاهد النبيل إلى الشهادة في سبيل الله تعالى، حيث لم يثنه عن الإقدام على الجهاد بكاء امرأته الشديد على فقده، ولقد قارن بين متعة الدنيا ونعيم الآخرة فأبان أنه لو جُمع له متاع الدنيا كله لم يعدل ما أعده الله سبحانه للشهداء من الحور العين، فضلا عما هو أعظم من ذلك من النعيم.

هذا وقد ذكرنا سابقاً أن المسلمين التقوا بالترك وكان المسلمون بقيادة الجنيد بن عبدالرحمن المُرِّي، والتُّرْكُ بقيادة خاقان، وأن عدد المسلمين كان أقل من الترك بكثير، ومع ذلك ثبتوا لهم إلى أن تحاجزوا وأوقفوا المعركة.

لكن خاقان عاد بجيشه بعد ذلك بيوم وفي ذلك يقول الإمام الطبري في سياق روايته: وكانوا لقوا خاقان يوم الجمعة، فأرسل الجنيد إلى عبدالله بن معمر بن سُمَيْرٍ اليشكري أن يقف في الناحية التي تلي «كِسَّ» ويحبس من مرَّ به ويحوز الأثقال والرَّجَّالة، وجاءت الموالي رجالة ليس فيهم غير فارس واحد، والعدو يتبعونهم، فثبت عبدالله بن معمر للعدو فاستشهد في رجال من بكر.

(١) يعني نفسه فهذه كنيته.

(٢) اللَّبْدُ البساط.

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤ - ٧٥.

قال: فأصبحوا يوم السبت<sup>(١)</sup>، فأقبل خاقان نصف النهار، فلم ير موضعاً للقتال فيه أيسر من موضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقصد لهم فقالت بكر لزياد: القوم قد كثرونا فَحَلَّ عَنَا نَحْمِلْ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْنَا، فقال لهم: قد مارست منذ سبعين سنة، إنكم إن حملتم عليهم فصعدتم انهزمتهم، ولكن دعوهم حتى يقربوا، ففعلوا، فلما قربوا منهم حملوا عليهم فأفروا لهم، فسجد الجنيد، وقال خاقان يومئذ: إن العرب إذا أُخرجوا استقتلوا فخلُّوهم حتى يخرجوا، ولا تعرَّضوا لهم فإنكم لا تقومون لهم.

قال: وخرج جَوَّارٌ للجنيد يُؤْكَلُون، فانتدب رجال من أهل الشام فقالوا: الله الله يا أهل خراسان: إلى أين: وقال الجنيد: ليلةٌ كليلة الجراح ويوم كيومه<sup>(٢)</sup>.

ففي هذا الخبر مواقف منها: أولاً ثبات عبدالله بن معمر الشكري ومن معه من المسلمين لجيش يفوقهم كثيراً إلى أن استشهد في رجال معه رحمهم الله تعالى.

وثانياً: موقف ثبات لبني بكر بقيادة زياد بن الحارث حيث صمدوا لجيش خاقان، وفي كلام خاقان اعتراف للمسلمين بالشجاعة والإقدام حيث أوصى جيشه بأن لا يصمدوا للمسلمين لأنهم لا يستطيعون ذلك.

وقول الجنيد «ليلة كليلة الجراح ويوم كيومه» يريد بذلك الجراح بن عبدالله الحكمي فارس أهل الشام وأمير أرمينية وقد انتصر على الروم والترك في وقائع عديدة إلى أن أُفرد في قلة من جيشه فهجم عليه الترك فقتلوه ومن معه، وذلك في العام نفسه الذي لقي فيه الجنيد خاقان والترك.

### جهاد أسد القسري:

توفي الجنيد بن عبدالرحمن رحمه الله وتولى إمرة خراسان عاصم بن عبدالله الهلالي، ثم تولاهما بعده أسد بن عبدالله القسري، وقد عَبَرَ بجيش المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر ونزل بالْحَتَل، وعلم به خاقان فأقبل بجنوده وحال بينهما نهر بلخ فعبر خاقان بعد أن قتل من لم يعبر من المسلمين وأسر بعضهم، وقد كان أسد أرسل الأثقال وهي الدواب والأطعمة ونحوها أمامه ومعها حامية بقيادة إبراهيم بن

(٢) تاريخ الطبري ٧ / ٧٥.

(١) يعني جيش المسلمين.



عاصم العُقيلي الجزري فعلم بذلك خاقان فمال عن جيش المسلمين يريد أخذ الأثقال لأنها لا تكلفه قتالاً كبيراً.

واستشار أسد أهل الرأي فوقع الرأي على المسير نحو الأثقال لحمايتها ومن معها، وقد كان أسد أرسل رسولا إلى إبراهيم بن عاصم يخبره بذلك فوصل إليه وعمل إبراهيم خندقاً للحماية، وقد وصل إليه خاقان بجيشه وكانت بينهم مناوشة انتصر فيها المسلمون، ثم اطلع خاقان على مكان صالح للهجوم من خلف المسلمين فهجم عليهم وحاز أثقالهم وانحازوا عنه، ثم انصرف عنهم خاقان حينما رأى جيش المسلمين مقبلاً بقيادة أسد القسري<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر موقف يذكر لإبراهيم بن عاصم الجزري ومن معه من المسلمين حيث صدوا هجوم الترك رغم قلة المسلمين.

وموقف يُذكر لأسد بن عبدالله القسري حيث عزم على المسير لإنقاذ المسلمين الذين كانوا يحملون الأثقال فأعدَّ السير حتى وصل إليهم في الوقت المناسب فأنقذهم الله تعالى به.

### المعركة الأخيرة مع خاقان :

يقول الإمام الطبري: فلما كان ليلة الأضحى قيل لأسد<sup>(٢)</sup>: إن خاقان نزل «جَزَّة»، فأمر بالنيران فرفعت على المدينة<sup>(٣)</sup> فجاء الناس من الرساتيق إلى مدينة «بَلَخ» فأصبح أسد فصلى وخطب الناس وقال: إن عدو الله الحارث بن سُرَيْج<sup>(٤)</sup> استجلب طاغيته<sup>(٥)</sup> ليطفئ نور الله ويبدل دينه والله مُدْلَهُ إن شاء الله، وإن عدوكم الكلب أصاب من إخوانكم من أصاب، وإن يرد الله نصركم لم يضركم قلتكم وكثرتهم، فاستنصروا الله، وقال: إنه بلغني أن العبد أقرب ما يكون إلى الله تعالى إذا وضع جبهته لله، وإني نازل وواضع جبهتي، فادعوا الله واسجدوا لربكم

(١) تاريخ الطبري ٧/ ١١٣-١١٨ باختصار، وذلك في سنة تسع عشرة ومائة.

(٢) يعني أسد بن عبدالله القسري أمير خراسان.

(٣) وذلك علامة على نداء أهل القرى المجاورة للتجمع، وكان أسد قد نزل مدينة بلخ فأمر بالتجمع للجهاد.

(٤) هو من العرب المسلمين ولكنه ارتد على عقبه وتمرد على دولة الإسلام وحالف طغاة الكفار ضد المسلمين.

(٥) يعني خاقان.

وأخلصوا له الدعاء، ففعلوا، ثم رفعوا رؤوسهم وهم لا يشكّون في الفتح، ثم نزل عن المنبر، وضحّى وشارور الناس في المسير، فقال قوم: أنت شاب ولست ممن تخوّف من غارة، على شاة ودابة تخاطر بخروجك! قال: والله لأخرجن، فإما ظفر وإما شهادة، قال: وقال قوم: بل تخرج إليهم وتستنصر الله عليهم، فوافق قولهم رأي أسد وما كان عزم عليه من لقائهم.

قال: ثم خرج فنزل باباً من أبواب بلخ وضربت له قبة «فازتان»<sup>(١)</sup> وألصق إحداهما بالأخرى، وصلى بالناس ركعتين طولهما، ثم استقبل القبلة ونادى في الناس: ادعوا الله وأطال في الدعاء، ودعا بالنصر، وأمنّ الناس على دعائه، فقال: نصرتهم وربّ الكعبة ثم انفتل من دعائه فقال: نصرتهم وربّ الكعبة إن شاء الله، ثلاث مرات، ثم نادى مناديه: برئت ذمة الله من رجل حمل امرأة ممن كان من الجند.

قال: فنظر فإذا جارية على بعير، فقال: سلوا لمن هذه الجارية؟ فذهب بعض الأساورة فسأل ثم رجع فقال: لزياد بن الحارث البكري -وزياد جالس- فقطّب أسد وقال: لا تنتهون حتى أسطو بالرجل منكم يكرّم عليّ فأضرب ظهره وبطنه، فقال زياد: إن كانت لي فهي حرة، لا والله أيها الأمير ما معي امرأة فإن هذا عدو حاسد.

قال: ثم ارتحل وعلى مقدمته سالم بن منصور البجلي في ثلاثمائة، فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة لخاقان، فأسر قائدهم وسبعة منهم معه وهرب بقيتهم، فأتى به أسداً، قال: فبكى التركي، قال: ما يبكيك؟ قال: لست أبكي لنفسي ولكنني أبكي لهلاك خاقان قال: كيف؟ قال: لأنه قد فرق جنوده فيما بينه وبين مرو.

ثم ذكر التقاء الجيشين. . إلى أن قال: فلما التقوا حمل الحارث<sup>(٢)</sup> ومن معه من أهل السغد والباية وغيرهم على الميسرة وفيها ربيعة وجندان من أهل الشام فهزمهم فلم يردهم شيء دون رواق أسد، فشددت عليهم الميمنة -وهم الأزد وبنو تميم

(١) يعني خيمتين من خيام الجيش.

(٢) يعني ابن سريج الذي كان مع خاقان.

والجوزجان- فما وصلوا إليهم حتى انهزم الحارث والأتراك، وحمل الناس جميعاً، فقال أسد: اللهم إنهم عصوني فانصرهم، وذهب الترك في الأرض عباديد<sup>(١)</sup> لا يلوون على أحد، فتبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون من يقدرّون عليه، حتى انتهوا إلى أغنامهم فاستاقوا أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة ودواب كثيرة.

أما خاقان فإنه فر هارباً ومعه الحارث بن سريج يحميه، وكانت نهاية خاقان على يد أحد قادته وهو كورصول الترقشي، حيث لعب هو وإياه بالنرد فهده خاقان بقطع يده، فتنحى كورصول، وجمع جمعاً من أصحابه فبيّت خاقان فقتله<sup>(٢)</sup>.

وبعد ففي هذا الخبر مواقف عالية، فمنها عزم أمير خراسان أسد بن عبد الله القسري على غزو خاقان والترك، وما كان يتحلى به هذا الأمير من الشجاعة وقوة الأمل بالنصر على الأعداء مع ما سبق منهم من الإيقاع بالمسلمين والإضرار بهم.

ومن مواقفه في ذلك ما جاء في خطبته الرائعة يوم عيد الأضحى التي اشتملت على الخضوع لله تعالى واللجوء إليه وطلب النصر منه، في حال مؤثرة جعلت أفراد الجيش يرفعون رؤوسهم من السجود وهم لا يشكّون في النصر، وبهذا الدعاء الخاشع رفع من معنوياتهم وأقدم بهم على أعدائهم وهم واثقون من نصر الله تعالى، ثم ما جاء في دعائه الطويل بعد ذلك يوم أن التقى الصفان، وانصرافه من الدعاء وهو يشرهم بالنصر على الأعداء، وكل ذلك يدل على قوة إيمانه وغزارة علمه بالله تعالى حيث ركّز على أهم عوامل النصر وهو التوكل على الله جل وعلا.

ومن المواقف المذكورة في هذه المعركة ثبات أهل الميمنة من تميم والأزد ومن معهم حتى هزموا الأعداء على الرغم مما حصل على ميسرة المسلمين من الهزيمة، حيث لم يفت ذلك في أعضاد بقية الجيش، وهذا من أسرار عظمة المسلمين في جهادهم حيث لا يؤثر فيهم قتل قادتهم ولا هزيمة بعضهم لأنهم إنما يقاتلون غالباً طلباً لإحدى الحسنيين، إما النصر على الأعداء أو الشهادة في سبيل الله تعالى.

(١) أي متفرقين في كل وجه.

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ١١٩ - ١٢٥ باختصار.

وهذا الثبات القوي من الميمنة دفع بقية الجيش إلى الإقدام على الأعداء حتى سحقوهم وشتتوا جمعهم .

وفي نهاية خاقان عبر عظيمة حيث تم قتله على يد أحد قاداته المقربين إليه ، ومن هذه العبر أن الكفار مهما بلغ من تناصرهم فإن هدفهم هو جلب المصالح لأنفسهم وليس لديهم مبادئ سامية تحكمهم فإذا كانت مصالحهم في الاجتماع اجتمعوا على أعدائهم وإذا تعرضت مصالحهم الذاتية للخطر ضحى بعضهم ببعض وتفرقوا .

ومن ذلك سوء النتائج التي تترتب على اللعب بالنرد ونحوه حيث ينتج عن ذلك العداوة والبغضاء التي قد يكون من نتائجها ذهاب مصالح أمة كما في هذا الخبر .

ومن ذلك أن الأعداء لا تجمعهم مبادئ سامية وإنما يجمعهم شخصية قائد قوي يخضعون له فإذا ذهب ذلك القائد تفرق أتباعه وتناحروا فيما بينهم كما حصل لأتباع خاقان حيث لم تقم لهم بعده قائمة ، أما المسلمون فإنهم يمتازون على غيرهم بأن الذي يجمعهم هو سلطان الدين وليس للقائد في نظرهم وجود كبير ولا أثر مصيري فإذا هلك قائدهم فإن خلفه قادة يقومون بالأمر بعده ويسيطرون على نفس المنهج ، ولو فرض أنهم تفرقوا بعد موت القائد أثناء المعركة فإنه تفرق مؤقت لأن الذي أُلّف بين قلوبهم وجمعهم هو الخضوع للدين والدين لا يموت .

وهذا من الأسباب الأساسية في تماسك المسلمين وبقائهم تلك القرون العديدة يهيمنون على أكثر بلاد العالم .

\*\*\*

**الجهاد في المشرق  
في  
عهد العباسيين**

## انتقاض أمير طبرستان وجهاده:

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: في هذه السنة<sup>(١)</sup> نقض إصبهذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده من المسلمين.

وذكر أن أبا جعفر<sup>(٢)</sup> لما انتهى إليه خبر الإصبهذ وما فعل بالمسلمين، وجه إليه خازم بن خزيمة وروح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر، فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه في حصنه، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام، فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي، ففعلوا ذلك به، ولحق بالإصبهذ صاحب الحصن فقال له: إني ركب مني أمر عظيم، ضربت وحلق رأسي ولحيتي. وقال له: إنما فعلوا ذلك بي تهمّة منهم لي أن يكون هواي معك، وأخبره أنه معه، وأنه دليل له على عورة عسكرهم. فقبل منه ذلك الإصبهذ، وجعله في خاصته وألفقه.

وكان باب مدينتهم من حجر يلقي إلقاءً يرفعه الرجال، وتضعه عند فتحه وإغلاقه، وكان قد وكل به الإصبهذ ثقات أصحابه، وجعل ذلك نوباً بينهم، فقال له أبو الخصيب: ما أراك وثقت بي، ولا قبلت نصيحتي! قال: وكيف ظننت ذلك؟ قال: لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك، وتوكيلي فيما لا تثق به إلا بثقاتك، فجعل يستعين به بعد ذلك، فيرى منه ما يحب إلى أن وثق به، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه، فتولّى له ذلك حتى أنس به. ثم كتب أبو الخصيب إلى روح بن حاتم وخازم بن خزيمة، وصير الكتاب في نُسابة، ورمّاها إليهم، وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة، ووعدهم ليلة سمّاها لهم في فتح الباب.

فلما كان في تلك الليلة فتح لهم، فقتلوا من فيها من المقاتلة، وسبوا الذراري، وظفر بالبحترية، وهي أم منصور بن المهدي، وأمّها باكند بنت الإصبهذ الأصم - وليس بالإصبهذ الملك، ذاك أخو باكند - وظفر بشكّلة أم إبراهيم بن المهدي، وهي بنت خوندان قهرمان المصمغان، فمصرّ الإصبهذ خاتماً له فيه سم فقتل نفسه<sup>(٣)</sup>.

(١) يعني سنة اثنتين وأربعين ومائة.

(٢) يعني أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور.

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٥١٢ - ٥١٣

هذا الخبر فيه بيان خدعة حربية عالية قام بها مرزوق أبو الخصيب مولى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، وقد استطاع أن يقوم بتلك الخدعة لكونه في الأصل من أهل تلك البلاد، وهذه تضحية كبيرة من أبي الخصيب لما قد يترتب على ذلك الأمر الذي أقدم عليه من عدم تصديق الأعداء له ووقوعه في أسرهم، ولكنه قد استعد لاحتمال أسوأ النتائج في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين، وهذا يدل على إخلاصه وقوة إيمانه.

### خروج أستاذسيس ومن تبعه وجهادهم:

قال الإمام محمد بن جرير الطبري: فمما كان فيها<sup>(١)</sup> من ذلك خروج أستاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من عامة خراسان، وساروا حتى التقوا هم وأهل مروالروذ، فخرج إليهم الأجثم المروروذي في أهل مروالروذ، فقاتلوه قتالا شديداً حتى قتل الأجثم، وكثر القتل في أهل مروالروذ، وهزم عدة من القواد، منهم معاذ بن مسلم بن معاذ وجبرئيل بن يحيى وحماد بن عمرو وأبو النجم السجستاني وداود بن كراز، فوجه المنصور وهو بالبردان خازم ابن خزيمة إلى المهدي، فولاه المهدي محاربة أستاذسيس، وضمّ القواد إليه.

وذكر أن القائد خازم بن خزيمة اختلف عليه قادة جيشه بتحريض من وزير المهدي معاوية بن عبيد الله، فقدم خازم على المهدي وشكا إليه ذلك فأفرده بالقيادة والتصرف، قال: فانصرف خازم إلى عسكره، فعمل برأيه، وحل لواء من رأى حل لوائه من القواد، وعقد لواء لمن أراد، وضمّ إليه من كان انهزم من الجنود، فجعلهم حشواً يكثر بهم من معه في أخريات الناس، ولم يقدمهم لما في قلوب المغلوبين من روعة الهزيمة، وكان من ضم إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفاً، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجند، فضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا معه متخيرين، وكان بكار بن مسلم العقيلي فيمن انتخب، ثم تعباً للقتال وخندق. واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمته، ونهار بن حصين السعدي على ميسرته، وكان بكار بن مسلم العقيلي على مقدمته وتُرار خُدا على ساقته، وكان من أبناء ملوك أعاجم خراسان، وكان لواءه مع الزبرقان وعلمه مع مولاه بسام،

(١) أي في سنة خمسين ومائة.

فمكر بهم وراوغهم في تنقله من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم، وكان أكثرهم رجالة، ثم سار خازم إلى موضع فنزله، وخندق عليه، وأدخل خندقه جميع ما أراد، وأدخل فيه جميع أصحابه، وجعل له أربعة أبواب، وجعل على كل باب منها من أصحابه الذين انتخب، وهم أربعة آلاف، وجعل مع بكار صاحب مقدمته ألفين، تكملة الثمانية عشر ألفاً. وأقبل الآخرون ومعهم المروز والفؤوس والزبل، يريدون دفن الخندق ودخوله، فأتوا الخندق من الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم، فشدوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق.

فلما رأى ذلك بكار رمي نفسه، فترجل على باب الخندق ثم نادى أصحابه وقال: من قبلي يؤتى المسلمون! فترجل من معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلاً، فمنعوا بابهم حتى أجلوا القوم عنه، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذيس من أهل سجستان، يقال له الحريش، وهو الذي كان يدبر أمرهم، فلما رآه خازم مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شعبة، وكان في الميمنة: أن اخرج من بابك الذي أنت عليه، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم. وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة بن طخارستان. وبعث خازم إلى بكار بن مسلم: إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلفك فكبروا وقلوا: قد جاء أهل طخارستان. ففعل ذلك أهل الهيثم، وخرج خازم في القلب على الحريش السجستاني، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً، وصبر بعضهم لبعض، فبينما هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيثم وأصحابه، فتنادوا فيما بينهم: جاء أهل طخارستان، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها، شد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم، ولقيهم أصحاب الهيثم، فطعنوهم بالرماح، ورموهم بالنشاب، وخرج عليهم نهار بن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة، وبكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون وأكثروا، فكان من قتل منهم



في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفاً، وأسروا أربعة عشر ألفاً، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة، فقدم خازم الأربعة عشر ألف أسير، فضرب أعناقهم، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجبل الذي كان لجأ إليه، ووافى خازماً بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما، فأنزلهم خازم ناحية، وقال: كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم. فحصر خازم أستاذسيس وأصحابه حتى نزلوا على حكم أبي عون، ولم يرضوا إلا بذلك، فرضي بذلك خازم، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه، ففعل، فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يوثق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يعتق الباقون وهم ثلاثون ألفاً، فأنفذ ذلك خازم من حكم أبي عون، وكسا كل رجل منهم ثوبين، وكتب خازم بما فتح الله عليه، وأهلك عدوه إلى المهدي، فكتب بذلك المهدي إلى أمير المؤمنين المنصور<sup>(١)</sup>.

فهذا الخبر فيه مواقف منها:

**أولاً:** ما كان من قائد الجيش خازم بن خزيمه حينما أدرك الخلل في تنظيم عسكره فتلافى ذلك قبل مواجهة الأعداء وأصلح ما كان بحاجة إلى إصلاح، وهذا يدل على وعي قيادي، لأن من أهم أسباب النصر طاعة القائد وحسن اختيار الأعوان.

**ثانياً:** ما قام به من المكر بالأعداء ومراوغتهم حيث صار ينتقل من موضع إلى موضع فكان ذلك سبباً في تفرق جيش الأعداء، لأن أكثرهم مشاة فحركتهم في التنقل بطيئة.

**ثالثاً:** ما قام به من إقامة الخندق حول جيش المسلمين، وهذا أمر ضروري فيما إذا كان الجيش في بلاد الأعداء، فمن المحتمل أن يأتوا من كل جهة، فيكون الخندق وسيلة دفاعية حتى يتدبر القائد الخطط الحربية المناسبة.

**رابعاً:** موقف لبكار بن مسلم العقيلي حينما ثبت لما فر جنوده، فحفظ الباب الذي وكل به هو ومن ساعده من رجال عشيرته، وهذا أثر من آثار حسن اختيار

---

(١) تاريخ الطبري ٨ / ٢٩-٣٢.

القادة، فلو كان مثل جنوده في الهلع والدهشة لفر معهم ولدخل الأعداء من ذلك الباب.

خامساً: في هذا الخبر خطة حربية بارعة وضعها قائد الجيش خازم بن خزيمة، حيث خطط لمباغطة الأعداء من خلفهم مع الهجوم عليهم من الأمام وإيهامهم بوصول مدد جديد للمسلمين، فكان ذلك سبباً في هزيمتهم، وهكذا تظهر نتائج الرأي السديد في الحرب، حيث يوفر القائد ذو الرأي الحصيف والتفكير المبدع جهوداً كبيرة على المسلمين في إنهاء الحروب لصالحهم بأقل التضحيات.

سادساً: موقف قيادي ناجح من خازم بن خزيمة، حيث قبل حكم أبي عون بإعتاق جنود الأعداء بعد القبض على قائدهم وأقاربه، لأن في ذلك تأليفاً لأولئك الجنود، وقد أضاف إلى ذلك موقفاً إنسانياً نبيلاً، وذلك بكسوة كل جندي من هؤلاء ثوبين، وإذا علمنا أن عددهم ثلاثون ألفاً يكون قد أنفق عليهم ستين ألف ثوب، وهذا يقتضي صرف مبلغ كبير من المال، ولا شك أن لهذا الموقف من أبي عون ثم من خازم أثراً على أولئك الجنود، حيث سيكونون عوناً للمسلمين في المستقبل، أو على الأقل سيسلكون سبيل السلامة فيأمن المسلمون شرهم.

\*\*\*

**مواقف وعبر  
في  
جهاد المسلمين ضد الصليبيين**

إن من أهم أسباب الحروب الصليبية أن المسلمين امتد نفوذهم حتى استولوا على أكثر بلاد الأناضول، وخشي الروم من سقوط القسطنطينية بأيديهم، خصوصاً بعد معركة ملاذكرد الناجحة الحاسمة حيث حطم السلطان ألب أرسلان قوات الروم التي تصل إلى مائتي ألف بجيش لا يبلغ عشرين ألفاً كما تقدم، فخاف الروم إن هو جمع قواته البعيدة وانضم إليه مجاهدون من الإمارات الإسلامية الأخرى أن تسقط بلادهم بيد المسلمين، فاستنجدوا بالصليبيين، حيث قَدِموا إلى بلاد الإسلام من الدول الأوروبية.

وقد كان المسلمون آنذاك متفرقين إلى إمارات صغيرة، فانتهاز الصليبيون الفرصة واستولوا على مدنٍ وحصونٍ في بلاد الشام وما جاورها.

وفي بيان ما وصل إليه النصارى من النفوذ في بلاد المسلمين يقول المؤرخ أبو شامة المقدسى<sup>(١)</sup>:

وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيئتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديهم، وتتابع غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شر شرهم، وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين.

أما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم في ذل وهوان، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر. ثم زاد الأمر وعظم الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة، يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى

---

(١) هو العلامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، توفي عام ٦٦٥هـ.

أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرّحا التي على باب الجنّان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشّام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكي، فغزا الفرنج في عُقر ديارهم، وأخذ للموحّدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقلاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١/ ١١٧.

## ١ - بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين

قد ذكر المؤرخ ابن الأثير أن بداية الغزو الصليبي لبلاد الإسلام كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، حيث استولوا على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس، وأنهم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية واستولوا عليها، وأنهم استولوا على بعض أطراف أفريقية، وأنهم خرجوا إلى بلاد الشام سنة تسعين وأربعمائة فاستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر أبدى فيه واليها باغيسيان شجاعة عظيمة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام» ولكن أنطاكية سقطت بيد الصليبيين بسبب خيانة أحد المستحفظين للأبراج بعد أن بذل له الأعداء مالا وإقطاعاً ففتح البرج لهم ودخلوا منه واستولوا على المدينة<sup>(١)</sup>.

### حال المسلمين آنذاك:

كانت حال المسلمين يوم أن غزا الصليبيون بلادهم سيئة للغاية، فالخلافه في بغداد ضعيفةٌ وليس للخليفة إلا الاسم، والعبيديون يحكمون مصر وهم ليس عندهم أي حماس للدفاع عن الإسلام، والشام يحكمه عدد من الأمراء الضعفاء، والحرب قائمة بينهم، وحينما اجتمع بعضهم تحت قيادة كربوقا في عام واحد وتسعين وأربعمائة اتفق الأمراء على الانهزام أمام الصليبيين ليوقعوا كربوقا الذي تكبر عليهم، وكان الصليبيون في أنطاكية في حال شديدة من الضعف والجوع والخوف حيث طلبوا الأمان في مقابل أن يخرجوا من البلد، ولكن كربوقا رفض ذلك، فلما كانت المعركة انهزم الأمراء من غير قتال حتى ظن الصليبيون أنها خدعة، فلما تبين لهم أنهم جادون في الهزيمة شددوا على من بقي من المسلمين وقتلوا منهم ألوفا وتقووا بالغنائم، وواصلوا زحفهم نحو بيت المقدس<sup>(٢)</sup>.

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) الكامل في التاريخ ٨ / ١٨٦ - ١٨٧.

وهكذا خان هؤلاء الأمراء النفعيون دينهم وأمتهم، فخذلوا قائدهم ومن معه من المسلمين، وكان انسحابهم من المعركة نصراً كبيراً قدموه للصليبيين، وكان ذلك بداية دخول الصليبيين في بلاد الشام واستيلائهم على بيت المقدس.

ولقد تكررت هذه المأساة في تاريخ المسلمين حينما يتولى عليهم أمراء لا يهمهم أمر الإسلام ولا المسلمين، وإنما الذي يهمهم بقاؤهم في السلطة وإن خانوا دينهم وخذلوا أمتهم.

### سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين:

لما سقطت أنطاكية بيد الصليبيين وانتصروا على الأمراء الأتراك انتهز العبيديون في مصر تلك الفرصة وساروا إلى بيت المقدس وكان واليه سقمان بن أرتق التركماني، فحاصروه ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقاً إلى أن استولوا عليه وأنابوا في حكمه رجلاً يعرف بافتخار الدولة، فقصده الصليبيون وحاصروه نيفا وأربعين يوماً إلى أن استولوا عليه يوم الجمعة لسبع بقين من شوال عام اثنين وتسعين وأربعمائة فلبثوا فيه أسبوعاً يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف<sup>(١)</sup>.

ولقد عبّر عن هذه المأساة الشاعر أبو المظفر الأبيوردی بقوله:

مزجنا دمانا بالدموع السّواجم	فلم يبقَ منا عرضةً للمَراجِم <sup>(٢)</sup>
وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يريقه	إذا الحربُ شَبَّتْ نارُها بالصوارِم
فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم	وقائعٌ يُلحِقنَ الذرى بالمناسِم <sup>(٣)</sup>
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها	على هفواتٍ أيقظتُ كلَّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلمهم	ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعِم <sup>(٤)</sup>
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ	تَجُرُّونَ ذيلَ الخفَضِ فعَلَ المسالِم

(١) الكامل في التاريخ ١٨٩/٨.

(٢) السواجم: المذروقة والمراجِم: من الرجم وهو الرمي بالأحجار.

(٣) المناسِم: جمع منسم وهو خفّ البعير.

(٤) المذاكي: الجياد، والقشاعِم: النسور.

ومنها قوله:

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةً  
وتلك حروبٌ من يغبُ عن غمارها  
سكّلتُ بأيدي المشركين قواضباً  
يكادُ لهنَّ المستجيرُ بطيبةٍ  
أرى أمّتي لا يُشرعون إلى العدا  
ويجتنبون النارَ خوفاً من الردى  
أيرضى صناديدُ الأعاريب بالأذى  
فليتَهمموا إذ لم يذودوا حميةً  
وإن زهدوا في الأجر إذ حمسَ الوغى

تَظَلُّ لَهَا الولدانُ شيبَ القوادم  
لَيْسَلَمَ يَقْرَعُ بعدها سنّ نادم  
سُتْغَمَدُ منهم في الكلى والجماجم<sup>(١)</sup>  
ينادي بأعلا الصوت يا آل هاشم  
رماحهم والدينُ واهي الدعائم  
ولا يحسبون العارَ ضربةً لازم  
ويُغْضِي على ذلِّ كماءِ الأعاجم<sup>(٢)</sup>  
عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارم  
فهلا أتوه رغبةً في المغانم<sup>(٣)</sup>

وهكذا يظهر لنا الضرر الفادح من بُعد المسلمين عن الحياة الجهادية، وضعف الوعي الإسلامي، فهؤلاء العلماء والعباد والزهاد الذين فضلوا الرباط في المسجد الأقصى وحوّلوه لم يفهموا شمول العبادة في الإسلام، حيث فهموا أن العبادة هي المبالغة في أداء الشعائر التعبدية والاشتغال بالعلم القاصر، ولم يهتموا بالاستعداد للجهاد والمشاركة فيه وإعداد العدة التي أمرهم الله تعالى بها في قوله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فداهمهم الأعداء الحاقدون وذبحوهم كما تذبح الشياه.

إن هؤلاء السبعين ألفاً الذين قتلهم الصليبيون في المسجد الأقصى لو كانوا قد تدربوا على الجهاد، وأصبح كل واحد منهم يملك السلاح لاستطاعوا وحدهم أن يهزموا الصليبيين - بإذن الله تعالى - لأنهم يملكون القوة الروحية بتوكلهم على

(٢) الكمأة: الأبطال.

(١) القواضب: القواطع من السيوف.

(٣) البداية والنهاية ١٢/١٦٧.



الله جل وعلا واستمدادهم النصر منه، فإذا اجتمع مع هذا العامل المعنوي المهم العامل المادي، من التدريب على القتال وحمل السلاح فإن أصحاب ذلك لا يُغلبون بإذن الله جل وعلا.

### جهاد سقمان وجكرمش ضد الصليبيين:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام سبعة وتسعين وأربعمائة أنه لما استطال الفرنج - خذلهم الله - بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وأمرائه بقتال بعضهم بعضاً وتفرقت كلمة المسلمين زحف الصليبيون نحو حران ليأخذوها، وكان بين الأمير معين الدولة سقمان الأرتقي وشمس الدولة جكرمش نزاع، وكان كل واحد منهما يُعدّ العدة لقتال الآخر، فلما علما بتحرك الصليبيين شرقاً أرسل كل واحد منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لقتال الصليبيين وتلافي أمر حران ويُعلمه بأنه قد بذل نفسه لله تعالى، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا، وسارا إلى لقاء الصليبيين، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصاف بينهما هناك، فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا، وامتألت أيدي التركمان من الغنائم، ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن مؤن الأعداء كانت قريبة منهم.

وكان ييمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا بجنودهما، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك، وأفلتا في ستة فرسان.

وكان بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من رؤسائهم، وخاضوا نهر البليخ فوصلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه، وكان سقمان قد سار فيمن معه لاتباع ييمند.

وسار سقمان إلى حصون الفرنج فاستولى على عدد منها، أما جكرمش فقد سار إلى حران فاستولى عليها.

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين ما يقارب اثني عشر ألف قتيل<sup>(١)</sup>.

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصاراً كبيراً لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما، ولقد كان موقفاً عالياً يُذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ما كان بينهما من خلاف وتوجها معاً للخطر المشترك عليهما، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبق في أرض المسلمين أحد من الأعداء، ولا استطاعوا أن يخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام، وإنما يؤتى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم.

### جهاد طغتكين ضد الصليبيين:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين وأربعمائة أنه في شهر صفر جرت معركة بين أمير دمشق طغتكين والصليبيين بقيادة بغدوين أمير القدس وعكا وغيرهما، وذلك بعد معارك جرت بينهما، ثم إن بغدوين بنى حصناً بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من شرور ذلك، فسار إلى الصليبيين والتقوا واقتتلوا أشد قتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتسبوا به، فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمراً فعلته له، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجال نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخرّبوه، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي، وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل<sup>(٢)</sup>.

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صوراً من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتسبوا به إذا أغاروا على دمشق فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه، وهدم ذلك الحصن ثم فيما أقدم عليه من قتل ذينك الأميرين الذين خانوا الأمانة

(١) الكامل في التاريخ ٢٢١/٨ - ٢٢٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٢٣٠/٨.

وفرّاً إلى دمشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ الحروب، وهي تعطي دروساً قوية بليغة للقادة والجنود حتى لا يفروا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل في صفوف الجيش.

وأخيراً في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حيث إنه لم يكن فيما يظهر عنده شيء من آلات الرمي الثقيلة كالمجانيق، فوجه أفراد جيشه بالإغراء المذكور ليقوموا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكثرة العدد وتظافر الجهود، وهذا يدل أيضاً على حزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي.

\* \* \*

## ٢- جهاد عماد الدين زنكي ضد الصليبيين

هو عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر بن عبد الله آل ترغان، من قبائل «الساب يو» التركمانية، وقد كان أبوه مقدماً عند ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، ولما تولى مُلْكَ السلاجقة بركيا روق بن ملكشاه عيَّن آق سنقر على إمارة حلب وكان حازماً عادلاً، وبعد أن قُتل آق سنقر انتقل ابنه عماد الدين إلى الموصل في رعاية حاكمها القائد السلجوقي كربوقا الذي كان صديقاً لوالده، وكان عماد الدين في العاشرة من عمره، ومازال بعد أن بلغ سن الشباب موضع الثقة عند حكام السلاجقة لما رأوا فيه من النبل والشجاعة، واشترك مع الأمير مودود ابن التونتكين في حروبه مع الصليبيين.

وقد أظهر السلطان عماد الدين زنكي شجاعة فائقة، من ذلك ما ذكره أبو شامة في حصار طبرية قال: وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلفوا عنه وتقدم وحده، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه وقتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً وسلامته آخراً<sup>(١)</sup>.

### مواجهة الصليبيين وفتح بارين:

قال المؤرخ أبو شامة: ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين [وخمسماية]، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقاهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج، فصبر الفريقان صبراً لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير<sup>(٢)</sup>، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوكُ الفرنج وفُرسانهم، فدخلوا حصن بارين، وفيهم ملك القدس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٠٥.

(٢) هي إحدى ليالي معركة القادسية.

حصن بارين، فحصره حصراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان لِيَسْلَمُوا وَيُسَلِّمُوا الحصن، فأبى إلا أخذهم قهراً، فبلغه أن مَنْ بالسَّاحِل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم، وَيُنْهَوْنَ إِلَيْهِمْ ما فيه ملوكهم من الحصر؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، وَمَنْ بالحصن لا يعلمون شيئاً من ذلك لقوَّة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلَّم الحصن، وساروا، فلقيتهم أمداد النصارى، فسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بتسليم الحصن، فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين! فحلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصِرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فَحَقَّقْنَا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخرجوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطَّعت السُّبُل، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مُدَّة مقامه على حصن بارين سَير جنده إلى المعرة وكفرطاب وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زُنكي قصيدةً أولها:

حَذَارِ مَنْنَا، وَأَنْتَى يَنْفَعُ الْحَذَرَ	وَهِيَ الصَّوَارِمُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ
وَأَيْنَ تَنْجُو مَلُوكُ الشَّرْكَ مِنْ مَلِكٍ	مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ، لَا بَلْ جُنْدُهُ الْقَدَرُ
سَلُّوا سِيَوْفًا كَأَغْمَادِ السُّيُوفِ بِهَا	صَالُوا فَمَا غَمَدُوا نَصْلًا وَلَا شَهَرُوا
حَتَّى إِذَا مَا عَمَادُ الدِّينِ أَرْهَقَهُمْ	فِي مَازِقٍ مِنْ سَنَاهُ يَبْرُقُ الْبَصَرُ
وَلَوْ تَضَيَّقُ بِهِمْ ذَرْعًا مَسَالِكُهُمْ	وَالْمَوْتُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا وَزَرَ
وَفِي الْمَسَافَةِ مِنْ دُونِ النَّجَاةِ بِهِمْ	طُولٌ وَإِنْ كَانَ فِي أَقْطَارِهَا قِصَرُ
وَأَصْبَحَ الدِّينُ لَا عَيْنًا وَلَا أَثَرًا	يَخَافُ وَالْكَفَرُ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ <sup>(١)</sup>

(١) كتاب الروضتين ١ / ١٣٠ - ١٣١.

## مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم:

قال أبو شامة: لما كان في سنة اثنتين وثلاثين [وخمسماية] خرج ملك الروم<sup>(١)</sup> من القسطنطينية ومعه خلقٌ عظيم لا يحصون كثرةً من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصراني، فقصد الشام، فخافه الناس خوفاً عظيماً.

وكان زُكِّي مشغولاً بما تقدّم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها - وهي على مرحلة من حلب - وفتحها عنوةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شيزر - وهي حصن منيع على مرحلة من [مدينة] حماة - فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً. وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلّد بن نصر بن مُنقذ، إلى زُكِّي يستنجد، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطّف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زُكِّي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شرّكم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم. فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله، وهوّنوا أمره، فقال لهم الملك: أظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحيثُ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زُكِّي مع هذا يرأسل فرنج الشام، ويحدّثهم ملك الروم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يرأسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، ترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار زُكِّي خلفهم فظفر بطائفة منهم

(١) قال المعلق: هو يوحنا كومنين، تولى ما بين (٥١٢هـ - ٥٣٨هـ). انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيما ٣٣٢/٢ وما بعدها.

في ساقّة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعّه إلى قلعة حلب ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] (١).

وهكذا نجح عماد الدين في خداعهم وإرهابهم، حيث ظنوا أن معه جيشاً كبيراً وأن الذين يغيرون عليهم كل يوم إنما هم سرية من سرايا عماد الدين.

هذا إضافة إلى استعماله المكائد للتفريق بين أولئك الحلفاء، حيث حذر صليبي الشام من استيلاء إمبراطور الروم على بلادهم، كما أوهم هذا الإمبراطور بأن نصارى الشام قد تحالفوا معه، فلذلك كلّه قرر ملك الروم الانسحاب، وفكّ الحصار عن شيزر في التاسع من رمضان عام اثنين وثلاثين وخمسمائة، واستولى عماد الدين على آلاتهم الحربية الثقيلة، كما أرسل بعض قواته لملاحقتهم فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم.

### فتح مدينة الرها:

أما أهم عمل قام به عماد الدين زنكي في جهاد الصليبيين فهو فتح مدينة «الرّها» وذلك في السادس من جمادى الآخرة من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، وهي من أكبر مدن الجزيرة، وفيها إمارة للنصارى قوية، ويتبعها عدد من قرى الجزيرة، وهي تحت إمرة «جوسلين» أقوى الصليبيين آنذاك وأشدّهم دهاءً ومكرًا، وقد كان بلاؤه على المسلمين من حوله عظيماً.

وقد كان عماد الدين يعلم أنه إذا قصد حصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة، فأظهر أنه سائر إلى ديار بكر ليوهم الفرنج أنه لا يريد بلادهم، فلما علم بذلك جوسلين اطمأن وفارق الرها إلى بلاد الشام، فجاءت عيون عماد الدين فأخبروه الخبر، فنادى بالعسكر بالرحيل، وجمع الأمراء، وقدم لهم الطعام، وقال: لا يأكلُ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غدًا معي بباب الرها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحدٍ لمّا يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. وسار والعساكر

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٢٢ - ١٢٣.

معه ووصل إلى الرها، وكان هو أول من حمل على الفرنج، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين فاعترضه ذلك الأمير الذي سار معه فقتله .

وقاتل أهل البلد ثمانية وعشرين يوماً، وقدم النقبائين، فنقبوا سور البلد، حتى أسقطوا جزءاً منه، فاستولى على البلد عنوة وحاصر قلعته حتى ملكها، وجعل في البلد عسكرياً يحفظه، ثم أغار على القرى التي تحت سلطان الصليبيين فاستولى عليها، وبسقوط الرها زالت دولة الصليبيين في الجزيرة .

وبهذا الفتح علت سمعة عماد الدين زنكي عند المسلمين، وأضفى عليه الخليفة ألقاباً عالية، وخاف منه الصليبيون والروم، وكان من أثر ذلك أن اتفقوا وقاموا بحملتهم الثانية التي تصدى لها ابنه نور الدين محمود بعد استشهاد أبيه رحمه الله<sup>(١)</sup> .

قل أبو شامة : وهنأه القيسراني<sup>(٢)</sup> عند فتح الرها بقصيدة أولها :  
هو السَّيْفُ لَا يُغْنِيكَ إِلَّا جِلَادُهُ      وهل طَوْقُ الْأَمْلاكِ إِلَّا نِجَادُهُ  
وعن ثَغْرِ هَذَا النَّصْرِ فِلْتَاخِذِ الطُّبَى      سناها وإن فَاتَ الْعِيُونَ انْقَادُهُ  
سَمَتِ قُبَّةَ الْإِسْلَامِ فَخْرًا بَطُولُهُ      ولم يكُ يَسْمُو الدِّينُ لَوْلَا عِمَادُهُ  
وَذَا قَسِيمُ الدَّوْلَةِ ابْنُ قَسِيمِهَا<sup>(٣)</sup>      عن الله مَا لَا يُسْتَطَاعُ ذِيادُهُ  
لِيَهْنِ بَنِي الْإِيمَانِ أَمِنْ تَرْفَعَتِ      رواسيه عِزًّا واطْمَأْنَنَ مِهَادُهُ  
وَفَتْحِ حَدِيثٍ فِي السَّمَاعِ حَدِيثُهُ      شهىُّ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ مُعَادُهُ  
أَرَاخَ قُلُوبًا طَرُنَ مِنْ وَكُنَاتِهَا      عليها فَوَافَى كُلَّ صَدْرٍ فَوَادُهُ  
لَقَدْ كَانَ فِي فَتْحِ الرَّهَاءِ دَلَالَةٌ      على غَيْرِ مَا عِنْدَ الْعُلُوجِ اعْتِقَادُهُ  
يُرْجُونَ مِيلَادَ ابْنِ مَرْيَمَ نُصْرَةً      ولم يُغْنِ عِنْدَ الْقَوْمِ عَنْهُمْ وَلَادُهُ  
مَدِينَةُ إِفْكٍ مِنْذُ خَمْسِينَ حِجَّةً      يَفْلُ حَدِيدَ الْهِنْدِ عَنْهَا حَدَادُهُ

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨/٩ - ٩ ، كتاب الروضتين ١/١٣٨ - ١٤٢ .

(٢) هو محمد بن نصر بن صغير القيسراني أحد الشعراء المتميزين .

(٣) قسيم الدولة هو لقب والد عماد الدين زنكي وقد لقبه الشاعر بلقب أبيه .



تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنّها      ترقّت إليه خان طَرْفًا سوادهُ  
 وجامحةٌ عزّ الملوك قيادها      إلى أن ثناها من يعزّ قيادهُ  
 فأوسعها حرّ القراع مُؤيدٌ      بصيرٌ بتمرّين الألدّ لدادهُ  
 كأنّ سنا لُع الأسنّة حوّلُه      شَرارٌ ولكنّ في يديه زِنادهُ  
 فأضرمها نارين: حربًا وخدعةً      فما راع إلاّ سورُها وانهدادهُ<sup>(١)</sup>

#### من مواقفه الإدارية والسياسية:

ذكر المؤرخ أبو شامة أن عماد الدين زنكي كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ليعرف كفايتهم في المجالات الحربية والإدارية، وذكر من ذلك أنه سلّم يوماً أحدهم نوعاً من الطعام وقال له: احفظ هذه، فبقي ذلك الطعام معه سنة لا يفارقه خوفاً من أن يطلبه منه، فلما كان بعد ذلك سأله عن الطعام فأخرجه من منديل كان معه وقدمه له، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي له أن يكون مستحفظاً على حصن، فولاه على قلعة كُواشَى، فبقي بها إلى أن قتل عماد الدين.

ثم قال المؤرخ أبو شامة: وكان لا يُمكن أحداً من خدَمه من مفارقة بلاده وكان يقول: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدُخول، فإذا خرج منها من يدلُّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفةً من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، ومَلَكهم كلّ ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج، وجعله ملكاً لهم، فكانوا يُغادون الفرنج بالقتال ويُراوونهم، وأخذوا كثيراً من السَّواد وسدُّوا ذلك الثغر العظيم. ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ست مئة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودعَ بعضها بالموصل، وبعضها بسنّجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره<sup>(٢)</sup>.

(٢) كتاب الروضتين ١/١٥٩.

(١) كتاب الروضتين ١/١٤١ - ١٤٢.

قال: وكان الشهيد قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قُتل إلا بذنب يُوجب التغير، والأُمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا أخيراً، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشهرزوري، فيُحسنون إليه ويؤنسونه غربته فيعود كأنه أهل. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف<sup>(١)</sup>.

#### موقف للقاضي كمال الدين ابن الشهرزوري:

قال ابن الأثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام، ورأوا الأمر قد فات، أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب وحاصروها، فلم يرَ الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريباً منهم، يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود ينهى إليه حال البلاد وكثرة العدو، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا، ويجعل السلطان هذا حجةً ويُنفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال الشهيد: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار. قال: فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء، وكتبُ الشهيد إليّ متصلةً يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطبُ فلا أزدُ على الوعد، قال: فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرتُ فلاناً - وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء - فقلتُ: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد

(١) كتاب الروضتين ١٦٢/١ - ١٦٣.

والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوت واحد: وإسلاماه! وأدين محمداه!!، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان، ويكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقليل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة. فقال: أحضروا ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد. وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: اردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ما شئت، وسر بهم والأمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرقوا. وانتخب من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر، وأنه لم يبق غير المسير، وأجدد استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وإذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر أن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطفأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس - يعني كمال الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويوفّر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمس مئة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبّرون دولتي! إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر، وغيره يكثر له خمس مئة دينار! فإن شغلًا واحدًا يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مئة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

فهذا الخبر فيه مثل من عظمة الرجال، فهذا القاضي كمال الدين بسياسته وحنكته وحسن تدبيره يلجئ ذلك السلطان إلى أن يخرج العساكر وهو لا يريد، فلما أن انقضت الحاجة إليهم وخاف منهم على إمارة عماد الدين زنكي أعادهم بالحيله والدهاء مع إصرار السلطان على مسيرهم، فبمثل هذا الرجل العبقري تنتظم الأمور وتستقر الممالك.

### الحملة الصليبية الثانية:

قال المؤرخ أبو شامة: قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة [اثنتين وأربعين وخمسمائة] تواصلت الأخبار من ناحية القُسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم؛ منهم الألمان<sup>(٢)</sup> والفنش<sup>(٣)</sup>، وجماعة من كبارهم في العدد الذي لا يُحصّر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النَّفِيرَ النَّفِيرَ إليها، والإسراع نحوها. وخلّوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها والحفظة لها. ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى، بحيث يقال: إن عدَّتْهم ألف ألف من الرّجالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك. وغلبوا على أعمال قُسطنطينية، واحتاج

(١) كتاب الروضتين ١/١٣٢ - ١٣٥.

(٢) قال المعلق: استعملت كلمة الألمان هنا علمًا على الإمبراطور كنراد الثالث.

(٣) قال المعلق: هو برتراند بن ألفنسو جوردان، كونت تولوز.

ملكها إلى الدُخول في مُداراتهم ومسالمتهم، والنزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم، شرعت ولاية الأعمال المصابقة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم، لكي يمنعوه من العبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شن الغارات على أطرافهم، واستحرق القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوت والعُلوفاً والميرَ وغلاء السعر - إذا وجدوه - ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين [يعني وخمسمائة]، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

قال: ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مئة ألف، وقصدوا البيت المقدس، فقضوا حجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرَّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين، فاستعدَّ لحربهم، فجاءوا في تقدير خمسين ألفاً، ودنوا من البلاد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها<sup>(١)</sup> فصادفوا الماء مقطوعاً، ناحية المزة فخيَّموا عليها لقربها من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورجلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوَّل، ونشبت الحربُ بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير، واستظهر الكُفَّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيَّموا فيها، وقربوا من

---

(١) قال المعلق: ذكر وليم الصوري أنهم نزلوا على داريا، وهي المقصودة هنا، إذ أن الجيوش المهاجمة لدمشق غالباً ما كانت تأتي عن طريق داريا.

البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً وحديثاً منه، وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها، وهدوا الفطائر<sup>(١)</sup>، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياح لهول ما شاهدوه، والروع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور، وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاءً حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق - وكان شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً - خرج راجلاً، فرآه معين الدين، فقصده وسلم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقبله ولا نَسْتَقِيلُهُ. يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ [التوبة: ١١١]. وتقدم فقاتل الفرنج حتى قُتل، رحمه الله، عند النيرب شهيداً. وقوي أمر الفرنج، وتقدموا فزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين<sup>(٢)</sup> يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجداً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعى كل من يُطبق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة -والعياذ بالله - علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبعد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا

(١) قال المعلق: الفطائر هي جدران ترابية تفصل ما بين بساتين غوطة دمشق.

(٢) هو سيف الدين غازي أخو نور الدين، صاحب الموصل.

أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها، وأعود إلى بلادي. فمأطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج. فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهددهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلّمت البلد إليه، وحينئذ لا تطمعون في السّلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلّمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدس. وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان، وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالسّاحل. فأجابهم إلى الرّحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود، رحمه الله<sup>(١)</sup>.

هذه الحملة المذكورة في الخبر هي الحملة الصليبية الثانية، وقد كانت الحملة الأولى هي التي سيطر فيها الصليبيون على القدس وأكثر مدن الساحل الشامي، ولما تمت المقاومة الإسلامية التي سبق ذكرها بدأ الصليبيون بالقلق والضجر والخوف على مستقبل وجودهم في الشام، وخاصة بعد ظهور المجاهد الشهيد السلطان عماد الدين زنكي، وكان فتح مدينة الرها قاصمة الظهر عندهم، حيث كانت أهم معاقلهم الحربية فدبروا تجنيد هذه الحملة الكبيرة الرهيبة ليقضوا على دول الإسلام الصغيرة ويثبتوا وجودهم في الشام لتبقى لهم القدس دون منازع من المسلمين.

وقد ساروا بهذه الحملة من غرب أوروبا وقطعوا آلاف الأميال حتى وصلوا إلى القسطنطينية، فهادنهم ملك الروم وسالمهم وقدم لهم المعونات.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٨٤ - ١٩١.

ولما ساروا جنوباً متوجهين نحو بلاد الإسلام انهال عليهم المسلمون من التركمان وغيرهم فى حرب عصابات خاطفة أفنوا فيها عدداً كبيراً من الصليبيين، ولقد كان هؤلاء المسلمون موفقين حينما اختاروا حرب العصابات لأن جيشاً قوامه ألف ألف مقاتل لا يمكن مواجهته ميدانياً بأعداد قليلة، فكانت حرب العصابات أنجح وسيلة لمقاومة ذلك الجيش والفتك به .

ثم جاءت المرحلة الثانية من مراحل إفناء ذلك الجيش الكبير وهي قطع الميرة عنهم ومحاصرتهم اقتصادياً، حيث هلكت أكثر دوابهم لعدم وجود العلف الكافي، ومات كثير منهم من الجوع والأمراض المترتبة على نقص الطعام، ولقد كانوا فى سياستهم الحربية قد أخطؤوا فى إقدامهم بذلك العدد الكبير فى تلك الرحلة الطويلة، حيث دخلوا بلاداً إسلامية وليس فيها مدن كبيرة يمكن أن يستولوا عليها ويؤمنوا منها ما يكفيهم ويكفي دوابهم .

ولقد كان أولئك المسلمون مخلصين لدينهم وأمتهم حيث لم يقوموا بإمداد ذلك الجيش بما يسد حاجته، ولم يهادنونه، بل قاموا بمقاومتهم، فكانت تلك الغارات الإسلامية والمقاطعة الاقتصادية سبباً فى هلاك أكثرهم، حيث لم يصل إلى الشام منهم إلا مائة ألف، وربما عاد بعضهم أثناء الطريق، وهؤلاء الباقون لما وصلوا إلى بيت المقدس وقضوا حجبهم رجع منهم خمسون ألفاً وبقي أكبر ملوكهم «كنراد الثالث» فى خمسين ألفاً .

وقد قرر أولئك الأعداء غزو مدينة دمشق، وكان ذلك بعد مقتل الشهيد عماد الدين زنكي وتولي ولديه سيف الدين على الموصل وما حولها، ونور الدين على حلب وما حولها، وقد استعد لحربهم الأمير معين الدين أنز الذي كان يحكم باسم مجير الدين أبق، وكان مملوكاً لطغديك بن جد مجير الدين .

وإن مما ينبغى التنويه به الموقف السياسى الحربى لكل من سيف الدين حاكم الموصل ومعين الدين الحاكم الفعلي لدمشق، حيث قام كل واحد منهما بتهديد الصليبيين الغازين والصليبيين القدامى الذين استولوا على بعض بلاد الشام، وما



قام به معين الدين من محاولة التفريق بين الفريقين من النصاري، حيث كان كله سبباً في رحيل الصليبيين عن دمشق.

كما أنه مما ينبغي التنويه به الموقف الجهادي للعالم الرباني يوسف الفندلاني، على الرغم من كبر سنه وما قام به من تذكير المسلمين بالمعنى السامي لقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...﴾ [التوبة: ١١١]، وكذلك موقف الزاهد العابد عبد الرحمن الحلحولي في المسارعة إلى الجهاد، وقد أنالهما الله تعالى مناهما، حيث ظفرا بالشهادة في سبيل الله جل وعلا.

\* \* \*

### ٣- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين

هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، تولى إمارة حلب، ثم اتسعت سُلطنته حتى شملت بلاد الشام والجزيرة ومصر والحجاز واليمن، وقد اشتهر بالعدل في الحكم، حتى قال عنه المؤرخ ابن الأثير: وقد طالعت سِيرَ الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل<sup>(١)</sup>.

كما أنه قد اشتهر بالشجاعة وحب الجهاد، وقد ذكر ابن الأثير من شجاعته أنه كان في الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما، وأن الفقيه القطب التساوي قال: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام فإنك إن أُصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا، من قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو<sup>(٢)</sup>.

ولقد ظل رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى أضعفهم وقلص من وجودهم في الشام، وكان حُلُمه الكبير أن يفتح بيت المقدس ويظهرها من الصليبيين ولكن وافته المنية في سنة تسع وستين وخمسائة قبل أن يتحقق ذلك، ولكن فتحها تم بعد ذلك على يد صلاح الدين الأيوبي.

#### أمثلة من سياسته الحربية:

قال أبو شامة: قال ابن الأثير: وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج - خذلهم الله تعالى - وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله، حتى جعله في خدمته سَفَرًا وحضرًا، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسلك، وقلاعه

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥. وقد استمر حكمه ما بين عامي واحد وأربعين وتسعة وستين وخمسائة.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥.

منبعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرُه غيرَ هذا الطريق ملكَ المتولي الأرمن بعد مליح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرقٌ واسع لا يُمكن رقعته.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلفَ ولدًا أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتبَ معه رجلاً عاقلاً يثقُ إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. وكان أيضاً يثبت أسماءَ أجنادٍ كلِّ أميرٍ في ديوانه وسلاحهم؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد، ويقول: نحن كل وقت في النّفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عيائناً<sup>(١)</sup>.

ففي الخبر الأول مثلٌ من التخطيط الحربي البارِع والسياسة العالية، فبالسياسة الحكيمة والتآليف بالمال دفع نور الدين شر ذلك الحاكم الأرمني وحوَّلَه إلى خدمته ضد أعدائه من الإفرنج.

وفي الخبر الثاني استطاع نور الدين الحصول على ولاء الجنود وضمن استمرار حماسهم في القتال وطاعتهم التامة للقيادة، وبأولئك الجنود الذين ضمنوا مستقبلهم ومستقبل أسرهم استطاع نور الدين أن يتفوق في المجال الحربي على أعدائه.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٤.

### مثل من سياسة الوزير جمال الدين:

قال ابن الأثير: لما قُتل أتابك الشهيد<sup>(١)</sup> ركب الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود - وكان مع الشهيد - واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير<sup>(٢)</sup> إلى الصَّلاح<sup>(٣)</sup> يقول له: المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً نبقى به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله وتداركه في بدايته لَيَتَسَعَنَ الخرقُ ولا يمكن رقعهُ. فأجابه الصَّلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصَّلاح، وقالوا له: إنَّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطيعهُ. فقبل قولهما، وظنَّ حقاً، وقربهما طمعاً أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالموصل يُعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي - وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر - وإحضاره إلى الموصل، وكان بشَهْرَزُور، وهي إقطاعه من أبيه. ففعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك، وقال الجمال للملك: إنَّ من الرأي أن تُسير الصَّلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدبر أمره - وكانت حماة إقطاع الصَّلاح - فأمره فسار، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرِّقَّة. فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنِّساء، وأراد أن يُعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل والنَّعم الوفرة. وشرع الجمال يستميل العسكر ويُحلفُ الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكلُّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرِّقَّة عِدَّةَ أيام، ثم سار به إلى ماكسين فتركه بها عِدَّةَ أيام أيضاً، قد

(١) يعني عماد الدين زنكي والد نور الدين.

(٢) جمال الدين هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور.

(٣) يعني أمير مدينة «حماه».

اشتغل بلداته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سنجار. وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقر بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سنجار، فأرسل إلى دُردارها وقال له: لا تُسلم البلد ولا تُمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له: إنّا تبع الموصل، فمتى دخلت الموصل سلّمت إليك البلد، ففعل الدُردار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أنّا نسير إلى الموصل، فإنّ مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلّم البلاد. فساروا عن سنجار، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هارين من الملك، فبقي في قلّة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبّيسي في عسكر إلى الملك، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. واستقرّ أمر سيف الدين، وأقرّ زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف له وأقرّه على البلاد، وأرسل له الخلع. وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفيراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقّف.

قال ابن الأثير: فانظروا إلى فعل جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: والناس ألف منهم كواحد. وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين<sup>(١)</sup>.

أقول: فما قام به هذا الوزير جمال الدين عملٌ محمود، لأنه عمل على تثبيت السلطة بيد شاوين صالحين عادلين، وهما سيف الدين ونور الدين ابنا عماد الدين زنكي، ونقل السلطة بدهائه وحسن سياسته من حاكم موصوف بشرب الخمر والإغراق في الملذات، وإن المتتبع لمراحل عمله السياسي في هذا الأمر يعجب من قدرته على حفظ مشاعره وكتمان خطته إلى آخر لحظة من انتقال السلطة.

---

(١) كتاب الروضتين ١٦٩/١ - ١٧١.

## مثل من مواقف الإصلاح:

قال أبو شامة: قال ابن الأثير: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتخليفه<sup>(١)</sup> وتقرير أمر البلاد عبّر إلى الشام لينظر في تلك النواحي، ويقرّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يرأسله ويستميله، فكلّمًا طلب نور الدين شيئًا أجابه إليه استماله لقلبه. واستقرّت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيّفي، ومع كل واحدٍ منهما خمسمائة فارس، فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحين رآه عرفه، فترجّل له، وقبّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبّ الناس إليّ؟ فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهّز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده<sup>(٢)</sup>.

فهذا موقف جليل من هذين الأخوين بعد توجس من نور الدين يُعذر فيه، وذلك أن الإمارة تحمل صاحبها أحيانًا على الغرور والتعاضم وحب الأثرة، خاصة مع وجود وزراء السوء الذين يضحّمون في عين السلطان خطورة منافسة الآخرين، ويسهلون له ركوب المخاطر من أجل القضاء عليهم والانفراد بالسلطة، ولكن هذين الأميرين لم يكونا من هذا النوع، وكان نور الدين بارعًا حينما أظهر لأخيه سيف الدين مظاهر الاحترام والتبجيل.

(١) أي تخليف السلطان مسعود.

(٢) كتاب الروضتين ١٦٩/١ - ١٧٢.

## معركة يغرَى:

ومن أخبار جهاد السلطان نور الدين ما ذكره العلامة المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حيث قال: في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكى الفرنج بمكان اسمه «يغرَى» من أرض الشام، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم نور الدين فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرَى، واقتتلوا قتالا شديداً انجلت المعركة عن انهزام الفرنج، وقُتل منهم كثير، وأسر جماعة من مُقدّمِيهم، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل<sup>(١)</sup>.

## انتصاره على الصليبيين وفتح أنطاكية:

ذكر أبو شامة في حوادث سنة أربع وأربعين وخمسمائة أن نور الدين أنفذ إلى معين الدين والى دمشق يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقاءه، والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بُزَّان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، من الظهور على حشد الإفرنج المخدول، ولم يفلت منهم إلا من خبر بيوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتل سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بِأَنْبَ وهم في نحو أربعمئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس مقدّمهم صريعاً بين حُماته وأبطاله، فعرف وقُطع رأسه وحُمِلَ إلى نور الدين. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس، وقوة الحيل وعظم الخلقة، مع اشتهاار الهيبة وكثرة السطوة، والتَّناهي في الشَّرِّ، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية، وقد خلّت من حُماتها، والذَّابِّين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردّدت المرسلات بينه وبينهم في

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٢ .

طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من النَّاصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التَّحَف والمال، واستمهلوا فأمهلوا ثم رَتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفاعية، وقد كان رَتَّب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنزلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان، فأمنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قُرب من الأعمال الحليَّة له، وما قُرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعقل وغيرها المغنم الجمَّة. وفصل عنه الأمير مجاهد الدين بُزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الواقعة ولن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبراعة، وإصابة الرأي، والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقتلَ البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليدُ البيضاء، ومدحه بها بعضُ الشعراء الحليين بقصيدة يقول فيها:

إِنْ كَانَ آلُ فَرَنْجٍ أَدْرَكُوا فَلَحًا	فِي يَوْمٍ يَغْرَا وَنَالُوا مُنِيَّةَ الظَّفَرِ
فَفِي الْخَطِيمِ خَطَمْتَ الْكُفْرَ مُنْصَلَّتًا	أَبَا الْمُظَفَّرِ بِالصَّمْصَامَةِ الذِّكْرِ
نَالُوا بِيَغْرَا نَهَابًا وَانْتَهَبْتَ لَنَا	عَلَى الْخَطِيمِ نَفُوسَ الْمَعِشَرِ الْأَشِيرِ
وَاسْتَقْدُوا الْخَيْلَ عُرْيًا <sup>(١)</sup> وَاسْتَقَدْتَ لَنَا	قَوَامِصَ <sup>(٢)</sup> الْكُفْرِ فِي ذُلٍّ وَفِي صَغَرِ

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاحٌ كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً<sup>(٣)</sup>.

(١) أى لا سروج عليها

(٢) جمع قمص وهو اسم أحد ملوك الصليبيين

(٣) كتاب الروضتين ١ / ٢٠٤ - ٢٠٦



## فتح حصن فامية:

قال ابن الأثير: <sup>(١)</sup> وفيها سار نور الدين إلى حصن أفامية - وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها - وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملاؤه ذخائر؛ من طعام ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصّاراهم أن صالحوه على ما أخذ، ومدّحه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن منير، قال:

أسنى الممالك ما أطلت منارها      وجعلت مرهقة الشفار دثارها  
وأحق من ملك البلاد وأهلها      رؤف تكنف عدله أقطارها  
من عم سام الخافقين وحامها      منّا وزاد هوى فخص نزارها  
وذلك فى قصيدة له طويلة <sup>(٢)</sup>.

## صلحه مع أهل دمشق:

قال المؤرخ أبو شامة: ففي مستهلّ المحرم -يعني من سنة خمس وأربعين وخمسائة- تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسبب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها، بعدما اتّصل به من أخبار دعتّه إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعادته مكرماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعادته إلى البلد، وخرج إليه جماعة من

(١) أى سنة أربع وأربعين وخمس مئة.

(٢) كتاب الروضتين ١ / ٢١٧.

الأجناد والخواصَّ إلى المخيم، واختلطوا به، ووصل من استمأجه من الطُّلاب والقرَّاء والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دبرَ.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك الله إن حاربت فالنَّصرُ والفتحُ  
وهل أنتَ إلا السَّيفُ في كلِّ حالةٍ  
سقيت الرُّدَيْنِيَّاتِ حتى رَدَدَتْهَا  
وما كان كفُّ العزمِ إلا إشارةً  
وقد علِمَ الأعداءُ مَذْبِتَ جانحاً  
إذا ما دمشقٌ ملَّكتك عِنانَهَا  
متى التفُّ نَقْعُ الجَحْفَلينِ على الهدى  
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً  
ترَكَتْ قلوبَ الشُّركِ تشكو جراحَهَا  
صَبَرْتَ فكان الصَّبْرُ خيرَ مَغْبَةِ  
كأن القنَّاء تجلو له وجْهَ أمره  
بدولتك الغرَّاء أصبحَ ضُدُّهَا  
وكم من قريحِ القلبِ لو باتَ وارداً  
سخا بك هذا الدهرُ جوداً على الورى  
وقد كان يحو رَسَمَ كلِّ فضيلةٍ  
بك ابتهج الألباب وابتهج الحجا  
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلا  
فلا قلبَ إلا قد تملَّكتَه هوى

وإن شئتَ صلحاً عدَّ من حَزَمك الصلحُ  
فَطَوَّراً له حدُّ وطوراً له صَفْحُ  
ترنَّحُ من سُكْرِ فخلِّ القنَّاء تصحو<sup>(١)</sup>  
إلى الحزمِ لولم يغضبِ السيفُ والرُّمَحُ  
إلى السِّلَمِ ما تنوى بذاك وما تنحوا  
تيقنَ من في إيليا<sup>(٢)</sup> أنه الذَّبْحُ  
فلا مَهْمَةٌ يحوي الضَّلَّالَ ولا سَفْحُ  
فقولاً لليل الإفك قد طَلَعَ الصُّبحُ  
فلا زالت الشكوى ولا اندملَ الجرحُ  
فسيقَ إليك المُلْكُ يسعى به النُّججُ  
ولو أمهلتُ بلقيس ما غرَّها الصَّرحُ  
بهيمًا ولولا الحُسْنُ ما عُرِفَ القُبْحُ  
مواردَ هذا العدلِ ما مسه قرْحُ  
على أنه مازال في طبعه شُحُّ  
ونحن نراه اليومَ يُثْبِتُ ما يَمْحُو  
وأثمرتِ الآدابُ واطَّردَ المدحُ  
ودانت لك الدنيا وعزبك السرح  
ولا صدر إلا قد جلاه لك النصح

(١) أى قاتلت بالرماح حتى امتلأت من الدماء.

(٢) يعني بيت المقدس.

وما الجودُ في الأملاك إلا تجارةً      فمن فاته حمْدُ الورى فاته الربُّ  
ولم أختصرْ ما قلتُ إلا لأنني      أعبرُ عما لا يقومُ به الشَّرحُ<sup>(١)</sup>

فهذا الذي قام به نور الدين محمود هو انتصار من نوع آخر، وهو مثل من العفو عند المقدرة، والإحجام عن القتال والجنوح إلى الصلح حقناً لدماء المسلمين، وقد كان بلغ نور الدين ما يسير عليه حكام دمشق من مخالفة أمور الدين فعزم على الاستيلاء عليها لتطهيرها من تلك المخالفات، فلما قبل حكامها بالسير على سبيل الاستقامة واعترفوا لنور الدين بنسبة من التبعية تضمن استمرارهم في الاستقامة على أمور الدين، رجح سلوك جانب الصلح، لأن هدفه هو الإصلاح وليس التوسع في الملك. ولقد أجاد وأبدع الشاعر القيسراني في تصوير هذا الموقف بقصيدته هذه الرائعة.

#### استيلاؤه على حصن عزاز وما حوله:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ست وأربعين وخمسمائة أن نور الدين استطاع أن يأسر جو سلين الذي كان أعظم ملوك الفرنج شجاعة ودهاء، وكان قد استولى على قرى وحصون شمالي مدينة حلب لما فقد إمارة الرها، وكان نور الدين قد وضع عليه العيون، فلما خرج للصيد أبلغوا أبا بكر بن الداية نائب نور الدين على حلب فجاء بفرقة معه فأسره، وقد فرح المسلمون كثيراً بأسره لشدة أذاه عليهم، وأصيب النصاري به لشدة غنائه فيهم، واستولى بعد ذلك نور الدين على قلاعه وحصونه ومنها عزاز.

وقد مدحه الشعراء على ذلك، ومما قيل فيه قصيدة للقيسراني يقول فيها معرضاً بجوسلين:

طغى وبغى عدوّاً على غُلّوائه      فأوبقه الكُفران عدّواه والكفرُ  
وأمست عزّاز كاسمها بك عزّة      تشقُّ على النّسرَيْن<sup>(٢)</sup> لو أنها وكر

(١) كتاب الروضتين ١ / ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) النسران كوكبان، وسميا بذلك تشبيها بالنسر الطائر.

فَسِرْ وَأَمْلِكِ الدُّنْيَا ضِيَاءً وَبَهْجَةً      فَبِالْأُفُقِ الدَّاجِي إِلَى ذِي السَّنا فَقِرْ  
كَأَنِّي بِهَذَا الْعِزْمِ لَا فُلَّ حَدُّهُ      وَأَقْصَاهُ بِالْأَقْصَى<sup>(١)</sup> وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ  
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ طَاهِرًا      وَلَيْسَ سِوَى جَارِي الدِّمَاءِ لَهُ طَهْرٌ<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر المؤرخ أبو شامة فتح عزاز، وأن نور الدين توجه في عسكره إلى عَزَازَ، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أن سَهَّلَ اللهُ تعالى ملكها بالأمان، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرُّفْعَة. فلما تسَلَّمَهَا رَتَّبَ فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول. ثم ذكر قصيدة لابن منير في فتح عزاز وغيرها أولها:

فَدَتَكَ الْقُلُوبُ بِالْبَابِهَا      وَسَاحُ الْمُلُوكِ بِأَرْبَابِهَا  
كَتَائِبُ تَرْمِي جُنُودَ الصَّلَاةِ      بِ مِنْهَا بِتَقْطِيعِ أَصْلَابِهَا  
إِذَا مَا انْثَنَتْ مِنْ قِرَاعِ الْكُمَاةِ      كَسَتْ وَفَدَهَا وَشَيْ أَصْلَابِهَا  
إِلَى أَنْ قَالَ:

لَكَ الْفَضْلُ إِنْ رَاسَلْتِكَ الْجِيَادَ      وَقَامَتْ أَدَلَّةُ أَنْجَابِهَا  
إِذَا اعْتَسَفَتْ هَمَمُ الْجَائِرِينَ      أَتَيْتَ السَّيَادَةَ مِنْ بَابِهَا  
أَبُوكَ أَبُوهَا وَأَنْتَ ابْنُهَا أَلْ      عَرِيقُ وَدَمِيَّةٍ مُحْرَابِهَا  
أَقُولُ لِمُؤْجِرِهِ بِالْغُرُورِ      تَمَطَّتْ هَوَاهَا فَأَهْوَى بِهَا  
حَذَارٍ فَعِنْدَ ابْتِسَامِ الْغِيُو      ثِ يَخْشَى صَوَاعِقَ أَلْهَابِهَا  
وَلَا تُخْدَعُوا بِافْتِرَاءِ اللَّيُو      ثِ فَالنَّارُ فِي بَرْدِ أَنْيَابِهَا<sup>(٣)</sup>

### معركة دلولك وفتحها:

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة سبع وأربعين وخمسمائة أن الفرنج تجمعت وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه

(١) أي المسجد الأقصى.

(٢) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٩ - ٣٠.

(٣) كتاب الروضتين ١ / ٢٤٣ - ٢٤٥.

من مُلْكُهَا، فوصلوا إليه وهو بدُّوك، فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم، وجرى المصافَّ بينهم عند دلوک، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم انهزم الفرنج وقُتل منهم وأُسر كثير، وعاد نور الدين إلى دلوک فاستولى عليها، ومما قيل في ذلك ما قاله ابن منير في قصيدة له طويلة منها:

أعدتَ بعصرک هذا الأنيـد      قِ فتوحَ النبيِّ وأعصارها  
وكان مُهاجرُها تابعيـ      لك وأنصارُ رأيك أنصارها  
فجددتَ إسلامَ سلمانها      وعمرَ جدُّك عمَّارها<sup>(١)</sup>

### فتح قلعة حارم:

ثم ذكر ابن الأثير أن نور الدين عزم على فتح قلعة حارم المنيعة وهي قرب أنطاكية ولها أهمية كبيرة عند النصارى، وحاصرها وضيق عليها، وقد اجتمعت الفرنج لترحيله عنها ولكن أحد عقلائهم في القلعة أشار عليهم بعدم مواجهة نور الدين لعدم مقدرتهم على قتاله، ثم حاصرها مرة أخرى فصالحوه على تسليمه نصف أعمال القلعة.

ثم في المرة الثالثة عزم على فتح القلعة، واستنجد بأخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة، وبفخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وبنجم الدين ألبى صاحب ماردين، فأما قطب الدين فإنه سار مُجِدًّا وفي مقدَّمته زين الدين علي أمير جيشه، وأما فخر الدين صاحب الحصن فإنه استشار خواصه فقالوا: على أي شيء عزمتم؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة، وهو يُلقي نفسه في المهالك، فكلهم وافقه على هذا الرأي، فلما كان من الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه: فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أُنجِده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا يذكُرُ لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثُّوا المسلمين على الغزاة، فقد

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٢، وانظر كتاب الروضتين ١/ ٢٥٥ - ٢٥٧.

قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويككون ويلعنونني ويدعون علي، فلا بد من المسير إليه، ثم تجهز وسار بنفسه.

وأما نجم الدين فإنه سَيرَ عسكرياً. فلما اجتمعت العساكر سار نور الدين نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق، وتابع الزحف عليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاءوا في حُدَّهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم، وقسوسهم ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كل حذب ينسلون، وكان المقدَّم فيهم البرنسُ بيمند صاحبُ أنطاكية، وقمصُ صاحبُ طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج، والدُّوك وهو مقدَّمٌ كبير من الروم، وجمعوا الفارس والراجل.

فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم، فساروا فنزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم، فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن، فانهزم المسلمون فيها، وتبعهم الفرنج، فقليل كانت الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه، وهو أن يتبعهم الفرنج، فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا رجلاً يلجئون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمنهم وعن شمائلهم، فكان الأمر على ما دبروه، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلاً وأسراً، وعاد خيالهم ولم يُمعنوا في الطلب خوفاً على راجلهم، فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى، فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط قد أحرق بهم المسلمون من كل جانب، فاشتدت الحرب، وكثر القتل في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة، فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر، فأسروا ما لا يُحدِّد، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس «القمص» وكان شيطان الفرنج وأشدَّهم شكيمة على المسلمين، والدُّوك مقدَّم الروم، وابن جوسلين، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف.

وقد فادى نور الدين بالأسرى عدداً كبيراً من أسرى المسلمين .

وكان للشعراء دور طيب فى الثناء على نور الدين وتأيينه فى حصار تلك القلعة وفتحها ، ومن ذلك قصيدة لأحد الشعراء اكتفى بذكر أبيات منها يقول فيها :

أَلْبَسْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ يَا نُورَهُ      عَزَّ لَهُ فَوْقَ السُّهَىٰ أَسَادُ  
مَازَلْتُ تَشْمَلُهُ بِمَيَّادِ الْقَنَا      حَتَّىٰ تَثَقَّفَ عَوْدَهُ الْمَيَّادُ  
لَمْ يَبْقَ مَذْأَرُهُفْتُ عَزْمَكَ دُونَهُ      عَدَدُ يُرَاعُ بِهِ وَلَا اسْتَعْدَادُ  
إِنْ الْمَنَابِرَ لَوْ تَطِيقُ تَكَلُّمًا      حَمَدَتُكَ عَنْ خُطْبَائِهَا الْأَعْوَادُ  
مَنْ مُنْكَرٍ أَنْ يَنْسِفَ السَّيْلُ الرِّبَا      وَأَبُوهُ ذَاكَ الْعَارِضَ الْمَدَّادُ  
لَا يَنْفَعُ الْآبَاءَ مَا سَمَكُوا مِنْ آلِ      عَلِيَاءَ حَتَّىٰ يَرْفَعَ الْأَوْلَادُ<sup>(١)</sup>

وهكذا سعد المسلمون بهذه الانتصارات الكبيرة على الصليبيين بعد أن لقي منهم المسلمون عنتاً شديداً فجادت قرائح الشعراء بالقصائد العصماء فى مدح الإمام العادل والمجاهد البطل نور الدين محمود، وإن هناك ما هو أعظم من المدائح الشعرية مما لا يسطر فى الكتب إلا قليلا، ألا وهو لهج ألسنة الصالحين بالدعاء، وهذا عند نور الدين وأمثاله أهم كثيراً وأعظم .

ولقد أثبتت هذه الوقائع وغيرها أن نور الدين مع ما اتصف به من الشجاعة والإقدام كان ذا رأي مسدد فى الحرب، وإلى ذلك ترجع بعض انتصاراته على الأعداء .

هذا وقد ذكر المؤرخ أبو شامة أخبار هذا الحصار والفتح ثم قال :

قلت: وبلغنى أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قبيله، انفراد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل، ومرغ وجهه وتضرع، وقال: يارب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود فى الوسط؟ يشير إلى أنك يا رب إن نصرت

(١) الكامل فى التاريخ ٩ / ٤٩ ، ٧٩ ، ٨٦ - ٨٧ . وذلك فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وسبع وخمسين وخمسمائة وتسع وخمسين وخمسمائة .

المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر! وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق<sup>(١)</sup>.

### انتصاره في معركة الملاحه:

قال المؤرخ أبو شامة: قال أبو يعلى: وفي تاسع جمادى الأولى من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة سقطت الأطيوار بالكتب من المعسكر التوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين - أعز الله نصره - لما عرف أن معسكر الكفرة الإفرنج على الملاحه؛ بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجد في السير، فلما شارفهم وهم غارون، وشاهدوا راياته قد أظلتهم، بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجل الملك نور الدين، فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهم وخرصان الرماح<sup>(٢)</sup>، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وتمكنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً، واستأصلت السيوف الرجاله، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً، مثاباً مأجوراً، رحمهما الله. وامتألت أيدي العساكر من خيولهم وعددهم، وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً مبيئاً، ونصراً عزيزاً<sup>(٣)</sup>.

(٢) يعني أستتها.

(١) كتاب الروضتين ١ / ٤١٩.

(٣) كتاب الروضتين ١ / ٣٤٣.



## موقف في الثبات لنور الدين:

قال المؤرخ أبو شامة: قال أبو يعلى: وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ورد الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقي الجمعان، وأتفق أن عسكر الإسلام حدث فيه فشل لبعض المتقدمين، فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانه في عدة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولّوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجى الله -وله الحمد- نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته، ولأن من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة وحرص على ذلك، وترددت بين الفريقين مراسلات، ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً.

قلت: وذكر أبو الفتح بنجير بن أبي الحسن بن بنجير الأشتري؛ المعيد -كان- بالمدسة النظامية، في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين، رحمه الله قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست<sup>(١)</sup> وخمسين وخمسمائة، ففضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شردمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء، حاضراً بجميع قلبه، مناجياً ربه بسرّه يقول: يا ربّ العباد، أنا العبد الضعيف، ملكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النّيابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك. فاستجاب الله تعالى دعاءه، وأوقع في

(١) قال المعلق: كذا قال بنجير، وقد وهم، والصواب سنة ثلاث وخمسين كما ساقه أبو شامة في حوادثها.

قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإنَّ أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا ذلك الإلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفيَّين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطُّخ الزَّاهد؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج، وجال بينهما ساعة، وحمل على واحد منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصفِّ<sup>(١)</sup>.

### فتح قلعة بانياس:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة أنه في ذى الحجة من هذه السنة سار نور الدين إلى قلعة بانياس، وهي بالقرب من دمشق، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ولما فتح «حارم» أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همَّهم حفظها وتقويتها، فسار محمود إلى «بانياس» لعلمه بقلعة من فيها من الحماة المانعين عنها، فنازل أهلها وضيق عليهم وقتلهم، وكان في جملة عسكره أخوه نُصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعدُّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى.

وجدَّ في حصارها، فسمع الفرنج فجمعوا، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها، على أن الفرنج قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأسْرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدَّة ورجالا، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرها عليها مالا في كل سنة.

(١) كتاب الروضتين / ١ - ٣٧٦ - ٣٧٨.

ووصل خبر استيلاء نور الدين على حصن حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر، فصالحوا شيركوه<sup>(١)</sup> وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلا وقد استولى عليها نور الدين<sup>(٢)</sup>.

فهذا الخبر فيه مواقف عالية لنور الدين محمود رحمه الله تعالى، فمن ذلك تخطيطه الحربي البارِع، وذلك حينما أوهم أعداءه بأنه سائر إلى طبرية، ثم عاد إلى بانياس، فكان استعداد الأعداء في غير المكان الذي قصد، وترتب على هذه الخدعة الحرية نجاحه في الاستيلاء على بانياس.

وما عمَلَه نور الدين من خداع الأعداء داخل في قول رسول الله ﷺ «الحرب خدعة»<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك عزاؤه البليغ لأخيه الذي فُقِئت عينه في الحرب، وهذا العزاء يدل على عمق إيمان نور الدين ورسوخ يقينه، وعظمة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة.

### فتح حصن المنيطرة وصافينا وعريمة :

وهذه خدعة حربية أخرى يقوم بها نور الدين محمود، فقد ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة إحدى وستين وخمسائة أنه سار إلى حصن المنيطرة - وكان بيد الفرنج - بعدد قليل من جيشه على غرة منهم، وهو يعلم أنه لو جمع عساكره حذروا، فسار إليهم وانتهاز فرصة غفلتهم، فحاصره وجد في قتال أصحابه فأخذه عنوة وقتل بعض رجاله وسبى بعضهم، ولم يجتمع الفرنج للدفاع عنه إلا وقد استولى عليه، فتفرقوا وأيسوا من رده<sup>(٤)</sup>.

وهكذا تكون إدارة الحروب الناجحة: مكاسب كبيرة في مقابل خسائر قليلة.

وقد استمر نور الدين في غزو الصليبيين في بلاد الشام، فقد غزا بلادهم سنة

---

(١) شيركوه هو أسد الدين الأيوبي وهو عم صلاح الدين الأيوبي، وهو من أكبر قادة نور الدين، وقد وجهه للاستيلاء على مصر وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين.

(٢) الكامل في التاريخ ٨ / ٨٧.

(٣) صحيح البخاري، الجهاد، رقم ٣٠٣٠ (٦ / ١٥٨)، صحيح مسلم الجهاد، رقم ١٧٣٩ (٣ / ١٣٦١).

(٤) الكامل في التاريخ ٩ / ٩٤، وانظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٦٩.

ثلاث وستين وخمسمائة فاستولى على بعض قلاعهم وحصونهم ومنها «صافيثا وعريمة»<sup>(١)</sup>.

### القضاء على حملة صليبية:

- على إثر انتصارات نور الدين المتتالية في الشام واستيلائه على مصر<sup>(٢)</sup> بعث الصليبيون إلى دول أوروبا يطلبون نجدهم، ويخوفونهم من استيلاء نور الدين على بيت المقدس، فأرسلوا لهم حملة وصلت إلى دمياط، ولما علم بهم الصليبيون في الشام أمدوهم بالجيوش، وكان أسد الدين شيركوه قد مات وخلفه على ولاية مصر ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فأرسل الجيوش إلى دمياط، واستمد نور الدين فأمدّه بالجيوش أرسالاً وانتهاز فرصة خروج جيوش الصليبيين إلى مصر فأغار على بلادهم في الشام واستولى على كثير منها وخرب كثيراً من حصونهم، وقد قاومهم صلاح الدين في مصر حتى هزمهم، ورجعت الحملة الصليبية إلى أوروبا خاسئة حسيرة، ورجع الصليبيون إلى الشام فوجدوا نور الدين قد استولى على كثير من بلادهم، فخسروا الشام ولم يكسبوا مصر<sup>(٣)</sup>.

وهذا يعتبر نجاحاً كبيراً لنور الدين الذي وُفق برجال أكفاء أقوياء من أمثال أسد الدين وصلاح الدين.

### حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين:

ذكر ابن الأثير حصار نور الدين حصن الكرك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البر، فحاصره وضيق على أهله، ونصب عليه المنجنيقات، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه، وقد جعلوا على مقدمتهم ابن هنغري وفليب ابن الرقيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهم، فرحل نور الدين نحو هذين المقدّمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلما قاربهما رجعا القهقري واجتمعا بباقي الفرنج، وسلك نور الدين وسط بلادهم يفتح القري، وأقام ينظر حركة الفرنج فلم يبرحوا مكانهم.

(١) الكامل ٩ / ٩٦ . (٢) كما سيأتي في جهاد أسد الدين شيركوه .

(٣) الكامل ٩ / ١٠٥ ، وانظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٧٩ .

لكن إحدى سرايا نور الدين انتصرت على سرية من سرايا الصليبيين، وكانت هذه السرية بقيادة شهاب الدين إلياس، وكان قد سار إلى نور الدين ومعه مئتا فارس فصادف ثلاثمائة فارس من الصليبيين، فاقتتلوا واشتد القتال، وصبر الفريقان وكثر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الصليبيون، وعمهم القتل والأسر، ولم يفلت منهم إلا من لا يعتد به<sup>(١)</sup>.

### حملة تأديبية للصليبيين:

ومن أعمال نور الدين الجهادية تلك الحملة التأديبية التي قام بها لتأديب الفرنج لما استولوا على مركبين تجاريين للمسلمين، فقد قام بحملة واسعة فيما تبقى من أملاكهم حتى خضعوا وسلّموا ما أخذوا بذلة وصغار<sup>(٢)</sup>.

وهذا موقف جليل في إظهار عزة دولة الإسلام وحماية مصالح المسلمين.

### حصار الصليبيين لدمياط:

قال المؤرخ ابن الأثير: في هذه السنة [خمس وستين وخمسمائة] في صفر نزل الفرنج على مدينة دميّاط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وأيقنوا بالهلاك، وكتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم، فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة، فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح، واتعدوا للنزول على دميّاط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به الديار المصرية، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين، فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول إنني إن تأخرت عن دميّاط ملكها الفرنج وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتي وساروا في أثرى، والفرنج أمامي فلا يبقى لنا

(١) الكامل ٩ / ١٠٦ .

(٢) الكامل ٩ / ١١٣ .

باقية، فسير نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضا، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ووجدوا بلادهم خرابا وأهلها بين قتل وأسير، فكانوا موضع المثل (خرجت النعمة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين) وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكى أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلى مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر المؤرخ أبو شامة هذا الخبر ثم قال: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزلَ الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحيى من الله تعالى أن يراني متبسمًا والمسلمون مُحاصرون بالفرنج.

وبلغني أن إمامًا لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أَعْلِمَ نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدقني، فاذكر لي علامة يعرفها. فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تلٍّ حارم، وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محمودًا، مَنْ هو محمود الكلب حتى ينصر قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغلّس، ولا يزال يتركّع فيه حتى يصلّي الصبح، قال: فتعرّضتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلها. وألح علي في ذلك، فقلتها فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة<sup>(٢)</sup>.

(١) الكامل ٩ / ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) كتاب الروضتين ٢ / ١٣٩ - ١٤٤.

فهذا مثال على قوة إيمان السلطان نور الدين محمود ورسوخ يقينه، وذلك لحضور قلبه القوي مع الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن النصر بيده عز وجل وحده، ولما كان شديد الاهتمام بأمور المسلمين متحرِّقاً قلبه خوفاً عليهم وعلى انتكاس راية المجاهدين قدر الله تعالى تلك الرؤيا الصالحة التي رآها ذلك الرجل ليبشر نور الدين برحيل الصليبيين عن دمياط، ووقاية الله تعالى المسلمين من شرهم، وقد اشتملت هذه الرؤيا على التذكير بذلك الموقف الجليل لنور الدين حينما سجد على تلٍّ حارم وقال ذلك الكلام الذي يتضرع فيه إلى الله عز وجل بأن ينصر المسلمين وتناسى فيه ذاته ومكانته، وتجسَّم في تفكيره الشوق العارم نحو عزة الإسلام وانتصار المسلمين.

#### مثل من اهتمامه بحماية المسلمين:

قال ابن الأثير، وفي سنة سبع وستين وخمسمائة أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همدان، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج -لعنهم الله- ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربّيها؛ فوجد بها راحةً كبيرة. كانت الأخبار تأتيه لوقتها، لأنه كان له في كل ثغر رجالٌ مرتّبون، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقتته، وعلّقوه على الطائر، وسرّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فأنحفظت الثغور بذلك، حتى إن طائفةً من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد آمنوا لبعد نور الدين عنهم. فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد<sup>(١)</sup>.

(١) كتاب الروضتين ٢ / ٢٢٩.

#### ٤ - جهاد أسد الدين شيركوه

في عهد السلطان العادل نور الدين محمود كان للأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الأيوبي في جهاد الصليبيين في مصر جهود طيبة.

وكان سبب ذلك - على ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة- أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله العبيدي صاحب مصر، نازعه في الوزارة ضرغامٌ وغلبه عليها، فجاء شاور إلى نور الدين وطلب منه أن يمدّه بجيش يستعيد به وزارته في مقابل أن يكون تابعاً له ويبحث له ثلث دُخُل البلاد، وأن يبقى أسد الدين عندهم بجيشه، فشجعه على الاستجابة رغبته في التقوي على الصليبيين حينما يحيط بهم جيش من الشام وجيش من مصر، وقد كان أسد الدين راغباً في ذلك لما عُرِف عنه من الشجاعة والإقدام، فوجهه نور الدين إلى مصر، فكانت مواجهةً بينه وبين ناصر الدين أخي ضرغام، فانهزم ناصر الدين وعادت الوزارة لشاور، إلا أن شاور غدر بأسد الدين ولم يف بشيء مما وعد به، فانهز أسد الدين إلى بلبس، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدّهم ويخوفهم من نور الدين إن استولى على مصر، فجاؤوا من بلاد الشام وأحاطوا هم وجيش المصريين بأسد الدين في بلبس، ولكنه استطاع أن يتحصن منهم بتلك المدينة رغم ضعف أسوارها، وكان يخرج لقتالهم بجيشه ثم يتحصن، وقد بقي على ذلك ثلاثة أشهر إلى أن بلغ الصليبيين أن نور الدين قد استولى على قلعة حارم التي هي من أمنع حصونهم، فطلبوا الصلح مع أسد الدين على أن يسلم ما بيده إلى المصريين، ولم يكن يعلم بما جرى لهم في الشام، إضافة إلى أن الأقوات والذخائر قلت عنده كثيراً.

قال ابن الأثير: وخرج من بلبس في ذى الحجة، فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم ويده لَتٌ من حديد، يحمي ساقاتهم، والمسلمون والفرنجة ينظرون إليه، قال: فأناه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر<sup>(١)</sup> فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء

(١) وهم الذين جاؤوا لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الصليبيون على القتال.



المصريون والفرنجة وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية!! فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يُقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقي.

قال الفرنجي: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رسداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفراً، فعلم بهم فحاد عن ذلك الطريق، ففيه يقول عمارة:

أخذتم عن الإفرنج كل ثنية      وقلت لأيدي الخيل مُرِّي على (مَرِّي)  
لئن نصبوا في البر جسراً فلأنكم      عبرتم ببحر من حديد على الجسر  
ولفظه (مَرِّي) في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج<sup>(١)</sup>.

فهذا الخبر فيه مثل من خيانة بعض أمراء المسلمين آنذاك ووزرائهم حيث كانوا يتحالفون مع الصليبيين ضد المسلمين، وقد كان هؤلاء أشد بلاءً على الأمراء المخلصين للإسلام من الصليبيين أنفسهم، وهذا الوزير وأمثاله كانوا من حكام الدنيا، ولم يكن يهمهم أمر الدين.

أما موقف أسد الدين فقد كان مجيداً حيث ثبت للصليبيين وحلفائهم من المسلمين ثلاثة شهور، ولم يستسلم لهم ولم يطلب منهم الصلح. وفي حوارهِ مع ذلك الصليبي تصوير رائع لشجاعة المسلمين، واستهانتهم بالمهالك في سبيل خدمة دينهم.

وفي آخر الخبر مثل من دقة الرصد الحربي عند المسلمين، حيث أراد الأعداء إهلاك المسلمين أو إضعافهم بالكمين الذي وضعوه لهم ليأخذوهم على غرة، ولكن طلائع المسلمين اكتشفوهم فسلكوا طريقاً آخر، وفوتوا على الصليبيين تلك الفرصة.

(١) الكامل ٩/ ٨٤ - ٨٦ وانظر كتاب الروضتين ١/ ٤١١ - ٤١٤.

## معركة البابين:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وخمسائة خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى بلاد مصر حيث قال: فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الأول في جيش قوي، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان كارهاً لذلك، ولكن لما رأى جدَّ أسد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يُسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البر وترك بلاد الإفرنج على يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، فقصد طفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وحكم عليها، وأقام نيافاً وخمسين يوماً.

وكان شاور [ابن الخياط] لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الإفرنج يستمدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم.

فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكاناً يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى.

قال ابن الأثير في سياق روايته: وكان [يعني أسد الدين] أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه، فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عَطَبَهُمْ فيه أقرب من سلامتهم، لقلّة عددهم وبُعْدِهِمْ عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق، فاستشارهم، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن -فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا؟

فقام أمير من ممالك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعاً . ثم ذكر كلامه في الحث على الثبات والإقدام على قتال الأعداء .

قال : فقال أسد الدين : هذا الرأي وبه أعمل ، وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله ، وكثر الموافقون لهم ، واجتمعت الكلمة على القتال .

فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها ، وجعل صلاح الدين في القلب ، وقال له ولمن معه : إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أنني فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ، ولأتهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدامهم بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم ، واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، ومعهم الفرنج ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معهم على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج ، الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأخذوا وأكثر القتل والأسر ، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم قفراً فانهزموا أيضاً .

وكان هذا من أعجب ما يُؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل<sup>(١)</sup> .

في هذا الخبر مثل من الشجاعة الفائقة والخطط الحربية الناجحة ، فقد صمد ألفان لجيش يفوقهم عدة أضعاف في العدد والعدد وتغلبوا عليهم ، ولقد كان من أسباب هذا التفوق أن جيش أسد الدين كانوا يقاتلون عن إخلاص لقضيتهم ، فكانوا يبذلون قدراً كبيراً من طاقتهم .

ومن أسباب ذلك ما قام به أسد الدين من إعداد تلك الخطة الحربية الرائعة التي فرقّت قوة الأعداء وشلّت من حركتهم ، فقد كان لها الأثر الأكبر في انتصاره وخذلان أعدائه .

---

(١) الكامل ٩ / ٩٤ - ٩٥ .

ولا يغيبنَّ عن البال أن الذين حضروا المعركة من المصريين كانوا من النفعيين الذين رضوا بأن يقفوا مع الصليبيين في صف واحد، أما أهل الاستقامة فإنهم مبعدون عن إدارة الأمور والمشاركة في الحروب لفساد الحكم آنذاك، ومما يدل على ذلك أنه لما توجه أسد الدين إلى الإسكندرية ساعده أهلها وتسلمها بدون قتال، لأنهم يطمنون حكمه بدلا من حكم عملاء الصليبيين، وحينما حاصرها الصليبيون وعملاؤهم صمد أهلها مع صلاح الدين ثلاثة أشهر وكان أسد الدين قد أنابه عليها<sup>(١)</sup>.

ولقد كان للمسلمين المصريين الصادقين مواقف عالية في نصرته الإسلام والمسلمين، فعلى يد جيشهم -بالدرجة الأولى- تم دحر التتار الذين عاثوا فساداً في بلاد الإسلام بقيادة قطز في معركة عين جالوت، وبمشاركتهم الفعالة تم القضاء على الصليبيين في الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين.

ومع هذا الانتصار الكبير لأسد الدين فإنه قد رحل بجيشه عن مصر، ولعل سبب ذلك قلة جيشه حيث لا يتمكن من إبقاء حوامي في البلاد التي يستولي عليها، لكنه عاد بجيشه بعد سنتين إلى مصر لما قوي أمر الصليبيين فيها، وكانوا قد أبقوا بعض شجعانهم في مصر يشرفون على الحكم فيها ويتولون جباية الأموال المقررة لهم على أهل مصر، وقد حكموا على المسلمين حكما جائراً وأذوهم أذى شديداً.

### هجوم النصارى على مصر:

لما رأى هؤلاء النصارى ضعف الحكم في مصر كاتبوا أمير النصارى في الشام وهو «مري» وهو من أشدهم شجاعة ومكرًا ودهاء، فزينوا له غزو مصر لخلوها من المدافعين عنها، وقد فهم لدهائه أن ذلك خطر على النصارى في الشام، لأن ذلك يُحرّض نور الدين عليهم، وأنه لو أرسل أسد الدين إليها لكان هلاك النصارى في الشام لأن نور الدين سيعزّوهم من الشمال والشرق وأسد الدين

(١) الكامل ٩/ ٩٥، وانظر الروضتين ٢/ ١٨ - ١٩.

سيغزوهم من الجنوب، ولكنه لم يستطع إقناع كبراء دولته الذين أصرّوا على غزو مصر بحجة أنهم سيملكونها قبل أن يتحرك نور الدين. وَجَدَ النصارى في السير إلى مصر، واستولوا على بعض بلادها، وكان أمير مصر العاضد العبيدي، ووزيره شاور وهو الذي بيده الحكم.

### استنجد حكام مصر بنور الدين

وأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع النصارى، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فشرع في تسيير الجيوش وكان قبل ذلك قد علم بتحرك الفرنج فبدأ يضم جيوشه إليه.

أما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها، فراسلهم شاور وذكر لملك الفرنج مودته لهم وخوفه من أن يقدم جيش نور الدين فيستولي على مصر، واتفقا على الصلح على أن يدفع شاور للفرنج ألف ألف دينار ويرجعون إلى بلادهم، فاستطاع أن يعطيهم مائة ألف واستمهلهم في البقية حتى يجمعه من الناس ولكنه لم يستطع ذلك لأنه كان قد أحرق بلادهم حتى لا يستولي عليها الفرنج فذهبت أموالهم.

### إرسال أسد الدين إلى مصر:

وقد توالى كتب أهل مصر إلى نور الدين يستمدونه ويطلبون منه إنقاذهم من الصليبيين، فبعث إلى أسد الدين ليؤيّه على جيش مصر وكان في حمص حيث كان واليا عليها، فما شعر به نور الدين إلا وهو على أبواب حلب ففرح نور الدين بقدومه وتفاءل من ذلك، وكان أسد الدين قد وصلته أيضاً كتب استغاثة من مصر، فأمر نور الدين بتجهيز الجيش، وأعطى أسد الدين مائتي ألف دينار للإنفاق على الجيش سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأعطاه حرية التصرف في إدارة الجيش ومواجهة الأعداء، واختار من العسكر ألفي فارس إلى جانب ستة آلاف من غيرهم، وبعث معه نور الدين عدداً من الأمراء، ومنهم صلاح الدين بن

يوسف ابن أخي أسد الدين، وكان صلاح الدين كارها لذلك المسير لما واجهه من الأهوال حينما حوَّصر في الإسكندرية، ولكن نور الدين ألزمه بالمسير مع عمه.

### رحيل النصارى وتولي أسد الدين الوزارة:

وسار أسد الدين مجداً منتصف شهر ربيع الأول، من عام أربعة وستين وخمسمائة، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخفي حنين خائبين، وسمع بذلك نور الدين ففرح به وأمر بضرب البشائر في البلاد، واعتبر رحيلهم فتحاً وهزيمة كبرى لهم.

ووصل أسد الدين إلى القاهرة واجتمع بأمرها العاضد وفرح به أهل مصر.

أما شاور بن الخياط وزير حاكم مصر فإنه ساءه مجيء أسد الدين شيركوه، وعزم على دعوته ثم القبض عليه، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عزم على هذا الأمر لأعرفن شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال: صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحيث لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك شاور ما كان عزم عليه.

ولعل أمراء أسد الدين عرفوا بما عزم عليه شاور فعزم بعضهم على قتله وعلى رأسهم صلاح الدين فنهاهم عن ذلك أسد الدين، ولكنهم ظلوا على عزمهم، وانتهزوا فرصة مجيئه مع حاشيته يسأل عن أسد الدين فأخبروه أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي فسايره صلاح الدين ومن معه وألقوه عن فرسه وهربت حاشيته فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله إلا بعد إذن أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما بدؤوا به.

وسمع بذلك أمير مصر العاضد فطلب رأس شاور وتابع الرسل في ذلك فقتل وأرسل إليه رأسه في السابع عشر من ربيع الآخر، وتجمهر الناس فأمرهم العاضد بنهب دار شاور فانتهبوها.

وسار أسد الدين إلى قصر العاضد فقلده الوزارة ولُقّب المنصورَ أمير الجيوش، وصار هو صاحب الأمر والنهي في مصر، ولكنه لم يمهل طويلاً حيث توفي في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام<sup>(١)</sup>.

ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أولاً: أن الحاكم الصالح يحفظ الله تعالى به البلاد والعباد، ويحميهم بحسن تدبيره من شرور الأعداء، ويتحقق على يديه الأمن والرخاء، وذلك لأنه يختار لمؤازرته وتدبير أموره أهل الاستقامة والشجاعة والرأي السديد، فيستخلص أفضل عناصر الأمة ليكونوا هم الذين يدبرون أمورها ويحمونها، ففي السلم أمن ورخاء، وحماية للضعفاء من ظلم الأقوياء، فإذا دهم العدو البلاد قام الرجال الأكفاء لحمايتها وفدوا أمتهم بأرواحهم وأموالهم.

أما الحاكم النفعي الذي لا يهمله إلا مصالحه الخاصة فإنه يخشى من أهل الكمال والفضل لأنهم لا يوافقونه على تجاوزاته، فيقرب النفعيين من أمثاله الذين لا يهتمهم إلا مصالحهم، ويستوي عندهم أن يحكمهم حاكم مسلم أو كافر، ففي السلم ظلم واعتداء على الآمنين، وتسلب من الأقوياء على الضعفاء، فإذا دهم البلاد عدو فإن هؤلاء النفعيين لا يستطيعون حمايتها لأنهم متفرقون حيث لا يجمعهم هدف واحد مشترك، بل هدف كل واحد منهم تأمين مصالحه الخاصة.

وهكذا كان وضع بلاد مصر في ذلك الزمن، حيث استولى عليها الصليبيون دون مقاومة.

هذا الشعب العظيم الذي لم يستطع حماية بلاده من الصليبيين هو الذي كان له إسهام كبير في القضاء على الصليبيين في الشام بعد سنوات معدودات، وكان الفارق بين الأمرين هو تغير السلطة الحاكمة، حيث انتقلت إدارة البلاد من العبّاسيين إلى الأيوبيين، وذلك بما قام به صلاح الدين الأيوبي من إبعاد النفعيين وتقريب أهل الكفاءة والأمانة.

(١) الكامل لابن الأثير ٩٩ - ١٠١. وانظر الروضتين ٢ / ٥١ - ٥٢.

ثانيًا: من حسنات نور الدين محمود أنه اختار أسد الدين شيركوه الأيوبي لقيادة جيوشه في عدة وقائع مع الصليبيين، وكان شجاعاً مقداماً، ومع ذلك فإنه كان ذا رأي حصيف في تدبير الحروب، وقد طارت له سمعة عالية بين أعداء الإسلام من النصارى حتى صار اسمه مرعباً لهم، ولا أدل على ذلك من قول الكامل بن شاور إنك إذا قبضت على شيركوه عاد الفرنج واستولوا على البلاد، فقد كان معلوماً لدى المجتمع آنذاك أن جلاء الفرنج من مصر كان بسبب رعبهم من أسد الدين لشجاعته وطاعة جيشه له.

ثالثًا: موقف جليل للكامل بن شاور حيث نهى أباه عن تدبير خطة للقبض على أسد الدين شيركوه وأبان له بأن مصلحة مصر والإسلام في بقاء أسد الدين حتى لا يرجع الصليبيون إلى مصر، وهذا يدل على إخلاصه للإسلام ولأُمته.

\*\*\*



## ٥- جهاد صلاح الدين الأيوبي

هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، ولد بتكريت في العراق، وانتقل به أبوه إلى الشام حيث أصبح أبوه من أمراء نور الدين محمود، ثم أصبح صلاح الدين من قاداته وشارك عمه أسد الدين شيركوه في القضاء على الصليبيين والعبيديين في مصر، إلى أن آل إليه حكم مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه. ولما توفي السلطان نور الدين محمود صار بين صلاح الدين وأبناء نور الدين نزاع حتى آل الأمر إلى ظهور صلاح الدين وشملت سلطنته مصر والشام والجزيرة وغيرها.

وكان رحمه الله عادلاً كريماً حليماً صبوراً على ما يكره، ومن أخبار زهده وكرمه أنه مات ولم يخلف إلا ديناراً وأربعين درهماً، مع سعة سلطانه<sup>(١)</sup>.

### غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة:

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين الأيوبي سار في عام ستة وستين وخمسمائة من مصر وأغار على أعمال عسقلان وغزة وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن كاد أن يؤخذ أسيراً.

وعاد صلاح الدين إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال في البر، وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيلة براً وبحراً وفتحها في العشر الأوّل من ربيع الآخر<sup>(٢)</sup>.

---

(١) الكامل ٩ / ١٠٢، ١٣٠، ٢٢٥، وكانت إمرته على مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه، وذلك في عام أربعة وستين وخمسمائة وذلك في أواخر حكم العاضد الحاكم العبيدي الذي كان حاكماً بالاسم فقط، ثم ضم صلاح الدين إلى حكمه الشام وغيرها بعد وفاة نور الدين إلى أن توفي في عام تسعة وثمانين وخمسمائة.

(٢) الكامل ٩ / ١١٠.

## موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة سبعين وخمسمائة أن أسطولاً بحرياً حريباً خرج من صقلية لغزو مصر، وهو مكون من مائتي سفينة تحمل الرجال وست وثلاثين تحمل الخيل، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركباً تحمل الأزواد، وأن عدد المقاتلين خمسون ألفاً من الرجال وألف وخمسمائة من الفرسان، وكانت تلك الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة عام تسعة وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة.

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تبشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتر حربهم وكثر القتل والجراح في رجالهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير مملوكاً له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله، وسير طائفة من العسكر

إلى دميّاط خوفاً عليها واحتياطاً لها، فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجىء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله .

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيتهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين، واحتفى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم<sup>(١)</sup>.

في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي .

ولقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيراً في العدد والعدد، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم .

ونجد في هذا الخبر موقفاً فدائياً في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فغرقوها، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن .

---

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ١٢٩ - ١٣٠ ، وانظر كتاب الروضتين ٢ / ٣٣٣ - ٣٣٤ .

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيراً من جنودها وعدداً كبيراً من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل.

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام، فإن الجهاد يجب على كل قادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء.

### مواجهة بينه وبين الصليبيين في الأردن:

ذكر المؤرخ أبو شامة نقلاً عن القاضي ابن شداد أن الخبر وصل إلى السلطان بأن الفرنج قد اجتمعوا في صفورية، ورحلوا إلى الفولة؛ وهي قرية معروفة وذلك في عام تسعة وسبعين وخمسمائة وكان غرضه المصاف، فلما سمع بذلك تعبى للقتال، وسار للقاء العدو، فالتقوا، وجرى قتال عظيم، وقتل من العدو جماعة وجرح جماعة، وهم ينضم بعضهم إلى بعض، يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين، فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون؛ لخوفهم من المسلمين، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة، فرأى السلطان الانتزاع عنهم لعلهم يرحلون، فيضرب معهم مصاف، فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل مترقباً رحيلهم، ليأخذ منهم فرصة، فأصبح الفرنج راجعين على أعقابهم ناكسين، فرحل رحمه الله نحوهم، وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا، ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطان منصوراً وقد نال منهم قتلاً وأسراً، وخرب عفرلاً وييسان وزرعين وقرى عدة، فنزل القوار، وأعطى الناس دستوراً، فسار من أثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها، بل كان غرضه - رحمة الله عليه - الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فالله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفقه للأعمال المرضية في الدنيا<sup>(١)</sup>.

(١) كتاب الروضتين ٣ / ١٨٥ - ١٨٦.

## موقعة حطين<sup>(١)</sup>:

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام ومعه جيش من مصر ومن قدموا معه من الشام، فلما وصل أرسل إلى بقية أطراف الشام وإلى المشرق يطلب اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة، وذلك في عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة.

واستشار صلاح الدين أمراءه في كيفية قتال الأعداء، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء، وأن يُضعف الصليبيين بشن الغارات وإخراش الولايات مرة بعد مرة، فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد.

ثم سار بجيشه حتى خلف طبرية خلف ظهره، وتقدم حتى قارب الصليبيين وهم في خيامهم لم يفارقوها، فأمر العسكر بالنزول، فلما جئ الليل جعل في مقابل الصليبيين من يمنعهم من القتال، وسار بطائفة من الجيش إلى طبرية وقاتل أهلها ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليلة، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها، وفيها أميرتها النصرانية ومعها أولادها.

فلما سمع الصليبيون بذلك اجتمعوا للمشورة فاستقر رأيهم على التقدم لقتال المسلمين، وهذا هو الذي أراد صلاح الدين من مهاجمة طبرية، وتقدموا حتى قربوا من معسكر المسلمين.

فلما سمع بذلك صلاح الدين عاد من طبرية، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الصليبيون العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من الصهاريج، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم.

---

(١) هي قرية قرب طبرية وقعت حولها المعركة.

أما المسلمون فإنهم باتوا يحرض بعضهم بعضاً، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا الصليبيين على خلاف عاداتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، وكان السلطان صلاح الدين، قد عبى جيشه ونظمه وجعل الرماة في المقدمة.

### يوم المعركة:

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الصليبيين، فركب الصليبيون ودنا بعضهم من بعض، وأمر السلطان الرماة أن يرشقوا الأعداء بنبالهم، وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحمل المسلمون على أعدائهم فاقتتلوا أشد قتال، وصبر الفريقان، وأثنى رماة المسلمين في الأعداء فقتلوا كثيراً من خيولهم.

وتوجه الصليبيون نحو طبرية لعلهم يردون الماء، فلما علم صلاح الدين بمقصدهم صدهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، والناس مطيعون له.

وقد حمل مملوك من ممالك صلاح الدين على الأعداء حملة قوية فقاتل قتالاً عجب منه الناس، ثم تكاثر الأعداء عليه فقتلوه، فعند ذلك حمل المسلمون حملة قوية وضعفوا بها الكفار وقتلوا منهم كثيراً.

ولما اشتد القتال عليهم أدرك «القمص» حاكم طرابلس أنه لا طاقة لهم بقتال المسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم، وكان المقدم في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فأدرك أنهم منهزمون يريدون الفرار فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه.

فلما انهزم القمص فت ذلك في أعضادهم وكادوا يستسلمون، ثم علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متوالية كادوا يزيلون المسلمين - على كثرتهم - عن مواقعهم لولا لطف الله تعالى بهم.

وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً وكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إلى الأعداء، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال.

ولم ينفع الأعداء إقدامهم ومحاولة كسب المعركة لأنهم في كل حملة يفقدون عدداً كبيراً منهم لشدة ثبات المسلمين وبسالتهم، فوهن الأعداء لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقي منهم إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعهم المسلمون عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة إلا خيمة ملكهم.

وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم، الذي يسمونه صليب الصلبوت، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك.

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة من الصليبيين، يقول الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصافٍ شاهده، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد عكته كآبة واربد لونه وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً هزمناهم، فالتفت والدي إلي وقال: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي إذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى فبكى من فرحه، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرياط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضاً صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأناً.

وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين وانهزام ساحق للصليبيين، وقد كثر فيها القتلى والأسرى منهم حتى إن من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمثل هذه الواقعة، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً وبلغ عدد الأسرى منهم ثلاثين ألفاً.

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس صاحب الكرك، فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أمانتي، ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه عوراته، ومن ذلك أنه سب الرسول ﷺ، وعزم على غزو مكة والمدينة، وقتل الحجاج غدرًا، وكان صلاح الدين قد نذر مرتين أن يقتله إن ظفر به، فقام إليه بنفسه فقتله، فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص ملك الصليبيين فسكن السلطان جأشه وأمنه<sup>(١)</sup>.

هذه المعركة العظيمة تعتبر من المعارك الفاصلة في حياة المسلمين، حيث ترتب عليها فتح القدس وكثير من المدن والحصون التي كان الصليبيون قد استولوا عليها. وهذا اللقاء الكبير هو الذي كان يخطط له نور الدين محمود حينما بذل جهوداً كبيرة في توحيد بلاد الشام ومصر حيث كان لا يستطيع في بلاد الشام وما جاورها أن يجمع نصف هذا الجيش، فكانت كل حروبه تقليصاً لوجود الصليبيين وإضعافاً لهم، ولكن حينما انضمت مصر إلى سلطنته خطط لحرب شاملة يطوق بها الصليبيين من الشمال والجنوب، ولكن وافته المنية قبل أن يتم ذلك، فاستثمر صلاح الدين تلك الجهود الكبيرة وأكمل ما بدأه نور الدين وكانت على يديه هذه المعركة الكبيرة الفاصلة.

وقد ظهرت لصلاح الدين وجيشه مواقف عالية، منها:

أولاً: رأيه في مواجهة الأعداء الذي خالف فيه قاداته حيث كان رأيهم تفريق الجيش في سرايا تهاجم حصون الأعداء حتى يتم إضعافهم، بينما كان رأيه

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/ ١٧٦ - ١٧٩. والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٤٣١ - ٤٣٣.



مواجهةً جمع الأعداء بجمع المسلمين، فكان رأيه أسدَّ من آرائهم وأعظم نفعاً للمسلمين ونكايةً في أعدائهم.

ثانياً: إغارته على طبرية ليلجئ الأعداء إلى مغادرة مكانهم ومواجهته في المكان الذي أراد أن تكون المعركة فيه، فكان له ما أراد، وكان ذلك من عوامل انتصار المسلمين واندحار أعدائهم.

ثالثاً: أن أفراد الجيش الإسلامي ظلوا طوال ليلة المعركة يكبرون الله تعالى ويهللون، وقد جاء في بعض الأخبار أن صلاح الدين كان يتفقد جيشه تلك الليلة فوجدهم ما بين ذاكر ومصلٍّ وتالٍ لكتاب الله تعالى ما عدا أصحاب خيمة واحدة وجددهم نياماً، فقال: إن أُتينا غداً فإنما سنؤتَى من هذه الخيمة فأيقظ أهلها وسرَّحهم إلى دمشق.

وهذا يدل على وعي السلطان صلاح الدين وفهمه الثاقب لعوامل النصر الأساسية، كما يدل على صلاح أفراد ذلك الجيش الذي تم على يده النصر الحاسم للإسلام والمسلمين.

رابعاً: في تلك المعركة انتصر المسلمون على عدو يبلغ أضعافهم، حيث جاء في نهاية خبر المعركة أن عدد قتلى الصليبيين ثلاثون ألفاً وعدد أسراهم ثلاثون ألفاً، وقد استطاع ثلاثة آلاف منهم الفرار، وهذا يعني أنهم كانوا ثلاثة وستين ألفاً، بينما كان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً سوى المتطوعين الذين لم يُذكر عددهم، والظاهر أن عددهم قليل لا يلفت النظر، إذ لو كانوا كثيرين لكان هناك اهتمام ببيان عددهم، فالمسلمون إذاً واجهوا أضعافهم، إضافة إلى عامل مهم ظاهره أنه لصالح المسلمين وحقيقته أنه لصالح الأعداء، وهو كون الأعداء قد حيل بينهم وبين الماء، وليس بينهم وبينه إلا جيش المسلمين، وهذا عادةً يكون دافعاً إلى استماتة المقاتلين وإقدامهم ليخترقوا صفوف أعدائهم حتى يصلوا إلى الماء، وقد كان ذلك من الصليبيين، ولكنهم وُجِّهوا بثبات قوي وبسالة عالية من المسلمين، حيث استطاعوا صد هجماتهم وإعادتهم إلى الوراء أكثر من مرة.

وقد جرى على المسلمين قديماً - بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - موقف مشابه، حيث واجهوا أعداءهم وليس معهم ماء وكان الأعداء على الماء، فشكى

المسلمون هذا الأمر لخالد فأفادهم بأن الماء سيصير لأصبر الفريقين، وصار للمسلمين الذين صبروا وهزموا أعداءهم من الفرس.

خامساً: من المواقف العالية للسلطان صلاح الدين الأيوبي أنه لما حمل الأعداء حملة شديدة على المسلمين وتراجع المسلمون حتى لحقوا به قال: «كذب الشيطان» فهذا دليل على أنه لم يعتمد على الأسباب المادية وإنما كان حاضر القلب مع الله تعالى مدركاً أنه هو ولي المؤمنين وأن الشيطان ولي الكافرين، فهو بهذا الكلام يدحر الشيطان الرجيم الذي يفرح بما ينال المسلمين من هزيمة، ويشعره بأن ظنونه كاذبة وأن ما حصل للمسلمين إنما هو أمر عارض، وأن المسلمين سيثبتون وستكون نهاية المعركة لصالحهم.

إن أول ما تبادر إلى ذهنه من هول ذلك المشهد هو دحر الشيطان وتكذيب ظنونه، وهذا يعني أن فكره مرتبط برجاء نصر الله تعالى وتأنيده، ليخيب ظن الشيطان وجنوده، وهذا يكشف لنا عاملاً مهماً من عوامل نجاح السلطان صلاح الدين في إقامة دولة كبرى تحكم بالإسلام وتتحاكم إليه وتنصره وتدافع عنه.

### فتح بيت المقدس:

كان فتح بيت المقدس هو الهدف الأعظم من كل الجهاد الذي قام به السلطان نور الدين محمود ومن بعده السلطان صلاح الدين الأيوبي.

ولقد كان من براعة صلاح الدين وتخطيطه الحربي العبقري أنه بدأ بالاستيلاء على المدن الساحلية التي بيد الصليبيين حتى لا تكون محطات لنزول حملة صليبية جديدة، ولقد كان الاستيلاء على بيت المقدس من قبل المسلمين أمراً كبيراً على النصارى في العالم، فقد كان هناك احتمال أن يقوم المنكوبون في حطين بطلب النجدة من الممالك الأوروبية، فبدأ صلاح الدين بأقرب بلد إليه وهي طبرية فاستولى عليها، ثم فتح مدينة عكا بعد حصارها والصلح مع أهلها ثم راسل أخاه العادل نائبه على مصر ليغزو المدن الساحلية القريبة منه ففتح «مجدل يابا» و «يافا».

ثم فرق صلاح الدين عسكره مدة إقامته بعكا، ففتح قاداته الناصرة وقيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلدان المجاورة لمدينة عكا.

ثم تولى صلاح الدين فتح مدينة بيروت وصيدا وتبنين وجبيل، وبقي من المدن الساحلية الشمالية مدينة صور التي تجمع بها أكثر من خرجوا من بلادهم من النصارى وولّوا أمرهم «المريكش» أحد التجار القادمين عليها، فكان أمرها يحتاج إلى مرابطة طويلة فتركها صلاح الدين حتى لا تشغله عن فتح بيت المقدس.

وقد رجع السلطان جنوباً إلى القدس ولكنه قدّم عليها عسقلان فحاصرها بعد أن التقى بأخيه العادل نائبه على مصر ومعه جيش من مصر، ففتحها صلحاً بعد حصار دام أربعة عشر يوماً، ثم بث السرايا ففتح غزة والرملة والداروم وغيرها<sup>(١)</sup>.

ولما تم فتح ما حول القدس وتم تأمين الساحل توجه السلطان صلاح الدين بجيشه نحو بيت المقدس وكان بها جمع كثيف من النصارى إلى جانب من لجأ إليها من موقعة حطين ومن عسقلان وغير ذلك، وكانوا جميعاً يرون الموت أهون من أن يملك المسلمون بيت المقدس وحصّنوا سوره ونصبوا عليه المجانيق ليمنعوا من يريد الدنو منه، وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدتهم وقد عزموا على حفظه والذب عنه.

وقد وصل جيش المسلمين إلى القدس في منتصف رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فرأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهله من الجلّة والضجيج داخل المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع.

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن السور في غاية التحصين، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال، فانتقل إلى هذه الجهة ونصب المنجنيقات، وبدأ القتال بالرمي من الطرفين، وتقاتلوا أشد قتال رآه الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً حتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

وكان خيالة الأعداء يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين، ومن استشهد الأمير عز الدين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يقاتل بنفسه كل يوم، فلما رأى

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ١٧٩ - ١٨٢.

المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن موافقهم فأدخلوهم إلى القدس .

ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار، حتى يتمكن المسلمون من نقب السور، فلما نقبوه حشوه بالمواد وفجروه فسقط السور والبرج الذي عليه .

فلما رأى ذلك الفرنج اجتمع مُقَدَّمُوهم فتشاوروا واجتمع رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس لصلاح الدين، فأرسلوا جماعة من أعيانهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال: لا أفعل بكم إلا ما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء سيئة بمثلها .

فلما رجعت رسلهم خائبين لم يظفروا بالصلح أرسل كبيرهم يالان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في أمر الصلح فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان فلم يجبه واستعطفه فلم يعطف عليه، فلما أيس من ذلك قال له . أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمه إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهما، ولا تسبُّون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلُّنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراما .

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج، فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغني والفقير ويؤخذ من المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ذكراً أو أنثى ديناران، فمن أدَّى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤدِّ ما عليه فقد صار مملوكاً .

فبذل ياليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً ورُفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها.

ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى، فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس، ففعل ذلك، وأمر أن يُعمل له منبر فقيل له: إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصنّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين، ولم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره فحمل من حلب ونُصب بالقدس، وهذا من حسنات نور الدين وبُعد همته وطموحه رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وهكذا فُتح بيت المقدس للمرة الثانية في الإسلام وقد حاز شرف المرة الأولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وحاز شرف الثانية السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهو شرف كبير أن يُقرن الثاني بالأول.

ومن المواقف الجليلة في هذا الحصار إقدام أبطال المسلمين على الزحف إلى سور المدينة وتجاوزهم الخندق الذي وضعه الأعداء لحمايتهم، ثم قيامهم بنقب السور مع كثرة الرماة الذين هم فوق السور، وبإقدام هؤلاء الأبطال تم فتح بيت المقدس وانتصار المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الجهادية التي تم فيها الانتصار الحاسم على الصليبيين في حطين وفتح بيت المقدس وعدد من المدن والقلاع. . بعد ذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ليستريح جيشه ثم يواصل الجهاد بعد ذلك، وكتب إلى البلاد جميعاً باجتماع العساكر بدمشق.

ولما عاد إلى دمشق وجد وكيل الخزانة الصفيّ بن الفايض قد بنى له داراً بالقلعة هائلة مطلّة على الشرف القبلي، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نُخلّق للمُقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وإنما خُلّقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويُقعدّها عما خلقت له<sup>(٢)</sup>.

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ١٨٢ - ١٨٥، البداية والنهاية ١٢ / ٣٤٤ - ٣٤٧.

(٢) البداية والنهاية ١٢ / ٣٥١.

وهكذا نرى السلطان صلاح الدين يسمو عن متطلبات النفوس القريية، إلى متطلبات النفوس الطموحة العالية .

إنه لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار وهو يرى بقايا الصليبيين مازالوا في بلاد الإسلام .

فكيف يسعد بالإقامة في القصر المنيف والجنان الوارفة وعباد الصليب ينتهكون بلاد الإسلام ويُدُلُّون المسلمين؟!

إن الإقامة في القصور والنعيم تعتبر بالنسبة لهذا البطل الطموح سجنًا للقلب الحى، وإعاقة للفكر الوثاب .

إنه لا يسعد بسماع لحن مطرب ولا كلام مُعجب، ولا ثناء منمَّق، ولا تستجيشه رؤية القصور المنيفة وما تحتوى عليه من شهوات ونعيم، وإنما يسعد بسماع صهيل الخيل، وقعقة السلاح، ومقارعة الأقران، والنصر المؤزر على الأعداء .

فلذلك غضب على وكيل الخزانة الذي قصرت همته، وتَدانَّى طموحه إلى بناء قصر يستقبل به السلطان .

أوليس خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: ما ليلة تُهدَى إليَّ فيها عروس أَنالها محبُّ بأحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد أُصَبِّح فيها العدو بسرية من المهاجرين!!

إنه وأمثاله سلف صالح عظيم خلف مبدع طموح من أمثال هذا السلطان الكبير .

### حصار مدينة صور:

بعد فتح بيت المقدس لجأ الصليبيون الذين أَمَنهم صلاح الدين إلى مدينة صور الساحلية وهي مدينة حصينة يصعب فتحها من البر لأنها داخلية فى البحر، وقد حفر الصليبيون أمامها خندقًا من البحر إلى البحر فأصبحت كجزيرة في وسط البحر .

ولما علم صلاح الدين بتجمع النصارى بتلك المدينة زحف إليها سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وحاصرها من جهة واحدة وصار قتال بين المسلمين

والنصارى، ولكن صلاح الدين أدرك أنه لا بد من أسطول بحري للمسلمين لأن النصارى يقاتلونهم من البر والبحر، فاستقدم عشر سفن من «عكا»، وصار المسلمون يقاتلون أعداءهم براً وبحراً، وكادوا ينتصرون على الأعداء لولا أن المجاهدين المسلمين الذين في السفن ناموا في إحدى الليالي آخر الليل ولم ينتظموا في الحراسة فهجم عليهم الأعداء واستولوا على خمس سفن فألقى المسلمون بأنفسهم في البحر وغرق بعضهم، ولما رأى السلطان صلاح الدين ذلك أمر قائدى بقية السفن بالسير بها إلى بيروت خوفاً من أن يستولي عليها الأعداء، وكان ذلك بداية فشل المسلمين في فتح مدينة صور، حيث تخاذل بعض القادة وطلبوا من صلاح الدين أن يأذن<sup>(١)</sup> لهم بالرحيل، فأذن للجيش بذلك، وكان بقاء النصارى فيها سبباً في عودة الحروب الصليبية، حيث كانت مكاناً مناسباً لتجمع الجيوش القادمة من أوروبا.

### فتح اللاذقية:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابن شدّاد: وهي بلدٌ مليح، خفيفٌ على القلب، غير مُسَوَّر، وله ميناء مشهور، وله قلعتان متصلتان على تلٍّ يشرف على البلد، فنزل السلطان - رحمة الله عليه - يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى<sup>(٢)</sup> محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيها إلا من ناحية البلد، واشتد القتال، وعظم الزحف، وارتفعت الأصوات، وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناسُ منه غنيمةً عظيمةً، فإنه كان بلدَ التجار.

وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكّن منها النّقب حتى بلغ طوله - على ما حكى لي من ذرعه - عشرين ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل، وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدو الله ما حلّ به من الصغار والبوار، استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك.

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٦ - ١٨٧، كتاب الروضتين ٤/ ٤١١ - ٤١٣.

(٢) يعني من عام أربعة وثمانين وخمسمائة.

وكان - رحمه الله - متى طُلبَ منه الأمان لا يبخل به، فعادَ النَّاسُ عنهم إلى خيامهم وقد أخذَ منهم التَّعبَ، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم، واستقرَّ الحالُ معهم على أنهم يُطلقون بأنفسهم وذرائعهم ونسائهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السَّلاح والدَّوابِّ، وأطلق لهم دوابُّ يركبونها إلى مأمَنهم، ورُقِّيَ عليها العَلَمُ الإسلامي المنصور في بقية يوم السَّبْت، وأقمنا عليها يوم الأحد السَّابع والعشرين من جُمادى الأولى<sup>(١)</sup>.

### فتح قلعة صهيون:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شدَّاد: رحل السُّلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السَّابع والعشرين من جُمادى الأولى<sup>(٢)</sup> طالبَ صهيونَ، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصبَ عليها ستة مناجيق، وهي قلعةٌ حصينةٌ منيعةٌ في طَرَفِ جبلٍ، خنادقُها أودية هائلة، واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدارُ طوله ستون ذراعاً، ولا يبلغ، وهو نقرٌ في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سوران دون ربضها، وسور دون القلعة<sup>(٣)</sup>، وسور القلعة، وكان على قلعتها عَلمٌ طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدهته وقد وقع، فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنَّه النصر والفتح، واشتدَّ القتالُ عليها من سائر الجوانب، فضربها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة قرينة<sup>(٤)</sup> من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعةً جيدة عظيمة تمكَّن الصَّاعد في السور من التَّرقِّي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جُمادى الآخرة عزَّم السُّلطان على الرَّحْف، وركب وتقدَّم، وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الأصوات، وعظُم الضَّجيج والتكبير والتَّهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الربض، واشتدَّ الزحف، وعظُم الأمر، وهجم المسلمون الربض.

(١) كتاب الروضتين ٤ / ٢٠ - ٢١.

(٢) يعني من عام أربعة وثمانين وخمسمائة.

(٣) قال المحقق: القلعة: أعلى القلعة، قلة كل شيء أعلاه، انظر «معجم متن اللغة» ٤ / ٦٣٩.

(٤) قال المحقق قرينة: تصغير قُرنة، وهى الزاوية. انظر «القاموس المحيط» (قرن).



ولقد كنتُ أشاهد النَّاسَ وهم يأخذون القدر، وقد استوى فيها الطَّعام،  
 فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضمَّ مَنْ كَانَ فِي الرِّبْضِ إِلَى القلعة بما أمكنهم  
 أَنْ يَحْمِلُوهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَنَهَبَ الْبَاقِي، وَاسْتَدَارَ الْمُقَاتِلَةُ حَوْلَ أُسْوَارِ القلعة، فلما  
 عاينوا الهلاك، استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم السُّلْطَانُ عَلَى أَنْ يَسْلَمُوا بِأَنْفُسِهِمْ  
 وَأَمْوَالِهِمْ، وَيُؤْخَذَ مِنَ الرَّجُلِ مِنْهُمْ عَشْرَةُ دَنَانِيرٍ، وَعَنِ الْمَرْأَةِ خَمْسَةُ دَنَانِيرٍ، وَعَنِ  
 الصَّغِيرِ دِينَارَانِ، فَسَلِّمَتِ القلعة، وَأَقَامَ السُّلْطَانُ حَتَّى تَسْلَمَ عِدَّةُ قِلَاعٍ كَالْعِيدُو،  
 وَبِلَاطُنُسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْقِلَاعِ وَالْحَصُونِ، فَتَسَلَّمَهَا النَّوَّابُ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَتَعَلَّقُ  
 بِصِهْيُون<sup>(١)</sup>.

### فتح بكّاس:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم رحل السُّلْطَانُ، وسرنا حتى  
 أتينا بكّاس وهي قلعة حصينة على جانبِ العاصي، ولها نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا،  
 وَكَانَ التَّزُولُ بِذَلِكَ الْمَنْزِلِ عَلَى شَاطِئِ الْعَاصِي يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ سَادِسَ جُمَادَى  
 الْآخِرَةِ<sup>(٢)</sup> وَصَعَدَ السُّلْطَانُ جَرِيدَةً إِلَى القلعة، وهي على جبلٍ مُطْلٍ عَلَى الْعَاصِي،  
 فَأَحْدَقَ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَقَاتَلَهَا قِتَالًا شَدِيدًا بِالْمَنْجَنِيقَاتِ وَالزَّحَفِ الْمُضَاقِقِ إِلَى  
 يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَيْضًا تَاسِعَ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَيَسَّرَ اللَّهُ فَتْحَهَا عَنَوَةً، وَأُسِرَ مِنْ فِيهَا بَعْدَ  
 قَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، وَغَنِمَ جَمِيعَ مَا كَانَ فِيهَا<sup>(٣)</sup>.

### فتح حصن الشجر:

بعد أن استولى صلاح الدين على بكّاس توجه إلى حصن الشجر، وكان لا  
 يصل إليه حجر المنجنيق من ارتفاعه ووعورة مسالكه، فبينما صلاح الدين جالس  
 وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها قال بعضهم:  
 هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾  
 [الكهف: ٩٧].

(١) كتاب الروضتين ٤ / ٢٥ - ٢٦.

(٢) يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة

(٣) كتاب الروضتين ٤ / ٢٩.

فقال صلاح الدين: أو يأتي الله بنصر من عنده، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأجيب إلى ذلك، ونزل رسول وسأل إنظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلّموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه، واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة - وكان سبب استمھالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يُعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يُرحّل عنهم المسلمين، فإن فعل وإلا سلّموه، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليه أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضاً<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الخبر مثل من نصر الله تعالى أوليائه بالرعب الذي يقذفه في قلوب أعدائهم، فيسلكون معهم على خلاف السلوك المعتاد مع غيرهم.

كما أن فيه إشارة إلى قوة تعلّق قلب صلاح الدين بالله عز وجل وثقته البالغة بنصره، فمع تعذّر السبل الموصلة إلى تلك القلعة قال: أو يأتي الله بنصر من عنده، فكان النصر هو ذلك الرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوب الأعداء فخرجوا للتفاوض وتسليم الحصن دون أن يمسه أي أذى من الحرب.

### فتح قلعة برزية:

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن السلطان صلاح الدين سار بعد ذلك إلى قلعة «برزية» وكان أهلها يقطعون الطريق على المسلمين ويبالغون في أذاهم، فوصلها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من عام أربعة وثمانين وخمسمائة، ونزل غربيها، وهي الجهة التي يمكن قتالها منها، وليس معه إلا قلة من جيشه لضيق مسالكها، ونصّب المسلمون المنجنيقات، ونصب أهل القلعة منجنيقاً أبطل منجنيقات المسلمين لعلّوا مكانه، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه، فقسّم عسكره ثلاثة أقسام، يزحف قسم فإذا تعبوا عادوا،

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ١٩٢ ..

وزحف القسم الثاني، ثم الثالث، ثم يدور الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج حيث إنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا سلّموا القلعة.

فتقدم القسم الأول وزحفوا إلى الأعداء، وخرج الفرنج من حصنهم فدافعوا وكان يساعدهم ارتفاعهم فكانوا إلى جانب السلاح يدحرجون الحجارة الكبيرة على المسلمين، فلما تعبوا نزلوا وخلفهم القسم الثاني وكان الزمان حراً فاشتد الكرب على الناس، وكان صلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين أخوه كذلك، وكانت تلك نوبة القسم الخاص بصلاح الدين، فقاتلوهم إلى الظهر، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وردّهم وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم، وجاء الفرنج مالا قبل لهم به، وكان أصحاب القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فخالطهم المسلمون فدخل الفرنج حصنهم فدخل معهم المسلمون.

وكان طائفة قليلة من المسلمين في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يرون فيه مقاتلاً. وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهم مانع، فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عنوة ودخل الفرنج «القلّة»<sup>(١)</sup> التي للقلعة وأحاط بهم المسلمون، وأرادوا نحبها، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلعة، وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة، وأخذوا ما فيها وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله.

ذكر ذلك المؤرخ ابن الأثير وكان قد حضر ذلك الحصار ثم قال: ومن أعجب ما يُحكى من السلامة أنني رأيت رجلاً من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة

(١) يعني أعلى القلعة وهو مكان محصّن.

من المؤمنين شماليّ القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبيّ القلعة، وهو يعدّو في الجبل عرضاً، فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عشرة، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض ومراً من فوق الرجل ثم سقط على الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر، وقام يعدّو حتى لحق بأصحابه، فكان سبب نجاته، فتعسّت أم الجبان!<sup>(١)</sup>.

فهذا الخبر فيه مواقف وعبر فمنها:

أولاً: أن هؤلاء الصليبيين الذين انخدعوا بحصنهم الحصين فصاروا يقطعون الطريق وينهبون أموال الناس لم يمهّلوا بل سلط الله تعالى عليهم هذا السلطان القوي فأخذهم شر أخذة وأصبحوا أذلة مملوكين بعد أن كانوا يملكون أموال الناس بالقوة، فلا ينخدعن مبطل مفسد فإن هناك أيدٍ قويةً عادلة قد أعدت له إلى جانب عذابه في الآخرة.

ثانياً: فيه مثل من حزم السلطان صلاح الدين وابتكار الطرق الحربية غير المألوفة إذا تعذر استعمال المألوفة، فحينما بطل استعمال المنجنيق عوض ذلك باستثماره كثرة جيشه فجعلهم أقساماً يتناوبون، وحول الوقت كله إلى قتال حتى استنفد كل طاقة الأعداء فسلموا أنفسهم، وهكذا يفعل القائد المبدع حيث يضع الأمور مواضعها ويجعل لكل حال لبوسها.

ثالثاً: مثل من إقدام المجاهدين على المغامرة وإن كان هناك من يكفيهم ولم تصدّر لهم أوامر، وقد تمثّل ذلك في مشهدين: الأول حينما قام أصحاب القسم الأول الذين انتهت نوبتهم فقاتلوا مع إخوانهم، والثاني: حينما قام الذين خلفوا في الخيام فتسوروا الحصن من جانب آخر وساعدوا إخوانهم في القتال، وهذا دليل على إخلاصهم وسمو مقاصدهم.

رابعاً: بركة التكبير ورفع الصوت به، فلقد كان سبباً في فتح الملجأ الذي كان داخل القلعة حينما كبر أسرى المسلمين الذين كانوا فوقه فتوهم الأعداء أن المسلمين

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٣ - ١٩٤، وانظر كتاب الروضتين ٤/ ٣٢ - ٣٣.

صعدوا إلى سطحه، والتكبير دائماً له أثر مُزلزل في الأعداء، فطالما انخلعت له قلوبهم وتحطمت بسماعه معنوياتهم.

خامساً: عبرة بليغة في نجاة ذلك المسلم الذي دحرج عليه الأعداء صخرة حيث هبأ الله له أن يسقط على الأرض وأن تقفز الصخرة من فوقه دون أن تمسه بأذى، والله سبحانه إذا أراد سلامة عبده هبأ أسباب ذلك، وفي هذا درس للجبناء الذين يقعدون في مأمنهم خوفاً من المهالك ويضيعون بسبب طاقات كثيرة تبقى معطلة لا يستفيدون منها هم ولا إخوانهم المسلمون.

### فتح حصن دريساك:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد، وأقام عليه أياماً، وسار حتى نزل على دريساك يوم الجمعة من شهر رجب، يعني عام أربعة وثمانين وخمسمائة وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية - يسر الله فتحها - فنزل عليها، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة، وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكّن النقب منه حتى وقع، وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عن يصد فيها.

قال: ولقد شاهدتهم، وكلما قُتل رجل منهم قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان، واشتروا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير، ورقي عليها العَلَم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشري رجب، وأعطاهَا عَلم الدين سليمان بن جندَر، وسار عنها من الغد بكرة السبت<sup>(١)</sup>.

### فتح قلعة صفد:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار [يعني صلاح الدين] في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد [يعني من عام أربعة وثمانين وخمسمائة]، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة، وقد تقاطعت حولها أودية من

(١) كتاب الروضتين ٤ / ٣٨.

سائر جوانبها، فأحْدَق العسكرُ بها، ونُصِبَتْ عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنع ذلك عن جدّه.

ولقد كنتُ ليلةً في خدمته، وقد عَيَّنَ مواضع خمسة مجانيق حتى تُنصَبَ، فقال في تلك الليلة: ما ننام حتى نصب الخمسة. وسلّم كلٌّ منجنيق إلى قوم، ورسلُهُ تتواتر إليهم يخبرونه، ويعرفونهم كيف يصنعون، حتى أطلنا الصباح، وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويتُ له الحديث المشهور في الصّحاح، وبشّرتهُ بمقتضاه، وهو قوله ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنُ بَاتٍ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنُ بَكَتٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

قال: ولم يَزَلِ القتالُ متواصلاً بالتَّوْبِ مع الصوم، حتى سلّمت بالأمان في رابع عشر شوال<sup>(٢)</sup>.

### فتح حصن كوكب:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شدّاد: ثم سار - رحمة الله عليه - يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجردَ العسكر، وأحْدَق بالقلعة، وضايقها بالكُلِّيَّة، بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزهُ نُشَابُ الْعَدُوِّ، وبنى له حائطاً من حجارةٍ وطين يستتر وراءه، والنُّشَابُ يتجاوزهُ ولا يقدر أحدٌ يقف على باب خميته إلا أن يكون مُلبساً<sup>(٣)</sup>، وكانت الأمطارُ متواترةً، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقةٍ عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح، وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلو مكانه، وجرحَ وقُتِلَ جماعة، ولم يزل ركباً مركب الجِدِّ - رحمه الله - حتى تَمَكَّنَ النَّقْبُ مِنْ سُوْرهَا. ولما أَحَسَّ العدوُّ المخدول بالنَّقْبِ وقد تَمَكَّنَ مِنَ السَّوْرِ، علم أنه مخدول مأخوذ، فطلب الأمان، فأَمَّنَهُمْ، وتسَلَّمَهَا فِي مُتَنَصِفِ ذِي الْقَعْدَةِ، ونَزَلَ إِلَى الْغَوْرِ إِلَى الثَّقَلِ، وكان قد أنزل الثَّقَلُ مِنْ شِدَّةِ الْوَحْلِ وَالرَّيْحِ فِي سَطْحِ الْجَبَلِ<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (١٦٣٩) من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب.

(٢) كتاب الروضتين ٤ / ٤٨ - ٤٩.

(٣) أى لابسا الدرع. (٤) كتاب الروضتين ٤ / ٥٢.

## استنجد صليبي الشام بأهل أوروبا:

وقد رحل زعماء النصارى الدينيون من صور إلى بلاد أوروبا، وقاموا بدعوة مكثفة لغزو المسلمين واسترجاع بيت المقدس، وصاروا يستنجدون بأهل أوروبا ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين ﷺ وحاشاه مما يقول الظالمون] وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشدوا رجالهم ونساءهم، ومن لم يستطع الخروج يستأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء.

وقد كان من أثر هذه الحملة الدعائية الكبرى قيام الحملة الصليبية الثالثة، حيث استجاب لها ملوك أوروبا، فجندوا عشرات الألوف من الصليبيين عن طريق البحر، وخرج ملك ألمانيا ومعه مائة ألف عن طريق البر.

وقد كان خروج ملك الألمان في سنة ست وثمانين وخمسمائة من بلاده، وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً، وقد أزعجه ملك المسلمين البيت المقدس فجمع عساكره وسار عن طريق القسطنطينية، وقد كتب ملك الروم إلى صلاح الدين يُعَرِّفه بذلك ويَعِدُّه بمنعه من العبور، ولكنه عجز عن ذلك، إلا أنه منع عنهم الميرة.

وساروا حتى مروا على أرض الإسلام، وذلك في مملكة قلج أرسلان السلجوقي، فثار بهم التركمان فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد، وعصف بهم البرد وكان الثلج متراكماً فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقلَّ عددهم، ومع ذلك خافهم الملك السلجوقي فهادنهم وسمح لهم بالتزود من بلاده بما يشاؤون. ثم مروا ببلاد الأرمن فأظهر لهم صاحبها الطاعة وأمدهم بما شاؤوا، ثم ساروا نحو أنطاكية.

وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم ليغتسل وكان النهر شديد الجري فحملة الماء إلى شجرة فشجَّت وجهه وأخمدت أنفاسه وكفى الله شره، وقد

اختلف أصحابه على ولده فرجع عنه طائفة إلى بلادهم، وسار فيمن بقي وهم يزيدون على أربعين ألفاً، ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية فحسن لهم صاحبها المسير إلى عكا، فساروا على ساحل بلاد الشام فخرج لهم أهل حلب وغيرها وأخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات أكثر من أخذ.

وبلغوا طرابلس فكثرت فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا إلى عكا، ولما رأوا ما فيه أهلها من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد<sup>(١)</sup>.

وهكذا أنقذ الله تعالى المسلمين من مائة ألف مقاتل، وذلك بعدة عوامل، منها غارة بعض المسلمين عليهم، ومنها موت ملكهم وتفرقهم من بعده، وهذا أهمها، ومنها إصابتهم بالوباء وموت كثير منهم، ولو أنهم سلموا ووصلوا لكانت محنة كبرى على المسلمين، وفي ذلك يقول ابن الأثير: ولولا لطف الله بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين<sup>(٢)</sup>.

### وصول الصليبيين إلى عكا:

تقدم لنا أن الصليبيين خرجوا بأعداد كبيرة من أوروبا قاصدين بلاد الشام، وقد وصلوا إلى ميناء صور فضاقت بهم فقصدوا عكا، وساروا إليها مع من اجتمع بها من صليبي الشام عن طريق البر، وسفنتهم تحاذيهم في البحر، وكان رأي صلاح الدين اقتطاعهم وهم سائرون في البر، ولكن لم يوافق على ذلك قاداته وطلبوا الأسهل لهم، وكان قد جعل جزءاً من الجيش يناوشونهم، ومع قلتهم فإن الأعداء هابوا قتالهم، فكيف لو كان كل الجيش الإسلامي يناوشهم؟!

ووصلوا إلى عكا قبل المسلمين فأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ولم يتمكن المسلمون من الوصول إليها، وجرت بينهم وقائع كثيرة، أبرزها معركة في أول شهر شعبان باكرهم فيها صلاح الدين بحدّه وحديده وصبر الفريقان صبراً حاراً له من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠١، ٢٠٧، البداية والنهاية ١٢ / ٣٥٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠١.



حملة قوية من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقعهم، وركب بعضهم بعضا والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم وأخلّوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم، وصار المسلمون يدخلون البلد وأدخل فيه صلاح الدين الرجال والمؤن<sup>(١)</sup>.

في هذه المعركة موقف يذكر لابن أخى صلاح الدين تقي الدين ومن ثبتوا وأثخنوا في العدو من أبطال المسلمين.

هذا وقد جرت معركة كبرى بينهم، وذلك أن الصليبيين رأوا قلة جيش المسلمين حيث إن بعض جيش صلاح الدين مرابط حول الثغور، وجيش مصر لم يصل، فانتهاز الصليبيون الفرصة قبل أن تأتي أمداد المسلمين، فخرجوا من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر قد ملؤوا الأرض طولا وعرضا، وهجموا على ميمنة المسلمين وفيها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فأمدهم صلاح الدين برجال من القلب، فلما رأى الصليبيون قلة من في القلب عطفوا عليه عطفة رجل واحد فتقهقر كثير من المسلمين وانهزموا وثبت بعضهم واستشهد بعض أمرائهم وشجعانهم، فقصد الأعداء التل الذي فيه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به، وانحدروا إلى جانب التل الآخر، ثم خشوا أن يُقتطعوا فرجعوا، وكان صلاح الدين يحث المسلمين على الثبات ويناديهم ويأمرهم بالكرة، فاجتمع حوله جماعة صالحة فتقدم بهم، وكانت ميمنة المسلمين قد ثبتوا وحملت ميسرة المسلمين على من يليهم فقطعوا المدد عن الذين حملوا على القلب، فلما رجع هؤلاء كانت لهم ميسرة المسلمين، وحمل عليهم صلاح الدين بمن معه من خلفهم فلم يفلت منهم أحد، وكان النصر للمسلمين على قتلهم بالنسبة للأعداء<sup>(٢)</sup>.

فهذه المعركة فيها مثل من ثبات صلاح الدين ورباطة جأشه وحسن تصرفه عند الشدائد، وفيها مواقف كريمة للمسلمين الذين ثبتوا معه في عدم التأثر بموقف من انهزموا، وبقاء معنوياتهم عالية مع ما أحرزه الأعداء في البداية من إجلاء أصحاب القلب عن مواقعهم.

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٢ - ٢٠٣ .

## معركة الأسطول:

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى البلاد الإسلامية بطلب الإمداد العسكري، فوصلت إليه الجيوش من بعض البلاد، ومنها أسطول خرج من مصر، وقد وصل الأسطول قرب مدينة عكا، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جميع جهاتهم ليستغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال برا وبحرا، وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك، إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامي سالماً<sup>(١)</sup>.

وهذا يعتبر نجاحاً كبيراً لأولئك المجاهدين حيث سيطروا على الميناء ودافعوا عن الأسطول الإسلامي على الرغم من وجود الصليبيين القوي في البحر.

وقبل ذلك كان السلطان قد أمر بتجهيز سفينة كبيرة من بيروت، فيها طعام كثير وأسلحة، فقام من فيها من التجار المسلمين بالتزويج بزيّ الفرنج خدعة لهم وكانت السفينة مما غنمه المسلمون منهم، فوصلت ولم يشك الأعداء أنها لتجارهم وأفرغت حمولتها فاكتفى بها المسلمون حتى قدم الأسطول المصري<sup>(٢)</sup>.

وكان النصر حليف المسلمين في كل المعارك التي خاضوها مع الصليبيين حول عكا، وإن حصل لبعضهم انهزام في أول المعركة، إلا أن معاركهم معهم لم تكن حاسمة نظراً لكثرة الصليبيين، ولكونهم سبقوا إلى سور عكا وعملوا لأنفسهم تحصينات يلجؤون إليها عند الانهزام، ولما كان يعتري صلاح الدين من المرض الذي يحمله على مغادرة الميدان مدة قد تطول فيستفيد الأعداء من ذلك، ولكون بعض قادة صلاح الدين لا يأخذون برأيه أحياناً فتفوت على المسلمين فرص جيدة للنصر الحاسم، ولأن الإمدادات من أمراء المسلمين تعتبر قليلة جداً بالنسبة لما يصل إلى الصليبيين من إمدادات<sup>(٣)</sup>.

(٢) البداية والنهاية ١٢ / ٣٦٠.

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٦.

(٣) ينظر الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٢ - ٢٠٣.

وقبل ذلك وأهمُّ منه أن من أسباب تأخر النصر وقوعَ المسلمين أو بعضهم في المعاصي، وقد نبه القاضي الفاضل السلطانَ بعدةَ كتب لهذا المعنى، ومما جاء فيها: إن ما عند الله تعالى من النصر لا يُنال إلا بطاعته، وإننا لو صدَّقناه لعَجَّلَ لنا عواقبَ صدقنا، ولو أطعناه لما عاقَبنا بعدوَّنَا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلو لا أنها تسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيضُ دموع الخاشعين قد غَسَلَ، لكنَّ في الطريق عائقٌ<sup>(١)</sup>.

### ابتكار علمي حربي موفق:

كان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها خمسُ طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة، وقد غَسَّوْها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وقَدَّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها فأشرفتْ على السور، وقاتل من بها مَنْ عليه فانكشفوا وشرعوا في طمِّ خندقها، فكادوا أن يملكوا البلد عنوة، فقاتل صلاح الدين الصليبيين ثمانية أيام وخفف ذلك عن حامية البلد، وقد قاوم المسلمون الأبراج بالنفط الطيار فلم يصنع فيها شيئاً فأيقنوا بالهلاك.

ولما أراد الله تعالى إنقاذ المسلمين من تلك الأبراج وفق شاباً نحاساً من أهل دمشق يُعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان مولعاً بآلات النفط وتحصيل العقاقير التي تقوي عمل النار، وكان بعكا لأمر يريده الله، فلما رأى الأبراج قد نُصِبَتْ على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار، بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش حاكم عكا، وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فزاد غيظاً بقوله فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط

(٣) البداية والنهاية ١٢ / ٣٦١، والقاضي الفاضل من العلماء الكبار وكان وزير صلاح الدين ومستشاره، وكان يحبه كثيراً ويأخذ بآرائه.

وغيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر: لعل الله تعالى يجعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامتنال أمره، فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار، وكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج فألقى قدراً مملوءاً وجعل فيها النار فاشتعل البرج، وألقى قدراً ثانية وثالثة فاضطربت النار في نواحي البرج، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب فاحترق هو ومن فيه، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني والثالث وقد هرب من فيهما، وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله، والمسلمون ينظرون فرحين لنجاة المسلمين من الأبراج.

وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً، وقال: إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه<sup>(١)</sup>.

وبعد: فإن ما قام به هذا الرجل المبدع الماهر في الصناعة يعتبر أمراً عظيماً وإنجازاً كبيراً نصر الله تعالى به الإسلام وأقرَّ عيون المسلمين وأذل به الكفار وأبطل مساعيهم.

وهكذا يبرز من عباقرة المسلمين من يتفوقون آنذاك على الأوروبيين الذين مهروا في الصناعة، وهذا دليل على ارتفاع مستوى المسلمين في الصناعات الحربية، لأن هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما بلغ لولا تقدم المسلمين في الصناعة وتوافر الآلات والمواد اللازمة لذلك، وقد كانوا في تلك المواد المحرقة قد وصلوا إلى مستوى الأوروبيين، ثم تفوق الصليبيون باختراع الموانع التي تمنع عمل النار، فتوصل هذا المسلم المبدع إلى اختراع مواد تقوي النار بحيث تبطل مفعول تلك الموانع التي اخترعها الأعداء.

وهكذا تفوق المسلمون آنذاك على أعدائهم في الاختراع والصناعة فأعقب ذلك نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة نكراء لأعدائهم.

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٥ - ٢٠٦. البداية والنهاية ١٢ / ٣٥٧.

### مثل من رحمة صلاح الدين:

وقد كان صلاح الدين رحمه الله رقيق القلب رحيماً بالمسلمين عطوفاً عليهم، ولقد بلغت رحمته أعداءه، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجداً شديداً واشتكت إلى ملوكهم، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنَّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه، فجاءت إلى السلطان فأُنهت إليه حالها، فرقَّ لها رقة شديدة حتى دمعت عينه، ثم أمر بإحضار ولدها، فإذا هو قد بيع في السوق، فرسمَ بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفاً حتى جيء بالغلام، فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه، ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرَّمة، رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقية كان لها أثر بالغ في رفع سمعة المسلمين الأخلاقية واجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام.

### مثل من تضحيات المجاهدين:

ومن أخبار حصار عكا ما ذكره المؤرخ أبو شامة من رواية القاضي ابن شداد قال: ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها - يعني نوادر ما جرى في القتال على عكا - أن عواماً مسلماً كان يُقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنِّفقات على وسطه ليلاً على غِرةٍ من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو.

وكان ذات ليلة شدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتبٌ للعسكر، وعامٌ في البحر، فجري عليه أمرٌ أهلكه، وأبطأ خبره عنَّا وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوله، فأبطأ الطائر، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً، فاقتدوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب.

(١) البداية والنهاية ١٢ / ٣٦٤ وانظر الروضتين ٤ / ٢٤٥.

وكان الذهب نفقةً للمجاهدين، فما رُئي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقَدَّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً.

فهذا مثل من التضحيات العجيبة التي يقدمها المجاهدون عبر التاريخ، حيث ينسى هؤلاء الفدائيون أنفسهم ومستقبلهم الدنيوي، وتضخم في أعينهم الأهداف الجهادية السامية لتكون هي الحاضر والمستقبل في حياتهم وهم يتعرضون للشهادة يسبقون الزمن، حيث يريدون الظفر بالمقامات العالية في الجنة في زمن قصير، هذا في عالم الآخرة أما في عالم الدنيا فكم هي العائدات الضخمة التي تعود على الأمة من تضحيات هؤلاء الفدائيين، فلقد كان هذا المجاهد السَّباح الماهر هو الوسيلة لنقل الرسائل والمال عبر البحر، فقام بهذه المهمة إلى أن اختاره الله جل وعلا في ركب الشهداء الأبرار.

#### عبرة من نصر الله تعالى أوليائه:

ذكر المؤرخ أبو شامة من رواية القاضي ابن شداد: وفي الثاني والعشرين من شعبان جَهَّزَ العدو - لعنه الله - بَطَسًا [يعنى سفنًا] متعدّدة لمحاصرة برج الذُّبَّان، وهو بُرْجٌ في وسط البحر مبنيٌّ على الصَّخَرِ على باب ميناء عكا، يُحْرَسُ منه الميناء، ومتى عبره المركب أَمِنَ من غائلة العدو، فأراد العدو أَخْذَهُ ليبقى الميناء بحكمه، ويمنع من دخول شيء من البَطَسِ إليه، فتنقطع الميرة عن البلد.

فجعلوا على صواري البطس بُرْجًا، وملؤوه حطبًا ونفطًا على أنهم يسيرون البطس، فإذا قاربت بُرْجَ الذُّبَّان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصَّارِى وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه، ويُقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقودًا كثيرًا حتى يلقي في البرج إذا اشتعلت النَّار فيه، وَعَبُوا بطسة ثانية وملؤوها حطبًا ووقودًا على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية، ثم يلهبونها، فتحرق البطس الإسلامية، ويهلك ما فيها من المير.

وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نُشَاب ولا شيء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو، فأمنوا

وأحرقوا ما أرادوا إحراقه، وقَدَّموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتداً حيث كان الهواء مُسْعِداً لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به مَنْ على البرج، فأوقدوا النَّارَ، وضربوا فيها النَّفْطَ، فانعكس الهواءُ عليهم كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها، واجتهدوا في إطفائها فما قدرُوا، وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت مُعَدَّةً لإحراق بطسنا، وَوَكَّبَ أصحابنا عليها فأخذوها.

وأما البطسةُ التي فيها القبو، فَإِنَّهُمْ انزعجوا وخافوا، وهمُّوا بالرجوع، واختلَفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً، فانقلبت وهلك جميع من كان بها؛ لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله، وأندر العجائب في نُصْرَةِ دين الله، والله الحمد، وكان يوماً مشهوداً<sup>(١)</sup>.

فهذه أمثلة عالية من معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد، فالعدو استظهر على المسلمين بكون الريح لصالحه، حيث إنه بغير ذلك لا يستطيع تحريك السفن، فاغتنموا كون الريح متوجهة نحو الهدف الذي أرادوا إحراقه، فإذا بالريح بقدره الله تعالى تعكس مسارها بعدما أشعلوا النار في السفن فكانت النار على الأعداء واحترقت سفنهم وهلكوا، وفي ذلك عبرة في تقوية الصلة بالله تعالى وكثرة دعائه واللبجاء إليه.

### استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم:

هذا وقد جرت معارك أخرى كان النصر فيها حليف المسلمين إلا أنها لم تكن حاسمة، إلى أن وصل ملك فرنسا ثم ملك إنجلترا على رأس جيشين في عدد من السفن فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا، وكان من أسباب ذلك أيضاً ما حصل من سامة أفراد الحامية الإسلامية داخل عكا وإبدالهم بجنود آخرين ليسوا في مستواهم في الخبرة والعدد.

وكان الذي أطال بقاء الصليبيين حول عكا هو اعتصامهم بخنادقهم، فكانوا قلماً يخرجون للقتال، وإذا خرجوا وانهزموا لجؤوا إليها.

(١) كتاب الروضتين ٤ / ١٦١ - ١٦٢.

وكانوا إذا خرجوا يقصدون طائفة من المسلمين ليقتلوا عليهم، فمن ذلك أنهم في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة خرجوا واتجهوا نحو جيش المصريين، فاقتتلوا قتالاً شديداً ودخل الصليبيون خيامهم فقاتلهم المصريون فيها ثم داروا على الصليبيين من الخلف وقطعوا إمدادهم، وساعدتهم أهل الموصل لقربهم منهم فقتلوا من الصليبيين ما يزيد على عشرة آلاف.

ولما تابعت الأمداد على الصليبيين خرجوا مرة أخرى من خنادقهم، فتصدت لهم مقدمة المسلمين بالرماية، وندم الصليبيون على خروجهم فلزموا مكانهم، وباتوا ليلتهم تلك، فلما كان الغد عادوا نحو عكا والمسلمون خلفهم يقتلون منهم، وكان صلاح الدين مريضاً وقد نُصب له خيمة فوق تلٍّ، فلم يكن له إشراف مباشر، يقول ابن الأثير: فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما الله أمر هو بالغه<sup>(١)</sup>.

وقد انتهى أمر صلاح الدين مع الصليبيين إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وذلك في العشرين من شعبان عام ثمان وثمانين وخمسمائة، وقد كانت الهدنة بطلب من ملك إنجلترا، وقد أشار أمراء صلاح الدين عليه بالموافقة ليرحل الفرنج القادمون فتخف الوطأة على المسلمين<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩ / ٢٢١ - ٢٢٢ ، البداية والنهاية ١٢ / ٣٧٢ - ٣٧٣ .



## ٦ - جهاد الظاهر ببيرس ضد الصليبيين

بقي للصليبيين إمارات في ساحل الشام حيث لم يتم إجلاؤهم بالكلية، إلى أن انتهى عهد الأيوبيين وجاء عهد المماليك، فكان للسلطان الظاهر ببيرس والسلطان المنصور قلاوون وابنه خليل دور كبير في القضاء على الصليبيين وإزالة ملكهم عن بلاد الشام بالكلية.

ولقد كان هناك دولة للأرمن النصارى جنوب بلاد الأناضول، وقد كانوا حلفاء للصليبيين والتتار، ولقد أدرك الظاهر ببيرس أن أي عمل حربي يقوم به ضد الأرمن والصليبيين سيكون محرّضاً للتتار للقدوم والمشاركة مع النصارى في مواجهته، والتتار لا تزال لهم دولة قوية في الشرق تحت إمرة حاكمهم القوي هولاكو.

ولقد كان هناك طائفة من التتار لا تخضع لهولاكو وهم مغول القفجاق، ويسمّون القبيلة الذهبية، وزعيمهم هو بركة خان، وقد اعتنق الإسلام، فاجتنب الظاهر ببيرس هذه الفرصة فكتب بركة خان وحرّضه على قتال هولاكو، فاستجاب لذلك بركة خان وكان مخلصاً في إسلامه فقاتل هولاكو حتى شغله عن المسلمين وأضعفه وفرّق جنده.

وبهذا نجح الظاهر ببيرس في هذا التخطيط الحربي الجيد حيث أمن جانب التتار وتفرغ للصليبيين<sup>(١)</sup>.

ولقد كان فيما قام به السلطان بركة خان عمل جهادي كبير يُشكر عليه، حيث رفع بجهاده هذا إصراراً ثقيلاً عن كاهل المسلمين.

ولقد سار السلطان الظاهر ببيرس من مصر بجيشه إلى الشام قاصداً جهاد الصليبيين في عام أربعة وستين وستمائة، وقد نزل في عين جالوت، وبعث عدة جيوش للإغارة على إمارات الصليبيين في الساحل، فأغاروا على عكا وصور

---

(١) الحروب الصليبية للدكتور سعيد عاشور ٢ / ١٠٨٩، والظاهر ببيرس البندقداري هو أحد سلاطين المماليك، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة حتى سنة ست وسبعين وستمائة.

وطرابلس وحصن الأكراد، فسبوا وغنموا شيئاً كثيراً، ثم نزل الظاهر بنفسه على مدينة صفد في الثامن من شهر رمضان، وقد فتحها بعد حصار طويل وقتل كثيراً من أهلها، ثم جعلها معقلاً للمسلمين فوضع فيها الجنود وزودها بالذخائر والأسلحة<sup>(١)</sup>.

ثم عاد الظاهر إلى دمشق، ووجه جيشاً لقتال الأرمن وقد كانوا ناصروا التتار حينما غزوا الشام، واستنجدوا بهم أيضاً حينما أراد بيبرس فتح أنطاكية، فوجه بيبرس جيشين بقيادة الأمير قلاوون والأمير المنصور الأيوبي أمير حماة، فالتقوا مع المسلمين عند دربساك وهي قلعة عند أنطاكية فأنزل المسلمون بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى واستولوا على عدد من بلدانهم المهمة، ومنها سيس عاصمة أرمينية الصغرى، ورجع المسلمون بغنائم كثيرة وعدد كبير من الأسرى، ومن بينهم ابن هيثوم ملك أرمينية الصغرى، ولم يستطع هيثوم استرداد ابنه إلا بمقابل تنازله عن مواقع مهمة مثل دربساك التي تتحكم في الطريق بين أرمينية وأنطاكية، ومدن أخرى تتحكم في الطريق بين أرمينية والجزيرة حيث يوجد التتار حلفاء الأرمن<sup>(٢)</sup>.

وبهذا استطاع بيبرس أن يُضعف أرمينية جداً وأن يحصرها بحيث لا تستطيع أن تستنجد بأعدائه ولا أن تُنجدهم.

### فتح مدينة يافا:

وفي يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من عام خمسة وستين وستمائة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه عازماً على قصد الشام على حين غفلة، وسار نحو يافا، فوافته رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب في الليل وسار فصيح يافا وأحاط بها من كل جانب، فهرب من كان فيها من الصليبيين إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوَّضهم عما نُهب لهم بأربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عكا<sup>(٣)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ١٣٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ١٤٠ ، الحروب الصليبية / ١٠٩٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ١٤١ - ١٤٢ .

وهكذا تم فتح يافا وإجلاء الصليبيين منها بهذه السرعة والسهولة بفضل الله تعالى ثم بفضل التخطيط الحربي البارع الذي رسمه السلطان بيبرس الذي جمع الله تعالى له بين الشجاعة النادرة والرأي الثاقب.

### فتح مدينة أنطاكية:

وبعد أن فتح الظاهر بيبرس يافا توجه شمالاً يريد فتح أنطاكية، وفي طريقه إليها فتح قلعة الشقيف، وقلعة الباشورة وغيرهما.

ولما قرب من أنطاكية أمر العسكر ليلاً بلبس آلة الحرب ونزل أنطاكية في غرة شهر رمضان، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطاً لم يجب إليها، وزحف عليها ففتحها يوم السبت رابع الشهر، وقد كان هو أول من فتح أنطاكية وقضى على الصليبيين فيها منذ أن استولوا عليها<sup>(١)</sup>.

وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس في غزو الصليبيين في ساحل الشام، ومن ذلك ما قام به سنة تسع وستين وستمائة حيث خرج من مصر في ثاني عشر من شهر جمادى الآخرة، وكان معه ولده الأمير السعيد وقد هاجم عدداً من حصون الصليبيين وقلاعهم الحصينة، وفتح منها قلعتي صافيتا والمجدل وحصن الأكراد<sup>(٢)</sup>.

ومما يذكر للسلطان الظاهر بيبرس كثرة خروجه للجهاد حيث كان لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار بعاصمة سلطنته وهو يرى البلاد الإسلامية مهددة من الصليبيين والتتار، وقد بلغت قوة دولته حداً أربى الأعداء وجعل بعضهم يحاول الصلح معه، فرحمه الله رحمة واسعة.

\*\*\*

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ١٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ١٥٠ .

## ٧- جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل

### فتح حصن المرقب:

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان المنصور قلاوون<sup>(١)</sup> خرج بجيشه من مصر إلى بلاد الشام، ووصل إلى حصن المرقب الذي هو تحت سيطرة الصليبيين، وذلك في العاشر من شهر صفر عام أربعة وثمانين وستمائة، وحاصر أهل ذلك الحصن ونصب المسلمون المجانيق ورموا بها الحصن وهدموا معظم أبراجه، واستمر ذلك إلى سادس عشر من شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان بجيشه واستولى على ذلك الحصن، ونزل من فيه من الصليبيين بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهاز السلطان معهم من أوصلهم إلى أَنْطَرُسُوس<sup>(٢)</sup>.

### فتح مدينة طرابلس:

ثم ذكر أنه في عام ثمانية وثمانين وستمائة خرج السلطان المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس، ووصل في مستهل شهر ربيع الأول إلى طرابلس وحاصرها، ونصب عليها المجانيق، وضايق أهلها مضايقة شديدة إلى أن ملكها عنوة في يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الأول، وشمل القتل والأسر سائر من فيها من الصليبيين، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة، كما تم الاستيلاء على عدد من الحصون التابعة لها<sup>(٣)</sup>.

### فتح مدينة عكا:

كان السلطان المنصور قلاوون قد عزم على حصار مدينة عكا، وبدأ بالاستعداد لذلك، ولكن وافته المنية وهو في مخيمه خارج القاهرة بعد مرض أصابه، ذكر ذلك ابن تَغْرِي بَرْدِي ثم ذكر أنه لما آل الأمر إلى ولده السلطان خليل بن قلاوون<sup>(٤)</sup> واستتب له الأمر شرع في إكمال ما عزم عليه أبوه، فتجهز للسفر،

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٥. (٣) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٢١.

(٤) تولى الحكم بعد أبيه ما بين عامي تسعة وثمانين وستمائة وثلاثة وتسعين وستمائة.

وأرسل إلى البلاد الشامية ليستعدوا للغزو معه، وعمل آلات الحصار وجمع الصناع إلى أن تم أمره فخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين وستمائة، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، فاجتمع عنده على عكا من الأمم مالا يُحصى كثرة، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار، ونقب النقبون في سورها عدة نقوب.

قال: وأنجد أهل عكا صاحب قبرص بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلها فرحاً به، وأقام عندهم ما يقرب من ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم ما دهمهم، ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلت عزائم من بها وضعف أمرهم، واختلفت كلمتهم، هذا والحصار عمال في كل يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلما كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسٌ عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج، ومُلكت المدينة بالسيف، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر، فلم ينج منهم إلا القليل<sup>(١)</sup>.

#### فتح مدينة صور:

قال ابن تغري بردي: وكان السلطان [يعني خليل بن قلاوون] عند منازلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى «صور» لحفظ الطرق وتعرف الأخبار، وأمره بمضايقة صور، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت ميناء صور، فحال بينها وبين الميناء، فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور فأجيبوا إلى ذلك، فتسلمها.

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ٥ - ٧.

ثم ذكر أن السلطان خليل لما علم بذلك جهز إليها من خربها وهدم أسوارها وأبنيتها<sup>(١)</sup>.

### نهاية الصليبيين في الشام:

وبعد هذه الفتوح بقي للصليبيين في الشام مدينة صيدا وعثليث وأنطَرطوس، وكان السلطان خليل بن قلاوون قد ولَّى على نيابة الشام علم الدين سنجر الشجاعى فحاصر مدينة صيدا حتى فتحها بالأمان لأهلها يوم السبت خامس عشر رجب من سنة تسعين وستمائة، ثم فتح قلعة جُبيل وخربها بأمر السلطان، ثم فتح عثليث بعد شهر.

وأما أهل أنطَرطوس فإنهم لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بَلْبَان الطَّبَّاحى عسكرياً، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها، فندب إليها السَّعْدِيَّ بما كان أحضره من مراكب فأخلوها، وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قام السلطان المنصور قلاوون بمشروع جهادي كبير لاستئصال بقية الصليبيين في الشام، فبدأ بفتح حصن المرقب الحربي الذي كان واسعاً وفي غاية الأهمية، ثم ثنى بفتح مدينة طرابلس التي كانت مشهورة بحصانتها ومناعة سورها، ثم ثلث بالعزم على حصار مدينة عكا فوافته المنية قبل ذلك، فحقق له أمنيته ابنه السلطان خليل الذي خلفه في الحكم، وكانت عكا أهم مراكز الصليبيين في ساحل الشام ثم توجَّ السلطان خليل بن قلاوون أعماله الجهادية بفتح بقية المدن والحصون التي استولى عليها الصليبيون.

وبهذه الفتوحات انتهى وجود الصليبيين في بلاد الإسلام الذي بدأ في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة واستمر حتى عام تسعين وستمائة للهجرة، وهذا يعني أن احتلال الصليبيين لأجزاء من بلاد المسلمين استمر اثنتي عشرة ومائتي سنة.

\*\*\*

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ٨.

(٢) النجوم الزاهرة ٨ / ١٠ - ١١.

**مواقف وعبر  
في  
جهاد المسلمين ضد التتار**

## استيلاء التتار على بلاد المشرق كلها

في موضوع حروب التتار كتب المؤرخ المشهور أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير كتابة عالية مفصلة لكونه قد عاصر تلك الأحداث وقد قدم لذلك بمقدمة أظهر فيها الأسى والحزن على ما حل بأمة الإسلام من النكبات العظيمة على أيدي التتار، وفي ذلك يقول: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فياليت أُمي لم تلدني وبالييتني مت قبل هذا وكنت نسيّاً منسياً، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظيمة والمصيبة الكبرى التي عقيمت الأيام والليالي عن مثلها، وعمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادفًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر بنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟! فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنئ الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإن الله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح<sup>(١)</sup>.

وقد لخص الحافظ بن كثير الكلام في ذلك بقوله: وفيها [أى في سنة ست عشرة وستمائة] عبرت التتار نهر جيحون في صحبة ملكهم جنكزخان من بلادهم،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩ / ٣٢٩.



وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار، وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكزخان بعث تجاراً له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له ثياباً للكسوة، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيداً، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلى خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين، فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولّوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى أن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان جملة من قتل من المسلمين نحواً من عشرين ألفاً، ومن التتار أضعاف ذلك، ثم تجاوز الفريقان وولّى كل منهم إلى بلاده ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها وبالع في كثرة من ترك فيها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكزخان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكرراً وخديعة، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها واستعمل أهل البلد في طم خندقها، وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات<sup>(١)</sup> فيطرحونها في الخندق يطمونه بها ففتحوها قسراً في عشرة أيام، فقتل من كان بها. ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند.

(١) أى الحوامل الخشبية للقرآن الكريم.

قال: ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، وفي هذه السنة عم البلاء وعظم العزاء بجنكزخان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين، واستفحل أمرهم واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج والالان والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار مالا يحد ولا يوصف، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحرقيق إن لم يحتاجوا إليه حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم.

قال الحافظ ابن كثير: ثم سار - يعني ملك التتار - إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هذه السنة وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكّلوا وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة فقتل الجميع في ساعة واحدة وألقى إليه الخمسون ألف السلم فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذرية وحرقه وتركه بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فأرسل سرية إلى بلاد خراسان وتسميتها التتار المغربية، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفاً قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسما فساروا وراءه فأدركوه بينهم وبينه نهر جيحون، وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفناً فعملوا لهم أحواضاً يحملون عليها الأسلحة ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذي فيه سلاحه، حتى صاروا كلهم في الجانب الآخر، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور ثم منها إلى غيرها وهم في أثره لا يمهلونهم يجمع لهم، فصار كلما أتى بلداً ليجمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم،

حتى ركب في بحر طبرستان وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه البحر ما كان من أمره بل ذهب فلا يدري أين ذهب، ولا إلى أي مفر هرب، وملكت التتار حواصله فوجدوا في خزائنه عشرة آلاف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئاً كثيراً، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله.

وقد كان خوارزم شاه فقيهاً حنيفياً فاضلاً له مشاركات في فنون من العلم، يفهم جيداً، وملك بلاداً متسعة وممالك متعددة إحدى وعشرين سنة وشهوراً، ولم يكن بعد ملوك بني سلجوق أكثر حرمة منه ولا أعظم ملكاً منه، لأنه إنما كانت همته في الملك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضي وأحل بالخطأ بأساً شديداً، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدي نوابه.

ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين من أيام سليمان بن عبد الملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة ونهبوا ما فيها وقتلوا أهاليها كلهم وسبوا وأحرقوا، ثم ترحلوا عنها نحو الري فوجدوا في الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جداً، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها، ثم قصدوا الري فدخلوها على حين غفلة من أهلها فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا قزوین فنهبوها وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفاً، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أذربك بن البهلوان على مال حملة إليهم لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج في عشرة آلاف مقاتل فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج فأقبلوا إليهم بحدهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها.

قال ابن كثير: وانقضت هذه السنة وهم في بلاد الكرج، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم، فساروا

إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال. ثم ساروا إلى مراغة فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلى البلد امرأة - ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة - ففتحوا البلد بعد أيام وقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئاً كثيراً، وسبوا وأسروا على عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفاً عظيماً جداً حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب ذلك الدرب وحده. ودخلت امرأة منهم في زي رجل (بيتا) فقتلت كل من في ذلك البيت وحدها ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله.

ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعاً وقال أهل تلك النواحي هذا أمر عصيب، وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول إني قد جهزت عسكرياً فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية بسبب ما قد دهم المسلمين هناك من الفرنج، وأخذهم دمياط الذي قد أشرفوا بأخذهم لها على أخذ الديار المصرية قاطبة، وكان أخوه المعظم قد قدم على والي حران يستنجد لأخيها الكامل ليحاجزوا الفرنج بدمياط وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التي يبعثها الخليفة وهي عشرة آلاف مقاتل، فلم يقدم عليه منهم سوى ثمانمائة فارس تفرقوا قبل أن يجتمعوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن الله سلّم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها وترك عندهم التتار شحنة، ثم اتفقوا على قتل شحتهم فرجعوا إليهم فحاصروهم حتى فتحوها قسراً وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان ففتحوا أردبيل ثم تبريز ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وجماً غفيراً وحرقوها، وكانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة ثم عادوا إلى بلاد الكرج وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة.

ثم فتحوا بلداناً كثيرة يقتلون أهلها ويسبون نساءها ويأسرون من الرجال ما

يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترسًا يتقون بهم الرمي وغيره، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلاد اللان، والقبيجاق فاقتتلوا معهم قتالاً عظيماً فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القبيجاق وهي مدينة سوداق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسي والقندر والسنجاب شيء كثير جداً، ولجأت القبيجاق إلى بلاد الروس وكانوا نصارى فاتفقوا معهم على قتال التتار فالتقوا معهم فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جداً، ثم ساروا نحو بلقار في حدود العشرين وستمئة ففرغوا من ذلك كله ورجعوا نحو ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم.

هذا ما فعلته هذه السرية المغرّبة، وكان جنكزخان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى كلانة وأخرى إلى فرغانة فملكوها، وجهاز جيشاً آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدناً كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها وكانت حصينة فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا فكتبوا إلى جنكزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهراً، ثم قتل كل من فيها. وكل من في البلد بكماله خاصة وعامة.

ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عسكر بظاهرها نحو مائتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم فاقتتلوا معه قتالاً عظيماً حتى انكسر المسلمون فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا به وبأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان.

ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد علي بن موسى الرضى سلام الله عليه وعلى آبائه، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خراباً، ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسروهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم، وأرسل جنكزخان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم فحاصروها حتى فتحوا البلد قهراً فقتلوا من فيها قتلاً ذريعاً، ونهبوها وسبوا أهلها وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها وهلك جميع أهلها.

ثم عادوا إلى جنكزخان وهو مخيم على الطالقان فجهز منهم طائفة إلى غزنة فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسروهم جلال الدين كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقاً من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله، فقصده جنكزخان فتواجهوا وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين فذهبوا فركبوا بحر الهند فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة، كل هذا أو أكثره وقع في هذه السنة<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر المؤرخ ابن الأثير أن تلك الانتصارات التي حاز عليها التتار بسبب عدم وجود المانع لهم، قال: وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها (ليقضى الله أمراً كان مفعولاً)<sup>(٢)</sup>.



---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٩٠ - ٩٨ .

(٢) الكامل في التاريخ ٩ / ٣٣٠ .

## استيلاء التتار على بغداد وقضاؤهم على الخلافة العباسية

ذكر الحافظ ابن كثير في حوادث سنة ست وخمسين وستمائة خبر هجوم التتار على بغداد واستيلائهم عليها فقال: استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار. هولاكوخان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدهم على البغادة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر «لن يغني حذر عن قدر» وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَّالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم وبقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هلاكوخان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكوخان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء

المذكورين، وأنزل الباقر عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاءكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة.

وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاءكو أن لا يصلح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاءكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاءكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الأملوت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي. وانتخب هولاءكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاءكو وتهيب من قتل الخليفة هوناً عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال بل أغرق فالله أعلم، فباءوا بإثمهم وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلادهم.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في



خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالمملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطعمهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر بدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعدما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلى الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقليل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، ومازال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً.

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت ببغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الرياح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى<sup>(١)</sup>.

وهكذا تبين لنا سقوط دولة الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم ومئات الألوف من المسلمين بسبب التدابير الماكرة السيئة التي قام بها الوزير محمد بن أحمد ابن العلقمي الرافضي المنافق، وقد كان يُظهر للخليفة النصيح ويكيد له في الخفاء.

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢١٣ - ٢١٦.

## مواقف السلطان سيف الدين المظفر قطز

قال المؤرخ يوسف بن تغرى بردي: السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزى الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية، وقُطِرَ (بضم القاف والطاء المهملة وسكون الزاي)، وهو لفظ مُغَلَّى. تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور على بن الملك المعز أيبك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة، وذلك بعد أن عظمى الأراجيف بتحريك التتار نحو البلاد الشامية وقطعهم الفرات وهجمهم بالغارات على البلاد الحلبية، وكان وصل إليه بسبب ذلك صاحب كمال الدين<sup>(١)</sup> عمر بن العديم رسولا من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب منه التجدة على قتال التتار، فأنزله قطز بالكيش<sup>(٢)</sup> وجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر التار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، فحضرُوا فى دار السلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام والقاضى بدر الدين السنجارى قاضى الديار المصرية وغيرهما من العلماء، وجلس الملك المنصور على فى دسُ السلطنة، وأفاضوا فى الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبدالسلام، وخلاصة ما قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص<sup>(٣)</sup> المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة. وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا فى أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، وانفض المجلس على ذلك، ولم يتكلم السلطان بكلمة فى المجلس لعدم معرفته بالأمور

(١) قال المحقق: هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة صاحب العلامة كمال الدين أبو القاسم العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم. سيذكر المؤلف وفاته سنة ٦٦٠ هـ.

(٢) قال المحقق الكيش: اسم يطلق على الجزء الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون.

(٣) قال المحقق: كان من عادة السلطان أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المتقدمين (راجع صبح الأعشى فى الكلام على الخلع والشاريف / ج ٤ ص ٥٢ - ٥٥).

ولصغر سنّه؛ فلهجّ الناس بخلع المنصور وسلطنة قُطْرُ حتى يقوم بهذا الأمر المهم، واتفق ذلك بعد أيام، وقبض قُطْرُ هذا على الملك المنصور على، واحتجّ لكمال الدين بن العديم وغيره بأنّه صبيّ لا يُحسن تدبير الملك، وفي مثل هذا الوقت الصّعب لا بدّ أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه الناس ويتصب للجهداء. قال: وتسلمن وركب بشعار الملك، وجلس على كرسيّ السلطنة وتمّ أمره. ولما وقع ذلك تقدم قُطْرُ إلى برهان الدين الخضر أن يتوجّه في جواب رسالة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام صجّة الصاحب كمال الدين بن العديم، ويعدّ الملك الناصر بالنجدة وإنفاذ العساكر إليه؛ فتوجّهًا ووصلا إلى دمشق وأديا الرسالة؛ ولم يزل البرهان بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر من دمشق إلى جهة الديار المصريّة جافلاً من التّار<sup>(١)</sup>.

في هذا الخبر موقف جليل لسلطان العلماء عز الدين ابن عبدالسلام حيث لم يخش من السلطان وأعوانه، بل صرح بما يراه هو الحق، وقد تطرق في هذا الخبر إلى نوع من الجهاد بالمال، وهو الذي يكون إلزاميا على الدولة وأفراد الأمة، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام ولم يكن في بيت مال المسلمين ما يكفي لتجهيز الغزاة، وذلك بأنّه يجوز للحاكم الذي يريد أن يقوم بغزو الكفار أن يأخذ من أفراد الرعية ما يستعين به هو وجيشه على صد الأعداء، ولكن ذلك مشروط بخلو بيت المال، وأن يكون البدء بالحاكم وأسرته وجنده، وذلك بإلزامهم بالتخلي عن مظاهر الترف وبيع كل النفائس والأشياء الثمينة ورصد ثمنها للإنفاق على المجاهدين، بعد ذلك يُنظر في توزيع باقى النفقة اللازمة للجهاد على أفراد الرعية على حسب مستواهم المالى، هكذا جاءت فتوى هذا العالم الكبير، وهي من فتاوى الضرورة التى يباح فى موضوعها مالا يباح فى غيره، والضرورة تُقدّر بقدرها.

معركة عين جالوت:

تبين لنا أن التار بعدما استولوا على العراق تقدموا إلى الشام فاستولوا عليها، ولم يبق خارجًا عن سيطرتهم إلا مصر وما وراءها غربًا والحجاز واليمن، ولما استقروا فى بلاد الشام عزموا على الزحف إلى مصر وذلك فى عام ثمانية وخمسين وستمائة، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير: والمقصود أن المظفر قطز لما

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٧ / ٧٢ - ٧٣.

بلغه ما كان من أمر التار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بأدرهم قبل أن يادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين، وكان إذ ذاك في البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجيز ابن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاءكو، فأبى إلا أن يناجزه سريعاً، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، فاقتلوا قتالاً عظيماً، فكانت النصره والله الحمد للإسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته، وقد قيل إن الذي قتل كتبغانوين الأمير جمال الدين أقوش الشمسي، واتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع، وقد قاتل الملك المنصور صاحب حمص مع الملك المظفر قتالاً شديداً، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، وكان أتابك العسكر، وقد أسر من جماعة كتبغانوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل، فأمر المظفر بضرب عنقه، واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التار، وقد جعله هولاءكو خان نائباً على الشام كله، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص، وكذلك رد حمص إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان. فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم، وجاءت بذلك البشارة والله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاءتها دق البشائر من القلعة، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمتافقين وظهر دين الله وهم كارهون<sup>(١)</sup>.

وهكذا هزم الله تعالى التار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جيش الشام بقيادة السلطان المظفر قطز، وحاز هذا الأمير الشجاع الشهيم على شرف القيام بمواجهة التار وهزيمتهم.

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٤.

ولقد كانت هزيمة التتار في عرف المسلمين -آنذاك- أمراً بعيد الاحتمال، ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم، واستعز النصارى وتناولوا على المسلمين وأهانوهم ظناً منهم أن الدولة ستستمر للتتار، ولكن الله تعالى بفضلته وإحسانه أخلف ظنون التتار والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعز بهم دينه.

إن معركة عين جالوت معركة فاصلة، فصلت بين الإسلام والكفر، وبين دولة المسلمين ودولة الكفار، فالتتار الذين انتصروا على أكثر بلاد المسلمين كان في يقينهم أنهم سيستولون على مصر وبقية بلاد المسلمين، ولكن جنود مصر البواسل -بعمونة جند الشام- كانوا لهم بالمرصاد، فخيروا آمالهم وأبطلوا أحلامهم.

ولقد قُتل في هذه المعركة الفاصلة «كيتغانوین» قائد التتار الكبير، ورجع هولاء ملك التتار نحو المشرق خاسئاً ذليلاً، وتم تطهير شمال الشام من التتار على يد الظاهر بيبرس أحد قادة قطز الأقوياء.

### مواقف جهادية في هذه المعركة:

من ذلك مواقف قائد المسلمين السلطان سيف الدين المظفر قطز حاكم مصر، ولابد قبل بيان مواقفه من إعطاء نبذة موجزة عنه، فهو محمود بن مودود من سلالة بيت خوارزم شاه حاكم بلاد المشرق الذي قضى التتار على مملكته، وقد نُقل قطز وهو صغير إلى مصر حيث أصبح مملوكاً للأمير صالح بن أيوب بن الكامل، ثم انتقل إلى ملك الأمير عز الدين أيبك التركماني حاكم مصر، وقد رأى فيه نجابة وشجاعة فقرَّبه إليه.

يقول عنه الإمام الذهبي: وكان المظفر أكبر ممالك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه في الجنة ورضي عنه، ذكره ابن تغري بردي<sup>(١)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٨٤.



وقال ابن كثير: لما قُتِلَ أستاذُه المعز قام بتولية ولده نور الدين المنصور علي، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر سنِّ ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة<sup>(١)</sup>.

وفى مواقفه العالية في هذه المعركة ما ذكره الحافظ ابن كثير قال: ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قُتِلَ جواده، ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب<sup>(٢)</sup>، فترجَّلَ وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً، والقتال عمَّال في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعتك، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيول فركب، فلأَمَّه بعض الأمراء وقال: يا خَوْنَدُ لِمَ لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآكَ لقتلك وهلك بسببك الإسلام، فقال: أمّا أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأمّا الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قُتِلَ فلان وفلان وفلان، -حتى عد خلقاً من الملوك- فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام<sup>(٣)</sup>.

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دل على تواضعه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

وقال الحافظ ابن كثير: وقد رُوي عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

وهذه لفظة جيدة تدل على اهتمام المظفر قطز بالاعتماد على الله تعالى واستمداد النصر منه، حيث أمل بموافقة ساعة صلاة الجمعة أن يستجيب الله جل وعلا دعاء خطباء الجمعة والمسلمين لهم بالنصر.

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٧ / ٨٤.

(٢) الوشاقية هم سائسو الخيل

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٢٣٨.

(٤) البداية والنهاية ١٣ / ٢٣٩.



وقال الحافظ ابن كثير أيضاً في بيان انتصار المسلمين وهزيمة التتار: وقُتل أميرهم «كتبغانوين» في المعركة وأُسر ابنه وكان شاباً حسناً، فأُحضر بين يدي المظفر قطز فقال له: أَهْرَبَ أبوك؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى، ثم قال: أنامُ طيباً، كان هذا سعادة التتار، وبقتله ذهب سعدهم.

قال: وهكذا كان كما قال: ولم يفلحوا بعده أبداً، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وهذا الخبر فيه دلالة على خبرة المظفر قطز بمكامن القوة عند الأعداء، حيث أدرك أن قوة التتار ونجاحهم يتمثلان في قائدهم الكبير كتبغانوين، الذي توالى انتصاراته منذ عهد جنكيز خان جد ملكهم هولاكو، وقد كان الأمر كما قال قطز حيث انتكس التتار بعد مقتله وتقلص ملكهم.

وفي سجود المظفر قطز لله تعالى شكراً، دلالة على عظمة اهتمامه بنصر الإسلام والمسلمين رحمه الله تعالى.

ومن مواقفه الجهادية أثناء المعركة ما ذكره المؤرخ يوسف بن تغزي بردي قال: ثم رحل الملك المظفر قطز بعساكره من غزة ونزل الغور بعين جالوت، وفيه جموع التتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان [يعني من عام ثمانية وخمسين وستمائة] ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور وتقاتلا قتالا شديداً لم ير مثله، حتى قُتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانكسرت مسيرة المسلمين كسرة شنيعة، فحمل المظفر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عساكره وأردف المسيرة حتى تحايوا وتراجعوا، واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه، وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً، وعظم الحرب، وثبت كل من الفريقين مع كثرة التتار، والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت، وهو يكرُّ بهم كرة بعد كرة، حتى نصر الله الإسلام وأعزه، وانكسرت التتار، وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قُتل معظم أعيانهم، وأُصيب مُقدَّم العساكر التتارية كتبغانوين<sup>(٢)</sup>.

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٠.

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ٧٩.

وهكذا تبين لنا دور المظفر قطز رحمه الله في نجاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبلُ إذا انهزمت طائفة منهم انهزموا أمام التتار، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يصدَّ تلك الثغرة التي انفتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين، ولقد كان لتشجيعه الجيش -وهو القائد- الأثر الكبير في ثبات أفرادهِ حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى.

### رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر:

لقد كان من أهم الخوافز للأمير المظفر قطز على الإقدام على حرب التتار رؤيا صادقة رآها في صغره، وفي بيان ذلك يقول المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بِرْدِي نقلاً عن الشيخ قطب الدين البونيني قال: حكى لي المولى علاء الدين بن غانم في غرة شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ببعلبك، قال: حدثني المولى تاج الدين أحمد ابن الأثير -تغمده الله برحمته- ما معناه: أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف - رحمه الله- لما كان على «برزة» في أواخر سنة سبع وخمسين<sup>(١)</sup> وصله قُصَّاد من الديار المصرية بكتب يخبرونه فيها أن قطز تسلطن وملك الديار المصرية وقبض على ابن أستاذه.

قال المولى رحمه الله: فطلبني السلطان الملك الناصر فقرأت عليه الكتب، وقال لي: خذ هذه الكتب وروح إلى الأمير ناصر الدين القيمري والأمير جمال الدين بن يَغْمُور، أوقف كلاهما عليها، قال: فأخذتها وخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني وسلم علي وقال: جاءكم بريدي أو قُصَّاد من الديار المصرية؟ فوريت وقلت: ما عندي علم بشيء من هذا، قال: قطز تسلطن وتلك الديار المصرية ويكسر التتار.

قال تاج الدين: فبقيت متعجباً من حديثه وقلت له: أيش هذا القول؟ ومن أين لك هذا؟ قال: والله هذا قطز خُشْدَاشِي<sup>(٢)</sup>، كنت أنا وإياه عند الهيجايوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كثير، فكنت أسرح رأسه على أنبي كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلساً أو صفعته، ثم قلت في غضون ذلك: والله

(١) يعني وستمائة. (٢) أي كان تابلاً لي.



ما أشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارساً، قال لي: طيب قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارساً، فصفعته وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم، فصفعته وقال لي: وألك علة! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارساً؟ أنا والله أعطيك، قال: ويلك كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيكَ الذي طلبت، قلت: ويلك أنت مجنون! أنت بقمك تملك الديار المصرية؟ قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار. وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه، قال: فسكتُ وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب.

قال تاج الدين: فلما قال لي هذا قلت له: وردت الأخبار بأنه تسلطن، قال لي: والله هو يكسر التتار.

قال تاج الدين: فرأيت حسام الدين البركة خاني -الحاكمي ذلك -بالديار المصرية بعد كسر التتار فسلم علي، وقال: يا مولاي تاج الدين تذكُر ما قلته لك في الوقت الفلاني؟ قلت: نعم، قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قطياً دخلت الديار المصرية أعطاني<sup>(١)</sup>. إمرة خمسين فارساً كما قال: لا زائد علي ذلك<sup>(٢)</sup>.

فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يُقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف.

لقد دخل المظفر قطز تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت -كما جاء في هذا الخبر- فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون أيضاً على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فكان ذلك دافعاً قوياً لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وبذلك انتصروا على أعدائهم.

(١) يعني المظفر قطز. (٢) النجوم الزاهرة ٧ / ٨٧ - ٨٩، وانظر البداية والنهاية ١٣ / ٢٣٩.

وبعد معركة عين جالوت تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرقة.

ومن ذلك ما ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بُرْدِي من أن التتار قدموا إلى الشام في أوائل شهر محرم من عام تسعة وخمسين وستمائة، فلما سمع بهم أهل حلب انسحب جيشها إلى حماة، ثم انسحب جيش حلب وحماة إلى حمص فلما علم بهم التتار لحقوا بهم وكانوا في ستة آلاف، فخرج إليهم المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجوكنداري العزيزي صاحب حلب بعساكرهم، فحمل المسلمون على التتار حملة رجل واحد فهزموهم وقتلوهم شر قتلة، وهرب أمير التتار بيدرا في نفر يسير، وكانت الواقعة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ١٠٦ - ١٠٧.

ولقد كان التتار لما استولوا على بلاد المشرق ظلوا عشرات السنين لا يجرؤون على غزو دار الخلافة حتى زين لهم هذا المناق الخبيث ذلك الغزو وبين لهم ضعف الدولة العباسية، ومن قبل ذلك مشورته على الخليفة بتسريح الجند الذي كانوا مائة ألف في بغداد وحدها، فلم يبق منهم إلا عشرة آلاف، ولقد كان من واجب الخلفاء ورجال دولتهم أن يعلموا بأن التتار إذ صبّحوا دار الإسلام في مشرقها فإنهم مُسَوِّهُم بعد ذلك، ولكنهم لم يهتموا بذلك ولم يخططوا للدفاع عن دار الخلافة، بل إن الخليفة المستعصم خضع لآراء ابن العلقمي فقطع رواتب الجند وأخلى دار الخلافة من الجيش الذي لا بد منه لحمايتها.

وهذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلاً للإخلاق للراحة والنعيم، والبعد عن الحياة الجهادية، فهؤلاء المئات من الألو في بغداد ومن قبلهم مئات الألو من المسلمين في بلدان المشرق لو أنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولضعف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد.

إن الإخلاق إلى الراحة والبعد عن الحياة الجهادية من الأمور المخالفة لسنة الرسول ﷺ وسنة أصحابه، حيث لم يكن في عهدهم أناس مخصوصون للقتال وبقية المسلمين لا شأن لهم بذلك، بل إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلهم مجاهدين، وحينما داهمت جيوش الكفار المدينة النبوية في أحد والأحزاب خرج المسلمون جميعاً بقيادة النبي ﷺ للقتال، ولم يبق إلا الشيوخ الكبار والنساء والأطفال.

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى، وقد تقدم ذكر أمثلة لذلك.

ثم خبت هذه الروح الجهادية شيئاً فشيئاً حتى نسي كثير من المسلمين الجهاد، وأصبحوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفسهم، وقد ظهر هذا العجز جلياً في استسلامهم وتذللتهم للتتار بدون مقاومة تذكر.

\*\*\*

## مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار<sup>(١)</sup>

من الأعلام الذين كان لهم دور فعال في جهاد التتار السلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام الذي خلف السلطان المظفر قطز، وقد كان للظاهر بيبرس دور مهم في معركة عين جالوت فقد كان من أبرز قادتها، وهو الذي قام بمهمة ملاحقة التتار حتى مدينة حلب.

يقول الحافظ ابن كثير في بيان مواقفه مع التتار: وقد كان هولاء كوخان لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين فحيل بينهم وبين ما يشتهون، فرجعوا إليه خائبيين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر، فقدم دمشق، وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعازل بالأسلحة، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت، فعند ذلك نكصوا على أعقابهم، وكروا راجعين القهقري، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات<sup>(٢)</sup>.

فهذا موقف يذكر للأمير الظاهر بيبرس البندقداري، حيث سارع إلى ملاقات التتار قبل أن يصلوا إلى دمشق، وفرق جنده على الثغور والمعازل، فحفظ بلاد الشام، وأرعب التتار حتى نكصوا على أعقابهم وعرفوا أنه قد أصبح للمسلمين دولة قوية.

ومما يدل على عظمة هيبة السلطان الظاهر بيبرس عند التتار ما ذكره ابن تغري بردي من أن ملك التتار «أبغابن هولاءكو» أمر عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج

---

(١) هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة بعدما قتل السلطان المظفر قطز، وقد استمر الظاهر بيبرس في حكم مصر والشام حتى سنة ست وسبعين وستمائة حيث توفي في هذه السنة.

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٢٣٦.

عسكره في عشرة آلاف فارس، وعليهم الأمير صَمَغْرَا والبرَوَانَاهُ<sup>(١)</sup>، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفاً وخمسمائة من المغل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مُقَدَّمُهُم أَمَال بن بَيْجُونِين، ووصلت غارتهم إلي عيتتاب ثم إلى قسطن<sup>(٢)</sup>، ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم.

قال: فتقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد<sup>(٣)</sup> ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم، وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجت ومُقَدَّمُهَا الأمير بَيْسَرِي، فوصلوا إلى السلطان وخرج بهم، فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم<sup>(٤)</sup>.

وهكذا تبدلت الموازين والقوي، فأصبح التتار يرهبون من المسلمين بعد أن كان المسلمون يرهبون منهم، والناس هم الناس، ولكن لما كان المسلمون متفرقين ومتناحرين فيما بينهم وليس عندهم اهتمام بجهاد الأعداء فإنهم قد ضعفوا وأصبحوا نهباً لأي دولة قوية تغير عليهم، ولما ظهر فيهم الحاكمان القويان المظفر قطز ثم الظاهر بيبرس قاما بتوحيد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة قوية، وكونا الجيوش القوية التي تحمل روح الجهاد.

### معركة ألبيرة:

لقد إغتنم التتار فرصة بُعد السلطان الظاهر بيبرس عن شمال الشام فجاؤوا من المشرق وتحالفوا مع الروم والسلاجقة الذين يحكمون جزءاً من بلاد الأناضول، حتى وصلوا إلى بلدة «ألبيرة»<sup>(٥)</sup>، وفي هذا الخبر ذكر الحافظ ابن كثير أن التتار نزلوا على مدينة «ألبيرة» في ثلاثين ألف مقاتل، خمسة عشر ألفاً من المغول، وخمسة عشر ألفاً من الروم، والمقدم على الجميع «البرَوَانَاهُ»<sup>(٦)</sup> بأمر «أبغا» ملك التتار، ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد، ونصبوا عليها ثلاثة

(١) البرواناه لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب، ثم أطلق على الوزير الأكبر وهو سليمان بن علي صاحب معين الدين وزير السلاجقة حكام بلاد الأناضول - عن هامش النجوم الزاهرة.

(٢) عيتتاب بلدة بين حلب وأنطاكية، وقسطن حصن من أعمال حلب.

(٣) أي إظهار الجفل والخوف من التتار. (٤) النجوم الزاهرة ٧ / ١٥٥ - ١٥٦.

(٥) هي بلدة تقع بين مدينة حلب وبلاد الروم.

(٦) هو معين الدين سليمان بن علي صاحب كما تقدم.

وعشرين منجنيقا، فخرج أهل البيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار، وأحرقوا المنجنقات ونهبوا شيئاً كثيراً، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيش مدة، ثم رجعوا عنها بغیظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال<sup>(١)</sup>.

هذا وإن ما قام به أهل بلدة البيرة يعتبر مثلاً عالياً للشهامة والشجاعة، وذلك لا يكون غالباً إلا نتيجة للإيمان القوي وابتغاء فضل الله تعالى وثوابه.

إن الذي يمنع الناس من الإقدام على القتال هو الخوف من القتل، ولكن العقلاء إذا تذكروا بأن الأعداء إذا استولوا على بلادهم قتلوهم شر قتلة وأهانوهم وانتهكوا أعراضهم. . إذا تذكروا ذلك فإنهم يقدمون جميعاً على قتال الأعداء لأنه إن قُتل بعضهم في ميدان المعركة كان أعزَّ لهم وأكرم، هذا في مقتضى العقل السليم، فكيف بالمؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة في الآخرة إذا باعوا نفوسهم له جل وعلا وبذلوا طاقتهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين؟!

وإن مما يُذكر للسلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام أنه لما سمع بنزول التتار على البيرة أنفق على الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعاً وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق<sup>(٢)</sup>.

فهذا موقف جهادي كبير لهذا السلطان، يدل على اهتمامه البالغ بأمور المسلمين والقيام بنجدتهم وإرهاب الكافرين، ولعل رحيل الأعداء عن ذلك البلد كان سببه ما بلغهم من قصد السلطان إليهم، وهو الذي اشتهر عندهم بالقوة والشجاعة والحزم.

معركة أبلستين<sup>(٣)</sup>:

ومن أبرز مواقف السلطان الظاهر بيبرس الجهادية ما ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي من أن السلطان خرج من القاهرة يوم الخميس العشرين من شهر رمضان عام ستة وسبعين وستمائة نحو الشام قاصداً بلاد الروم، فلما وصل بلاد الروم قدم الأمير شمس الدين سَنُقَرُ الأشقر على جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه، فوقع على كتيبة من التتار وعدتهم ثلاثة آلاف فارس، ومَقَدَّمُهم «كراي» فهزمهم سنقر الأشقر وأسر منهم طائفة وذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة.

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٩.

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٩.

(٣) مدينة مشهورة ببلاد الروم، وقد كانت آنذاك في سلطان السلاجقة.

ثم ورد الخبر على الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البرّواناه اجتمعوا على نهر جيّحان<sup>(١)</sup>، فلما صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أبلستين فشاهد التتار قد رتبوا عساكرهم أحد عشر فرقة في كل فرقة ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج فرقة واحدة.

قال: فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار حملة واحدة وصدّموا سنجد الملك الظاهر<sup>(٢)</sup>، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه، ثم لاحت التفاتة منه فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التتار، فأمر الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها، ثم حمل هو بنفسه رحمه الله، فلما رآته العساكر حملت نحوه برمتها حملة رجل واحد، فترجّل التتار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شيئاً، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يكرّ في القوم كالأسد الضاري، ويقتحم الأهوال بنفسه، ويشجع أصحابه ويطيّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وانكسر التتار أقبح كسرة، فمنهم من قُتل ومنهم من أُسر، وبقيتهم فروا إلى الجبال فاعتصموا بها، فقصدتهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقتل منهم جماعة.

واستشهد من المسلمين جماعة، منهم عدد من الأمراء<sup>(٣)</sup>.

وإنه لواضح من ملاحظة أحداث هذه المعركة أثر السلطان الظاهر بيبرس في إنجاحها، وذلك بتشجيعه أفراد جيشه على الثبات وثباته بنفسه واقتحامه المخاطر، وملاحظاته الدقيقة على مواقع الخل في جيشه.

وإن مما يذكر لقادة ذلك الجيش وأفراده ثباتهم الراسخ أمام هجوم الأعداء العنيف على الرغم مما اعترى بعضهم من الانكسار المؤقت، ولكن كان لشجعان المسلمين أثر في صد الأعداء حين تراجع أفراد الجيش الإسلامي، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين وحذل أعداءه المعتدين.

(١) هو نهر بالمصيصة ومنبعه من بلاد الروم. (٢) السنجد بلغة الترك اللواء.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٦ - ١٦٩، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧١ - ٢٧٢.

## مواقف السلطان قلاوون<sup>(١)</sup>

### معركة حول حمص:

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان قلاوون سار من مصر إلى دمشق في عام ثمانين وستمائة، وأنه ورد عليه خبر مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق فتهيأ لقتالهم، وأرسل يطلب العساكر المصرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق، واجتمعت العساكر عند السلطان، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف.

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف حلب، فخلت حلب من أهلها وجندها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة.

ثم ورد الخبر بوصول مَنكُوتَمُر بن هولأكو ملك التتار إلى عِينَتَاب وما جاورها في يوم الأحد سادس عشرين جمادى الآخرة، فخرج السلطان المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور، وخيم بالمرج، ووصل التتار إلى بَغْرَاس، فقدم السلطان المنصور عسكره أمامه، ثم سافر في آخر جمادى الآخرة وسار حتى نزل بعساكره على حمص في شهر رجب.

وشرعت التتار تتقدم قليلاً قليلاً بخلاف عادتهم، فلما وصلوا حماة أفسدوا بنواحيها، واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه في يوم الخميس رابع عشر شعبان، فركب المنصور بعساكره وصافَّ العدو، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ما قيل مائة ألف فارس أو يزيدون، وعَسْكَرُ المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره، وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وكانت وقعة عظيمة لم يُشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضي

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبدالله التركي، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة.



الله عنه إلى الرستن<sup>(١)</sup> والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها، وانهزم من كان فيها، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر، وثبت السلطان المنصور قلاوون، رحمه الله تعالى، في جمع قليل بالقلب ثباتاً عظيماً، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحرق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والغلمان والرجالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، وأشرف الإسلام على خطة صعبة، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري، وعلم الدين سنجر الدويداري، وعلاء الدين طبرس الوزيري، وبدر الدين بيليك، وسيف الدين أيتمش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، والأمير حسام الدين طرنتاي، وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة، وجرح منكوتر مقدم التتار.

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عربته عريضاً، فتمت هزيمتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوز الوصف، واتفق أن ميسرة المسلمين كانت قد انكسرت كما ذكرنا، والميمنة ساقط على العدو ولم يبق مع السلطان إلا نفر اليسير، والأمير حسام الدين طرنتاي قدأمه بالسناجق<sup>(٢)</sup>، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به، وهو في ذلك النفر تحت السناجق (يعني السلطان المنصور قلاوون) والكوسات تضرب<sup>(٣)</sup>.

قال: ولقد مرت به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف إلا دون ذلك، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كسرت ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتاً عظيماً، ثم ساق عليهم بنفسه فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء، وكان ذلك تمام النصر، وكان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب، وافترقوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سلمية والبرية، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات.

(١) الرستن قرية بين حمص وحماه تشرف على نهر العاصي.

(٢) وتنطق الصناجق أيضاً وهي كلمة تركية معناها الألوية.

(٣) هي الطبول الكبار وتستعمل في الحرب.

قال: ولما انقضى الحرب في ذلك النهار وعاد السلطان إلى منزلته، وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان، ومقدمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى.

قال: وكُتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد وحصل للناس السرور الذي لا مزيد عليه، وعُملت القلاع وزُينت المدن، أما أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين، ووصل إليهم جماعة ممن انهزم، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهاال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك، حتى ورد عليهم النصر العظيم والله الحمد وطابت نفوس الناس، وردَّ من كان نزح عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك.

قال: وقتل في هذه الواقعة من التتار ما لا يُحصى كثرة، وكان من استشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ما قيل<sup>(١)</sup>.

وهكذا عشنا مع أحداث هذه المعركة الكبيرة التي خطط لها التتار وجمعوا لها الجموع الكثيرة ليقضوا بها على وجود المسلمين ودولتهم القوية في مصر والشام، ولكن ظنونهم خابت، وأحلامهم تبددت أمام ثبات شجعان المسلمين.

لقد تعودَّ التتار على الهجوم الصاعق في بداية المعارك الذي يعقبه انهزام كثير من المسلمين وفرارهم، لكنهم وجدوا منهم في معركة عين جالوت وما تلاها غير ما تعودوا منهم، إلا أنهم في هذه المعركة قد اعتدوا بكثرة جمعهم، وهم يعلمون أن المسلمين لا يستطيعون أن يجمعوا مثلهم فأقدموا على قتالهم، غير أن الفارق في العدد عوضه شجاعة الشجعان بعد الأمل الكبير في نصر الله تعالى والتوكل عليه.

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٠١ - ٣٠٥.

وفي عرض مقطوع من هذه المعركة يتبين لنا أهمية الثبات والصبر في النصر، وذلك فيما فعلته ميمنة التتار حيث هجموا على ميسرة المسلمين وهم ألوف فانهزموا، بينما لما هجم هؤلاء التتار على السلطان قلاوون ثبت لهم وصبر وهو في ألف أو أقل حتى هزمهم وفرقهم.

وأخيراً فإن لما قام به المسلمون من دعاء الله تعالى والتضرع إليه على النحو المذكور أثراً معلوماً في تنزل نصر الله تعالى فإنه جل وعلاء مع عباده المؤمنين بنصره وتأييده إذا لجئوا إليه بإخلاص وصدق.

\*\*\*

## دخول التتار في الإسلام

إن من عجائب التاريخ أن تلك الأمة الهمجية تدخل في الإسلام، حيث أسلم بركة خان أحد زعماء التتار وأسلم كثير من قومه، وبلغ من إخلاصه أنه قام بحروب كبيرة ضد ابن عمه هولاكو خان زعيم التتار الذي قضى على دولة الإسلام وقتل مئات الألوف من المسلمين، يقول الحافظ ابن كثير عن بركة خان: السلطان بركة خان بن تولى بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان ينصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئاً كثيراً، وقد قام بالملك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتر بن طغان بن بابوين ابن تولى بن جنكيزخان، وكان على طريقته ومنواله والله الحمد<sup>(١)</sup>.

وإلى بركة خان هذا يرجع الفضل بعد الله تعالى في دحر هولاكو وصده عن إكمال هجومه على بلاد الإسلام.

بل إنه قد دخل في الإسلام أحد أبناء هولاكو وهو أحمد وقد أصبح سلطاناً على التتار بعد أخيه أبغا بن هولاكو، وذلك في عام واحد وثمانين وستمئة، ذكر ذلك المؤرخ ابن تغري بردي وذكر أنه مسلم حسن الإسلام، وعمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار<sup>(٢)</sup> وضرب عليهم الجزية<sup>(٣)</sup>.

ثم أظهر الإسلام ملك التتار قازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، وسمى نفسه بعد الإسلام محموداً، ولكن كانت أعماله مع المسلمين تتنافى مع الإسلام.

وإن في دخول هذه الأمة في الإسلام دليلاً على عظمة الإسلام، وعلى مقدار اعتزاز المسلمين بإسلامهم، فإن المعروف في تاريخ الأمم - في حال اكتساح أمة

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٩.

(٢) يعني اللباس الذي يتميزون به كالزئار ونحوه.

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٣١٠.

لأمة أخرى في الحروب- أن المغلوب يقلد الغالب، فيتأثر بسياسته وأخلاقه وأفكاره الدينية، فيكون الغزو الفكري تابعاً للغزو العسكري، لكن الذي حصل للأمة الإسلامية آنذاك كان بضد ذلك حيث كان المسلمون يحتقرون التتار ويحكمون عليهم بالانحطاط الفكري والخلقي، بينما أدرك التتار عظمة المسلمين في المجال الفكري والأخلاقي، والاجتماعي والسياسي والاقتصادي.. ثم لما حللوا ذلك وجدوا أن سر تلك العظمة يكمن في الدين الإسلامي العظيم الذي يحكم جميع تصرفات المسلم وسلوكه في هذه الحياة.. إنهم لم يروا دين الإسلام محصوراً في شعائر عبودية، ثم ينطلق المسلمون بعد ذلك في حياتهم على مقتضى ما تمليه عليهم أفكارهم وأهواؤهم، لأنهم وجدوا أن أنظمة الإسلام السياسية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية تفوق مستوى تفكير الإنسان، ولا تتغير بتغير البلاد والزمان، فأدركوا أن وراء هذا التفكير الموحد الذي شمل أكثر بلاد العالم قوةً عظمى ومبادئاً عليا يخضع لها جميع المسلمين، فقادهم ذلك إلى تعظيم الإسلام والدخول فيه.

لقد كان دخول زعماء التتار في الإسلام يعني توقف الحرب بينهم وبين دولة الإسلام القائمة في مصر والشام، خصوصاً وأن الخلافة الإسلامية قد قامت في هذه الدولة بعد أن بايع السلطان الظاهر بيبرس المستنصر بالله أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي وذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة، فصار الاعتداء على هذه الدولة يعني الخروج على الخلافة.

\*\*\*

## موقف السلطان محمد بن قلاوون<sup>(١)</sup>

ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي أن قازان ملك التتار قد زحف على بلاد الشام بجيش كبير وذلك في عام تسعة وتسعين وستمائة، وأن السلطان محمد بن قلاوون قد خرج من مصر إلى الشام ووصل إلى دمشق ثم زحف إلى حمص وانضم جيش الشام إلى جيش مصر، والتقوا مع التتار قرب مدينة سلمية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير، ثم حمل قلب المسلمين أيضاً حملة هائلة وصدمو العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض، بلاءً من الله تعالى، فانهزمت ميمنتهم بعد أن كان لاح لهم النصر، فلا قوة إلا بالله، ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كانوا وراء القلب من غير قتال، وألقى الله الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وانسحب السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومُدبري مملكته، وترك أفراد الجيش العتاد والسلاح والمؤن وحاولوا النجاة بأنفسهم.

ولقد أصاب أهل الشام رعبٌ عظيم حينما علموا بهزيمة جيش السلطان، ولكن خفف من رعبهم حينما علموا أن قازان مسلم وأن غالب جيشه من المسلمين، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين<sup>(٢)</sup>.

أما سبب انهزام المسلمين بعدما لاح لهم النصر فقد ذكره السلطان محمد بن قلاوون في خطابه الذي بعثه لقازان ملك التتار جواباً على خطاب قازان الذي يذكر فيه إسلامه وإسلام قومه وأن السبب في غزوه بلاده هو اعتداء بعض رعية السلطان على بعض رعية ملك التتار، وقد أنكر عليه السلطان ما يحصل من التتار

---

(١) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون التركي، وهو أشهر سلاطين المماليك وقد تولى السلطنة ثلاث مرات: الأولى ما بين عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين وستمائة، والثانية ما بين عامي ثمانية وتسعين وستمائة وثمانية وسبعمائة، والثالثة استقر بالسلطنة ما بين عامي تسعة وسبعمائة وواحد وأربعين وسبعمائة.

(٢) النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٠ - ١٢٢.

من الإفساد في الأرض مع كونهم يظهرون الإسلام، وأبان له بأن سبب انهزام المسلمين من جيشه هو معرفتهم بأن ملك التتار مسلم وأن غالبية جيشه قد أظهروا الإسلام فأصابهم عند ذلك شيء من التردد في جواز قتالهم<sup>(١)</sup>.

ولقد جدَّ المسلمون بعد ذلك من جيش دولة الخلافة في قتالهم حينما بان لهم إفسادهم، وأفتاهم العلماء بأنهم يشبهون الخوارج كما سيأتي.

وهذه المعركة وإن كانت نتيجتها لصالح التتار فإن فيها مواقف تشكر لجيش الشام ومصر وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذي كان آنذاك لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كان في دولته عدد من الأمراء الشجعان وكان لهم دور جيد في ثبات الجيش أول المعركة.

### مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية:

وفي أثناء ذلك جرى موقف كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وذلك حينما خرج من دمشق هو وعدد من العلماء والأعيان لتلقي قازان وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير، وذكر عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن عمر البالي حكاية ما جرى من ذلك، فقال: وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل للقاز أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟

قال: وجرت له مع قازان وقطلو شاه وبولاي أمور ونوبٌ قام فيها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل.

قال: وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقليل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف أكل من طعامكم وكلُّه ما نهبتهم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟! من أشجار الناس؟!!

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٤٢ - ١٤٦.

قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه: «اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده ومملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليُذَلَّ الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره»، قال: وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه.

قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله.

قال: فلما خرجنا من عنده قال له القاضي نجم الدين بن صُصْري وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لانصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم.

قال: فانطلقوا عصباً وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمرء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه، قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلّحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعةٍ غيره<sup>(١)</sup>.

**ففي هذا الخبر عدة مواقف وعبر:**

**أولاً:** في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أمام ملك التتار الجبار، ذلك الكلام القوي الرصين الذي أنكر عليه فيه قيامه بظلم المسلمين، وذلك في قتالهم ونهب أموالهم مع أنه مسلم ويظهر شعائر الإسلام.

**ثانياً:** في دعائه القوي الواضح الذي دعا فيه لملك التتار إن كان يريد عزة الإسلام والمسلمين، ودعا عليه بتلك الدعوات القوية الساحقة إن كان يريد إذلال الإسلام والمسلمين.

**ثالثاً:** في ورعه الدقيق، حيث امتنع عن الأكل من طعام التتار لكونه مما نهوه من أموال المسلمين.

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٨، ٩١-٩٢.



وفي هذه المواقف كان رحمه الله تعالى في غاية القوة والجرأة في قول الحق أمام سلطان جبار قد اشتهر بالبطش والعنف.

ولقد كان الإقدام على الإنكار على ذلك السلطان الجبار يعتبر إقداماً على الشهادة في سبيل الله تعالى في أغلب الاحتمالات، ولا يمكن أن يُقدم على ذلك إلا من قد حملوا أرواحهم على أكفهم وأصبح هدفهم الأعلى هو إظهار عزة الإسلام وإنصافُ المظلومين مهما تكن النتائج في ذلك ثم إنه لا يقوى على الوقوف مثل ذلك الموقف إلا الرجلُ الذي امتلأ قلبه إيماناً بالله عز وجل وكان قوي الاستحضار لعظمته وجلاله، لأن فكره - والحال هذه - لا يتصور قوة ولا عظمة في الوجود إلا قوة الله جل وعلا وعظمته، بينما تتلاشى من ناظره كل مظاهر القوة والعظمة التي يظهر بها سلاطين البشر.

ولقد كان هذا هو الدافع لشيخ الإسلام ابن تيمية ليقف ذلك الموقف العظيم، ولقد عبر عن ذلك بقوله لمن سألته عن موقفه ذلك: ذكرت عظمة الله تعالى فأصبح السلطان أمامي كالقط.

رابعاً: في هذا الخبر عبرة عظيمة، وذلك في موقف السلطان قازان من شيخ الإسلام ابن تيمية حيث لان له حتى أصبح بين يديه كالحمل الوديع، وتلاشى عنه جبروته وتعاضمه وأبهته سلطانه، وأصبح من تأثره بكلام ابن تيمية إلى حد أنه طلب الدعاء له وكان يؤمن على دعائه حتى حينما دعا عليه إذا هو انحرف عن الطريق المستقيم، ولا شك أن ذلك من تسخير الله تعالى، حيث ألان قلب ذلك السلطان لابن تيمية، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء.

خامساً: وفيه عبرة فيما حدث لابن تيمية في رجوعه إلى دمشق، وما حدث لمعارضيه الذين أبوا أن يصاحبوه لظنهم أن سلطان التتار سيرسل إلى ابن تيمية من ينتقم منه في الطريق، فكان الأمر على خلاف ما توقعوا، حيث رجع ابن تيمية إلى دمشق في عزة وحماية قوية من فرسان التتار الذين أعجبوا به وبالغوا في احترامه، بينما رجع أولئك الذين فارقوه بشرّاً حال، وذلك كله مع ما سبق يوضح

لنا معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد جزاء لهم على توكلهم عليه وتعظيمهم إياه واستمدادهم النصر منه وخذلانه لمن غاب عن باله تصور عظمته، وهيمن على قلبه تصور عظمة المخلوقين والرغبة منهم.

### موقف جهادي لنائب القلعة:

ولما استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فساداً هم وأتباعهم من النصاري، فقتلوا في دمشق وما حولها عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا كثيراً من النساء والأطفال ونهبوا كثيراً من الأموال، وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي كان لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام، قال الحافظ ابن كثير: وأرسل قبجق إلى نائب القلعة [يعني أرجواش المنصوري] ليسلمها إلى التتار فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضاً فلم يجبههم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزا لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بها عيسى بن مريم عليه السلام<sup>(١)</sup>.

فهذا موقف يذكر لنائب القلعة أرجواش حيث صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار، مع أن الشام كله قد سقط بأيدي التتار، فما نسبة هذه القلعة إلى بلاد الشام؟! ومع ذلك ومع احتمال قيام التتار بتدمير تلك القلعة فقد ثبت فيها نائبيها ومن معه من الجنود وأبى أن يسلمها.

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية تأثير واضح وقوي على نائب القلعة، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٩ .

القلعة، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهادية عالية تتسم بالقوة والثبات والتصميم على الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر قطرة من دمه ودم أتباعه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأتمرون بأمره فكيف لو كان معه جيش كبير؟!

ولقد كان تصميم أرجواش نائب القلعة ثابتاً، فلقد كلّمه -إضافة إلى أمير دمشق- الأمير حسام الدين لاجين والأمير بكتمر وغيرهما في تسليم قلعة دمشق إلى نائب التتار وقالوا له: دَمُ المسلمين في عنقك إن لم تسلمها، فأجابهم: دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى قازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها، ثم وبخهم، ولم يسلم قلعة دمشق، وتهيأ للقتال والحصار واستمر على حفظ القلعة، ثم ترادفت قُصَادُ قازان إلى أرجواش هذا وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة، فثبّت الله تعالى ومنع ذلك بالكلية، وكان هؤلاء الأمراء قد لجئوا إلى قازان فراراً من الملك محمد بن قلاوون حاكم مصر والشام<sup>(١)</sup>.

وذكر الحافظ ابن كثير بعض ما فعلته عصابات التتار بأهل الشام من القتل والنهب ثم قال: وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر -يعني من عام تسعة وتسعين وستمائة- إلى ملك التتر، وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به، حجه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة والتزما له بقضاء الشغل، وذكر له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ولا بد لهم من شيء<sup>(٢)</sup>.

وهذه هي المحاولة الثانية من شيخ الإسلام ابن تيمية في مقابلة ملك التتار، مما يدل على تفانية في إعزاز الإسلام وحماية المسلمين، وتضحيته بنفسه ووقته من أجل ذلك، ولكن تبين من كلام وزراء قازان بأن التتار لن يرجعوا إلا وقد أخذوا من الأموال ما يكفيهم، وقد حصل لهم نائبهم قبجق وعماله كثيراً من أموال الناس بالقوة<sup>(٣)</sup>.

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٠ .

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ١٠، النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٦ .

وذكر الحافظ ابن كثير دخول التتار إلى دمشق، واستيلاءهم على كثير من أموال الناس، ثم قال: وشرع التتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغُلقت أبوابه، ونزل التتار في مَشَاهِدِهِ يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ماحوله من الأسواق.

قال: وفي ذلك اليوم - يعني يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى من عام تسعة وتسعين وستمائة - توجه السلطان قازان، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه: «إنا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها» وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه نائب قازان، وسار وراءه، وضربت البشائر بالقلعة فرحاً لرحيلهم ولم تُفتح القلعة، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا إلى القلعة سالمين<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان أصحاب القلعة هم الوحيدين الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وأعجزهم عن فتح قلعة، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة ما يملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أوليائه المؤمنين وخذلان أعدائه.

وقال الحافظ ابن كثير في خبر هذه القلعة: وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتار ونهبوهم، وقُتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، فكلموه وبالغوا معه، فلم يجب إلى ذلك، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه<sup>(٢)</sup>.

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠ . (٢) البداية والنهاية ١٤ / ١١ .

فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المطيعين المنتظمين هل يكون للتتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطن قدم؟!

لقد كان أمل أرجواش كبيراً في أن يزول التتار وأن تعود بلاد مصر والشام دولة واحدة، وهذا ما تحقق بعد ذلك حيث جلا التتار وعادت دولة الإسلام القوية، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التتار ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله.

#### مواقف أخرى لابن تيمية وغيره:

ولما رحل قازان إلى العراق ببعض جيشه وترك جيشاً في الشام بقيادة بولاي، كان لشيخ الإسلام ابن تيمية موقف مع بولاي ذكره الحافظ ابن كثير، فقد ذكر أنه في اليوم الثامن من شهر رجب من العام التاسع والتسعين وستمائة خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم وأقام عنده ثم عاد<sup>(١)</sup>.

فهذا مثل من بذل الإحسان والسعي في إنقاذ المسلمين من الضرر، حيث غامر شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذهب إلى والي التتار وسعى في إنقاذ أسرى المسلمين، وهذا يعتبر من الأعمال الجهادية العالية، من حيث اشتماله على المشقة الكبيرة في مخاطبة الجبارين واحتمال التعرض للشهادة في سبيل ذلك.

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحيل بقية جيش التتار خوفاً من جيش مصر القادم، وفي ذلك يقول: ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم.. إلى أن قال: ونادى أرجواش في البلد: احفظوا الأسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره سُتق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١١ - ١٢.

يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية ونائب القلعة أرجواش حيث حوّلًا المسلمين كلّهم في البلد إلى مجاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهدا إذا احتاجت إليه الأمة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنودًا احتياطيين ينفرون إلى الجهاد عند اللزوم.

وذكر الحافظ ابن كثير أنه في مستهل صفر من عام سبعمائة وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفًا على ضعفهم. . إلى أن قال: وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلس في الجامع وحرّض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذبّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما يُنفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا، وأوجب جهاد التتار حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك.

كما ذكر أن الشيخ زين الدين الفارقي وإبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين ابن تيمية وابن خبّارة خرجوا إلى نائب السلطة الأفرم - وكان مرابطًا في المرج - ففكروا عزمه على ملاقاته العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك<sup>(٢)</sup>.

وهذا موقف يذكر لهؤلاء العلماء فقد قاموا بمهمتهم وأدوا الأمانة التي جعلها الله تعالى في رقابهم، فالعلماء هم المسؤولون عن تبليغ الإسلام، وهم أول المسؤولين عن إصلاح المجتمع الإسلامي وإعداده للجهاد وحماية دار الإسلام.

وقال الحافظ ابن كثير في بيان ما جرى بعد ذلك وما حصل من مواقف: واستهل جمادى الأولى - يعني من عام سبعمائة - والناس على خطة صعبة من

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٢ .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٥ - ١٧ .

الخوف، وتأخير السلطان، واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر، وكان يوم السبت إلى نائب الشام في المرج<sup>(١)</sup> فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثم عاد إلى دمشق، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمائته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لرؤد أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصر أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم، وقوى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحاً شديداً بعد أن كانوا يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

قال: ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان - يعني الناصر محمد بن قلاوون - والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج<sup>(٢)</sup>.

وهذا موقف جهادي كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث أثر بتوجيهاته السديدة القوية على سلطان مصر والشام ووزرائه حتى حملهم على تجهيز الجيش لملاقاة جيش التتار.

ولقد ضرب ابن تيمية بهذا مثلاً عالياً للعالم الرباني المجاهد الذي طبق كل ما تعلمه من الإسلام حتى ما هو شاق على النفوس كالجهاد وإنكار المنكر.

(١) يعني بذلك الأفرم نائب السلطان في الشام وكان مرابطاً مع الجيش في المرج

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٦ - ١٧.

وهكذا أظهر ابن تيمية صورة للعالم الديني بأنه ذلك العالم الذي يبصر المسلمين بجميع واجباتهم، ويسارع في نجاتهم وإنقاذهم من الكوارث والنكبات. . . العالم الذي يبرز عند الفزع ويتوارى عند الطمع، وليس ذلك العالم الذي يقبع في زاوية من زوايا المسجد أو المدرسة الدينية يدرس العلم ولا يهمله أمر المسلمين. . . وليس العالم الذي يتهالك على الدنيا وينافس عليها أهلها.

### مقارنة بين الأحزاب والتتار:

عقد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية مقارنة جيدة بين الأحزاب الذين تحزبوا ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة النبوية وموقف الرسول ﷺ والصحابة منهم، وبين التتار الذين تحزبوا مع الأعداء الآخرين ضد المسلمين في أواخر القرن السابع، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى:

ثم إنه تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

ثم ذكر قصة الأحزاب باختصار. . . إلى أن قال في قصة التتار: وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم. ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام، مع قلة من بإزائهم من المسلمين. ومقصودهم الاستيلاء على الدار، واصطلام أهلها. كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين.

ودار الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعا وعشرين ليلة. وقيل: عشرين ليلة.

وهذا العدو عبر الفرات سبع عشر ربيع الآخر، وكان أول انصرافه راجعا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يوم الإثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة. واجتمع بهم الداعي، وخاطبهم في هذه القضية. وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف.



وكان عام الخندق برد شديد، وريح شديدة منكرة، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد. . على خلاف أكثر العادات. حتى كره أكثر الناس ذلك. وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك فإن الله فيه حكمة ورحمة. وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو: فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله. وهلك أيضاً منهم من شاء الله. وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال. حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونا في الثلج إلى شعره، ونحن قعود لا نأخذهم، وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين، لو يصطادونهم، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة.

وقال الله في شأن الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠، ١١].

وهكذا هذا العام. جاء العدو من ناحيتي علو الشام، وهو شمال الفرات. وقبلتي الفرات. فراغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء، لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وتقرب العدو، وتوجهه إلى دمشق. وظن الناس بالله الظنون. هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام. وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر. وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تُسكن، ولا بقيت تكون مملكة الإسلام. وهذا يظن أنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن، ونحوها. وهذا -إذا أحسن ظنه- قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين. ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم، كما خرج ذلك العام. وهذا ظن خيارهم. وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار

النبوية، وأهل التحديث والمبشرات أمانى كاذبة، وخرافات لاغية. وهذا قد استولى عليه الرعب والفرع، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب، ليس له عقل يفهم، ولا لسان يتكلم.

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات، لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب. ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب. ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء، بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدى لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية.

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالخصباء ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]. ابتلاهم الله بهذا الابتلاء، الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم. وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات، ما استوجبوا به أعلى الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الورثة النبوية، والخلافة الرسالية، وحزبُ الله المحدثون عنه. حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إلى أن قال: فدللت هذه الآية -وهي قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢]- على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان: من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو. فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا، لكثرة العدو. فارجعوا

إلى المدينة. وقيل: لا مقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى دين الشرك وقيل لا مقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكن، بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز واليمن، وإما إلى مصر. وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة. كما قيلت في تلك. وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم في هذه الأرض.

ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام. وإن كانت قد قرئت بالضم أيضاً<sup>(١)</sup>. فإن لم يقدر أن يقوم بالمكان، فكيف يقيم به؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون -والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة- يا رسول الله، إن بيوتنا عورة. أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل -وأصل العورة: الخالي، الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: أعور مجلسك إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو-.

وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو، فلا نأمن على أهلنا، فائذن لنا أن نذهب إليها، لحفظ النساء والصبيان. قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة.

(١) وهي قراءة حفص، وقد سار الشيخ في تفسير الآية على قراءة أخرى.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعازل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟ قال الله تعالى ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَاسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤] فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة -وهي الافتتان عن الدين بالكفر، أو النفاق- لأعطوا الفتنة. ولجاءوها من غير توقف.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم. ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام -وتلك فتنة عظيمة- لكانوا معه على ذلك. كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات، إما في حق الله، وإما في حق العباد. كترك الصلاة، وشرب الخمر، وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين، وحریمهم. وأخذ أموال الناس، وتعذيبهم، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديماً وحديثاً في هذه الغزوة. فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر، ثم فر منهزماً لما اشتد الأمر.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ: «إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف

«لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها. فاقترض ذلك: أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدًا، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن. فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم: بل خسروا الدين والدنيا، وتفاسوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم وقل في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قُتل، بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديمًا وحديثًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون، فإن الموت لا بد منه، وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلا، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبدًا، ثم ذكر جوابًا ثانيًا: أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل، ثم ذكر جوابًا ثالثًا، وهو أن الفار يأتيه ما قُضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قُضي له من المسرة، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

إلى أن قال: وقد ذكر أهل المغازي -منهم ابن اسحق- أن النبي ﷺ قال في الخندق: «الآن نغزوهم، ولا يَغزونا» فما غزت قريش ولا غطفان، ولا اليهود المسلمين بعدها، بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة. كذلك -إن شاء الله- هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس، والمستعربة، والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يَغزونا ويتوب الله على من يشاء من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق، بأن ينيبوا إلى ربهم، ويحسن ظنهم بالإسلام، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم. فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار، كما قال: ﴿وَرَدَّ

اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾  
[الأحزاب: ٢٥].

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصَّبَا: ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيراً، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين، فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم، والبرد الشديد، والريح العاصف، والجوع المزعج، ما الله به عليم.

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة. وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة. وفيه لله حكمةٌ وسر، فلا تكرهوه. فكان من حكمته أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل سبب رحيلهم. وأبتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه. وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلت مصر عقيب العسكر واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو، جزاءً منه وبيئاً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار.

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباعضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان، وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق، بل من طالعتها علم صحة ذلك، كما ذكره أهل المغازي، مثل عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة، وسعيد بن يحيى الأموي، ومحمد بن عائذ، ومحمد بن اسحق، والواقدي، وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافاً إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك. وثبت المسلمون بإزائهم، وكانوا أكثر من المسلمين

بكثير، لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة، وأذلهم الله تعالى، فلم يُقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقهم غيره، فجرت مناوشات صغار، كما جرى في غزوة الخندق، حيث قَتَلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين.

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهريهم عليهم. وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات. وبعضهم في جزيرة فيها. فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم، وخالطوهم وأصاب المسلمون بعضهم. وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب<sup>(١)</sup>، بعد أن جرى ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور - رجفات ووقعات صغار، وعزمتنا على الذهاب إلى حماة غير مرة لأجل الغزاة، لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا، وثبت بإزائهم المقدم الذي بحماة ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق، وعزموا على لقاءهم ونالوا أجراً عظيماً. وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمانات، إما ثلاثة، أو أربعة. فكان من المقدّر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يُلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل «تيزين» و«الفوعة» و«معة مصرين» وغيرها مالم يكونوا وطئوه في العام الماضي.

وقيل: إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب الرفض، وأن عند بعضهم فرامين منهم، لكن هؤلاء ظلمة، ومن أعان ظالماً بُلي به، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب، من أهل «سيس» والإفرنج. فنحن نرجو من الله أن يُنزلهم من صياصيهم وهي الحصون - ويقال للقرون: الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب وقد فتح الله تلك البلاد.

---

(١) يعني من عام سبعمائة.

ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنفتح أرض العراق وغيرها، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه (١).

فهذه مقارنة جيدة تدل على علم واسع وفهم عميق لكتاب الله تعالى وواقع المسلمين وواقع أعدائهم، كما تدل على فهم شيخ الإسلام ابن تيمية لأسباب النصر وأسباب الخذلان.

ومن هذه المقارنة وما سبق ذكره من بيان مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث المسلمين مع التتار يتبين لنا أثر هذا العالم الرباني في نصر المسلمين على أعدائهم وتوجيه المسلمين إلى الاعتقاد الصحيح والاستقامة في أمور الجهاد.

### معركة شقحب:

سار قازان ملك التتار بجيوشه من العراق ونزل على الفرات، وبعث أمامه قائده قطلوشاه إلى الشام في ثمانين ألف مقاتل، وخرجت العساكر المصرية إلى الشام مع الأمراء بيبرس وطغرل وكراي ولاجين، ودخل بيبرس ومن معه دمشق في منتصف شعبان عام اثنين وسبعمئة ولَبِثَ يستحث السلطان محمد بن قلاوون على الخروج. وبلغ التتار تجمع المسلمين عند حماة فبعثوا إليهم طائفة كثيرة من جيش ليقطععوهم، فتوجه إليهم بعض الأمراء في ألف وخمسمائة فارس بمنزلة عرض - وهي بلد من أعمال حلب - في حادي عشر شعبان على غفلة فافترقوا أربع فرق، وقتلواهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم، وكان التتار - فيما يقال - أربعة آلاف، وكان هؤلاء التتار قد هجموا قبل ذلك على التركمان، فاستنقذ هؤلاء الأمراء التركمان وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار، وهم نحو ستة آلاف أسير، ولم يُفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار والمنصوري ومحمد بن باشقرد الناصري، وستة وخمسون من الأجناد، وأسروا من التتار مائة وثمانين (٢).

(١) فتاوى ابن تيمية ٢٨/٤٤٣-٤٦٦.

(٢) النجوم الزاهرة ٨/١٥٧ - ١٥٨، البداية والنهاية ١٤/٢٤.



وهكذا انتصر ألف وخمسمائة من المسلمين على أربعة آلاف من التتار، لما صبر المسلمون وكانوا يداً واحدة على أعدائهم، وإنما كان المسلمون يُخذلون أمام التتار لشدة فزعهم وعدم صبرهم واختلاف قلوبهم، وكانت هذه المعركة الصغيرة بدايةً جيدة للقاء الكبير الذي تم بعد ذلك في شقحب، حيث كان لهذه المعركة أثر في تحطيم معنوية التتار.

وذكر الحافظ ابن كثير أن التتار وصلوا إلى بلاد الشام، وأن جيش حلب وحماة تقهقروا إلى حمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتار فساروا إلى دمشق وانضموا إلى جيشها في المرج، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلقَ الناس قلقاً عظيماً، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان محمد بن قلاوون ببقية الجيش المصري، وقال الناس: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وتحدث الناس بالأراجيف، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونُودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه فسكن الناس، وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال<sup>(١)</sup>.

وهذا موقف جهادي مشكور لهؤلاء الأمراء الذين ثبتوا المسلمين وشجعوهم على القتال ولم يسمعوهم لإرجاف المرجفين وكذلك قام القضاة بموقف جيد حينما حلفوا الفقهاء والعامة على الثبات والجهاد.

قال الحافظ ابن كثير: وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في «القطيعة» فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأول أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرِنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]<sup>(٢)</sup>.

(١) البداية والنهاية ٢٥/١٤.

(٢) البداية والنهاية ٢٥/١٤.

وهذا موقف جهادي رائع لشيخ الإسلام ابن تيمية، حيث سعى لتثبيت الجيش الإسلامي وتقوية عزائم أفرادهِ، وذلك بخروجه أولاً إلى الجيش القادم من حماة وإعلامهم بما عزم عليه المجاهدون في دمشق من الثبات الذي وثقوه بالحلف، ثم بقيامه ثانياً بالحلف أمام الأمراء والعامة بحصول النصر للمسلمين في تلك المعركة، وذلك راجع إلى ثقته بنصر الله تعالى حينما تتحقق عوامل النصر من المجاهدين، وقد لاحظ في تلك المرة تحقق تلك العوامل، كما أنه راجع إلى غزارة علمه حيث تأول قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] وقد بغى التتار كثيراً على المسلمين وبالغوا في العدوان عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير في بيان حال المسلمين آنذاك في ترددهم في قتال التتار: وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار، من أي قبيل هو! فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم والله الحمد<sup>(١)</sup>.

وهذا مثل من رسوخ علم ابن تيمية حيث أبان الناس انطباق صفة الخوارج على التتار الذين أظهروا الإسلام ولم يطبقوا منه إلا قليلاً، كما أن في هذا الخبر مثلاً على ثقة المسلمين البالغة بابن تيمية سواء في ذلك أهل العلم أو العامة، وبهذه الثقة التي تكونت من اتصافه بالعلم النافع والعمل الصالح استطاع أن يؤثر على المسلمين وأن يقودهم إلى الجهاد.

لقد كان لهذه الشبهة أثر في هزيمة المسلمين في معركتهم السابقة مع التتار، حيث تخاذل المسلمون في قتالهم لكونهم يظهرون الإسلام، وكان على أثر ذلك

---

(١) البداية والنهاية ٢٥/١٤.

استيلاء التتار على بلاد الشام وما قاموا به من قتل الآمنين ونهب أموال المسلمين، فلما قيض الله تعالى للمسلمين في ذلك الزمن عالماً جليلاً يكشف لهم الشبهات ويُجَلِّي لهم الحقائق ويدفعهم إلى اليقين من سلامة الاتجاه قويته معنويتهم وتوحد هدفهم وأقدموا على الجهاد بنفوس مطمئنة وعزائم قوية.

هذا وقد كان جيش مصر وصل إلى الشام بقيادة بعض الأمراء ثم وصل السلطان قبل وصول التتار إلى دمشق ففرح بذلك المسلمون في الشام، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عسكر الشام ندب شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السُّنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرص السلطان على القتال وبشره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليُعلمهم أن إفطارهم -ليَتَقَوُوا على القتال- أفضل، فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إنكم ملاقوا العدو غداً، والفطر أقوى لكم» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري (١).

وقد كان وصول السلطان في يوم السبت ثاني شهر رمضان عام اثنين وسبعمائة، وعند لقاء الأمراء به ورد إليهم الخبر بوصول التتار فلبسوا السلاح واتفقوا على قتال التتار بشقح تحت جبل غباغب، وعند وصولهم إلى هذا المكان صفوا جيشهم، فصف السلطان محمد بن قلاوون في القلب وبجانبه المستكفي بالله، ومشى السلطان والخليفة ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم وقاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم، والناس في بكاء شديد.

(١) البداية والنهاية ٢٧/١٤.

وزحفت كتائب التتار كقطع الليل، وذلك بعد الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور، وحمل قطلوشاه قائد التتار على ميمنة الجيش الإسلامي فثبتوا لهم، وقُتل في ذلك الهجوم عدد من أمراء المسلمين ونحو الألف من فرسانهم فلما وقع ذلك أدركهم الأمراء من القلب والميسرة وصاح سلاّر: هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبرس والمماليك البرجية فأتوه دفعة واحدة فأخذهم وصدّم بهم العدو، وقصد مقدّم التتار قطلوشاه، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت راحة.

وأبلى سلاّر في ذلك اليوم وبيبرس بلاءً حسناً، وكانا المقدّمان في أمراء مصر، فلما رأى باقي الأمراء ذلك منهم ألقوا نفوسهم للموت، واقتحموا القتال وكان لسلاّر وبيبرس في ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين، رحمهما الله تعالى، واستمروا في القتال حتى كشفوا التتار عن المسلمين.

وجاءت طائفة من التتار لنجدة قطلوشاه، ووقفوا في وجه سلاّر وبيبرس ومن معهما فخرج من عسكر السلطان عدد من القادة والمماليك السلطانية وأردفوا سلاّر وبيبرس، وقاتلوا أشد القتال حتى أزاحوهم عن مواقعهم، واستمر القتال بين المسلمين والتتار إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال في المساء.

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كلّ عساكر، والميسرة السلطانية ثابتة وأعلامها تخفق، فبهت وتحيّر، واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه.

أما القائد الآخر بولاي فإنه انهزم ومعه عشرون ألفاً من التتار وفروا هاربين.

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل، وتلاحق بهم المنهزمون شيئاً بعد شيء على صوت الطبول السلطانية، وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار سلاّر وبيبرس وقبجق والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ، ووقف كل أمير في مصافّه وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه، ونزلوا مشاةً وفرساناً وقاتلوا العساكر، فبرزت المماليك السلطانية بمقدّمها إلى قطلوشاه وجوبان وعملوا في قتالهم عملاً

عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال مَنْ في جهتهم يتناوبون القتال أميراً بعد أمير، وألحَّت الممالك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف، حتى إن بعضهم قُتل تحتَه الثلاثة من الخيل.

وما زال القتال دائراً حتى انتصف نهار الأحد، فصعد قطلوشاه الجبل بجيشه وقد اشتد عطشهم، واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان وعرفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية وأنهم في شدة من العطش، فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقيمتهم، فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد، وساروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيوف ومروا في أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر.

وعاد المجاهدون إلى السلطان وعرفوه بهذا النصر العظيم وبات السلطان ليلاً وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها في عالم عظيم لا يحصيهم إلا الله تعالى وهم يضجون بالدعاء والهناء والشكر لله تعالى على هذه المنّة.

أما المنهزمون من التتار فإن كثيراً منهم قُتلوا على يد الفرق التي تبعتهم من الجيش وكذلك من رجال البادية وعامة المسلمين<sup>(١)</sup>.

وهكذا تم الانتصار الحاسم للمسلمين على التتار بعد عناء شديد وجهاد مرير، ولم يتجرأ التتار بعدها على حرب دولة المسلمين في الشام ومصر، وكان وقع الهزيمة شديداً على ملك التتار قازان حيث كان قد انتخب لتلك المعركة أفضل رجاله.

\*\*\*

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٦٣.

## فهرس المصادر والمراجع

- الأمويون بين الشرق والغرب، للدكتور محمد السيد الوكيل/ الناشر: دار القلم - دمشق الدار الشامية - بيروت.
- أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين/ لإبراهيم محمد الجمل/ الناشر: مطابع الشعب بالقاهرة.
- البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المراكشي.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت.
- التاريخ الأندلسي/ للدكتور عبد الرحمن بن علي الحجي/ الناشر: دار القلم - دمشق، المنارة - بيروت.
- تاريخ خليفة بن خياط/ لخليفة بن خياط الليثي/ الناشر: دار القلم - دمشق، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- تاريخ ابن خلدون/ لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون/ الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية/ لمحمد فريد بك المحامي/ الناشر: دار النفائس.
- تاريخ الطبري/ لمحمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- الحروب الصليبية/ د. سعيد عبد الفتاح عاشور/ الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- الروضتين في أخبار الدولتين/ لشهاب الدين أبي شامة/ الناشر: مؤسسة الرسالة.

- السلطان محمد الفاتح/ د. عبد السلام عبد العزيز فهمي/ الناشر: دار القلم - دمشق - بيروت.
- الطريق إلى دمشق/ لأحمد عادل كمال/ الناشر: دار النفائس في بيروت.
- الفتوح/ لأحمد بن أعثم الكوفي/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت.
- فتوح البلدان/ لأحمد بن يحيى البلاذري/ الناشر: مؤسسة المعارف في بيروت.
- قادة فتح المغرب العربي/ لمحمود شيث خطاب/ الناشر: دار الفتح - بيروت.
- القاموس المحيط/ لمحمد بن يعقوب الفيروزبادي/ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- الكامل في التاريخ/ لعلی بن أبي الكرم الشيباني «ابن الأثير»/ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- لسان العرب/ لمحمد بن مكرم بن منظور/ الناشر: دار صادر - بيروت.
- المختار المصون من أعلام القرون/ للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى/ الناشر: دار الأندلس الخضراء - جدة.
- معجم البلدان/ لياقوت بن عبد الله الحموي/ الناشر: دار صادر ودار بيروت - بيروت.
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب/ د. عبد الله الطرازي.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ ليوسف بن تغري بردي/ الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
- نفح الطيب/ لأحمد بن محمد المقرئ/ الناشر: دار القلم - دمشق.

\*\*\*

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٥
<b>مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع الروم</b>	
الجهاد مع الروم في عهد الأمويين.....	٩
- جهاد الروم في عهد معاوية.....	١٢
- الغزوات الأولى.....	١٢
- غزوة القسطنطينية.....	١٢
- جهاد الروم في عهد عبد الملك والوليد.....	١٤
- الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك.....	١٤
- خبر الفتية التائبين وفتح طوانة.....	٢٠
- فتح عمورية.....	٣٥
- فتح نفقورية.....	٣٧
- فتح مدينة السماوة الكبرى.....	٣٩
- فتح مدينة المسيحية.....	٤٢
- فتح مدينة بدروق.....	٤٤
- جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك.....	٤٦
- محاصرة القسطنطينية.....	٤٦
- جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك.....	٥٠
- الجهاد مع الروم في عهد العباسيين.....	٥٣
- جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد.....	٥٦
- غزوة القسطنطينية.....	٥٦
- فتح هرقله الأول.....	٥٧



- فتح هرقله الثاني وما حولها ..... ٥٩
- جهاد الروم في عهد المعتصم ..... ٦١
- فتح عمورية ..... ٦٣
- جهاد السلطان ألب أرسلان ..... ٦٨
- معركة ملاذكرد ..... ٦٨
- الجهاد مع الروم في عهد العثمانيين ..... ٧٣
- نشأة هذه الدولة ..... ٧٥
- فتح القسطنطينية ..... ٧٨
- خطط حربية ناجحة ..... ٧٩
- الهجومات الأخير ..... ٨٠
- فتح مدينة بلغراد ..... ٨١
- فتح جزيرة رودس ..... ٨٢
- إنقاذ تونس من النصارى ..... ٨٣
- جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق ..... ٨٤
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين في بلاد السند والهند**
- الجهاد والفتوحات في عهد الأمويين ..... ٨٩
- نبذة عما سبق من الأحداث ..... ٩١
- الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه ..... ٩٤
- الجهاد في السند في عهد عبد الملك وابنه الوليد ..... ٩٦
- ولاية سعيد الكلابي على السند ..... ٩٦
- ولاية مجاعة التميمي ..... ٩٦
- ولاية محمد النمري على مكران ..... ٩٧
- حملة محمد بن القاسم وفتح السند ..... ٩٨
- فتح مدينة النيرون ..... ١٠٢

- فتح إقليم سيوستان ..... ١٠٣
- المعركة الفاصلة مع ملك السند ..... ١٠٤
- فتح مدينة راور ..... ١١٥
- فتح بهرور ودهليّة ..... ١١٦
- انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين ..... ١١٦
- فتح إقليم برهمناباد ..... ١١٧
- احتواء القبائل المتوحشة ..... ١١٩
- فتح مدينة أرور ..... ١٢٠
- فتح مدينة باتيه ..... ١٢١
- فتح مدينة اسكلنده ..... ١٢٢
- فتح قلعة سكة ..... ١٢٣
- فتح مدينة الملتان ..... ١٢٣
- فتح إقليم الكيرج ..... ١٢٥
- نهاية محمد بن القاسم ..... ١٢٥
- الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك ..... ١٢٨
- ولاية الجنيد المري على السند ..... ١٢٨
- ولاية الحكم الكلبي ..... ١٢٩
- ولاية عمرو بن محمد بن القاسم ..... ١٣٠
- الجهاد والفتوحات في عهد العباسيين ..... ١٣١
- الجهاد في الهند في عهد المهدي ..... ١٣٣
- جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند ..... ١٣٥
- جهاده مع جيال ملك الهند ..... ١٣٦
- جهاده مع بيدبا ..... ١٣٧
- جهاده في بلاد الغور ..... ١٣٧

- ١٣٨ ..... - جهاده في وسط الهند
- ١٣٩ ..... - جهاده في بلاد تانيشر
- ١٤٠ ..... - جهاده في بلاد قشمير
- ١٤١ ..... - جهاده في مملكة كجورامه
- ١٤٣ ..... - جهاده في بلاد أخرى
- ١٤٤ ..... - جهاده في سومنات
- ١٤٨ ..... - من مواقفه في الإصلاح والعدل
- ١٥١ ..... - جهاد مسعود بن محمود وابناه
- ١٥٣ ..... - الجهاد والفتوحات بعد العباسيين
- ١٥٥ ..... - جهاد السلطان محمد البهمني
- ١٥٩ ..... - جهاد السلطان محمود الكجراتي
- ١٦٣ ..... - جهاد السلطان بابر
- ١٦٥ ..... - جهاد السلطان عالمكير
- ١٦٨ ..... - جهاد السلطان أحمد الدراني

#### مواقف وعبر في فتوح المغرب

- ١٧٣ ..... - فتوحات عبد الله بن سعد
- ١٧٤ ..... - فتوحات معاوية بن حديج
- ١٧٦ ..... - فتوحات عقبة بن نافع الأولى
- ١٧٦ ..... - مغامرات في الصحراء
- ١٧٨ ..... - إنشاء مدينة القيروان
- ١٨٣ ..... - فتوحات أبي المهاجر
- ١٨٧ ..... - فتوحات عقبة الثانية
- ١٩٢ ..... - نهاية عقبة بن نافع
- ١٩٥ ..... - فتوحات زهير البلوي

- نهاية زهير البلوي وأصحابه ..... ١٩٧
- فتوحات حسان بن النعمان ..... ١٩٩
- فتح قرطاجنة ..... ١٩٩
- معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة ..... ٢٠٠
- معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة ..... ٢٠١
- فتوحات موسى بن نصير ..... ٢٠٤
- جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين ..... ٢٠٥
- فتح مدينة طنجة ..... ٢٠٦
- أعمال ابن نصير الإصلاحية ..... ٢٠٦
- جهود ابن نصير في الجهاد البحري ..... ٢٠٩

### مواقف وعبر في فتوح الأندلس

- جهاد طريف بن مالك ..... ٢١٣
- فتوحات طارق بن زياد ..... ٢١٤
- المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس ..... ٢١٥
- فتح عدد من مدن الأندلس ..... ٢١٧
- فتوحات موسى بن نصير ..... ٢٢١
- جهاد ولاية الأندلس في أواخر العهد الأموي ..... ٢٢٤
- معركة بلاط الشهداء ..... ٢٢٤
- جهاد الدولة الأموية في الأندلس ..... ٢٢٥
- من مواقف عبد الرحمن الداخل ..... ٢٢٥
- رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل ..... ٢٢٧
- مواقف هشام بن عبد الرحمن الجهادية والإصلاحية ..... ٢٢٩
- مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية ..... ٢٣٢
- من مواقفه الإصلاحية ..... ٢٣٤

- مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية ..... ٢٣٦
- غزوة مطونية ..... ٢٣٦
- غزوة بلدة ..... ٢٣٦
- غزوة مُوَيْش ..... ٢٣٧
- غزوة طُرْش ..... ٢٣٨
- غزوة مُونْت رُوبي ..... ٢٣٩
- غزوة بنبلونة ..... ٢٣٩
- مواقف المنصور ابن أبي عامر الجهادية والإصلاحية ..... ٢٤١
- من مواقفه الإصلاحية ..... ٢٤٣
- جهاد المرابطين في الأندلس ..... ٢٤٨
- سبب جهاد المرابطين في الأندلس ..... ٢٤٩
- معركة الزلاقة ..... ٢٤٩
- حصار حصن لَبِيط ..... ٢٥٣
- عودة المرابطين إلى الجهاد ..... ٢٥٣
- معركة إقليش ..... ٢٥٤
- معركة إفراغة ..... ٢٥٥

#### مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المشرق

- فتوح بلاد ما وراء النهر في عهد الأمويين ..... ٢٥٩
- المحاولات الأولى للفتح ..... ٢٦١
- جهاد الحكم بن عمرو الغفاري ..... ٢٦١
- رحيل المسلمين إلى خراسان ..... ٢٦٢
- جهاد عبید الله بن زياد ..... ٢٦٢
- جهاد سعيد بن عثمان بن عفان ..... ٢٦٣
- جهاد عبید الله بن أبي بكر ..... ٢٦٤

- جهاد ابن الأشعث ..... ٢٦٧
- جهاد المهلب بن أبي صفرة ..... ٢٦٧
- فتوحات قتيبة بن مسلم ..... ٢٦٩
- فتح مدينة بيكند ..... ٢٧٠
- فتح مدينة بخارى ..... ٢٧٣
- فتح مدينة سمرقند ..... ٢٧٧
- فتح إقليم الشاش وفرغانة ..... ٢٨٣
- خضوع مملكة الصين للمسلمين ..... ٢٨٤
- نبذة عن حياة قتيبة ونهايته ..... ٢٨٧
- فتوحات يزيد بن المهلب ..... ٢٨٩
- فتح جرجان ..... ٢٨٩
- فتح طبرستان ..... ٢٩٢
- فتح جرجان مرة أخرى ..... ٢٩٣
- جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية ..... ٢٩٦
- جهاد المسيب الرياحي ..... ٢٩٦
- جهاد الجنيد بن عبد الرحمن المري ..... ٢٩٩
- جهاد أسد القسري ..... ٣٠٤
- المعركة الأخيرة مع خاقان ..... ٣٠٥
- الجهاد في المشرق في عهد العباسيين ..... ٣٠٩
- انتقاض أمير طبرستان وجهاده ..... ٣١١
- خروج أستاذسيس وجهاده ..... ٣١٢

### مواقف وعبر في جهاد المسلمين ضد الصليبيين

- بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين ..... ٣٢١
- حال المسلمين آنذاك ..... ٣٢١

- سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين ..... ٣٢٢
- جهاد سقمان وجكرمش ضد الصليبيين ..... ٣٢٤
- جهاد طغتكين ضد الصليبيين ..... ٣٢٥
- جهاد عماد الدين زنكي ضد الصليبيين ..... ٣٢٧
- مواجهة ضد الصليبيين وفتح بارين ..... ٣٢٧
- مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم ..... ٣٢٩
- فتح مدينة الرها ..... ٣٣٠
- من مواقفه الإدارية والسياسية ..... ٣٣٢
- موقف للقاضي كمال الدين بن الشهرزوي ..... ٣٣٣
- الحملة الصليبية الثانية ..... ٣٣٥
- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين ..... ٣٤١
- أمثلة من سياسته الحربية ..... ٣٤١
- مثل من سياسة الوزير جمال الدين ..... ٣٤٣
- مثل من مواقف الإصلاح ..... ٣٤٥
- معركة يغرى ..... ٣٤٦
- انتصاره على الصليبيين وفتح أنطاكية ..... ٣٤٦
- فتح حصن فامية ..... ٣٤٨
- صلحه مع أهل دمشق ..... ٣٤٨
- استيلاؤه على حصن عزاز وما حوله ..... ٣٥٠
- معركة دلك وفتحها ..... ٣٥١
- فتح قلعة حارم ..... ٣٥٢
- انتصاره في معركة الملاحه ..... ٣٥٥
- موقف في الثبات لنور الدين ..... ٣٥٦
- فتح قلعة بانياس ..... ٣٥٧

- فتح حصن المنيطرة وصافيثا وعريمة ..... ٣٥٨
- القضاء على حملة صليبية ..... ٣٥٩
- حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين ..... ٣٥٩
- حملة تأديبية للصليبيين ..... ٣٦٠
- حصار الصليبيين لدمياط ..... ٣٦٠
- مثل من اهتمامه بحماية المسلمين ..... ٣٦٢
- جهاد أسد الدين شيركوه ..... ٣٦٣
- معركة البابين ..... ٣٦٥
- هجوم النصارى على مصر ..... ٣٦٧
- استنجد حكام مصر بنور الدين ..... ٣٦٨
- إرسال أسد الدين إلى مصر ..... ٣٦٨
- رحيل النصارى وتولى أسد الدين الوزارة ..... ٣٦٩
- جهاد صلاح الدين الأيوبي ..... ٣٧٢
- غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة ..... ٣٧٢
- موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية ..... ٣٧٣
- مواجهة بينه وبين الصليبيين في الأردن ..... ٣٧٥
- موقعة حطين ..... ٣٧٦
- فتح بيت المقدس ..... ٣٨١
- حصار مدينة صور ..... ٣٨٥
- فتح اللاذقية ..... ٣٨٦
- فتح قلعة صهيون ..... ٣٨٧
- فتح بكاس ..... ٣٨٨
- فتح حصن الشجر ..... ٣٨٨
- فتح قلعة برزية ..... ٣٨٩



- فتح حصن دريساك ..... ٣٩٢
- فتح قلعة صفد ..... ٣٩٢
- فتح حصن كوكب ..... ٣٩٣
- استنجد صليبي الشام بأهل أوروبا ..... ٣٩٤
- وصول الصليبيين إلى عكا ..... ٣٩٥
- معركة الأسطول ..... ٣٩٧
- ابتكار علمي موفق ..... ٣٩٨
- مثل من رحمة صلاح الدين ..... ٤٠٠
- مثل من تضحيات المجاهدين ..... ٤٠٠
- عبرة من نصر الله تعالى أوليائه ..... ٤٠١
- استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم ..... ٤٠٢
- جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين ..... ٤٠٤
- فتح مدينة يافا ..... ٤٠٥
- فتح مدينة أنطاكية ..... ٤٠٦
- جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل ..... ٤٠٧
- فتح حصن المرقب ..... ٤٠٧
- فتح مدينة طرابلس ..... ٤٠٧
- فتح مدينة عكا ..... ٤٠٧
- فتح مدينة صور ..... ٤٠٨
- نهاية الصليبيين في الشام ..... ٤٠٩

#### مواقف وعبر في جهاد المسلمين ضد التتار

- استيلاء التتار على بلاد المشرق كلها ..... ٤١٣
- استيلاء التتار على بغداد وقضاؤهم على الخلافة العباسية ..... ٤٢٠
- مواقف السلطان سيف الدين مظفر قطز ..... ٤٢٤

٤٢٥	- معركة عين جالوت .....
٤٢٧	- مواقف جهادية في هذه المعركة .....
٤٣٠	- رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر .....
٤٣٣	- مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار .....
٤٣٤	- معركة ألبيرة .....
٤٣٥	- معركة أبلستين .....
٤٣٧	- مواقف السلطان قلاوون .....
٤٣٧	- معركة حول حمص .....
٤٤١	- دخول التتار في الإسلام .....
٤٤٣	- مواقف السلطان محمد بن قلاوون .....
٤٤٤	- مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية .....
٤٤٧	- موقف جهادي لنائب القلعة .....
٤٥٠	- مواقف أخرى لابن تيمية وغيره .....
٤٥٣	- مقارنة بين الأحزاب والتتار لابن تيمية .....
٤٦١	- معركة شقحب .....
٤٦٧	- فهرس المصادر والمراجع .....
٤٦٩	- فهرس الموضوعات .....